المنهج التربوي للسيرة النبوية

٢

التربية الجهادية

د. منير الغضبان

الجزء الثاني

دار الوفاء

المنهج التربوى للسيرة النبوية

التربية الجهادية

الطبعة السادسة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م



مكتبة المنار الزرقاء ـ الأردن ـ ص.ب ٨٤٢ ☎ ٠٩٨٣٦٥٩



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٣٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

المنهج التربوى للسيرة النبوية

التربيـة الجهاديـة

الجزء الثانى

منير محمد الغضبان

مَكْتَبَــة المَنَـار

دار الوفـــاء


بسم الله الرحمن الرحيم

متابعة البناء بعد أحد

انتهت معركة أحد ، وانتهى التعقيب عليها فى آيات آل عمران ، ولكن أياماً لا تنهى قضية التربية ، خاصة وقد أصبح المنافقون يملؤون كل فج ، وآثار المعركة لم تنته بل بقى جو محنة أحد قرابة ثلاثة أعوام ، والقرآن الكريم يتنزل ليعالج الموقف ، ونلحظ هذه المعالجة فى سورة النساء ، وهى تتفرغ للحديث عن الصف الإسلامى والبناء الداخلى فيه . تتناول موضوع الجهاد والحث عليه ، كما تتحدث عن المنافقين ومواقفهم ومواصفاتهم ، وتمضى فى تنظيم المجتمع المسلم فى المدينة ، بكل أوضاعه الفكرية والاجتماعية والسياسية والعبادية والعسكرية وغير ذلك سواءً بسواء ، وبصدد هذه الآيات يقول سيد رحمه الله :

(نرجح أن تكون مجموعة هذه الآيات الواردة فى هذا الدرس نزلت فى وقت مبكر ، ربما كان ذلك بعد غزوة أحد ، وقبل الخندق ، فصورة الصف المسلم التى تبدو من خلال هذه الآيات توحى بهذا ؛ توحى بوجود جماعات منوعة داخل الصف لم تنضج بعد أو لم تؤمن ، إنما هى تنافق ! وتوحى بأن الصف كان فى حاجة إلى جهود ضخمة من التربية والتوجيه ، ومن الاستنهاض والتشجيع ؛ لينهض بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة المسلمة ، والارتفاع إلى مستوى هذه المهمة ، سواءً فى التصورات الاعتقادية أو فى خوض المعركة مع المعسكرات المعادية)[1] .

ولابد أن نعيش جو المدينة بعد أحد ، فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على رفع معنويات المؤمنين بعد بلاء أحد والتمحيص الذى تم فيها ، وحريصاً على دفن قالة السوء ، ومواجهة مخططات المنافقين الرهيبة فى الصف الإسلامى ، وكانت آيات القرآن تترى لتعيد الصياغة الجديدة للمجتمع بعد هذا التمحيص .

وسنربط بصورة وثيقة بين الآيات القرآنية وأحداث السيرة ، ماوسعنا سبيل إلى ذلك ، ونستشف جو أحداث السيرة من خلال النص القرآنى نفسه .

---

(١) فى ظلال القرآن / م ٢ / جـ ٢ / ٧١١ .

قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىَّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما . فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما . ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ (١) .

يقول ابن كثير رحمه الله :(يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد ، وتكثير العدد بالنفير فى سبيل الله ، **﴿ ثبات ﴾** أى جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية ، والثُبات جمع ثُبة ، وقد تجمع الثبة على ثبين . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله : **﴿ فانفروا ثبات ﴾** أى عصباً يعنى سرايا متفرقين **﴿ أو انفروا جميعا ﴾** يعنى كلكم . وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والسدى وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان وخصيف الجزرى) (٢) .

ولاغرابة فى الدعوة إلى الحذر وبين يدينا ـ بعد أحد ـ حدثان ضخمان مفجعان ، هى سرية بئر معونة ، وسرية الرجيع ، حيث كانا فى شهر واحد بعد أحد بأربعة أشهر ، فقد انتهت أحد فى شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وكان الحدثان المذكوران فى صفر من السنة الرابعة للهجرة ، وهذا هو الجو الذى تنزلت به الآيات .

لكننا قبل الحديث عن هذين الحدثين لابد من الإشارة إلى سريتين سبقتا ، هما سرية أبى سلمة بن عبد الأسد إلى قطن ، وسرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى بعرنة ، فهما تمثلان الحذر النبوى العظيم فى تفتيت الجموع التى تفكر بغزو المدينة ، وكان هذا قبل شهر واحد من معونة والرجيع .

---

(١) النساء/ ٧١ ـ ٧٦ .

(٢) ابن كثير / ٢ / ٣٣٦ . الطبعة المفهرسة ، جـ١ دار الفكر ١٩٧٠ .

(فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ، دعاه [1] رسول لله ﷺ فقال : « اخرج في هذه السرية فقد استعملتك عليها » ، وعقد له لواء وقال : « سر حتى ترد أرض بني أسد ، فأغِر عليهم قبل أن تلاقي عليك جموعهم » . وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا . فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة ، منهم أبو سبرة بن أبي رهم وهو أخو أبي سلمة لأمه [2] ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن مخرمة العامري ، ومن بني مخزوم : معتب بن الفضيل بن حمراء الخزاعي حليف فيهم ، وأرقم بن أبي الأرقم من أنفسهم . ومن بني فهر : أبو عبيدة بن الجراح ، وسهيل بن بيضاء . ومن الأنصار : أسيد بن الحضير ، وعباد بن بشر ، وأبو نائلة ، وأبو عيسى ، وقتادة بن النعمان ، ونضر بن الحارث الظفري ، وأبوقتادة ، وأبو عياش الزرقي ، وعبد الله بن زيد ، وخبيب بن بساف ، ومن لم يسم لنا .

والذي هاجه أن رجلاً من طيىء قدم المدينة يريد امرأة ذات رحم به من طيىء ، متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزل على صهره الذي من أصحاب رسول الله ، فأخبره أن طليحة وسلمة ابني خويلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدعوتهما إلى حرب رسول الله ﷺ يريدون أن يدنوا للمدينة ، وقالوا : نسير إلى محمد في عقر داره ، ونصيب من أطرافه ، فإن لهم سرحاً يرعى جوانب المدينة ، ونخرج على متون الخيل ، فقد أربعنا خيلنا [3] ، ونخرج على النجائب المخبورة ، فإن أصبنا نهباً لم ندرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عدتها ، معنا خيل ولاخيل معهم ، ومعنا نجائب أمثال الخيل ، والقوم منكبون قد أوقعت قريش بهم حديثاً ، فهم لايستبلون [4] دهراً ، ولايثوب لهم جمع [5] ، فقام فيهم رجل منهم يقال له قيس بن الحارث بن عمير . فقال :

ياقوم ، والله ماهذا برأي ! ، ما لنا قبلهم وتر [6] ، وماهم نهبة لمنتهب ؛ إن دارنا لبعيدة من يثرب ، وما لنا جمع كجمع قريش . مكثت قريش دهراً تسير في العرب تستنصرها ولهم وتر يطلبونه ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل ، وحملوا السلاح مع العدد الكثير ــ ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم ــ وإنما جهدكم أن تخرجوا في ثلاثمائة رجل إن

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه .
(٢) أمه أم برة بنت عبد المطلب ، عمة النبي ﷺ .
(٣) أربع خيله : رعاها في الربيع .
(٤) لايستبلون : لايعافون .
(٥) يثوب لهم جمع : يجتمع لهم جمع .
(٦) وتر : ثأر .

كملوا ، فتفردون بأنفسكم ، وتخرجون من بلدكم . ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم .

فكاد ذلك أن يشككهم في السير ، وهم على ماهم عليه بعد .

فخرج به الرجل الذى من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبى ﷺ فأخبره ما أخبر الرجل ، فبعث رسول الله ﷺ ، أبا سلمة ، فخرج فى أصحابه ، وخرج معه الطائى دليلاً ، فأغذوا السير [1] ، ونكّب بهم عن سنن الطريق ، وعارض الطريق ، وسار بهم ليلاً ونهاراً ، فسبقوا الأخبار ، وانتهوا إلى أدنى قطن ـ ماء من مياه بنى أسد ـ هو الذى كان عليه جمعهم ـ فيجدون سرحاً ، فأغاروا على سرحهم فضموه ، وأخذوا رعاء لهم مماليك ثلاثة وأفلت سائرهم ، فجاؤوا جمعهم فخبروهم الخبر ، وحذروهم جمع أبى سلمة ، وكثوه عندهم فتفرق الجمع فى كل وجه ، وورد أبو سلمة الماء فيجد الجمع قد تفرق ، فعسكر ـ وفرق أصحابه فى طلب النعم والشاء ، فجعلهم ثلاث فرق ـ فرقة أقامت معه ، وفرقتان أغارتا فى ناحيتين شتى . وأوعز إليهما ألا يمعنوا فى طلب ، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم ، فآبوا إليه جميعاً سالمين . قد أصابوا إبلاً وشاءً ، ولم يلقوا أحداً ، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعاً ، ورجع معه الطائى ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم . فأعطى أبو سلمة الطائى الدليل رضاه من المغنم ، ثم أخرج صفياً لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم مابقى بين أصحابه فعرفوا سهما منهم ، ثم أقبلوا بالنعم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة) [2] .

وفى رواية أخرى أن الصدام وقع بين المسلمين والمشركين (فحمل أبو سلمة فانكشف المشركون على حاميتهم وتبعهم المسلمون ، ثم تفرق المشركون فى كل وجه) [3] .

ونلاحظ حول هذه السرية مايلى :

١ ـ أنها كانت على أعقاب أحد ، بعد ثلاثة أشهر منها أو أقل ، وفى بعض الروايات أنها كانت على رأس أربعة وثلاثين شهرا ، وذلك بعد أن انتشرت أخبار غزوة أحد فى الأرض العربية ، وتناقلت الركبان محنة المسلمين فيها كما قال قائلهم :

---

(١) أغذوا السير : أسرعوا .
(٢) المغازى للواقدى / ١ / ٣٤٣ ، ٣٤٤ .
(٣) المصدر نفسه / ١ / ٣٤٥ . وقد وردت فى مصادر السيرة الأخرى .

(والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثا ، فهم لايستبلون دهراً ، ولايثوب لهم جمع) .

ولاغرابة فى ذلك ، فالعرب تتربص الدائرة بمحمد وصحبه ؛ لأنه وسط بحيرة من الشرك ، والذى أوقف التحركات نحو المدينة بعد بدر نصر بدر الساحق ، والإعلام الذى رافقه وكان مكافئاً له ، أما بعد أحد فالصورة قد اختلفت .

٢ ـ وديار طيىء بجوار ديار أسد ، فأن يأتى الطائى بالخبر فلا غرابة فى ذلك ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فبين طيىء وأسد ثارات ، كما تشير بعض الروايات عما جرى بعد سرية أبى سلمة : (ثم أغار الطائيون بعد ذلك على بنى أسد فكان بينهم أيضاً جراح .

وكان بينهم ثارات فى الجاهلية قبل هذه السرية ، فكان يوم ظهر الرهناء بين أسد وطيىء)[1] .

وأن يكون الطائى هو الدليل نفسه له أهمية بالغة ، فلعل المسلمين من المهاجرين والأنصار لم يسلكوا هذه الديار من قبل ، والطائى أخبر بأرضه وأرض جيرانه من بنى أسد ، ومن أجل هذا نكَّب بهم عن الطريق ، وعارض الطريق من جهة أخرى ، فقد أخذت الاستعدادات كاملة .

٣ ـ وكان على رأس السرية أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، فهو يحمل صفتين مهمتين:

الأولى : أنه مخزومى ، ليعيد إلى العرب وقريش الكرة عليهم ، فخالد بن الوليد الذى قاد الهجوم على رسول الله ﷺ مخزومى ، وقد تطايرت سمعته بين العرب ، فلابد أن يكون على رأس المسلمين كفئا له ومن عشيرته ، فكان أبو سلمة .

ومن جهة ثانية : فأبو سلمة ابن عمة النبى ﷺ ، وأحد الأقرباء المقربين منه ، فهو يمثل رسول الله ﷺ ومن خواصه الأدنين منه .

فقد كانت السرايا التى قادها المهاجرون على هذا المستوى حتى أحد ، فكان على رأسها حمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وزيد بن حارثة ، من بين آل بيت النبى ﷺ .

---

(١) انظر : أيام العرب لجاد المولى وزملائه / ١٣٧ .

٤ – وبرزت عبقرية أبى سلمة رضى الله عنه فى تحقيق النصر والتخطيط له ، وكان الهدف الدعائى للمسلمين لايقل عن الهدف الحربى .

فالفرق كبير جداً بين أن يتسامع العرب أن بنى أسد على أبواب المدينة يغزونها ، ويستبيحون بيضتها ، وبين أن ترد الأخبار إليهم أن محمداً ﷺ وصحبه موغلون فى ديار بنى أسد يقتحمونها ، ويفتّتون جمعها ويأخذون نعمها .

ولانزال بين يدى الآية العظيمة :

﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴾ .

لنتابع صورة الحذر الثنائى ، فى سرية عبد الله بن أنيس لغزو سفيان بن خالد الهذلى ، ولعلها كانت فى التوقيت نفسه الذى تحركت فيه سرية أبى سلمة رضى الله عنه ، لكن الغريب فى هذه السرية أنها كانت من رجل واحد .

(خرج من المدينة يوم الإثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ ، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى – وكان ينزل عرنة وما والاها فى ناس من قومه وغيرهم – قد جمع الجموع لرسول الله ﷺ ، فبعث رسول الله عبد الله بن أنيس ليقتله ، فقال : صفه لى يا رسول الله ! قال : « إذا رأيته هبته ، وفرِقت [1] منه ، وذكرت الشيطان » ، قال : وكنتُ لا أهاب الرجال ، واستأذنت رسول الله ﷺ أن أقول فأذن لى . فأخذت سيفى ، وخرجت اعتزى [2] إلى خزاعة ، حتى إذا كنت ببطن عرفة لقيته يمشى ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه ، فعرفته بنعت رسول الله ﷺ ، وهبته ، فرأيتنى أقطر [3] فقلت : صدق الله ورسوله . فقال : من الرجل ؟ فقلت : رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك . قال : أجل : إنى لأجمع له ، فمشيت معه وحدثته واستحلى حديثى حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرق عنه أصحابه . حتى إذا هدأ الناس وناموا اغترزته فقتلته وأخذت رأسه ، ثم دخلت غاراً فى الجبل ، وضربت العنكبوت علىّ ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين ، ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة ، فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد . فقال : « أفلح الوجه » : قلت : أفلح وجهك يارسول الله ، فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبرى ، فدفع إلىّ عصا وقال : « تخصر بهذه فى الجنة » .

(١) فرقت : خفت . (٢) أعتزى : أنتسب . (٣) أقطر : أتهيأ للقتال .

فكانت عنده ، فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوها فى كفنه ففعلوا ، وكانت غيبته ثمانى عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم .

« واستطاع البطل ابن أنيس أن يفض تجمع الأحابيش المستعد للانقضاض على المدينة بعد مقتل رأس الأفعى فيه سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى .

وتناقل الخبر إعلامياً يهز الكيان العربى كله ، ففى جوار مكة ، وعلى بعد أميال منها ، تصل يد محمد عليه الصلاة والسلام ، وتقتل العدو الذى يجمع الجموع لغزوه .

فأى حذر يفوق هذا الحذر ؟ وأى سرعة هائلة تلك التى تنهى التحرك قبل تجمع قواته ؟

ولئن حمل شهر محرم الحرام أنباء هذين النصرين الكبيرين ، لكن شهر صفر حمل نبأ محنتين ضخمتين غطتا على أنباء هذه الانتصارات . والحرب سجال .

سـرية بئر معونـة

(قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو البراء ملاعـب الأسنـة على رسـول الله ﷺ ، فأهـدى له فرسين راحلتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لاأقبل هدية مشرك » ! فعرض رسـول الله ﷺ عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، وقال : يامحمد ، إنى أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً ، وقومى خلفى ، فلو أنك بعثت نفراً من أصحابك معى لرجوت أن يجيبوا دعوتك ، ويتبعوا أمرك ، فإن هم اتبعوك فما أعز أمـرك ! فقال رسـول الله ﷺ : « إنى أخاف عليهم أهل نجد » . فقال عامر : لاتخف عليهم ، أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد . وكان من الأنصار سبعون رجلاً شببة يسمون القراء كانوا إذا أمسـوا أتوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصلوا ، حتى إذا كان وجاه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب فجاؤوا به إلى حجر رسول الله ﷺ . .

فكتب رسول الله ﷺ معهم كتاباً ، وأمَّر على أصحابه المنذر بن عمرو الساعدى ، فخرجوا حتى كانوا على بئر معونة ، وهو ماء من مياه بنى سليم وهو بين أرض بنى عامر وبنى سليم وكلا البلدين يعد منه . . فلما نزلوا عليها عسكروا بها وسرحوا ظهرهم ، وبعثوا فى سرحهم الحارث بن الصمة ، وعمرو بن أمية ، وقدَّموا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فى رجال من بنى عامر ، فلما انتهى حرام إليهم لم يقـرؤوا الكتاب ووثب عامر بن الطفيل على حـرام فقتله ، واستصـرخ عليهم بنى عامر فأبوا ، وقد كان عامر بن مالك أبو براء خرج قبل القوم إلى ناحية نجد فأخبرهم أنه أجار أصحاب محمد فلا يعرضوا لهم . فقالوا : لن يُخفر جوار أبى براء ، وأبت عامر أن تنفر مع عامر بن الطفيل ، فلما أبت عليه بنو عامر استصرخ عليهم قبائل من سليم ـ عُصَيَّة ورعلاً ـ فنفروا معه ورأسوه . فقال عامر بن الطفيل : أحلف بالله ما أقبل هذا وحده ! فاتبعوا إثره حتى وجدوا القوم قد استبطأوا صاحبهم فأقبلوا فى إثره ، فلقيهم القوم والمنذر معهم فأحاطت بنو عامر بالقوم وكاثروهم ، فقاتل القوم حتى قتل أصحاب رسول الله ﷺ ، وبقى المنذر بن عمرو فقالوا له : إن شئت أمّناك ، فقال لن أعطى بيدى ، ولن أقبل منكم أماناً حتى آتى مقتل حرام ثم برىء منى جواركم ، فآمنوه حتى أتى مصرع حرام . ثم برئوا إليه من جوارهم ، ثم قاتلهم حتى قتل ، فذلك قول رسول الله ﷺ « أعنق ليموت » .

وأقبل الحارث بن الصمة وعمرو بن أمية بالسرح ، وقد ارتابا بعكوف الطير على منزلهم أو قريب من منزلهم فجعلا يقولان : قتل والله أصحابنا : والله ماقتل أصحابنا إلا أهل نجد ! فأوفى على نشز [1] من الأرض فإذا أصحابهم مقتولون ، وإذا الخيل واقفة . فقال الحارث بن الصمة لعمرو بن أمية ماترى ؟ قال : أرى أن ألحق برسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال الحارث : ماكنت لأتأخر عن موطن قتل فيه المنذر ، فأقبلا للقوم فقاتلهم الحارث حتى قتل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أمية ، وقالوا للحارث : ماتحب أن نصنع بك ، فإنا لانحب قتلك ؟ فقال : أبلغونى مصرع المنذر وحرام ، ثم برئت منكم زمتى . قالوا : نفعل . فبلغوا به ثم أرسلوه ، فقاتلوه فقتل منهم اثنين ثم قتل ، فما قتلوه حتى شرعوا له الرماح فنظموه فيها . وقال عامر بن الطفيل لعمرو بن أمية وهو أسير فى يديهم ولم يقاتل : إنه كانت على أمى نسمة ، فأنت حر عنها ! وجزّ ناصيته ، وقال عامر بن الطفيل لعمرو بن أمية : هل تعرف أصحابك ؟ قال : قلت : نعم . قال فطاف فيهم وجعل يسأله عن أنسابهم ، فقال : هل تفقد منهم من أحد ؟ قال : أفقد مولى لأبى بكر يقال له عامر بن فهيرة ، فقال : كيف كان فيكم ؟ قال : قلت : كان من أفضلنا ، ومن أول أصحاب نبينا . قال : ألا أخبرك خبره ؟ وأشار إلى رجل فقال : هذا طعنه برمحه ، ثم انتزع رمحه فذهب بالرجل علواً فى السماء حتى والله ماأراه . قال عمرو : فقلت : ذلك عامر بن فهيرة ! وكان الذى قتله رجل من كلاب يقال له جبار بن سلمى ، ذكر أنه لما طعنه قال : سمعته يقول : فزت والله ، قال : قلت فى نفسى : ماقوله فزت ؟ فأتيت الضحاك بن سفيان الكلابى فأخبرته بما كان وسألته ، عن قوله : فزت . فقال : الجنة ، وعرض علىّ الإسلام فأسلمت ، ودعانى إلى الإسلام مارأيت من مقتل عامر بن فهيرة من رفعه إلى السماء علواً .

قال : وكتب الضحاك إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامى ومارأيت من مقتل عامر ابن فهيرة . فقال ﷺ : « إن الملائكة وارت جثته ، وأنزلت عليين » .

فلما جاء رسول الله ﷺ خبر بئر معونة . جاء معها فى ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد ، وبعث محمد بن مسلمة فجعل رسول الله ﷺ يقول : « هذا عمل أبى براء ، قد كنت لهذا كارهاً » ، ودعا رسول الله ﷺ على قتلتهم بعد الركعة من الصبح ـ فى صبح تلك الليلة التى جاءه الخبر ـ فلما قال : « سمع الله لمن حمده » قال : « اللهم اشدد

---

(١) نشز : مرتفع .

وطأتك على مضر ، اللهم عليك ببنى لحيان وزعب ورعل وذكوان وعُصيّة ؛ فإنهم عصوا الله ورسوله ، اللهم عليك ببنى لحيان وعَضَلُ والقارة ، اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة ابن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، غِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله » ، ثم سجد ، فقال ذلك خمس عشرة) [1] .

(١) المغازى للواقدى / ١ / ٣٤٦ ـ ٣٥٠ .

غزوة الرجيع

وهى ذات صلة وثيقة بمقتل سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى .

(لما قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى ، مشت بنو لحيان إلى عضل والقارة فجعلوا لهم فرائض ، على أن يقدموا على رسول الله ﷺ فيكلموه ، فيخرج لهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام ، فنقتل من قتل صاحبنا ، ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنصيب منهم ثمناً ؛ فإنهم ليسوا لشىء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد ، يمثلون به ويقتلونه بمن قتل منهم فى بدر .

فقدم سبعة نفر من عضل والقارة ـ وهما حيان إلى خزيمة ـ مقرين بالإسلام ، فقالوا لرسول الله ﷺ : إن فينا إسلاماً فاشياً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يقرئوننا القرآن ، ويفقهوننا فى الإسلام ، فبعث معهم سبعة نفر : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن أبى البكير ، وعبد الله بن طارق البلوى حليف فى بنى ظفر ، وأخاه لأمه معتب بن عبيد ، وخبيب بن عدى بن بلحارث بن الخزرج ، وزيد بن الدثنة من بنى بياضة ، وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، ويقال : كانوا عشرة وأميرهم مرثد بن أبى مرثد ، ويقال : أميرهم عاصم بن ثابت فخرجوا حتى إذا كانوا بماء لهذيل يقال له الرجيع ـ قريب من الهدّة [1] ـ خرج النفر فاستصرخوا عليهم أصحابهم الذين بعثهم اللحيانيون ، فلم يرع أصحاب محمد ﷺ إلا بالقوم ، مائة رام وفى أيديهم السيوف ، فاخترط أصحاب النبى ﷺ أسيافهم ثم قاموا ، فقال العدو : مانريد قتالكم ، ومانريد أن نصيب منكم من أهل مكة ثمنا ولكم عهد الله وميثاقه لانقتلكم . فأما خبيب وزيد وعبد الله بن طارق فاستأسروا . وقال خبيب : إن لى عند القوم يداً ، وأما عاصم بن ثابت ، ومرثد ، وخالد بن أبى البكير ، ومعتب بن عبيد ، فأبوا أن يقبلوا جوارهم ولا أمانهم ، وقال عاصم بن ثابت : إنى نذرت ألا أقبل جوار مشرك أبدا ، فجعل عاصم يقاتلهم وهو يقول :

ماعلتى وأنا جلد نابل   النبل والقوس لها بلابل [2]

---

(١) الهدّة : موضع بين عسفان ومكة .

(٢) لها بلابل : لها تهييج وتحريك للعدو عند اختلاط المعركة .

تزل عن صفحتها المعابل [1] — الموت حق والحياة باطل

وكل ما حم الإله نازل — بالمرء والمرء إليه آئل [2]

إن لم أقاتلكم فأمي هابل [3]) [4]

(وقال عاصم بن ثابت أيضاً :

أبو سليمان ومثلى رامى — وكان قومى معشراً كراما

وكان عاصم يكنى : أبا سليمان ، ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل صاحباه .

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب (عاصم) ابنيها يوم أحد : لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر ، فمنعته الدبر [5] . فلما حالت بينه وبينهم (الدبر) قالوا : دعوه يمسى فتذهب عنه ، فنأخذه فبعث الله الوادى فاحتمل عاصماً فذهب به ، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لايمسه مشرك ، ولايمس مشركاً أبداً تنجسا . فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حين بلغه أنه منعته الدبر : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركاً أبداً فى حياته .

فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه عند حياته .

وأما زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة ، فأعطوا أيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران [6] انتزع عبد الله يده من القران ، ثم أخذ سيفه ، واستأخر عنه القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره رحمه الله بالظهران ، وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدَّثَّنة فقدموا بهما مكة .

قال ابن هشام : فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة .

قال ابن إسحاق : فابتاع خبيباً مجير بن أبى إهاب التميمى حليف بنى نوفل . . وأما زيد بن الدّثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية

---

(١) معابل : جمع معبل وهو نصل عريض طويل .

(٢) آئل : راج .

(٣) هابل : هالكة .

(٤) المغازى للواقدى / ١ / ٣٥٤ ـ ٣٥٦ .

(٥) الدبر : الزنابير والنحل .

(٦) مر الظهران : واد قرب مكة .

مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم [١] ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تُضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ماأحب أن محمداً الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنّى جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : مارأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . ثم قتله نسطاس .

وأما خبيب بن عدى ، فحدثنى عبد الله بن أبي نجيح أنه حدَّث عن ماوية ، مولاة حجير بن أبي وهب ، وكانت قد أسلمت ، قالت : كان خبيب عندى ، حبس في بيتى ، فلقد اطلعت عليه يوماً وإن في يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وماأعلم في أرض الله عنباً يؤكل .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي نجيح جميعاً أنها قالت : قال لي حين حضره القتل : ابعثى إليّ بحديدة أتطهر بها للقتل . قالت : فأعطيتُ غلاماً من الحى الموسى ، فقلت : ادخل بها على هذا الرجل البيت . قالت : فوالله ماهو إلا أن ولى الغلام بها إليه فقالت : ماذا صنعتُ ، أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام ، فيكون رجلاً برجل ! فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال : لعمرك ماخافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ ! ثم خلى سبيله .

قال ابن إسحاق : قال عاصم : ثم خرجو بخبيب حتى إذا جاؤوا به إلى التنعيم ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . قال : فكان خبيب بن عدى أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . قال : ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه ، قال : اللهم إنا قد أبلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة مايصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولاتغادر منهم أحدا . ثم قتلوه رحمه الله .

قال ابن إسحاق : وكان مما قيل في ذلك من الشعر قول خبيب بن عدى :

لقد جمع الأحزاب حولي وألّبوا [٢] قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد علىّ لأنى في وثاق بمصيع [٣]

(١) التنعيم : أدنى الحل من مكة .
(٢) ألبوا : جمعوا .
(٣) بمصيع وفى رواية بمضيع .

وقد جمعـوا أبناءهـم ونساءهـم وقـربـت من جـذع طـويـل ممنـع
إلى الله أشكـو غربتـى ثم كربتـى ومـاأرصـد الأحـزاب لى عند مصـرعى
فذا العرش صبرنى على مايـراد بى فقد بضّعوا [1] الحمى وقد ياس [2] مطمعى
وذلك فى ذات الإلـه وإن يـشـأ يبارك على أوصـال شلـو [3] ممـزع [4]
وقد خيرونى الكفر والموت دونـه وقد هملـت [5] عينـاى من غير مجـزع
وما بى حـذار المـوت إنى لميـت ولكـن حـذارى جحـم [6] نار ملفـع
فوالله ماأرجو [7] إذا مت مسلماً على أى جنب كان فى اللـه مصـرعى
فلسـت بمبـدٍ للعـدو تخشعـاً ولاجـزعـاً إنـى إلـى الله مرجعـى

قال ابن إسحاق :(وكان مما نزل من القرآن فى تلك السرية ، كما حدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن عكرمة مولى ابن عباس أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال ابن عباس :

لما أصيبت السرية التى كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع ، قال رجال من المنافقين : ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا ، لاهم قعدوا فى أهليهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم !

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول المنافقين ، وماأصاب أولئك النفر من الخير الذى أصابهم فقال سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا** ﴾ أى لما يظهر من الإسلام بلسانه ﴿ **ويشهد الله على مافى قلبه** ﴾ وهو مخالف لما يقول بلسانه ﴿ **وهو ألد الخصام** ﴾ أى ذو جدال إذا كلمك وراجعك ﴿ **وإذا تولى** ﴾ أى خرج من عندك ﴿ **سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد** ﴾ أى لايحب عمله ولايرضاه ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد . ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . والله رؤوف بالعباد** ﴾ أى قد

---

(١) بضعوا : قطعوا .
(٢) ياس : لغة من يئس .
(٣) شلو : البقية .
(٤) الممزع : المقطع .
(٥) هملت : سال دمعها .
(٦) جحم نار : اللهيب المتقد ومنه سميت بالجحيم .
(٧) أرجو : أى أخاف ، فى بعض المعانى .

شروا أنفسهم من الله بالجهاد فى سبيله ، والقيام بحقه ، حتى هلكوا على ذلك ، يعنى تلك السرية)[1] .

وعودة إلى آيات النساء بعد أن عشنا الجو الذى تنزلت الآيات فيه ، حيث تحتدم المعركة بين المنافقين الذين يريدون أن يفتنوا الصف المؤمن ، ويضموا ضعاف الإيمان منه معهم ، وبين القيادة المسلمة التى تريد أن تزكى ريح الجهاد بعد المحن الثقيلة المتتالية وتكشف المنافقين ، وتعريهم وتفضح أساليبهم ، وتمسك بضعاف الإيمان ، فتحذرهم من الاستجرار لمؤامرات المنافقين ، وتبث فى قلوبهم معانى الإيمان العظيمة ، فيستمسكوا بالصف ، ويتجاوزوا ضعفهم وعجزهم .

ولاغرابة أن ينطلق المنافقون بالتبطئة والتخذيل عن الجهاد ، والتخويف من نتائجه وتكاليفه ، ، والتحذير من خسائره الفادحة ، كما بدت عياناً فى هذه المرحلة .

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما ﴾[2] .

ولئن وجدنا الصورة الأولى : ﴿ **قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا** ﴾ صورة المصائب المتتالية فهل نجد فى هذه المرحلة الصورة التالية : ﴿ **ولئن أصابكم فضل من الله ...** ﴾ ؟

نعم فقد كانت عقب شهر واحد من محنتى بئر معونة والرجيع من خلال غزوة بنى النضير .

والظفر الكبير الذى تحقق فيها ، والغنائم الكبيرة ، التى أفاءها الله تعالى على رسوله والمؤمنين ، فلا غرابة أن يسيل لعاب المنافقين المتخلفين بعد هذا النصر ، وتأكل الحسرة قلوبهم ﴿ **يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما** ﴾ .

وحيث إنا سنعالج آيات سورة الحشر على حدة ، فندع الحديث عنها إلى هناك . إنما كانت الإشارة ضرورية لربط هذه الآيات بجوها الذى تنزلت فيه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م ٢ / ١٧١ ـ ١٧٧ .

(٢) النساء / ٧٢ .

(فقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان ﴿ **وإن منكم لمن ليبطئن** ﴾ قال : هو فيما بلغنا عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، ﴿ **ليبطئن** ﴾ : ليتخلفن عن الجهاد ، ﴿ **فإن أصابتكم مصيبة** ﴾ : من العدو وجهد من العيش ، ﴿ **قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا** ﴾ : فيصيبنى مثل الذى أصابهم من البلاء والشدة ، ﴿ **ولئن أصابكم فضل من الله** ﴾ : يعنى فتحا وغنيمة وسعة فى الرزق ، ﴿ **ليقولن** ﴾ المنافق وهو نادم فى التخلف ﴿ **كأن لم تكن بينكم وبينه مودة** ﴾ : يقول كأنه ليس من أهل دينكم فى المودة فهذا من التقديم ، ﴿ **يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما** ﴾ : يعنى آخذ من الغنيمة نصيبا وافراً) . [١]

﴿ **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ [٢] .

وكما لاحظنا الآية السابقة :

﴿ **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد** ﴾ [٣] .

والتى ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس أنها نزلت بعد سرية الرجيع . نرى الآية هنا تلح على المعنى نفسه :

﴿ **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ .

وليس القتال نصراً دائما ، ولا هزيمة دائمة .

﴿ **ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ .

﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان** ﴾

المسلمون بعد أحد ، منكوبون ، ولما تندمل جراحهم بعد ، وجاءتهم محنتا الرجيع وبئر معونة ، فهل يقاتلون للدفاع عن أنفسهم وللذب عن مدينتهم ، ولحماية بيضتهم وانتهى الأمر ، أمام هذه التكاليف الصعبة التى أرهقتهم من جراء الجهاد ؟؟

---

(١) الدر المنثور للسيوطى /٥/٥٩٢ .

(٢) النساء /٧٤ ، ٧٥ .

(٣) البقرة /٢٠٧ .

أسئلة تترى . والجواب عليها بالنفى .

فلن تقف مسؤولية الجهاد عند الحماية والدفاع عن النفس ، بل مهمته أبعد مدىً وأعمق غورا ، وأنأى مرمى .

إنه جهاد لتحرير المستضعفين فى الأرض .

وإنها لوقفة عظيمة مع هذا الدين .

والجراح فاشية ، والدماء متفجرة ، والشهداء يتدفقون ، فهل يغير هذا من الموقف شيئاً ؟ ! أبداً ، إنها المهمة الرئيسية مهما كانت المحن ، ومهما بلغت التضحيات ، لابد من تحرير الأرض من الطغاة ، واستنقاذ المستضعفين من أيديهم .

وتؤكد الإشارة مرة ثانية على مكة ، التى يعرفها المؤمنون ، والتى غُزُوا من أهلها قبل أشهر خلت ، فلابد من مواجهة (الظالم أهلها) وانتزاع المؤمنين المستضعفين من براثن هؤلاء الظالمين .

فلن يتغير الهدف لمحنة عابرة ، أو تكاليف باهظة ، لابد أن يبقى الهدف ماثلا أمام الصف المؤمن ، رغم مايلاقيه ، ورغم مايعانيه . فهو المسئول عن التحرير فى هذه الأرض .

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ .

فمن الولى لهؤلاء المستضعفين غير محمد وحزبه ؟ !

ومن النصير لهؤلاء الرجال والنساء والولدان غير الإسلام وجيشه ؟ !

ولا غرابة فى ذلك ؛ لأن : **﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ﴾** .

فعليهم أن ينصروا شريعة الله وجند الله والمؤمنين بالله فى كل مكان .

﴿ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ .

أما أعداؤهم فقتالهم فى خدمة طواغيت الأرض ، وفي ترسيخ الظلم فى هذا الوجود ، ولتحقيق العبودية للعبيد الطواغيت ، فكم الفرق واضح فى الهدف والاتجاه والغاية .

ولا خيار أمام المؤمنين من مواجهة الطواغيت وجنده ، الذين والوا الشيطان ، وحالفوه ونصروه يوم عبدوا غير الله ، وكانوا في طاعته وخدمته وأمره .

وحين يتضح الأمر فى حس المسلم ، أن هؤلاء الطواغيت بما يملكون من جيوش جرارة ، ومعدات ثقيلة وجنود مجندة ، هم أولياء الشيطان ، والشيطان الذى يزعم أنه يحاد الله ورسوله يعرف حقيقة صغره وحقارته وذلته فهو ضعيف أمام رب العالمين .

هذا هو المبرر الذى يجعل تكاليف التحرير فى الأرض على المؤمنين ؛ لأنهم يقاتلون فى سبيل الله فهم أولياؤه ، والله تعالى هو نصير المستضعفين ووليهم ، والشيطان هو نصير الطواغيت وحليفهم وبناءً على ذلك فلابد من المواجهة بين الفريقين والحزبين .

ولا خيار من المعركة .

وعلى المثخنين بالجراح ، والمنكوبين بإخوانهم وآبائهم ، وأبنائهم ، أن يستعدوا للمواجهة مع قريش ، مع القرية الظالم أهلها .

ولم يكن هذا التوجيه خيالاً ، بل كان أمراً واقعاً ، فقد أزف موعد اللقاء الذى اتعده المسلمون والمشركون ، يوم قال أبو سفيان على ظهر أحد :

إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : « نعم هو بيننا وبينكم موعد » .

فإذن بعد أشهر لابد أن يمضى الجيش الإسلامى إلى بدر ليلقى الزحوف المشركة ويواجهها ، فلابد أن توطن النفوس لذلك ، وتشحن القلوب بالعزيمة للمواجهة ، فلا مجال للاسترخاء ، ولا مجال لهدنة أو فسحة من تكاليف الجهاد ؛ لأن المواجهة قائمة .

ولابد من الحديث مع أصحاب القضية مباشرة مع المهاجرين الذين يعرفون المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، من إخوانهم الذين يعانون التعذيب ويسامون الخسف بيد جلادى قريش ، ويعيد إلى ذاكرتهم أيام معاناتهم ، وتوقهم إلى الجهاد ، والإسلام يدعوهم إلى الصبر .

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى

ولا تظلمون فتيلا ﴾ (1) .

أخرجه النسائى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبى ﷺ فقالوا : يا نبى الله كنا فى عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال : « إنى أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره الله بالقتال فكفوا ، فأنزل الله :﴿ ألم تر إلى الذين .. ﴾(2) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : (كان أناس من أصحاب النبى ﷺ ـ وهم يومئذ بمكة قبل الهجرة ـ يسارعون إلى القتال ، فقالوا للنبى ﷺ : ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشركين ـ وذكر لنا أن عبد الرحمن بن عوف كان فيمن قال ذلك ـ فنهاهم نبى الله ﷺ عن ذلك قال : « لم أؤمر بذلك » فلما كانت الهجرة وأمروا بالقتال كره القوم ذلك وصنعوا فيه ما تسمعون ، قال الله تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ (3) .

وإذا كانت غزوة بدر لملاقاة قافلة ، وانتدب الناس انتداباً لها ، فلم يعنف أحد ممن فاتته ؛ لأن القوم لم يكونوا يرون أن رسول الله ﷺ يواجه عدوا ، فلم يكن النفير عاماً إليها ، وفاتت بدر عدداً من قادة الصحابة وفضلائهم .

وحين تنشطُ المسلمون بعد بدر ، فلم يكن هناك ضرورة لاستجاشة العزائم لمواجهة العدو فى أحد ، فقد استخف النصر المسلمين ، فراحوا يتسابقون على الجهاد حتى ليعيد رسول الله ﷺ صبيان المسلمين إلى المدينة . وقد انضموا إلى الجيش .

لكن الأجواء بعد أحد والخسائر الضخمة التى رافقتها ثبطت العزائم ، وأوهنت النفوس ، ومن أجل ذلك فالمواجهة الجديدة مع مكة ولابد أن يكون الاستنفار كاملاً ومستوعباً للمؤمنين .

وأولى الناس بهذه المواجهة المهاجرون ، أصحاب القضية ، الأصليون الذين أخرجوا من ديارهم بغيرحق والذين ظلموا ، فتأتى هذه الآية إلى الذين ظلموا ، والذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، والذين حيل بينهم وبين الثأر والجهاد من قبل . هاهم الآن يدعون إلى المواجهة بأشخاصهم وأعيانهم جميعا ؛ لأن العدو شرس ، فلن يعفى أحد من

(1) النساء/77 .

(2، 3) الدر المنثور /2/5/594 .

المواجهة ، وخاصة الذين كانوا يتوقون للجهاد .

وإذا كان فيهم من يقول : ﴿ **ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب** ﴾ ولابد أن يذكر هؤلاء أن متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقي .

فقد كان السابقون الأولون من المهاجرين بدون استجاشة ، وبدون استنفار ، وبدون تحريض ، جاهزون للمواجهة .

وإذا شارك عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه مع إخوانه ، الذين كانوا في مكة يتوقون للجهاد ، شارك فى طلب الجهاد والإذن فيه ، فهذا لايعنى أنه اليوم مع الذين قالوا : ربنا لم كتبت علينا الجهاد ، خاصة وقد رأيناه فى بدر ، ورأيناه فى أحد ، وقد أثبتته الجراحة ذوداً عن رسول الله ﷺ ، لكن شأن الآخرين الذين كانوا معه أو بعض من كان معه هم المستنفرون للمواجهة ، ولا يمكن أن يقبل من مهاجرى واحد أن يتخلف عن المعركة ، أو ينكل عن الجهاد .

ومع صاحب الظلال يشخص صورة هذا الفريق منهم أكثر وأكثر :

(إن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهورا ، قد يكونون هم أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجد ، وتقع الواقعة .. بل إن هذه قد تكون القاعدة ! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ماتكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ؛ فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل .دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار .. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا ، فكانوا أول الصف جزعاً ونكولاً وانهياراً .. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ، ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف ، فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته .. والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور ! وفى المعركة يتبين أى الفريقين أكثر احتمالا ؛ وأى الفريقين أبعد نظراً كذلك .

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذى تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف ، الذى يلذعه الأذى فى مكة فلا يطيقه ، ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة . فيندفع يطلب من

الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الأذى ، أو حفظ الكرامة ، والرسول ﷺ يتبع فى هذا أمر ربه بالتريث والانتظار ، والتربية والإعداد ، وارتقاب الأمر فى الوقت المقدر المناسب . فلما أن أمن هذا الفريق فى المدينة ، ولم يعد هناك أذى ولا إذلال ، وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص ، لم يعد يرى للقتال مبرراً ، أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة بهم ضرورة .

﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب .. ﴾ .. وهذه الصورة ينبغى أن تكون فى حسابنا ، فالإيمان الذى لم ينضج بعد ؛ والتصور الذى لم تتضح معالمه ، ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين فى الأرض ـ وأنها أكبر من حماية الأشخاص ، وحماية الأقوام ، وحماية الأوطان ، إذ أنها فى صميمها إقرار منهج الله في الأرض ، وإقامة نظامه العادل فى ربوع العالم ؛ وإنشاء قوة عليا فى هذه الأرض ذات سلطان ، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ، ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة فى أى مكان على سطح الأرض ، ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته ـ بأى لون من ألوان الفتنة ـ ومنها أن يطارد فى رزقه أوفى نشاطه ـ حيث هو ، وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه .. وإذن فلم يكن الأمن فى المدينة ـ حتى على فرض وجوده كاملاً غير مهدد ، لينهى مهمة المسلمين هناك ؛ وينهى عن الجهاد) [1] .

وبعد أن تمت استجاشة المهاجرين جميعاً للمواجهة ، لابد من العودة إلى ضعاف الإيمان ، وإلى المنافقين لفضح المخبوء ودفع المؤمنين إلى المواجهة ، وتغذيتهم بالدفقات الإيمانية المطلوبة .

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا . ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا . ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب مايبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب / جـ ٢/ ٧١٢ .

وكفى بالله وكيلا . أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا . وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا . فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا ﴾ [1] .

﴿ أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ .

فإذا كان الذى يحول دون الجهاد ويخيف منه هو الموت ، فالموت قادم لا محالة ، ولو كان المرء في أعلى الحصون ، وفى البروج المشيدة ، لا فرار له عنه ، ولامفر له منه .

وإذا كان الذى يثبط عن الجهاد هو غير الخوف من الموت ، فلابد أن يعالج كذلك .

لابد أن نلاحظ ذلك (الطابور الخامس) من المنافقين الذى يبث سمه فى المجتمع الإسلامى ويطعن فى قيادة النبى ﷺ ، كما تنفخ الأفاعى والثعابين سمها القاتل .

﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ .

هم ابتداء لا يجرؤون على إعلان الكفر ، ولو أعلنوه لسقطوا ، وانتهى دورهم في الصف المسلم ، ولكن سيعزفون بشكل دائم على وتر المحنة ، ويجسمونها و يضخمونها وأنها كان يمكن أن لا تكون ، لو أطاع محمد ﷺ زعيمهم عبد الله بن أبى ولم يخرج من المدينة .

كان يمكن ألا تقع لو لم يرد حلفاء زعيمهم عبد الله بن أبى من اليهود .

كان يمكن ألا تقع محنة معونة لو لم يأخذ بقول أبى براء ملاعب الأسنة ، ويصدقه ، ويرسل السبعين من الأنصار إلى مصارعهم .

كان يمكن ألا تقع محنة الرجيع لولم يبعث هذه السرية للدعوة إلى الله فتقتل عن آخرها . هذه المادة الدسمة التى يبثها بعضهم لبعض ، أو يلقونها فى أذن ضعاف الإيمان . فالمحن كلها من محمد ﷺ ، أما النصر فليست بعبقريته و كفاءته وحسن قيادته . إنما هى من الله .

---

(١) النساء / ٧٨ - ٨٤ .

وأى هدم وأى تحطيم فى المجتمع يفوق هذا الهدم وهذا التحطيم ، وهل يترك هذا دون مواجهة .

﴿ قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ﴾ .

فلا بد من الإقرار ابتداء أن الذى يملك النفع والضر هو الله تعالى وحده ، ولابد من الإقرار ابتداء بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، ولا بد من الإقرار ابتداءً أن الذى يقدو الحسنة والسيئة هو الله تعالى ، وإلا لم يكن له من فقه الإسلام نصيب .

وبعد إقرار هذا الأصل الإيمانى الثابت ، يعود القرآن ليقرر أن هذا القدر ليس جزافاً ولاصدفة إنما هو مرتبط بحكم بالغة ، فى خلق هذا الإنسان نفسه .

﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيدا ﴾ .

فلا بد أن تتضح حدود العبودية ، وتتضح حقوق الربوبية .

فالحسنة من الله تعالى فيض منه سبحانه وعطاء ، لا يقابله أى جهد بشرى ، ولايوازى أى نعمة عمل عامل ، ولاعبادة عابد ، ولايكافأ أى إحسان ربانى ، جهد مجاهد ، أو بذل باذل فالله تعالى هو المعطى المفيض على خلقه الإحسان كله .

والسيئة لاتأتى جزافاً ولا عرضًا ، إنما هى بما جنت الأيدى ، **﴿ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾** (١) ، **﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير ﴾** (٢) .

﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

والعبد مهما ارتفع وسما . يبقى عبداً لله عز وجل تقع منه الحسنة والسيئة .

﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ .

لكن هذا لايتعارض أبداً مع الرسالة .

والله تعالى الذى قال لنبيه : **﴿ وماأصابك من سيئة فمن نفسك ﴾** هو جل شأنه وتعالى جده الذى شهد له بالرسالة لخلقه كافة **﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾** .

---

(١) النساء / ١٤٧ .　　(٢) آل عمران / ١٦٥ .

﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ .

فمن أين ينفذ المنافقون إلى قلب هذا الصف المسلم ؟ هل يحسبون أنهم حين ينالون من شخص رسول الله ﷺ يبقى لهم ذرة من الإيمان كما يتوهمون ويتخرصون ، وتأتى الآية لتصفعهم أعنف صفعة أحرقت كل أوراقهم :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ .

والمنافقون يحرصون على إثبات إيمانهم ، ولو نالوا من شخص رسول الله ﷺ ، ولو عصوا أمره ، وخالفوا توجيهاته ، **﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾** [1] .

فجاءت هذه الآية لتلقمهم الحجر الذى يأخذ بخناقهم ، وتبهت الذى كفر .

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ .

بهذا الحزم والجزم والتحديد الذى لايقبل جدلاً ولاتنصلاً ولا مراوغة .

طاعة الرسول هى طاعة الله تعالى .

وبالمقابل ، فمعصية رسول الله ﷺ هى معصية الله تعالى .

ونيلهم من شخص رسول الله ﷺ هو نيل وافتئات على الله سبحانه .

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ .

ثم يكشف جزءاً من فسقهم بعد أن دفعهم بالجهالة .

﴿ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب مايبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

فلهم ظاهر وباطن ، فأمام رسول الله ﷺ والمؤمنين ، يقولون طاعة ، وما أن يغادروا مجتمع النبى عليه الصلاة والسلام ، حتى يغيروا ماقالوه ، وماقاله النبى عليه الصلاة والسلام ، ليفتنوا الناس عن دينهم ، ويبثوا الشك فى الله تعالى ورسوله وكتابه ، ويثيروا المتشابه ليشككوا الناس فى دينهم ، ضمن تبييت وتخطيط ماهر ماكر . والتوجيه الربانى لرسوله ﷺ فى هذه المرحلة هوأن يكشف خبث طويتهم ، ودناءة أساليبهم ، وزيف تفكيرهم ، دون بناء موقف تأديبى معهم ، وهذه مرحلة من مراحل المواجهة لهم .

---

(١) الكهف / ٥ .

﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

وينسى هؤلاء المنافقين أنهم يتعاملون مع الله ورسوله .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ :

ولو كانوا يتدبرونه لأقلعوا عن هذا الكيد الهزيل ، ولعرفوا أن ألاعيبهم مكشوفة ، أفمع الله تعالى وكتابه يمكرون .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾ :

(القرآن لا يكذب بعضه بعضا ، ولاينقض بعضه بعضا ، ماجهل الناس من أمره فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم وقرأ : **﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾** قال : فحق على المؤمن أن يقول : كل من عند الله . يؤمن بالمتشابه ولايضرب بعضه ببعض ، إذا جهل أمراً ولم يعرفه أن يقول : الذى قاله الله حق ، ويعرف أن الله لم يقل قولاً وينقض ، ينبغى أن يؤمن بحقيقة ماجاء من الله) [1] .

ثم يأتى كشف المؤامرة الثانية :

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ .

إن هدف تفتيت الصف المسلم ، والتشكيك فى قيادته ، لايزال ماثلاً فى الذهن ، والعمل على تهوين النفوس ، وبذر الشك فى القلوب ، فهم يبثون الإشاعة أو ينشئونها ابتداء ثم يبثونها ليفتوا فى أعضاد الناس .

وحتى لايقع ضعاف الإيمان فى خضم مؤامرتهم يعلمهم القرآن الكريم المنهج الربانى فى التعامل مع الإشاعة :

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ .

وهو أمر ربانى ، فضعيف الإيمان قد وضح له المنهج ، وآتاه الأمر فلا عذر له فى المخالفة بعد ذلك والانسياق فى هذا التيار . أما المنافق فسيتابع طريقه ، ويثير الفتنة ،

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / م٤ / جـ ٥ / ١١٤ .

ويحرف الكلم عن مواضعه ، ويبث الرعب والخوف فى أجواء المحنة القائمة ، ويضخم من الخطأ ، ويهول من البلاء ، يفعل المنافقون ذلك حتى تستقيم لهم الأمور ، ويفرقوا الصف الملتحم ، ويوقعوا القاعدة الصلبة فى فتنة هوجاء تأكل الأخضر واليابس .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ :

ولم تكن هذه القضية قضية هينة ـ أمر إشاعة الأمن أو الخوف ـ فاتباع أمر الإشاعة هو اتباع للشيطان ، قد يجر الصف المسلم كله إلى الهاوية ، وهو الذى يريده الشيطان إلا قليلاً ممن عصم الله ألا يزل : **﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾** (1) .

(والصورة التى يرسمها هذا النص ، هى صورة جماعة فى المعسكر الإسلامى ، لم تألف نفوسهم النظام ، ولم يدركوا قيمة الإشاعة فى خلخلة المعسكر ، وفى النتائج التى تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ، ولم يدركوا جدية الموقف ، وأن كلمة عابرة ، أو فلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له على بال ، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال ! أو ـ ربما ـ لأنهم لايشعرون بالولاء الحقيقى الكامل لهذا المعسكر ، وهكذا لايعنيهم مايقع له من جراء أخذ كل شائعة والجرى بها هنا وهناك ، وإذاعتها ، حين يتلقاها لسان عن لسان . سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف . . فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة ! ـ فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً فى معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو.. إشاعة أمر الأمن فى مثل هذا المعسكر تحدث نوعاً من التراخى ـ مهما تكن الأوامر باليقظة ـ ؛ لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر ! وفى ذلك التراخى قد تكون القاضية ! كذلك إشاعة أمر الخوف فى معسكر مطمئن لقوته ، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة . وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكاً ، وحركات لاضرورة لها لاتقاء مظان الخوف . . وقد تكون كذلك القاضية !

وعلى أية حال فهى سمة المعسكر الذى لم يكتمل نظامه ، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته ، أو هما معاً . . ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين فى المجتمع المسلم حينذاك ، باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات فى الإيمان ، ومختلفة المستويات فى الإدراك ،

---

(1) الحجر / ٤٢ .

ومختلفة المستويات فى الولاء . . وهذه الخلخلة هى التى كان يعالجها القرآن بمنهجه الربانى .

والقرآن يدل الجماعة على الطريق الصحيح .

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ .

أى أنهم لو ردوا مايبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ ـ إن كان معهم ـ ، أو إلى أمرائهم المؤمنين ، لعلم حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة ؛ واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة ، والملابسات المتراكمة) [1] .

وكيف نبعد ونحن نعلم ماجرى فى أحد بعد إشاعة مقتل النبى ﷺ ! !

حتى يتنزل القرآن لينعى على المؤمنين موقف الانهيار على إثر هذه الإشاعة :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾ [2] .

وكيف نبعد ونحن نرى كم أعطى أبو سفيان للوفد الذى كلفه بإبلاغ رسول الله ﷺ نبأ تجمع الناس للمؤمنين وزحفهم على المدينة ! لكن عندما كانت هذه الإشاعة بين يدى رسول الله ﷺ وأولى الأمر . تحطم كل مردودها السيىء .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [3] .

وهما صورتان متقابلتان لإشاعه سرت فى الصف دون أن تصل إلى أولى الأمر مباشرة فأدت إلى الانقلاب على العقب .

وإشاعة وصلت إلى رسول الله ﷺ والقيادة المؤمنة معه ، فزادت المؤمنين إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ويضرب لنا عمر رضى الله عنه نموذجا من نماذج الإشاعة وكيفية مواجهتها .

فقد أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن أبى حاتم من طريق ابن عباس عن عمر بن

---

(١) فى ظلال القرآن / م٢ / جـ ٥ / ٧٢٣ ، ٧٢٤ .

(٢) آل عمران / ١٤٤ .

(٣) آل عمران / ١٧٣ .

الخطاب قال :

(لما اعتزل النبى ﷺ نساءه دخلت المسجد ، فإذا الناس ينكتون بالحصا ويقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه ، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية فىَّ : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ فكنت أنا الذى استنبطت ذلك الأمر)(1) .

وفى العودة إلى هذا الحديث وأثره فى الصف المسلم . . أثر طلاق رسول الله ﷺ نساءه ، لوجدنا أنه فت فى أعضاد الناس لدرجة أن اعتبروه أخطر من غزو غسان للمدينة .

ولاغرابة فى ذلك ، فهل يعنى طلاق رسول الله ﷺ لنسائه جميعاً فى حس المسلم ، إلا أن هذا البيت النبوى كله قد تهدم ، وكله محل شك وطعن .

وجميعنا يدرك إشاعة حادثة الإفك ، ومافعلته من دمار فى الصف المسلم .

وحين ندقق فى الموقع المناسب لهذه الآية ، نجد أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً فى الموضوع العام الذى تعالجه هذه الآيات ، موضوع الجهاد والحث عليه ، ومواجهة المبطّئين ، والمخذلين ، والموهنين ، ومدى تأثير هذا التبطىء فى الصف ، حتى تأتى الآية لتقول لرسول الله ﷺ :

﴿ **فقاتل فى سبيل الله . لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا** ﴾ .

فإذا كانت التبطئة والتخذيل تنال كثيراً فى الصف المسلم ، فليمض رسول الله ﷺ مقاتلاً وحده ، ولايكلف إلا نفسه ، وهو يحرض المؤمنين على القتال .

ولم نبعد والصورة بين أمتين واضحة .

بين بنى إسرائيل ، وهم يقولون لنبيهم : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ (2) .

وبين الأمة المسلمة وهى تقول لنبيها : والله لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى :

---

(1) الدر المنثور / ٤ / ٦٠٠ .

(2) المائدة / ٢٤ .

﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ولكنا نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وذلك الجو الطاغى فى بدر ، يقول الله تعالى لنبيه فيه :

﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ [١] .

وهنا لايعفيه تعالى من المسئولية ولو كان وحده :

﴿ **فقاتل فى سبيل الله . لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين** ﴾ .

وكم يكون لهذه الآية دفع فى نفوس المؤمنين وأثر على أحاسيسهم ، أن يرى الله تعالى قائلاً لنبيه : ﴿ **فقاتل فى سبيل الله . لاتكلف إلا نفسك** ﴾ .

أيمضى رسول الله ﷺ وحده إلى القتال ، وهم قابعون فى مكانهم ؟

إن الموقف لأصيل للمؤمن ورسول الله ﷺ يحرض على القتال ، أن يكون كما قال زيد لأبى سفيان : والله ماأحب أن محمداً الآن فى مكانى ، وأنا آمن فى بيتى ، وفى رجل محمد شوكة تؤذيه .

مما دفع قائد العدو أن يعترف على الملأ :

مارأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا .

فالآية إذن أسلوب آخر من أساليب التحريض والحث على القتال ، وضرب الموهنين والمبطئين والمُخذلين .

﴿ **عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا** ﴾ :

فالله تعالى هو الناصر والمعين حين يستجيب الصف المؤمن لهذا النداء ، ويؤدى ماعليه فى عالم الأسباب .

ومن أجل هذا اعتبر سيد رحمه الله قمة التحضيض على القتال من خلال هذه الآية :

(وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ، التى تؤثر فى موقفه من الجهاد وفى الحياة ـ ومنذ أول الدرس وهذا التقويم مطرد لهذه العيوب ـ عندئذ ينتهى إلى

(١) الأنفال / ٦٤ .

قمة التحضيض على القتال الذى جاء ذكره فى ثنايا الدرس ، قمة التكليف الشخصى ، الذى لايقعد الفرد عن القتال تبطئة ولاتخذيلا ؛ ولا خلل فى الصف ولا وعورة فى الطريق ، حيث يوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بأن يقاتل ـ ولو كان وحيداً ـ فإنه لايحمل فى الجهاد إلا تبعة شخصه ﷺ ، وفى الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر ، فالله هو الذى يتولى المعركة ، ﴿ **والله أشد بأساً وأشد تنكيلا** ﴾ .

﴿ **فقاتل فى سبيل الله . لاتكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا** ﴾ .

ومن خلال هذه الآية ـ بالإضافة إلى ماقبلها ـ تبرز لنا ملامح كثيرة فى الجماعة المسلمة يومذاك ، كما تبرز لنا ملامح كثيرة فى النفس البشرية فى كل حين :

أ ـ يبرز لنا مدى الخلخلة فى الصف المسلم ، وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه ، حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة هى تكليف النبى ﷺ أن يقاتل فى سبيل الله ـ ولو كان وحده ـ ليس عليه إلا نفسه مع تحريض المؤمنين ، غير متوقف مضية فى الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ولوأن عدم استجابتهم ـ جملة ـ أمر لايكون ، ولكن وضع المسألة بهذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ، واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة ، فوق مايحمله النص ـ طبعاً ـ من حقيقة أساسية فى التصور الإسلامى ، وهى أن كل فرد لايكلف إلا نفسه .

ب ـ كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب فى التعرض لقتال المشركين يومذاك ، حتى ليكون أقصى مايعلق الله به رجاء المؤمنين أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا ، فيكون المسلمون ستاراً لقدرته فى كف بأسهم عن المسلمين ، مع إبراز قوة الله ـ سبحانه ـ وأنه أشد بأساً وأشد تنكيلا ، وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك ، والمخاوف المبثوثة فى الصف المسلم ، وربما كان هذا بين أحد والخندق ، هذه أحرج الأوقات التى مرت بها الجماعة المسلمة فى المدينة بين المنافقين ، وكيد اليهود ، وتحفز المشركين ! وعدم اكتمال التصور الإسلامى ووضوحه وتناسقه بين المسلمين .

جـ ـ كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ، وهى تدفع إلى التكاليف التى تشق عليها ، إلى شدة الارتباط بالله ، وشدة الطمأنينة إليه ، وشدة الاستعانة به ، وشدة الثقة

بقدرته وقوته . فكل وسائل التقوية غير هذه لاتجدى حين يبلغ الخطر قمته ، وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الرباني ، والله هو الذى خلق هذه النفوس ، وهو الذى يعلم كيف تربى ، وكيف تقوى ، وكيف تستجاش ، وكيف تستجيب)[1] .

---

(١) فى ظلال القران / م٢ / جـ٥ / ٧٢٤ ، ٧٢٥ .

عـودة إلى المنافقين

يقول جل ثناؤه :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا . وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً . الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾ [1] .

تأتى هذه الآيات توطئة وتمهيداً للحديث عن المنافقين ، وتتناول المظاهر العامة للعلاقات معهم ، فهم لايزالون فى الظاهر جزءاً من المجتمع المسلم ، وحين تقع بعض المواقف والتصرفات منهم ، وبطبيعة تداخلهم فى المجتمع ، لابد أن تتدخل شفاعة المؤمنين فى الاعتذار عن تصرفاتهـم ، وذلك بطبيعة وشيجة القرابـة التى تجمعهم ووشيجة العقيدة ـ ظاهراً ـ كذلك .

فيدعـو القرآن المؤمنين على أن يكـونوا على يقظـة تامـة ، وتنبـه شـديد مـن هـؤلاء المنافقين ، بهذا الوحى الربانى المعجز ، يدعوهم إلى أن ينتبهوا إلى من يشفعون لهم عند رسول الله ﷺ فإذا كان الزال أو المتعثر قد ندت منه خطيئة لضعفه أو لعجزه ، فتأتى الشفاعة الحسنة لتمسح هذا الخطأ ، وتأخذه بيد حانية رحيمة ، وتضعه فى موقعه من الصف المسلم ، وحين يأخذ وضعه لبنة فى بناء إخوانه ، ويقوى بهم ، لاشك أن صحيفة أجره قد فتحت ، ويكون كل شيء فيها فى صحيفة أجر شافعه الذى أخذ بيده وأعاده عضواً أصيلاً داخل الصف :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ .

أما إذا كان منافقاً يتستر وراء الإسلام . وتغلب عاطفة الأبوة أو البنوة أو القرابة على المسلم ، فيأتى شافعاً لهذا المنافق ، فكأنما يأتى ليسدل الستار على خيانته ، فلا شك أن كل تآمره على الإسلام والمسلمين سوف يحمل وزرها وآثامها ، لما ينشأ من خلل فى الصف

---

(١) النساء / ٨٥ ـ ٨٧ .

نتيجة هذه الشفاعة :

﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾ .

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتا ﴾ : أى شهيداً حسيباً حافظاً قديراً ، مقيت كل انسان بقدر عمله .

هذه الأحوال المختلفة حسب طبائع المشفوعين لاتغنى أن نتعامل بالشك داخل هذا الصف ، ونوزع التهم على البرىء المدان ، لابد ـ من حيث التعامل العام ـ أن يبقى على ماهو عليه فإفشاء السلام فى الصف ، والدعوة إلى الأحسن فيه ، تبقى سمة هذا المجتمع :

﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها ﴾ .

والله تعالى هو الذى يحاسب على مافى القلوب ، وهو الذى يكشف المخبوء يوم القيامة ، ويفضح المستور ، فهو الذى يجمعهم جميعاً ، وهو صادق الوعد والخبر :

﴿ الله لاإله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾ .

﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين والله أر[كسه]م بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولانصيرا ﴾ (1) .

وفى سبب نزول الآية رأيان : أحدهما عن زيد بن ثابت والآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما . حيث يربط الرأى الأول النزول بعبد الله بن أبىّ والمنافقين معه الذين خذلوا نبيهم يوم أحد ، فقد « أخرج الطيالسي وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن زيد بن ثابت :

أن رسول الله ﷺ [خرج] إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول نقتلهم ، وفرقة تقول لا ، فأنزل الله :**﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين . . ﴾** الآية كلها ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما

---

(1) النساء / ٨٨ ، ٨٩

تنفى النار خبث الفضة »[1] .

ويؤيد هذا الرأى رواية أخرى تحصر الحديث عن المنافقين بمن هم داخل المدينة ، حيث : أخرج سعد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم من طريق عبد العزيز بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن سعد بن معاذ الأنصارى ، أن هذه الآية أنزلت فينا : ﴿ **فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا** ﴾ . خطب رسول الله ﷺ الناس فقال : « من لى بمن يؤذينى ويجمع فى بيته من يؤذينى » فقام سعد بن معاذ فقال : إن كان منا يا رسول الله قتلناه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا فأطعناك . فقام سعد بن عبادة فقال : مابك يابن معاذ طاعة رسول الله ﷺ ولكن عرفت ما هو منك . فقام أسيد ابن حضير فقال : إنك يابن عبادة منافق تحب المنافقين . فقام محمد بن مسلمة فقال : اسكتوا أيها الناس ، فإن فينا رسول الله ﷺ وهو يأمرنا فننفذ لأمره ، فأنزل الله ﴿ **فمالكم فى المنافقين فئتين** ﴾ الآية[2] .

والأرجح فى هذه الآية ـ لجلالة الرواة الذين رووها وصحة سندها الذى فى الصحيحين وغيرهما ـ أن يكون سبب نزولها هو هذه الحدة فى الاختلاف فى الموقف من عبد الله بن أبى وصحبه وأكثرهم من الخزرج ـ رهط سعد بن عبادة رضى الله عنه ـ وقد خذلوا رسول الله ﷺ فى هذا الموطن الصعب ، أن ترتفع الحمية الإيمانية عند فريق من المؤمنين ـ ولعلهم الأوس ـ إلى المطالبة بقتلهم على هذه الخيانة الشنيعة ، وأن يوجد من يعذرهم من المؤمنين ويطلب العفو عنهم ، وهم من الخزرج ، فتأتى الآية لتعذر المؤمنين على خلافهم من جهة ، وتدين المنافقين من جهة أخرى :

﴿ **والله أركسهم بما كسبوا** ﴾ أوقعهم بما كسبوا .

الآية تؤكد على ضلال المنافقين : ﴿ **أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾ .

أما الرأى الثانى فيتجاوز فى المنافقين حدود المدينة ، وهو المتناسب مع سياق الآيات التى تتحدث عن هجرتهم كدليل على براءتهم من النفاق . وعلى هذا الرأى معظم أئمة التفسير مجاهد وقتادة ومعمر بن راشد وأبو سلمة بن عبد الرحمن والعوفى وابن عباس ، ونأخذ رواية واحدة توضح هذا الرأى :

---

(١) الدر المنثور /٤/٦٠٩ .
(٢) المصدر نفسه / ٦٠٩ .

(أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال : إن قوما كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا فيهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم ؛ فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم ، وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله ! تقتلون قوماً وقد تكلموا بمثل ماتكلمتم به ، من أجل أنهم لم يهاجروا ويتركوا ديارهم تستحل دماءهم وأموالهم . فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لاينهى واحداً من الفريقين عن شىء فنزلت : ﴿ **فما لكم فى المنافقين فئتين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **حتى يهاجروا فى سبيل الله** ﴾ يقول : حتى يصنعوا كما صنعتم ﴿ **فإن تولوا** ﴾ قال : عن الهجرة) . (١)

﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولاتتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا ﴾ :

فقد نزل القرآن برأى الفريق الآخر بقتلهم والبراءة من ولايتهم وعدم الثقة بنصرتهم ، ما لم ينضموا إلى المجتمع الإسلامى ، وينضووا تحت لواء الدولة المسلمة ، ويهاجروا فى سبيل الله .

ولأول مرة نجد الدعوة إلى القتل فى صفوف المنافقين ، ولاشك أن هذه الأحكام كانت من الحسم والجزم بحيث تقطع دابر الخلاف .

لابد أن يتوحد الصف الداخلى فى الموقف من هؤلاء المنافقين ، وكان الحديث بالقوة والصرامة ، والدعوة إلى قتلهم حيث وجدوا . لتصل هذه المواقف إلى كل أنحاء الجزيرة العربية ، وذلك لتقطع محاولات الغدر بالمسلمين وليعرف كل فريق من أى قبيلة يريد أن يعيد صورة الرجيع ، وصورة بئر معونة أنها لن تتكرر . فالذين يوالون قريشاً ويظاهرونها ضد الصف المؤمن محكوم عليهم بالقتل أنى وجدوا ، ولو ادعوا الإسلام ، حتى يهاجروا فى سبيل الله ، وينضموا إلى الصف المسلم ، وهو حكم حاسم صارم يتناسب مع طبيعة الظروف التى أعقبت أحداً ، ويوقف كل محاولات الغدر والغيلة أن تمتد إلى داخل الصف ، أو يفكر أحد من الصف المسلم بمظاهرة أمثال هؤلاء ، وسماهم القرآن صراحة بأنهم كفار .

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى

(١) الدر المنثور / م٢ /جـ ٥ / ٦ .

يهاجروا فى سبيل الله ﴾ .

فهم عند قريش كفار وجزء من المجتمع الكافر ، وإذا خرجوا من مكة مسلمون . ولكنهم يعيشون جزءاً من دار الحرب فى مكة ، فليس هناك حل وسط يمكنهم من هذه الانتهازية وهذه المصلحية .

إما أنهم مسلمون فعلاً فلينضموا إلى دار الإسلام ويهاجروا فى سبيل الله .

وإما أنهم كفار فعلاً ، يقاتلون أين وجدوا ويقتلون ، طالما أنهم جزء من دار الحرب ويظاهرون الكفار على المؤمنين .

﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ .

وهذا الفريق الثانى من المنافقين يحدثنا عنهم الحسن رحمه الله فيقول فيما يرويه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وابن مردوية وأبو نعيم فى الدلائل عن الحسن : أن سراقة بن مالك المدلجى حدثهم قال : (لما ظهر النبى ﷺ على أهل بدر وأحد ، وأسلم من حولهم قال سراقة : بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى بنى مدلج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة . فقالوا : مه . فقال دعوه ، ماتريد ؟ قلت : بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى ، وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخش لقلوب قومك عليهم . فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال : « اذهب معه فافعل مايريد » فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كانوا على مثل عهدهم ، فأنزل الله : **﴿ ودوا لو تكفرون . . ﴾** حتى بلغ **﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾** ، فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم) (٢) .

ولكننا نستبعد صحة الرواية ، فخالد لم يسلم إلا بعد عمرة القضية ، وليس بينه وبين فتح مكة إلا شهورٌ فقط ، والآيات يظهر أنها كانت فى وقت مبكر عن هذا الوقت ، وحين نعود إلى نصوص السيرة نجد مايزيل هذه الملاحظات والشبهات .

---

(١) النساء / ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) الدر المنثور / م٢ / جـ ٥ / ٦١٣ .

غزوة العشيرة

(ثم غزا غزوة العُشيرة فى جمادى الآخرة ، ويقال جمادى الأولى على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره ، خرج ﷺ يعترض عيراً لقريش حين أبدأت إلى الشام ومعه خمسون ومائة رجل ، ويقال : خرج معه مائتا رجل يعتقبون ثلاثين بعيراً ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وحمل اللواء حمزة ، وكان قد جاءه ﷺ الخبر بفصول العير من مكة تريد الشام . قد جمعت قريش أموالها فى تلك العير ، فبلغ ﷺ ذا العُشيرة ببطن ينبع ، فأقام بقية الشهر وليالٍ مما بعده ، وصالح بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة ، ورجع ولم يلق كيداً . وهذه العير هى التى خرج فى طلبها ﷺ لما عادت وكانت وقعة بدر)[1] .

وحين نعرف أن رسول الله ﷺ قد عقد ميثاقاً مع بنى ضمرة فى غزوة الأبواء ، أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ على رأس أحد عشر شهراً من مهاجره عليه الصلاة والسلام ، وأن الميثاق الثانى كان مع بنى مدلج على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره صلوات الله وسلامه عليه . حين نعرف ذلك نستطيع أن نفقه الآية فى قوله تعالى :

﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرتْ[2] صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ .

إن هؤلاء الذين يفدون إلى بنى مدلج وبنى ضمرة ـ حلفاء رسول الله ﷺ ـ هم آمنون ، طالما أنهم لم يعلنوا على المسلمين حرباً ، وهم آمنون بأمان رسول الله ﷺ لهم ، وهم مع الذين بينهم وبين رسول الله ﷺ ميثاق .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : (إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم . فإن أحد منهم دخل فى قوم بينكم وبينهم ميثاق فأجروا عليهم مثل ماتجرون على أهل

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ٥٤ ـ ٥٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام / م ٢ / ٥٩٩ .

(٢) حصرت صدورهم : ضاقت صدورهم .

الذمـة) [1] .

والفريق الثالث من المنافقين :

﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا ﴾ [2] .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ **ستجدون آخرين** ﴾ الآية . قال : ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياءً ، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا أو يصالحوا) [3] .

(وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ **ستجدون آخرين** ﴾ الآية قال : حي كانوا بتهامة قالوا : يانبي الله ، لانقاتلك ولا نقاتل قومنا ، وأرادوا أن يأمنوا نبي الله ويأمنوا قومهم فأبى الله ذلك عليهم فقال : ﴿ **كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها** ﴾ يقول : كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه) [4] .

والظاهر أن الحرب العوان بين المشركين والمسلمين في الأرض العربية ، نشرت الرعب والذعر في صفوف القبائل المجاورة لكلا الفريقين ، وصار كثير من الأعراب حفاظاً على مصالحهم ، يتظاهرون بالود لمحمد رسول الله ﷺ خوفاً منه ، ولقريش خوفاً منها ، يعلنون إسلامهم في موطن ، ويرتدون في موطن آخر ، كما هي الطبيعة الأعرابية المصلحية التي قال الله تعالى عنها :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لايعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾ [5] .

فهي ظاهرة متنوعة غير محصورة بفريق معين أو قبيل خاص ، ولأنها تكررت مرات عدة فقد ذكر أئمة التفسير كل واحد منهم ماانتهى إليه علمه في هذا المجال .

وحيث اتضح المنهج الإسلامي في قتل المنافقين حيث ثقفهم المسلمون ماداموا

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ٦١٣ .
(٢) النساء / ٩١ .
(٣) الدر المنثور / ٥ / ٦١٤ .
(٤) المصدر نفسه / ٥ / ٦١٤ .
(٥) التوبة / ٩٧ .

مصرين على نفاقهم ، بين ممالأة قريش أعداء الله والمسلمين ، فقد يفسح هذا المجال لأخطاء فردية فى التطبيق ، كما يقع فى كثير من الثورات المسلحة ، وتستبد شهوة القتل فى النفس البشرية تحت ستار مبدئى ، وهو فى الحقيقة إرضاء لنزعة الاستعلاء والسيطرة والقضاء على الخصوم ، كان لابد من وضع كوابح وروادع تحول دون الخطأ فى التنفيذ . فجاءت هذه الآيات لتحدد ربط القتل العمد بالكفر والخلود بالنار ، وذلك ليكون الرادع النفسى عن الانقياد لشهوة القتل قادراً على ضبط هذه النفس الجموح .

﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما . ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما . يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ (١) .

وحين تعرض النماذج الواقعية المرتبطة بأسباب النزول وأحداث السيرة ، يتضح المعنى جلياً أكثر وأكثر .

﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً ﴾ :

وقد ذكر المفسرون أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، عن السدى وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ، وذكر ابن زيد أنها نزلت فى أبى الدرداء ، وعند أبى نعيم والرويانى أنه بكر بن حارثة الجهينى .

ونستعرض بعض هذه الروايات واختلافها لتتعدد الصور :

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : (كان الحارث بن يزيد بن نبيشة من بنى عامر بن لؤى يعذب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل ، ثم خرج مهاجراً إلى النبى ﷺ ، فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ، ثم جاء إلى النبى ﷺ فأخبره ،

---

(١) النساء / ٩٢ - ٩٤ .

فنزلت : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ﴾ الآية فقرأها عليه ثم قال : قم فحرر)[1] .

أما رواية ابن جرير عن ابن زيد في أبي الدرداء رضي الله عنه فهي :

(نزلت في رجل قتله أبو الدرداء ، كانوا في سرية فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له ، فوجد رجلاً من القوم في غنم له ، فحمل عليه السيف ، فقال : لا إله إلا الله ، فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم - ثم وجد في نفسه شيئاً ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا شققت عن قلبه ؟ » . فقال : ما عسيت أجد ، هل هو يارسول الله إلا دم أو ماء ؟ فقال : « قد أخبرك بلسانه فلم تصدقه » . قال كيف بي يارسول الله ؟ . قال : « فكيف بلا إله إلا الله » قال فكيف بي يارسول الله ؟ قال « فكيف بلا إله إلا الله » حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي . قال : ونزل القرآن :﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **إلا أن يصدقوا** ﴾ قال : إلا أن يضعوها)[2] .

ورواية الروياني وابن منده وأبي نعيم في المعرفة عن بكر بن حارثة الجهيني قال :

(كنت في سرية بعثها رسول الله ﷺ فاقتتلنا نحن والمشركون ، وحملت على رجل من المشركين فتعوذ مني بالإسلام فقتلته ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب وأقصاني فأوحى الله إليه : ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً** .. ﴾ الآية : فرضي عني وأدناني)[3] .

وقد رويت هذه القصة في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه والمقداد بن الأسود وغيرهما ، وهذا يعني أن هذه الحادثة قد تكررت مراراً ، وذلك من خلال الأجواء للآيات السابقة التي تدعو إلى قتل المنافقين ، فكان موقف الصحابة في القتل أنهم قالوا لا إله إلا الله تعوذاً من السيف . وحتى لا يترك الأمر بدون ضابط ، ويختلط الحق بالهوى ، جاء الأمر الصريح بالنهي عن قتل من يقول لا إله إلا الله ، وقطع دابر هذه الاجتهادات الشخصية التي تترك الحكم بالإيمان والإسلام على القلب لا على اللسان ، والإسلام يعصم الدم والمال والعرض وذلك كما في الحديث الصحيح المتواتر الموجود في الصحاح الستة :

---

[1]) جامع البيان في تفسير القرآن /٤/١٢٨ .

جامع البيان في تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبري /م٤/ جـ ١٢٩/٥ .   (٣) الدر المنثور /٥ / ٦١٧ .

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » [(١)] .

أما القتل العمد ، فقد كان جزاؤه الخلود فى جهنم ، وتتمثل صورته فى الحادثة التالية التى وردت سببًا للنزول :

(أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق ابن جريج عن عكرمة : أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن ضبابة ، فأعطاه النبى ﷺ الدية فقبلها ، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله.

قال ابن جرير ، وقال غيره : ضرب النبى ﷺ ديته على بنى النجار ، ثم بعث مقيسًا ، وبعث معه رجلاً من بنى فهر فى حاجة للنبى ﷺ ، فاحتمل مقيس الفهرى ـ وكان رجلاً شديداً ـ فضرب به الأرض ورضخ رأسه بين حجرين ثم ألقى يتغنى :

قتلت به فهراً وحملت عقله   سراة بنى النجار أرباب فارع

فأخبر به النبى ﷺ فقال :« أظنه قد أحدث حدثاً ، أما والله لئن فعل لا أؤمنه في حل ولا حرم ـ ولا سلم ولا حرب » فقتل يوم الفتح . قال ابن جريج : وفيه نزلت هذه الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا ..** ﴾ الآية) [(٢)] .

وفى رواية ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : (فلما انصرف مقيس والفهرى راجعين من قباء إلى المدينة وبينهما ساعة ، عمد مقيس إلى الفهرى رسول رسول الله ﷺ فقتله ، وارتد عن الإسلام ، وركب جملاً منها وساق معه البقية ـ أى من الدية التى أخذها مائة من الإبل ـ ولحق مكة وهو يقول فى شعر له :

قتلت به فهراً وحملت عقله   سراة بنى النجار أرباب فارع
وأدركت ثأرى واضطجعت موسداً   وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت فيه ، بعد قتل النفس وأخذ الدية ، وارتد عن الإسلام ولحق بمكة كافرا) .[(٣)]

هاتان صورتان متقابلتان للنفسية المسلمة التى تخطئ ، فتقتل غير عارفة بإسلام

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى ، رواه الستة / م ١ / ٢٤٨ .
(٢) الدر المنثور /٥/٦٢٢ .   (٣) المصدر نفسه /٦٢٣ .

المقتول ـ كما روى عن عياش بن أبى ربيعة أو تراه قال لا إله إلا الله تعوذاً من القتل ـ فعليه الدية والعتق على التفصيل الوارد فى الآية الكريمة ، وبين نفس مبنية على الإجرام تأخذ الدية ، وتقتل البرىء ، وتمضى مرتدة إلى مكة .

وقد ساق السيوطى رحمه الله النصوص الحديثية فى قتل المؤمن العمد ، منها :

١ ـ أخرج البخارى ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » (١) .

وأخرج أحمد، والنسائى ، وابن المنذر ، عن معاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمداً » (٢) .

٢ ـ وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « والله للدنيا وما فيها أهون على الله من قتل مسلم بغير حق » (٢) .

٣ ـ وأخرج ابن عدى ، والبيهقى فى الشعب ، والأصبهانى فى الترغيب ، عن البراء بن عازب ، أن النبى ﷺ قال : « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله النار » (٤) .

كما ساق السيوطى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه فيما أخرجه أبو داود وابن جرير والنحاس والطبرانى وابن مردويه والبيهقى أن هذه الآية ناسخة لآية الفرقان التى تتحدث عن العفو عن القاتل :

(لما نزلت هذه الآية فى الفرقان : ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق** ... ﴾ عجبنا للينها ، فلبسنا سبعة أشهر ، ثم نزلت التى فى

---

(١) هو فى البخارى فى باب الديات /١ .

(٢) ورواه أبو داود عن أبى الدرداء وهو حديث صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير للسيوطى / الحديث ٤٤٠٠ .

(٣) وهو فى الترمذى ديات /٧ ، وابن ماجة ديات /١ .

(٤) وفى معنى الفقرة الثانية من الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى : « لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله عز وجل في النار » . انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى الحديث /٥١٢٣ .

النساء : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ بينما يروى السيوطى عن الضحاك أن بينهما ثمان سنين)[1] .

وهناك رأى آخر استعرضه السيوطى يرى توبة القاتل العمد ، وقبولها مرهون بمشيئة الله ، وساق هذه الرواية .

(أخرج القتيبى ، والبيهقى فى البعث ، عن قريش بن أنس قال : سمعت عمرو بن عبيد يقول : يؤتى بى يوم القيامة فأقام بين يدى الله فيقول لى : لم قلت : إن القاتل فى النار ؟ فأقول : أنت قلته ثم تلا هذه الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم** ﴾ قلت له : وما فى البيت أصغر منى ، أرأيت إن قال لك : فإنى قلت : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ من أين علمت أنى لا أشاء أن أغفر ؟ قال : فما استطاع أن يرد على شيئاً)[2] .

وبغض النظر عن قبول التوبة أو عدمها فإننا أمام كبيرة من أعظم الكبائر ، اقترنت بالشرك بالله ، وكانت عقوبتها : ﴿ .. **فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيما** ﴾ .

وحتى لا تتكرر المأساة فى قتل المؤمنين المشكوك فى إيمانهم ، فيقع القتل على المؤمن دون المنافق ، جاءت الآية الثالثة التى تنهى عن نفى الإيمان عمن ألقى السلام وزعم أنه مسلم .

(أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، والنسائى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : (لحق ناس من المسلمين رجلاً معه غُنيمة له فقال : السلام عليكم . فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عرض الحياة الدنيا** ﴾ قال : تلك الغنيمة)[3].

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والطبرانى ، والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : (مر

---

(١) الدر المنثور / م٢ / جـ ٥ / ٦٢٥ . (٢) المصدر نفسه / ٦٢٨ .

(٣) الدر المنثور/٥/٦٣٢ .

رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له ، فسلم عليهم ، فقالوا : ما سلَّم علينا إلا ليتعوذ منا ، فعمدوا له فقتلوه ، وأتوا بغنمه للنبي ﷺ فنزلت الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم** ﴾ الآية) [1] .

ولبيان قوله تعالى : ﴿ **كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم** ﴾ نأخذ هذه الرواية : أخرج البزار ، والدارقطني في الأفراد ، والطبراني ، عن ابن عباس قال :

(بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا ، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ ! والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ ، فلما قدموا على رسول الله قالوا : يارسول الله ، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد ، فقال :« ادعوا لي المقداد » فقال :« يامقداد ، أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً ؟ » ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **كذلك كنتم من قبل** ﴾ . قال : فقال رسول الله ﷺ للمقداد : « كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلْته ، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل ») [2]

وقد ضبطت هذه الآيات هذا الموضوع ضبطاً محكماً ، بعد عدد من التصرفات الفردية واجتهادات بعض الصحابة رضي الله عنهم في قتل من شكوا بإسلامه خوفاً من القتل ، أو ألقى السلام عليهم ليضمن ماله ونفسه ، أو اختلطت النوازع الشخصية والثأر بعملية الجهاد في سبيل الله ، ولعل هذا المعنى الأخير بحاجة إلى شاهد عليه ، نسوقه لتتضح الجوانب كاملة :

أخرج ابن جرير ، عن ابن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ محلم ابن جثامة مبعثاً ، فلقيهم عامر بن الأضبط ، فحياهم بتحية الإسلام ، وكانت بينهم إحنة في الجاهلية ، فرماه محلم بسهم فقتله ، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ ، فجاء محلم في بردين . فجلس بين يدي النبي ﷺ ليستغفر له ، فقال : « لا غفر الله لك » فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه . فما مضت به ساعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض . فجاءوا النبي ﷺ فذكروا ذلك له ،

---

(١) الدر المنثور / ٥ / ٦٣٢ .

(٢) المصدر نفسه / ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

فقال : « إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظكم » ثم طرحوه وألقوا عليه الحجارة ، فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم** .. ﴾ الآية)[1] .

إننا ونحن نسوق هذه النصوص المتعددة ، يمثل فى ذهننا بعض التجارب الإسلامية والتى قامت لتحكيم شريعة الله فى الأرض فى واقعنا المعاصر ، لكنها لم تضبط هذه الأمور بالميزان الشرعى الدقيق ، فأخفقت رغم عظم التضحيات التى قدمتها . وحين نتناول الحديث فى هذه النصوص لا يغيب الهدف الرئيسى أبداً عن البال ، وهو : أننا نود أن نقدم الصورة المثالية الرائدة للجهاد في سبيل الله ، فى جميع مراحله من خلال كتاب الله تعالى وسيرة نبيه ﷺ - التى تمثلت فيها هذه النصوص - لتكون بين يدى أبناء الحركة الإسلامية قادة وجنوداً ؛ لينهجوا على مثالها ، وينسجوا على منوالها فى محاولة استئناف الحياة الإسلامية فى الأرض من جديد .

---

(١) الدر المنثور /٥/٦٣٣ .

دعوة إلى الجهاد من جديد

وإذا كانت الآيات الأولى تدعو على سبيل الحض والأمر للجهاد ، فهنا تتحدث الآيات فى محورين اثنين :

المحور الأول : ما أعد الله من الثواب للمجاهدين فى سبيله .

المحور الثانى : عقوبة المتخلفين عن الجهاد .

﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [1] .

﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ﴾ :

(أخرج ابن سعد ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والبيهقى من طريق ابن شهاب قال :

حدثنى سهل بن سعد الساعدى أن مروان بن الحكم أخبره ، أن زيد بن ثابت أخبره ، أن رسول الله ﷺ أملى عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علىَّ فقال : يارسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذى فثقلت علىَّ حتى خفت أن ترض فخذى ، ثم سرى عنه فأنزل الله **﴿ غير أولى الضرر ﴾** قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال : وفى هذا الحديث رواية رجل من الصحابة وهو سهل بن سعد عن رجل من التابعين وهو مروان بن الحكم لم يسمع من النبى ﷺ) [2] .

ويؤكد زيد رضى الله عنه هذه الصورة فى رواية أخرى فيقول : (أنزلها الله

---

(١) النساء/٩٥ ، ٩٦ .   (٢) الدر المنثور /٥/٦٣٩ ، ٦٤٠ .

وحدها ، فألحقتها ، والذى نفسى بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع من كتف)[1] .

ومع أن الله تعالى أنزل من فوق سمواته عذر ابن أم مكتوم وأمثاله عن الجهاد ، لكن أثر الآية كان يشتعل فى أعماقه ، فينضم إلى المجاهدين فى سبيل الله ، كما تحدثنا الرواية التالية : (وأخرج ابن سعد ، وابن المنذر ، عن طريق ثابت بن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : لما نزلت ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله** ﴾ قال ابن أم مكتوم : أى رب ، أين عذرى ؟ أى رب ، أين عذرى ؟ فنزلت : ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ فوضعت بينها وبين الأخرى ، فكان بعد ذلك يغزو ويقول : ادفعوا إلى اللواء ، وأقيمونى بين الصفين فإنى لن أفر)[2] .

ولنعلم حسن هذا الاستثناء فى الجيل الإسلامى من التابعين ، ننقل مارواه السيوطى رحمه الله فى هذا الصدد :

(أخرج ابن فهر فى كتاب فضائل مالك ، وابن عساكر من طريق عبد الله بن رافع ، قال : قدم هارون الرشيد المدينة ، فوجه البرمكى إلى مالك وقال له : احمل إلىَّ الكتاب الذى صنفته حتى أسمعه منك . فقال للبرمكى : اقرئه السلام وقل له : إن العلم يزار ولا يزور ، وإن العلم يؤتى ولا يأتى . فرجع البرمكى إلى هارون فقال له :يا أمير المؤمنين ، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك فخالفك ، اعزم عليه حتى يأتيك ، فإذا بمالك قد دخل وليس معه كتاب وأتاه مُسلِماً فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله جعلك في هذا الموضع لعلمك فلا تكن أول من يضع العلم فيضعك الله ، ولقد رأيت من ليس فى حسبك ولا بيتك يعز هذا العلم ويجله فأنت أحرى أن تعز وتجل علم ابن عمك ، ولم يزل يعدد عليه من ذلك حتى بكى هارون ثم قال :

أخبرنى الزهرى ، عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت : كنت أكتب بين يدى النبى ﷺ فى كتف : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون** ﴾ وابن أم مكتوم عند النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، قد أنزل الله فى فضل الجهاد ما أنزل ، وأنا رجل ضرير فهل لى رخصة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا أدرى » قال زيد بن ثابت : وقلمى رطب ماجف حتى غشى النبى ﷺ الوحى ، ووقع فخذه على فخذى حتى كادت تدق من ثقل الوحى ، ثم جلّى عنه فقال لى :« اكتب يازيد : ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ .

فيا أمير المؤمنين حرف واحد بعث به جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف عام حتى أنزل على نبيه ﷺ ، أفلا ينبغى لى أن أعزه وأجله)[3] .

---

(١) الدر المنثور / ٥ / ٦٣٩ ، ٦٤٠ .	(٢ ، ٣) المصدر نفسه/٦٤٣ .

﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ :

(أخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير فى الآية قال :

لا يستوى فى الفضل القاعد عن العدو والمجاهد ، **﴿ درجة ﴾** يعنى فضيلة ، **﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾** المجاهد والقاعد المعذور ، **﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين ﴾** الذين لا عذر لهم **﴿ أجراً عظيماً ﴾**) (١) .

﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما ﴾ :

فما هى هذه الدرجات ؟

أخرج ابن المنذر عن قتادة فى قوله : **﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾** قال : ذكر لنا أن معاذ بن جبل كان يقول : إن للقتيل فى سبيل الله له ست خصال من خير : أول دفعة من دِمه يكفر بها عن ذنوبه ، ويحلى عليه حلة الإيمان ، ثم يفوز من العذاب ، ثم يأمن من الفزع الأكبر ، ثم يسكن الجنة ، ويزوج من الحور العين) (٢) .

وقد ورد هذا النص فى حديث صحيح عن رسول الله ﷺ هذا نصه :

« للشهيد عند الله سبع خصال : يغفر له فى أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده فى الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويشفع فى سبعين إنسانا من أهل بيته » (٣) .

وإذا كان هذا الفضل وهذه الدرجات للشهيد ، فهل يفوت هذا الأجر من جاهد ولم يستشهد ؟

بالتأكيد لا ، وهذه النصوص التى نقلها لنا السيوطى توضح هذا المعنى :

أخرج البخارى والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٤) .

---

(١) المصدر نفسه /٦٤٣ . (٢) المصدر نفسه / ٦٤٤ .

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجة /٢/٢٧٩٩ . انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى الحديث ٥٠٨٥ .

(٤) البخارى / م ٢ / جـ ٤ كتاب الجهاد والسير باب ٤/ص ١٨ .

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي والحاكم عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله، فأعادها عليه. ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» (١).

ونحن بحاجة إلى أن نرى فعل هذه النصوص فى هذا المجتمع النبوى، فنعيش المرحلة التى تنزلت بها الآيات، ونربط بين صدر هذه الآيات التي دعت إلى الجهاد ولو كان رسول الله ﷺ وحده:

﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ (٢).

وبين تحريض المؤمنين على الجهاد وفضل المجاهدين، ودور الجهاد فى كف بأس العدو.

ولن تتضح هذه الصورة إلا بالعودة إلى المدينة نفسها، فنشهد غزوة بدر الموعد على رأس عام من أحد، وبعد أشهر من محنتى الرجيع وبئر معونة، والتى كانت في هلال ذى القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً مضين للهجرة، وغاب رسول الله ﷺ فيها ست عشرة ليلة ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة.

وقد اخترنا رواية الواقدى، لما فيها من إيضاحات وزيادات هامة تنقل الوضع النفسى والتعبوى للجيش الإسلامى قبيل ذلك (٣):

(لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أحد نادى: موعدٌ بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول، نلتقى فيه فنقتتل. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: «قل: نعم إن شاء الله ...»، فافترق الناس على ذلك، ورجعت قريش فخبَّروا من قبلهم بالموعد، وتهيؤوا للخروج وأجلبوا، وكان هذا عندهم أعظم الأيام، لأنهم رجعوا من أُحد والدولة لهم، طمعوا فى بدر الموعد أيضاً بمثل ذلك الظفر، وكانت بدر الصفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمان ليالٍ خلون منه، فإذا

---

(١) مسلم / جـ٣ / ح ـ ١٨٨٤ ص ١٥٠١ كتاب الإمارة. (٢) النساء / ٨٤.
(٣) وردت في كتب السير جميعاً. وهى عند ابن هشام فى السيرة / م٢ / ٢٠٩، ٢١٠.

مضت ثمان ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم ، فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة ولا يوافقون الموعد . فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنا نريد غزو محمد فى جمع كثيف ، فيقدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهيز فيقول : تركت أبا سفيان قد جمع الجموع ، وسار فى العرب ليسير إليكم لموعدكم فيكره ذلك المسلمون ويهيبهم ذلك . ويقدم نعيم بن مسعود الأشجعى مكة ، فجاءه أبو سفيان بن حرب فى رجال من قريش فقال : يا نُعيم ، إنى وعدت محمداً وأصحابه يوم أحد أن نلتقى نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحول وقد جاء ذلك . فقال نعيم :

ما أقدمنى إلا ما رأيت محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع ، وقد تجلب إليه حلفاء الأوس من بلىّ وجهينة وغيرهم ، فتركت المدينة أمس وهى كالرمانة فقال أبو سفيان : أحقاً ما تقول ؟ قال : أى والله . فجزوا نُعيمًا خيراً ووصلوه وأعانوه فقال أبو سفيان : أسمعك تذكر ماتذكر ، ماقد أعدوا وهذا عام جدب ـ قال نعيم : الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لبعير شئ ـ وإنما يصلحنا عام خصب غيداق ترعى فيه الظهر والخيل ، ونشرب اللبن ، وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخلف من قبلهم أحب إلى ، ونجعل لك عشرين فريضة [(١)] ، عشراً أجذاعاً [(٢)] ، وعشراً حقاقاً [(٣)] وتوضع لك على يدى سهيل بن عمرو ويضمنها لك . قال نُعيم : رضيت .

وكان سهيل صديقا لنعيم فجاء سهيل فقال : يا أبا يزيد ، تضمن لى عشرين فريضة على أن أقدم المدينة فأخذل أصحاب محمد ؟ قال : نعم . قال : فإنى خارج ، فخرج على بعير حملوه عليه ، وأسرع السير فقدم وقد حلق رأسه معتمراً ، فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهزون ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من أين يانُعيم ؟ قال : خرجت معتمراً إلى مكة ، فقالوا : لك علم بأبى سفيان ؟ . قال : نعم ، تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب ، فهو جاءٍ بما لا قبل لكم به ، فأقيموا ولا تخرجوا ، فإنهم قد أتوكم فى دياركم وقراركم ، فلن يفلت منكم إلا الشريد ، وقُتلت سراتكم وأصاب محمدا فى نفسه ما أصابه من الجراح ، فتريدون أن تخرجوا إليهم فتقتلوهم فى موضع

---

(١) الفريضة : العطية الموسومة المعلمة ، (٢) الجذعة : من الإبل مادخل فى الخامسة .

(٣) الحقة : من الإبل مادخل فى السنة الرابعة إلى أخرها أى استحق الركوب .

من الأرض ؟ بئس الرأى رأيتم لأنفسكم ، وهو موسم يجتمع فيه الناس ، والله ما أرى أن يُفلت منكم أحدٌ ! وجعل يطوف بهذا القول فى أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعَّبهم وكرَّه إليهم الخروج حتى نطقوا بتصديق نُعيم ، أو من قد نطق منهم ، واستبشر بذلك المنافقون واليهود وقالوا : محمد لا يفلت من هذا الجمع ! واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك ، وتظاهرت به الأخبار عنده ، حتى خاف رسول الله ألا يخرج معه أحد ، فجاءه أبو بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه ، وعمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقد سمعا ما سمعا فقالا : يارسول الله ، إن الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، وقد وعدنا القوم موعداً ونحن لا نحب أن نتخلف عن القوم ، فيرون أنَّ هذا جبن منا عنهم ، فسر لموعدهم ، فوالله إن فى ذلك لخيرة !

فسر رسول الله ﷺ بذلك ثم قال : « والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد » ، قال : فلما تكلم رسول الله ﷺ تكلم بما بصَّر الله عز وجل المسلمين ، فأذهب ما كان رعَّبهم الشيطان ، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بدر .

فحدثت عن يزيد عن خصيفة قال : كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول لقد رأيتنا وقد قذف الرعب فى قلوبنا ، فما أرى أحداً له نية في الخروج ، حتى أنهج الله تعالى للمسلمين بصائرهم ، وأذهب عنهم تخويف الشيطان ، فخرجوا فلقد خرجت ببضاعة إلى موسم بدر فربحت للدينار ديناراً ، فرجعنا بخير وفضل من ربنا .

فسار رسول الله ﷺ فى المسلمين وخرجوا ببضائع لهم ونفقات ، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال ، فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة ، وكان رسول الله ﷺ قد خرج بألف وخمسمائة من أصحابه ، وكانت الخيل عشرة أفراس : فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبى بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبى قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب ، وفرس للزبير ، وفرس لعباد بن بشر .

فحدثنى على بن زيد عن أبيه قال : قال المقداد : شهدت بدر الموعد على فرس سبحة ، أركب ظهرها راكباً وراجعاً ، فلم يلق كيداً ، ثم إن أبا سفيان قال : يامعشر قريش ، قد بعثنا نُعيم بن مسعود لأن يخذل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهد ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج بلغه أنا خرجنا فرجعنا لأنه لم يخرج فيكون هذا لنا عليه ، وإن كان خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولايصلحنا إلا عام عشب ، قالوا : نعم ما رأيت فخرج فى قريش وهم ألفان ومعهم

خمســون فرساً ، حتى انتهوا إلى مجنة . ثم قال : ارجعوا لا يصلحنا إلا عام خصب غيداق ، نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا ، فسمى أهل مكة ذلك الجيش : جيش السويق ، يقولون : خرجوا يشربون السويق .

وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ على بن أبى طالب ، وأقبل رجل من بنى ضمرة يقال له مخشيى بن عمرو ، وهو الذى حالف رسول الله ﷺ على قومه فى غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى ودان فقال ــ والناس مجتمعون فى سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل الموسم ــ :

يامحمد ، لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم ، فقال رسول الله ﷺ - ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش - :

« ما أخرجنا إلا موعد أبى سفيان وقتال عدونا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ، ثم جالدناكم قبل أن نبرح من موسمنا هذا » فقال الضمرى : بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك .

وسمع بذلك معبد بن أبى معبد الخزاعى ، فانطلق سريعا ، وكان مقيماً ثمانية أيام ، وقد رأى أهل الموسم ، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ ، وسمع كلام مخشى ، فانطلق حتى قدم مكة فكان أول من خبَّر بموسم بدر ، فسألوه ، فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ، وأنهم أهل ذلك الموسم ، وماسمع من قول رسول الله ﷺ للضمرى ، وقال : وافى محمد فى ألفين من أصحابه ، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدع أهل الموسم ، فقال صفوان بن أمية لأبى سفيان :

قد والله نهيتك أن تعد القوم ، ولقد اجترؤوا علينا ، ورأوا أنا قد أخلفناهم ، وإنما خلَّفنا الضعف عنهم .

فأخذوا فى الكيد والنفقة فى قتال رسول الله ﷺ ، واستجلبوا من حولهم من العرب ، وجمعوا الأموال العظام ، وضربوا البعث على أهل مكة ، فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتى بما قل أو كثر ، فلم يقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق .

وأنزل الله عز وجل : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ (١) الآية ،

---

(١) آل عمران / ١٧٣ .

يعنى : نعيم بن مسعود .

وقال كعب بن مالك :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لموعده صدقاً وماكان وافياً
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا رجعت ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا بها أوصال عتبة وابنه وعمراً أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أف لدينكم وأمركم السيىء الذى كانا غاويا
وإنى وإن عنفتمونى لقائل فِدىً لرسول الله أهلى وماليا
أطعنا فلم نعدل سواه بغيره شهاباً لنا فى ظلمة الليل هاديا) (١)

ونقدم بعض الملاحظات حول الغزوة ، تجلى بعض المعانى فيها ، فتربطها بالنص القرآنى :

١ ـ كانت الآيات القرآنية تدعو المسلمين إلى قتال المشركين ، وتخص بالذكر مشركى مكة ، وهم الذين أوقعوا المحنة الرهيبة بالمسلمين :

﴿ وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ (٢) .

فكانت غزوة بدر الموعد استجابة لهذا التوجيه القرآنى ، ووفاء للوعد مع أبى سفيان ، والعرب لايمكن أن تدين لمحمد ﷺ ، وقريش فى شوكتها وقوتها ، فهى تنتظر أى الفريقين ينتصر حتى تكون معه .

٢ ـ يتضح الموقف العربى تماما بعد أحد وبئر معونة والرجيع ، وصدى هذه المواقع على القبائل العربية المجاورة ـ من خلال كلام مخشيى :

لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم .

ومن خلال كلام نُعيم :

(١) المغازى للواقدى / ١ / ٣٨٤ ـ ٣٨٩ .
(٢) النساء / ٧٥ .

فإنهم قد أتوكم فى داركم وقراركم فلن يُفلت منكم إلا الشريد ، وقتلت سراتكم ، وأصاب محمداً فى نفسه ماأصاب من الجراح .

وهذا الكلام يعكس الرأى العام العربى الذى تحول كله لصالح قريش بعد أحد .

٣ ـ وكان للحرب النفسية دورها فى هذه المعركة خاصة ، وفى البيئة العربية عامة ، فأبو سفيان وهو عازم على عدم الخروج لبدر يعطى عشرين من الإبل لنُعيم بن مسعود ، ليبلغ محمداً وصحبه رسالة كاذبة عن خروجه .

ويخرج وجيشه فى استعراض مسرحى مسيرة ليلة أو ليلتين ليتسامع العرب بخروجهم ، وأبو جهل يوم خرج إلى بدر قبل عامين قال :

والله لانرجع حتى نرد بدراً ، ونقيم بها ثلاثاً ، فنشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .

ولهذا وجدنا أن بعض الروايات المأثورة عن قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ أنها نزلت فى نُعيم بن مسعود الأشجعى يوم نقل لرسول الله ﷺ نبأ تجمع قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وقد رويت عن مجاهد وعكرمة والسدى وهذه أحدها :

(وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن عكرمة قال :

كانت بدر متجراً فى الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان أن يلقاه بها ، فلقيهم رجل فقال له : إن بها جمعاً عظيماً من المشركين ، فأما الجبان فرجع ، وأما الشجاع فأخذ أهبة التجارة وأهبة القتال وقالوا ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ ثم خرجوا حتى جاءوها فتسوقوا بها ولم يلقوا أحداً فنزلت : ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾) [1] .

(وأخرج بن جرير عن السدى : قال : أعطى رسول الله ﷺ حين خرج إلى غزوة بدر الصغرى ببدر دراهم ابتاعوا بها من موسم بدر ، فأصابوا تجارة ، فذلك قول الله : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ قال : أما النعمة فهى العافية ، وأما الفضل فالتجارة ، والسوء القتل) [2] .

(١ ، ٢) الدر المنثور / ٤ / ٣٨٩ و ٣٩١ .

٤ ـ ﴿ **فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك** ﴾ إذ وجدنا مصداق هذه الصورة من قول رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد » .

وفى نص الرواية : « حتى خاف رسول الله ﷺ أن لايخرج معه أحد » .

٥ ـ وبلغ من تحريض الرسول ﷺ للمؤمنين على القتال والتحضيض القرآنى على أجر المجاهدين ، أن تحرك جيش قوامه ألف وخمسمائة مقاتل إلى بدر الموعد ، وفشلت عملية الترعيب والتخويف والإشاعات التى أطلقها أبو سفيان وهو ضعف جيش أحد .

٦ ـ وانقلبت بعد بدر الموعد الساحة العربية لصالح المؤمنين ، وهابت العرب محمداً ﷺ بعدها ، وسرى فى صفها جبن قريش عن لقاء محمد ﷺ ، ورأينا ذلك من كلام مخشيى بن عمرو الضمرى :

لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم .

وقول معبد بن أبى معبد الخزاعى لأبى سفيان بعد بدر الموعد :

وافى محمد فى ألفين من أصحابه ، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدع أهل الموسم .

ومضت الركبان بشعر كعب بن مالك رضى الله عنه :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد ... لموعده صدقاً وماكان وافيا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... رجعت ذميماً وافتقدت المواليا

٧ ـ ﴿ **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ [1] .

يتضح تفسير هذه الآية تماماً من خلال حديث رسول الله ﷺ مع حلفائه بنى ضمرة وقائدهم مخشيى بن عمرو الذى حضر موسم بدر ، والنفسية التى كان يحملها : لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد وتوجس من مخالفته محمد من قريش بعد محنة المسلمين فى أحد ، وكيف كان الموقف الصلب منه من رسول الله ﷺ .

ـ يامحمد ، لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم .

---

(٢) النساء / ٩٠ .

ـ ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان وقتال عدونا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا .

ـ بل نكف أيدينا عنكم ، ونترك بحلفك .

﴿ جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا ﴾ .

٨ ـ ونجد الصورة الأخيرة للمنافقين كذلك من خلال موقف نعيم بن مسعود ، الذى كان يتكلم بطلاقته يوم أرهب أبا سفيان وصحبه من جيش محمد ﷺ وعاد مأجوراً لأبى سفيان ليؤدى الدور المعاكس ، فيفت فى أعضاد الناس ، ويخذل عن رسول الله ﷺ ، وكاد أن ينجح لولا ثبات رسول الله ﷺ والمؤمنين معه .

﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ .

(أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن السدى قال : ثم ذكر نعيم بن مسعود الأشجعى ، وكان يأمن فى المسلمين والمشركين بنقل الحديث بين النبى ﷺ والمشركين فقال : **﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة . . ﴾** يقول : إلى الشرك)[1] .

ولا غرو أن يهدد بالقتل مع قومه ، بعد الدور الرهيب الذى أداه حتى كاد أن يقعد المسلمين عن الجهاد .

٩ ـ ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا ﴾ .

وصدق الله العظيم ، فقد كف الله بأس الذين كفروا ، وأفزعهم من الخروج إلى بدر ، وخذلهم دون حرب ودون مواجهة ، وربح المسلمون الجولة دون قتال ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، وذلك بالثبات على الحق ، والنفير للجهاد فى سبيل الله ، وتحولت النتيجة إلى مغنم ومكسب مادى ، وهزيمة معنوية للمشركين .

---

(١) الدر المنثور / ٥ / ٦١٤ ، ٦١٥ .

دعوة إلى الهجـــرة

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [1] .

وإذا كانت دعوة المؤمنين للجهاد لتحرير المستضعفين فى مكة من الرجال والنساء والولدان ، فقد وجهت الدعوة إلى المستضعفين لكى يساهموا هم أنفسهم بتحرير أنفسهم ، وعدم الخنوع والقبول بالذل الذى يعانونه من أسيادهم الطغاة ، وأن قبولهم لفتنة الكفار لهم ، يجعلهم فى عداد الكافرين ، وهى دعوة إلى كل المسحوقين والمستضعفين والمحاربين فى الأرض ليعلنوا المواجهة والتجمع ضد الظالمين ، وأنهم لانصيب لهم فى الإيمان إن بقوا جزءاً من المجتمع الجاهلى الكافر بهم يحارب المؤمنين ، وبهم يبسط سلطانه .

وننظر فيما نزلت هذه الآيات :

(أخرج البخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ ، فيأتى السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب فيقتل فأنزل الله :

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾) [2] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه ، عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم وقتل بعض ، فقال المسلمون : قد كان

---

(١) النساء : ٩٧ ـ ١٠٠ .   (٢) الدر المنثور / ٥ / ٦٤ .

أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ إلى آخر الآية . قال : فكتب إلى من بقى من المسلمين بمكة بهذه الآية ، وأنه لاعذر لهم فخرجوا ، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فأنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ [(١)] إلى آخر الآية . فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ، فنزلت فيهم : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا ، فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل) [(٢)] .

وتحدد بعض الروايات أسماءهم وأعيانهم .

كما أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وساءت مصيرا** ﴾ قال :

(نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبى العاص بن منبه بن الحجاج ، وعلى بن أمية بن خلف ، قال : لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأن يطلبوا مانيل منهم يوم نخلة ، خرجوا معهم بشبان كارهين كانوا قد أسلموا ، واجتمعوا ببدر على غير موعد ، فقتلوا ببدر كفاراً ، ورجعوا عن الإسلام وهم هؤلاء الذين سميناهم) [(٣)] .

ونعيد إلى الذاكرة أن هؤلاء النفر هم الذين سماهم القرآن ـ منافقين ـ فى سورة الأنفال ، بقوله عز وجل :

﴿ **إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ [(٤)] .

وحيث قد قتلوا ببدر كفاراً جاءهم هذا الوعيد الشديد ، لأمثالهم الذين يتصورون أن الإسلام يقبل منهم أن يكونوا فى صف الكفار نصراً ومعونة وتأييداً ، ويبقى الإسلام فى القلب ولإيضاح هذه الصورة نأخذ هذه الرواية عن السدى كما أخرجها ابن جرير قال :

---

(١) العنكبوت / ١٠ .
(٢) الدر المنثور / ٥ / ٦٤٦ .
(٣) المصدر نفسه / ٦٤٣ .
(٤) الأنفال / ٤٩ .

(لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ :

« افد نفسك وابن أخيك » . قال : يارسول الله ، ألم نصل قبلتك ، ونشهد شهادتك ؟ قال : « ياعباس ، إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾ ، فيوم نزلت هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر ﴿ **إلا المستضعفين** ﴾ الذين ﴿ **لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا** ﴾ حيلة فى المال ، والسبيل الطريق . قال ابن عباس : كنت أنا من الولدان .

وفى رواية عنه : كنت أنا وأمى من الذين لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا) [1] .

(ويمضى هذا الحكم إلى آخر الزمان متجاوزاً تلك الحالة الخاصة التى كان يواجهها النص فى تاريخ معين ، وفى بيئة معينة . . يمضى حكماً عاماً ، يلحق كل مسلم تناله الفتنة فى دينه فى أية أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها متى كان هناك ـ فى الأرض أى مكان ـ دار للإسلام يأمن بها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدى فيها عباداته ، ويحيا حياة إسلامية فى ظل شريعة الله ، ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة) [2] .

﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ :

(فالمراغم عند ابن عباس : التحول من أرض إلى أرض ، وفى الرواية الثانية عنه : المنفسح بلغة هذيل ، واستشهد لها بقول الشاعر :

وأترك أرضى جهرة إن عندى رجاء فى المراغم والتعادى

وعند مجاهد : متزحزحاً عما يكره .

وعند السدى : مبتغىً للمعيشة .

وعند قتادة : متحولاً من الضلالة إلى الهدى ، ومن العيلة إلى الغنى) [3] .

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ :

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٣ / ٥ / ١٤٩ .

(٢) فى ظلال القرآن / ٢ / ٥ / ٧٤٥ . (٣) راجع الدر المنثور / ٥ / ٦٥٠ .

فالله تعالى يكتب له أجر الجهاد وأجر المجاهدين ، منذ أن يعزم العزمة الصادقة ، ويمضى فى سبيل الله ، وقد يدركه الموت على الطريق ، قتلاً أو حتف أنفه ، فلا ضير فقد تقبلته الملائكة عندها صديقاً شهيداً .

وحيث كان المسلم فى حسه الإسلامى يمثل مدى التجاوب العميق مع هذه النصوص ، نلحظ صورة من صور هذا التجاوب كما (أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن أبى ضمرة بن العيص الزرقى الذى كان مصاب البصر وكان بمكة ، فلما نزلت : ﴿ **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة** ﴾ فقال : إننى لغنى ، إنى لذو حيلة ، فتجهز يريد النبى ﷺ ، فأدركه الموت بالتنعيم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله** ﴾)[1] .

وفى رواية عنه أنه أمر أهله أن يفرشوا له على سريره ، ففرشوا له وحملوا ، وانطلقوا به متوجهاً إلى المدينة ، فلما كان بالتنعيم مات ، فنزل : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ .

وينطلق النص القرآنى خارج المناسبة التى نزلت بها الآية ليعلنه عليه الصلاة والسلام حكماً على امتداد الزمان والمكان .

فعن عبد الله بن عتيك قال : سمعت النبى ﷺ يقول :

« من خرج من بيته مجاهداً فى سبيله ـ وأين المجاهدون فى سبيله ـ فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله ، أومات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله ـ يعنى بحتف أنفه على فراشه ، والله إنها لكلمة ماسمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ ـ ومن قتل قعصاً فقد استوجب الجنة »[2] .

---

(١) الدر المنثور / ٥ / ٦٥١ .

(٢) رواه أحمد / ٤ / ٣٦ ، والحاكم وصححه / ٢ / ٨٨ .

صلاة الخوف

﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولاجناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا ﴾ (١) .

فى جو الجهاد ، وفى فرضية الصلاة ، وفرضية الجهاد ، وفى جو الغدر والمكر الذى أحاط بالمسلمين فى المدينة ، فى هذه الأجواء جاء حكم صلاة الخوف ، فى تفصيل دقيق لايختلف عن تفصيل آية الدين . متى تتم الصلاة ؟ متى تقصر الصلاة ؟ كيف تقصر الصلاة ؟ كيف تتم الحراسة ؟ متى يحمل السلاح ؟ متى يوضع السلاح ؟ متى يعاد إلى إقامة الصلاة ؟

لقد ذهب أكثر الصحابة والتابعين بعدهم إلى أن المقصود فى القصر فى هذه الآية هو صلاة الخوف وليس صلاة السفر ، إلا عائشة وسعدا رضى الله عنهما حيث كان يتمان فى السفر ، ويعتبران القصر وقفاً على الخوف .

(فقد أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أى أصحاب رسول الله ﷺ كان يتم الصلاة فى السفر ؟ قال : عائشة وسعد بن أبى وقاص) (٢) .

ونجد رواية عن على رضى الله عنه تزيل هذا اللبس أوردها ابن جرير فى تفسيرة وهى :

---

(١) النساء / ١٠١ ــ ١٠٣ .
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن / م ٤ / ٥ / ١٥٦ .

(سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ، إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ ثم انقطع الوحى . فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبى ﷺ فصلى الظهر ، فقال المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم ؟ ! فقال قائل منهم : إن لهم مثلها أخرى فى أثرها فأنزل الله بين الصلاتين : ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك** ﴾ إلى قوله ﴿ **إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا** ﴾ فنزلت صلاة الخوف)(١).

أما متى تمت الصلاة ؟ وكيف تمت ؟ فالروايات متعددة . هل كانت فى غزوة ذات الرقاع ؟ أو فى صلح الحديبية ؟ أو غيرهما ؟ والظاهر أنها تكررت مرات عديدة ، فروى كل راو بما شهد .

وعلى المنهج الذى نسير عليه فى ربط أحداث السيرة بآيات القرآن الكريم ، نلاحظ أن غزوة ذات الرقاع قد تمت فى هذه المرحلة ، بعد أحد وقبل الخندق ، نستعرضها ، ثم نستعرض روايات التفسير فى صلاة الخوف .

---

(١) المصدر نفسه / ١٥٥ .

غزوة ذات الرقاع

أما ماذكره ابن إسحاق عن الغزوة فهو :

(قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النضير [١] شهر ربيع الآخر ، وبعض جمادى ، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى [٢] ـ ويقال عثمان بن عفان ، فيما قاله ابن هشام ـ حتى نزل نخلاً [٣] وهي غزوة ذات الرقاع .

قال ابن هشام : وإنما قيل لها غزوة ذات الرقاع ؛ لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، ويقال ذات الرقاع : شجرة بذلك الموضع يقال لها : ذات الرقاع .

قال ابن إسحاق : فلقي بها جمعاً عظيماً من غطفان ، فتقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضُهم بعضا ، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف) [٤] .

ونلقى عند الواقدى تفصيلات أوضح وأهم نذكرها وهى كما وردت عنده :

(فإنما سميت ذات الرقاع ؛ لأنه جبل فيه بقع حمر وسواد وبياض ، خرج رسول الله ﷺ ليلة السبت لعشر خلون من المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً ، وقدم صراراً [٥] يوم الأحد لخمس بقين من المحرم ، وغاب خمس عشرة .

فحدثنى الضحاك بن عثمان ، عن عبيد الله بن مقسم ، وحدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن جابر ، وعن عبد الكريم بن أبى حفصة ، عن جابر ، وعبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر ، عن عبد الله بن أبى بكر ، ومالك بن أنس ، وعبد الله بن عمر ، عن

---

(١) أرجأنا الحديث عن بنى النضير ، رغم أنها تمت قبل غزوة ذات الرقاع ؛ لأنه نزل بها آيات خاصة هى سورة الحشر بتمامها ، والتى سنتحدث عنها بعد استيفاء الحديث عن آيات سورة النساء .

(٢) قال الزرقانى / ٢ / ١٩ : قاله ابن إسحاق وتعقبه ابن عبد البر بأنه خلاف ماعليه الأكثر بأن أبا ذر لما أسلم بمكة رجع إلى بلاده فلم يجيء إلا بعد الخندق .

(٣) موضع بنجد من أرض غطفان .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٢٠٤ .

(٥) صرار : بئر قديمة ، على ثلاثة أميال من المدينة تلقاء حرة واقم .

وهب بن كيسان ، عن جابر بن عبد الله ، وقد زاد بعضهم على بعض في الحديث ، وغيرهم قد حدثني به قالوا :

قدم قادم بجلب له ، فاشترى بسوق النبط ، وقالوا : من أين جلبت جلبك ؟ قال : جئت من نجد : وقد رأيت أنماراً وثعلبة قد جمعوا لكم جموعاً ، وأراكم هادين عنهم (١) . فبلغ النبى ، فخرج في أربعمائة من أصحابه ، وقال قائل : كانوا سبعمائة أو ثمانمائة ، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة ، حتى سلك على المضيق ، ثم أفضى إلى وادى الشُقْرَةَ فأقام بها يوماً وبث السرايا فرجعوا إليه مع الليل ، وخبروه أنهم لم يروا أحداً وقد وطئوا آثاراً حديثة ، ثم سار رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى أتى محالّهم ، فيجدون المحالّ ليس فيها أحد ، وقد ذهبت الأعراب إلى رؤوس الجبال ، وهم يطلُّون على النبى ﷺ ، وقد خاف الناس بعضهم بعضا ، والمشركون منهم قريب ، وخاف المسلمون أن يغيروا عليهم وهم غارون ، وخافت الأعراب ألا يبرح رسول الله ﷺ حتى يستأصلهم ، وفيها صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف . .) (٢) .

هذا هو الخط العام للغزوة ، وكما ذكرنا أن نرجىء الحديث عن صلاة الخوف إلى أن يتم استعراض جوانب الغزوة ، حيث برز فيها بعض الحوادث الجزئية الهامة نذكرها تباعاً :

أولا : محاولة اغتيال رسول الله ﷺ :

(قال شعيب عن الزهيرى : حدثنى سنان الدؤلى ، وأبو سلمة عن جابر ، أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلما قفل قفل معه ، فأدركته القافلة في وادى كثير العضاة (٣) ، فنزل وتفرق الناس فى العضاة يستظلون بالشجر ، وقال (٤) هو تحت شجرة ، فعلق بها سيفه ، فنمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فأجبناه ، فإذا عنده أعرابى جالس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو بيده صلتاً . فقال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله » . فشام السيف وجلس ، فلم يعاقبه رسول الله ﷺ وقد فعل ذلك .

---

(١) هكذا فى سائر النسخ ، ولعله تسهيل أهل الحجاز للهمزة وأصلها (هادئين) محقق المغازى / ٣٩٥ .

(٢) المغازى للواقدى / ١ / ٣٩٥ ، ٣٩٦ . وكل الروايات التى سنسوقها عنه هى من سنده السابق الذى ذكره آنفاً .

(٣) العضاة : أعظم الشجر أو كل شجرة ذات شوك .

(٤) قال : نام

وقال مسدد عن أبى عوانة عن أبى بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث)[1] .

وفى رواية أخرى عن جابر قال : (قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل ، فرأوا من المسلمين غرة ، فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ قال : « الله » . فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : « من يمنعك منى ؟ » . قال : كن خير آخذ . قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » . قال : لا ، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ، ولاأكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس)[2] .

وفى رواية إسحاق إشارتان جديدتان :

الأولى : إن محاولة القتل كانت عن تواطؤ وتخطيط مشترك من غطفان ومحارب ، وليست حادثة فردية .

(عن جابر بن عبد الله : أن رجلاً من محارب يقال له غورث قال لقومه من غطفان ومحارب قال لقومه : ألا أقتل لك محمداً ؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أقتله به . قال : فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيف رسول الله ﷺ فى حجره فقال : يامحمد ، انظر إلى سيفك هذا ؟ قال : « نعم ـ وكان محلّى بفضة ، فيما قاله ابن هشام ـ فأخذه واستله ، ثم جعل يهزه ويهُم فيكبته الله ، ثم قال : يا محمد ، أما تخافنى ؟ قال : « لا ، ومأأخاف منك ؟ » قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال : « لا ، يمنعنى الله منك ») .

الثانية : إنه نزل قرآن فى هذه الحادثة كما تقول تتمة الرواية :

(. . ثم عمد إلى سيف رسول الله ﷺ ، فردّه عليه ، قال : فأنزل الله :

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[3] .

---

(١) المغازى للذهبى من تاريخ الإسلام ، تحقيق عمر عبد السلام التدمرى . وقال عنه : متفق عليه وهو عند البخارى /م٢ / جـ٥ / المغازى ، باب غزوة ذات الرقاع / ٤٧ . وقد ساق البخارى الغزوة بعد الخندق .

(٢) المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى / ٢٤٨ .

(٣) المائدة / ١١ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن رومان : أنها أنزلت فى عمر وابن جحاش أخى بنى النضير وماهمٌ به ، فالله أعلم أى ذلك كان) [1] .

وهذه الرواية توجهنا إلى فائدتين هامتين :

الأولى : هى مدى التخطيط والتبييت لاغتيال رسول الله ﷺ ، وكيف أنه كان هدفاً رئيسياً عند العدو ، ولكن الله عصمه ، وهو يدفعنا إلى الحذر أكثر حيث لاعصمة لأحد ، وخاصة القيادات الإسلامية التى تكون هدفاً لمؤامرات العدو .

الثانية : عظمة المنة على الأمة بسلامة رسول الله ﷺ ، فقد جاء النص القرآنى يوحى بأن النيل من الرسول عليه الصلاة والسلام هو نيل من الأمة كلها ، وهى نعمة كبرى يذكر الله تعالى بها الأمة كما ذكرها من قبل فى إتمام النعمة بإكمال الدين ، وكان إكمال الدين مرتبطاً بسلامة رسول الله ﷺ من الفتك حتى يؤدى رسالة ربه :

﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ [2] .

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ :

ومن المناسب أن تقرن هذه الآية بآيات أحد : **﴿ .. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم .. ﴾**

فهناك صرف المؤمنين عن المشركين ليبتلى المؤمنين ، وقد عفا عنهم .

وهنا بعد أن خَلُص الصف ، وتمحَّص الحق من الباطل **﴿ .. كف أيديهم عنكم .. ﴾**.

وهناك قبل أن يخلص الصف ، جُرح رسول الله ﷺ وكلمت شفته ، وكسرت رباعيته، وشج وجهه ، ووقع فى حفرة أبى عامر الفاسق ، لخطأ المؤمنين ومخالفتهم لقائدهم عليه الصلاة والسلام .

وهنا يمسك الأعرابى بالسيف ، والرسول ﷺ أعزل من السلاح ، ويأتى لينفذ مؤامرة الغدر من قومه ، فيكبته الله ويذله ، ويسقط السيف من يده .

فكم يختلف العون الربانى والعناية الربانية للصف ، وفيه الدخل والخلل ، وللصف

---

(١) السيرة النبويه لابن هشام / ٣ / ٢١٦ .

(٢) المائدة ٦٧ .

وفيه الخلوص من الزبد ، وتمييز الخبيث من الطيب .

ثانيا : حراس الجيش الإسلامى :

قال ابن إسحاق وحدثنى عمى صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : (لما خرجنا فى غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصاب رجلٌ امرأةَ رجلٍ من المشركين ، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجها وكان غائباً ،فلما أُخبر الخبر حلف لا ينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمد ﷺ دماً ، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ فقال : « من رجل يكلؤنا [١] ليلتنا هذه ؟ » قال : فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فقالا : نحن يارسول الله ، قال : « فكونا بفم الشِّعب » وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادى - وهما عمار بن ياسر ، وعباد بن بشر ، فيما قاله ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب ، قال الأنصاري للمهاجرى : أى الليل تحب أن أكفيكه : أوله أم آخره ؟ قال : بل اكفنى أوله : قال : فاضطجع المهاجرى فنام ، وقام الأنصارى يصلى ، وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة [٢] القوم . قال : فرمى بسهم فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه فثبت قائما .

ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه وثبت قائما .

ثم عاد له بالثالث ، فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه ثم ركع وسجد ثم أهب [٣] صاحبه فقال : اجلس فقد أُثبتُ [٤] ، قال : فوثب . فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا [٥] به فهرب ، فلما رأى المهاجرى ما بالأنصار من الدماء ، قال : سبحان الله ! أفلا أهببتنى أول مارماك ؟ قال : كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أُنفدها ، فلما تابع عَلَىَّ الرمي ركعت فآذنتك ، وايم الله لولا أن أُضيع ثغراً أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه ، لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفِذها [٦] .

وفى رواية الواقدى : (كنت في سورة أقرؤها وهي سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أنى خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله ﷺ ، ما انصرفت ولو أتى على نفسى) [٧]

---

(١) يكلؤنا : يحفظنا .
(٢) الربيئة : الطليقة الذى تحرس القوم .
(٣) أهب صاحبه : أيقظه .
(٤) أثبت : جرحت جرحاً لا يمكن التحرك معه .
(٥) نذرا به : علما به
(٦) السيرة لابن هشام / م٢ /٢٠٨
(٧) المغازى للواقدى /٣٩٦/١، ٣٩٧ .

وتعطينا هذه الحادثة مدى التربية العظيمة التى وصل إليها الجيش بعد أحد ، ومدى الجهد فى البناء لتخليص الصف من شوائبه .

ثالثا : حديث جابر وزواجه وجمله ونخله :

تركنا جابرا [١] فى أحد وقد استشهد أبوه وترك له ست بنات ، وأثبت رضى الله عنه فدائية نادرة حين استأذن من رسول الله ﷺ أن يحضر غزوة حمراء الأسد ، وسمح له وحده بالحضور من الذين تخلفوا عن أحد .

ونشهد هذا الحديث دون تعليق . ونفقه منه عظمة التربية النبوية لأبناء الشهداء ، ومدى رعايته لهم فى كل شأن حقير أو خطير من شئونهم ، ونشهد نموذجاً فذاً من نماذج التربية النبوية الخالدة .

قال جابر : (فإنا لفى منصرفنا أتانا رسول الله ﷺ وأنا تحت ظل شجرة ، فقلت : هَلُمَّ إلى الظل يارسول الله ، فدنا إلى الظل فاستظل ، فذهبت لأقَرّب شيئاً إليه ، فما وجدت إلا جِرواً [٢] من قِثاء فى أسفل الغِرارة [٣] قال : فكسرته كسراً ثم قربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « من أين لكم هذا ؟ » فقلنا : شىء فَضُل من زاد المدينة ، فأصاب منه رسول الله ﷺ .

وقد جهرنا [٤] صاحباً لنا يرعى ظهرنا وعليه ثوب متخرق ، فقال رسول الله ﷺ : « أما له غير هذا ؟ » فقلنا : بلى يارسول الله . إن له ثوبين جديدين فى العيبة [٥] فقال له رسول الله ﷺ : « خذ ثوبيك » فأخذ ثوبيه فلبسهما ثم أدبر فقال رسول الله ﷺ : « أليس هذا أحسن ؟ ماله ضرب الله عنقه ؟ » فسمع ذلك الرجل فقال : يارسول الله ، فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فى سبيل الله » . قال جابر : فضربت عنقه بعد ذلك فى سبيل الله .

قال : فبينا رسول الله ﷺ يتحدث عندنا إلى أن جاءنا عُلْبة بن زيد الحارثى بثلاث بيضات أداحىّ [٦] فقال : يارسول الله ، وجدت هذه البيضات فى مفحص [٧] نعام . فقال رسول الله ﷺ : « دونك ياجابر ، فاعمل هذه البيضات » فوثبت فعملتهن ثم جئت

---

(١) الملاحظ أن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قد رُويت عنه معظم روايات غزوة ذات الرقاع ولعله أول مشهد يشهده مع رسول الله ﷺ بعد غزوة حمراء الأسد .

(٢) الجرو : صغير كل شئ حتى الحنظل والبطيخ . (٣) الغرارة : القربة . (٤) جهرنا : فاجأنا .

(٥) العيبة : زنبيل من أدم .. (٦) أداحى : مبيض النعام فى الرمل . (٧) مفحص : مجثم ومنزل النعام .

بالبيض في قصعة ، وجعلت أطلب خبزاً فلا أجده . قال : فجعل رسول الله ﷺ يأكل من ذلك البيض بغير خبز ، قال جابر : فرأيت رسول الله ﷺ قد أمسك يده وأنا أظن أنه قد انتهى إلى حاجته ، والبيض في القصعة كما هو . قال : ثم قام رسول الله ﷺ وأكل منه عامة أصحابنا ثم رحنا مبردين[1] .

قال جابر : وإنا لنسير إلى أن أدركنى رسول الله ﷺ فقال : « مالك ياجابر ؟ » فقلت : أى رسول الله جدى[2] أن يكون لى بعير سوء ، وقد مضى الناس وتركونى قال : فأناخ رسول الله ﷺ بعيره . فقال : « أمعك ماء » فقلت : نعم . فجئته بقعبٍ من ماء ، فنفث فيه ثم نضخ على رأسه وظهره وعلى عَجُزه ثم قال : « أعطنى عصاً » فأعطيته عصا معى ـ أو قال قطعت له عصًا من شجرة ـ قال : ثم نخسه ، ثم قرعه بالعصا ، ثم قال : « اركب يا جابر » . قال : فركبت فخرج ، والذى بعثه بالحق يواهق[3] ناقته مواهقة ما تفوته ناقته .

قال وجعلت أتحدث مع رسول الله ﷺ ثم قال : « أتزوجت يا أبا عبد الله ؟ » قلت : نعم . قال : «بكراً أم ثيباً ؟ » فقلت : ثيباً . فقال : « ألا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ ! » فقلت : يارسول الله ، بأبى وأمى ، إن أبى أصيب يوم أحد وترك تسع بنات وتزوجت امرأة جامعة تلم شعثهن وتقوم عليهن : قال : « أصبت » ثم قال : « إنا لو قدمنا صرارا أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك ، وسمعت بنا ، فنفضت نمارقها[4] » قال : قلت : والله يارسول الله مالنا نمارق . قال : « أما إنها ستكون فإذا قدمت فاعمل عملاً كيساً » قال : قلت : أفعل ما استطعت .

ثم قال : « بعنى جملك هذا ياجابر ». قلت : بل هو لك يارسول الله ، قال : « لا ، بل بعنيه »

قال : قلت : نعم ، سمِّنى به . قال : « « فإنى آخذه بدرهم » قال : قلت : تغبنني يارسول الله . قال : « لا ، لعمري » قال جابر : فمازال يزيدنى درهماً درهماً حتى بلغ به أربعين درهماً ـ أوقيه ـ فقال : « أما رضيت » . فقلت : هو لك ، فقال : « فظهره لك حتى تقدم المدينة » . قال : ويقال إنه قال : «آخذه منك بأوقية وظهره لك » فباعه على ذلك .

قال : فلما قدمنا صرارا أمر بجزور فنحرت ، فأقام به بيومه ثم دخلنا المدينة . قال جابر : فقلت للمرأة : قد أمرني النبى ﷺ أن أعمل عملاً كيساً . قالت : سمعاً وطاعة

---

(١) مبردين . نبتغى البرد .
(٢) جدى : حظى .
(٣) يواهق : يبارى ناقته فى السير ، ويمد عنقه ليسايرها .
(٤) النمارق : الوسائد .

لأمر رسول الله ﷺ ، فدونك فافعل .

قال : ثم أصبحت فأخذت برأس الجمل فانطلقت حتى أنخته عند حجرة رسول الله ﷺ وجلست حتى خرج ، فلما خرج قال : « أهذا الجمل ؟ » قلت : نعم يارسول الله الذى اشتريت . فدعا رسول الله ﷺ بلالا فقال : « اذهب فأعطه أوقية ، وخذ جملك يابن أخى فهو لك » فانطلقت مع بلال ، فقال بلال : أنت ابن صاحب الشعب ؟ فقلت : نعم . فقال : والله لأعطينك ولأ زيدنك ، فزادني قيراطاً أوقيراطين . قال : فما زال ذلك يثمر ويزيدنا الله به ، ونعرف موضعه حتى أصيب [1] هاهنا قريبا عندكم - يعنى الجمل [2] .

قال الواقدى : وحدثنى إسماعيل بن عطية بن عبد الله بن أنيس عن أبيه عن جابر ابن عبد الله قال : لما انصرفنا راجعين ، فكنا بالشُّقرة ، قال لى رسول الله ﷺ : « ياجابر . مافعل دين أبيك ؟ » فقلت : انتظرت عليه يارسول الله أن يجذ نخله . قال رسول الله ﷺ : « إذا جذذت فأحضرنى » ، قال : قلت : نعم ، ثم قال : « من صاحب دين أبيك ؟ » فقلت : أبو الشحم اليهودى ، له على أبى سقة [3] تمر . فقال لى رسول الله ﷺ : « متى تجذها ؟ » قلت : غدا . قال : « ياجابر ، فإذا جذذتها فاعزل العجوة على حدتها وألوان التمر على حدتها » . قال : ففعلت ، فجعلت الصيحانى على حدة ، وأمهات الجرادين على حدة ، والعجوة على حدة ، ثم عمدت إلى جُمَّاع من التمر مثل نُخبة وقرن وغيرها من الأنواع ، وهو أقل التمر ، فجعلته حبلاً واحداً ، ثم جئت رسول الله ﷺ فخبرته ، فانطلق رسول الله ﷺ ومعه عِليةُ أصحابه ، فدخلوا الحائط ، وحضر أبو الشحم ، قال : فلما نظر رسول الله ﷺ إلى التمر مصنفا قال : « اللهم بارك له » ثم انتهى إلى العجوة فمسَّها بيده وأصناف التمر ، ثم جلس وسطها ثم قال : « ادع غريمك » فجاء أبو الشحم فقال « اكتل » فاكتال حقه كله من حبل واحد وهو العجوة ، وبقية التمر كما هو ، ثم قال : « ياجابر ، هل بقى على أبيك شئ ؟ » قال : قلت : لا ، وبقى سائر التمر ، فأكلنا منه دهراً وبعنا منه حتى أدركت الثمرة من قابل ، ولقد كنت أقول : لو بعت أصلها ما بلغت ماكان على أبى من الدين ، فقضى الله ما كان على أبى من الدين ، فلقد رأيتنى والنبى ﷺ ليقول : « مافعل دَيْن أبيك ؟ » فقلت : قد قضاه الله عز وجل ، فقال : « اللهم اغفر لجابر » !

(١) أصيب يوم الحرة ، حين فتك مسلم بن عقبة بالمسلمين فى المدينة ، لخلعهم خلافة يزيد بن معاوية .

(٢) المغازى للواقدى /٢/٣٩٨ - ٤٠٠ والسيرة لابن هشام / م٢ /٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) سقة تمر : جمع وسق وهو الحمل ، وقدره الشرع بستين صاعاً .

فاستغفر لى فى ليلة خمساً وعشرين مرة [1]

وبعد هذا التطواف فى خفقات قلب جابر بين يدى نبيه عليه الصلاة والسلام، يتلقى من معين تربيته، نعود إلى صلاة الخوف ومرويات السيرة وكتب التفسير عنها.

أما فى غزوة ذات الرقاع، وهى أول صلاة صلاها عليه الصلاة والسلام بالمسلمين صلاة الخوف فقد وردت فيها خمس روايات مختلفة [2]:

الأولى : عن السدى : (يقوم الإمام ويقوم معه طائفتان، طائفة خلفه، وطائفة يوازون العدو، فيصلى بمن معه ركعة، ويمشون إليهم على أدبارهم حتى يقوموا فى مقام أصحابهم، وتلك المشية القهقرى، ثم تأتى الطائفة الأخرى فتصلى مع الإمام ركعة، ثم يجلس الإمام فيسلم فيقومون فيصلون لأنفسهم ركعة ثم يرجعون إلى صفهم ؛ ويقوم الآخرون فيضيفون إلى ركعته شيئاً تجزئه ركعة الإمام - أى للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعتان، ويسلم الإمام بعد ركعتين مع الطائفتين).

الثانية : رواية جابر : (ثم نودى بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم، فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا فى مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون، فصلى بهم ركعتين، والآخرون يحرسونهم ثم سلم، فكانت للنبى ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان ركعتان يومئذ).

الثالثة : عن ابن عباس : (يقوم الإمام ويقوم معه طائفة منهم، وطائفة يأخذون أسلحتهم ويقفون بإزاء العدو، فيصلى الإمام بمن معه ركعة ثم يجلس على هيئته، فيقوم القوم فيصلون لأنفسهم الركعة الثانية والإمام جالس، ثم ينصرفون فيقفون موقفهم، ثم يقبل الآخرون فيصلى بهم الإمام الركعة الثانية ثم يسلم، فيقوم القوم فيصلون لأنفسهم الركعة الثانية، فهكذا صلى رسول الله ﷺ يوم بطن نخلة).

وتفترق عن الرواية الأولى بتتابع الركعتين مع الإمام ثم تتمتهم بعد ذلك لركعتيهم، بينما نجد فى هذه الرواية صلاة كل طائفة لركعتيها مفترقتين.

الرابعة : عن عائشة رضى الله عنها : (صدع الناس صدعتين، فصفت طائفة وراءه، وقامت طائفة وجاه العدو، فكبر رسول الله ﷺ وكبرت الطائفة خلفه، ثم ركع

---

(١) المغازى للواقدى /١/٤٠٢. (٢) انظر : الدر المنثور /٥/٦٦٢.

وركعوا وسجد وسجدوا ، ثم رفع رأسه فرفعوا ، ثم مكث رسول الله ﷺ جالساً وسجدوا لأنفسهم سجدة ثانية ، ثم قاموا ثم نكصوا على أعقابهم يمشون القهقرى حتى قاموا من ورائهم ، وأقبلت الطائفة الأخرى فصلوا خلف رسول الله ﷺ ، فكبروا ثم ركعوا لأنفسهم ثم سجد رسول الله ﷺ سجدته الثانية فسجدوا معه ، ثم قام رسول الله ﷺ في ركعته وسجدوا لأنفسهم السجدة الثانية ، ثم قامت الطائفتان جميعاً فصلوا خلف رسول الله ﷺ ، فركع بهم ركعة فركعوا جميعاً ، ثم سجد فسجدوا جميعاً ، ثم رفع رأسه ورفعوا معه ، كل ذلك من رسول الله ﷺ سريعا جداً ، لا يألو أن يخفف ما استطاع ثم سلم فسلموا ، ثم قام وقد شركه الناس فى صلاته كلها) .

الخامسة : وهى الرواية التى نرجحها : لأنها مروية عمن حضر الصلاة من صحابة رسول الله ﷺ ولذلك أخذ بها معظم الفقهاء وأئمة الحديث ، أصحاب الصحاح الستة .

فقد أخرج مالك ، والشافعى ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى وابن ماجه ، والدارقطنى ، والبيهقى ، عن طريق صالح بن خوات ، عمن صلى مع النبى ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف : (أن طائفة صفت معه وطائفة تجاه العدو ، فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا وصلوا تجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم) .

وهناك روايات أخرى غير هذه الروايات ، وفى العودة إلى كتب الفقه المعتمدة يمكن الخوض فى تفضيلات أكثر فى هذا الموضوع .

ونعود إلى بقية الآية من خلال كتب التفسير مع الآية التى تليها : (أخرج البخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مرضى** ﴾ : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف وكان جريحاً)[1] .

(وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان الآية قال : رخص في وضع السلاح عند ذلك وأمرهم أن يأخذوا حذرهم ، وفي قوله : ﴿ **عذاباً مهينا** ﴾ قال : يعنى

---

(١) الدر المنثور /٥/٦٦٢ .

بالمهين الهوان ، وفى قوله : ﴿ **فإذا قضيتم الصلاة** ﴾ قال : صلاة الخوف ، ﴿ **فاذكروا الله** ﴾ قال : باللسان ، ﴿ **فإذا اطمأننتم** ﴾ يقول :إذا استقررتم وأمنتم)[١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾ قال : بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال .

وعن مجاهد والحسن وقتادة فيما رواه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وعبد الرزاق : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾ قال : مفروضاً ، وواجباً وكتابا واجباً ومنجما كل ما مضى وقت جاء وقت آخر)[٢] .

بقى علينا أن نذكر أن معظم الروايات تتحدث عن صلاة الخوف فى غزوتين هما : غزوة ذات الرقاع ، ويطلق عليها غزوة نجد كذلك الثانية كانت بعسفان .

وقد انفرد الإمام العلامة الذهبى من بين رواة السير بجعل غزوة بنى لحيان خلال هذه المرحلة ، فقال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من صلح بنى قريظة إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة .

لقد جعلها الواقدى فى محرم سنة ست ، وجعلها ابن إسحاق فى جمادى الأولى سنة ست ، بينما كانت غزوة الرجيع سنة ثلاث عند ابن إسحاق ، وعند الواقدى سنة ثلاث كذلك ، فلا يعقل أن يتأخر رسول الله ﷺ سنتين أو ثلاثًا حتى يثأر لخبيب وأصحابه[٣] .

وقد عبر الذهبى رحمه الله عن الأمر بصلح بنى قريظة ، ولم يقل بفتح بنى قريظة أى بعد الخندق ، بينما هى عند ابن إسحاق بعد فتح قريظة ، والذى يعنيه الذهبى ماذكره فى غزوة بنى النضير حيث يقول : (ثم غدا على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم)[٤] .

(١ ، ٢) المصدر نفسه / ٦٦٦ .

(٣) تختلط الأمور أحيانا لدى علماء السير ، فبعضهم يؤرخ السنة ببدايتها أى من المحرم ، وبعضهم يؤرخها من ربيع الأول وقت الهجرة ، فتكون مثلا غزوة الرجيع فى السنة الرابعة فى صفر إذا قيست ببداية العام ، وتكون فى السنة الثالثة إذا قيست بهجرة النبى ﷺ ، ومن هنا يقع بعض الاختلاف فى السنوات .

(٤) المغازى للذهبى / ١٤٩ ، ١٥٠ .

وفي رواية أخرى عن ابن عمر : (أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ ، فأجلى بني النضير ، وأقر قريظة ومنّ عليهم ، حتى حاربوا بعد ذلك . أخرجه البخارى)[1] .

ونعود إلى رواية ابن إسحاق :

(قال يونس عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن حزم وغيره قالوا : لما أصيب خبيب وأصحابه خرج رسول الله ﷺ طلباً لدمائهم ليصيب من بنى لحيان غرة ، فسلك طريق الشام وورّى على الناس أنه لا يريد بنى لحيان ، حتى نزل أرضهم - وهم من هذيل - فوجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أننا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة » ، فخرج رسول الله ﷺ فى مائتى راكب حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين حتى نزلا كراع الغميم ثم انصرفا إليه .

فذكر أبو عياش الزرقى أن رسول الله ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف)[2] .

ولم ينفرد الأزرقى بذلك فقد ورد ذلك عن ابن عباس ومجاهد وأبى هريرة رضى الله عنهم ، كما وردت الروايات عنهم فى الدر المنثور للسيوطى .

هذا ولابد من الإشارة إلى أن هذه الصلاة قد ذكرت فى صلح الحديبية ، كما ذكر ابن سعد فى طبقاته : (فرجع إلى رسول الله ﷺ فلقيه بغدير الأشطاط وراء عسفان فأخبره بذلك ، ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم فى خيله فأقام بإزائه وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف[3] .

وفي خبر إسلام خالد رضى الله عنه :

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا ، فهممنا أن نغير عليهم فلم يعزم لنا ، وكانت فيه خيرة فاطلع الله على مافى أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعا وقلت : الرجل ممنوع)[4] .

---

(١) المغازى للذهبى /١٤٩ ، ١٥٠ .
(٢) المغازى للذهبى /٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد /٢/٦٩ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير /٤/٢٤٠ .

فالله أعلم أن الصلاة قد تمت فى الغزوتين ، بنى لحيان والحديبية .

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيما ﴾ (١) .

(أخرج ابن جرير عن قتادة فى الآية يقول : (لا تضعفوا فى طلب القوم ، فإنكم إن تكونوا تتوجعون فإنهم يتوجعون كما تتوجعون ، وترجون من الأجر والثواب ما لا يرجون) (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال :

(لا تضعفوا فى طلب القوم ، إن تكونوا تتوجعون من الجراحات فإنهم يتوجعون كما تتوجعون ، **﴿ وترجون من الله ﴾** يعنى الحياة والرزق والشهادة والظفر فى الدنيا) (٣) .

لقد كانت بداية آيات أحد :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤) .

وكانت نهاية آيات النساء بصدد الجهاد :

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ .

وعندما نزلت الآية الأولى كان ذلك عقب أحد مباشرة ، والجراح عبقة بالدماء ، والمسلمون مثخنون بالجراح ، والمحنة على أشد ما تكون .

ورغم جراحاتهم مضوا إلى حمراء الأسد . ونجد جو هذه الآية ، ماذا فعلت فى نفوس المسلمين ، بعد عام تقريباً من أحد . ينقل لنا الواقدى تفصيلات لغزوة بنى لحيان ، فى عظمة المواجهة النبوية بهذا الجيش الجريح فيقول بسنده :

(ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران حيث كان مصابهم ، فترحم عليهم وقال : « هنيئاً لكم الشهادة » ، فسمعت به لحيان فهربوا فى رؤوس الجبال ، فلم نقدر منهم على أحد ، فأقام يوماً أو يومين وبعث السرايا فى كل ناحية ، فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان ـ وعسفان على بعد ثمانين كيلاً من مكة ـ فقال رسول الله ﷺ

---

(١) النساء/١٠٤ .

(٢) جامع البيان للطبرى /٥/١٦٨ .

(٣) الدر المنثور /٥/٦٦٩ .

(٤) آل عمران / ١٣٩ .

لأبى بكر : « إن قريشاً قد بلغهم مسيرى ، وأنى قد وردت عسفان ، وهم يهابون أن آتيهم ، فاخرج فى عشرة فوارس » . فخرج أبو بكر فيهم حتى أتوا الغميم ـ على بعد أربع وستين كيلا من مكة ـ ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم : ويخافون أن نكون نريدهم » ـ وخبيب بن عدى يومئذ فى أيديهم ـ فبلغ قريشاً أن رسول الله ﷺ قد بلغ الغميم ، فقالت قريش : ما أتى محمد الغميم إلا يريد أن يخلص خبيباً ، وكان خبيب وصاحباه فى حديد موثقين ، فجعلوا فى رقابهم الجوامع ، وقالوا : قد بلغ محمد ضجنان وهو داخل علينا ، فدخلت ماوية على خبيب فأخبرته الخبر وقالت : هذا صاحبك قد بلغ ضجنان يريدكم ، فقال خبيب : وهل ؟ قالت : نعم . قال خبيب يفعل الله مايشاء !) [1] .

فإذن قد كانت العزيمة النبوية تفت فى عضد قريش ، وتخيفها وهى فى عقر دارها ، وحققت هذه العملية أهدافها كاملة ، وحسب الرأى الذى رجحه الذهبى رحمه الله أن بين غزوة الرجيع وغزوة بنى لحيان ثلاثة أشهر فقط ، فغزوة الرجيع فى صفر ، وغزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى ، وبين أحد ووصول رسول الله ﷺ إلى حدود مكة سبعة أشهر فقط ، ولا غرابة فى ذلك ، فعملية الثأر لا تتم بعد سنتين أو ثلاث ، إنما تتم بعد شهرين أو ثلاثة ، ولاننسى كذلك أن رسول الله ﷺ أرسل فعلا عمرو بن أمية الضمرى لا ستنقاد خبيب أو جثته بعد صلبه .

إن التوجيه القرآنى الذى عالج الضعف البشرى والخطأ البشرى ، والقيادة النبوية العظيمة التى كانت ترعى هذا الجيل الإسلامى ، استطاعت أن تنهض بالجماعة بعد عثارها ، واستطاعت أن تلئم الجراح وتتجاوز المحنة ، وتكشف الزيف والنفاق ، وتمضى بالجماعة فى بناء تربوى محكم لمتابعة المواجهة والجهاد ضد العدو .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٥٣٦ .

سورة الحشر ـ غزوة بنى النضير

يقول عز وجل :

﴿ سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب . ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين . وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ [1] .

عندنا روايات عديدة لأحداث هذه الغزوة ، لكن أهم هذه الروايات والتى تعطينا صورة عن أجواء الغزوة ، هى هذه الرواية :

(أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أبى بن سلول ، ومن كان يعبد الأوثان معه من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر يقولون : إنكم قد آويتم صاحبنا ، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه . أو لنستعدين عليكم العرب ، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم وأبناءكم . فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن معه من عبدة الأوثان تراسلوا واجتمعوا وأجمعوا لقتال النبى ﷺ وأصحابه . فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم فى جماعة من أصحابه فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » .

---

(١) الحشر / ١ ـ ٦ .

فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش)[1] .

كانت هذه الصورة ابتداءً هي التى تمثل حقيقة الجو بين قريش ورسول الله ﷺ ، وكثيرا ماتسيطر علينا الصورة الخاطئة أن المسلمين هم الذين ابتدؤوا الهجوم على قريش حين لاحقوا القافلة التجارية ، بينما نجد الرواية المذكورة آنفا توضح مدى الحرب العوان التى تخطط قريش لها ، وذلك فى محاولة شن حرب داخلية ضد المسلمين فى صفوف المدينة مع التهديد والوعيد الشديدين باستئصال ابن أبيٍّ وأصحابه إن لم يفعلوا ذلك . وحين فشلت هذه الخطة لجؤوا إلى اليهود لينهوا بهم محمداً عليه الصلاة والسلام .

(.. وكانت وقعة بدر بعد ذلك ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم[2] نسائكم شئ ، فلما بلغ كتابهم اليهود اجتمعت بنو النضير بالغد ، وأرسلوا إلى النبى ﷺ أن اخرج إلينا فى ثلاثين من أصحابك ، وليخرج إليك منا ثلاثون حبراً حتى نلتقى بمكان نصف بيننا وبينك ، ويسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا . فخرج النبى فى ثلاثين من أصحابه ، وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود ، حتى إذا برزوا فى براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله ، فأرسلوا كيف نفهم ونحن ستون رجلاً .؟ ! اخرج فى ثلاثة من أصحابك ، ونخرج إليك فى ثلاثة من علمائنا فيسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك . فخرج النبى ﷺ فى ثلاثة من أصحابه ، وخرج ثلاثة من اليهود ، واشتملوا على الخناجر ، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار ، فأخبرته خبر ما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبى ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم ، فرجع النبى ﷺ ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم :

« إنكم والله لاتأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومه ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بنى قريظة ــ بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بنى النضير بالكتائب ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ماأقلت الإبل إلا الحلقة ــ والحلقة السلاح ــ

(١) الدر المنثور / ٨ / ٢٨ / ٩٣ . وهى عند أبى داود فى جـ٣ / ١٥٥ ــ ١٥٧ . خبر بنى النضير وفى الدلائل للبيهقى.

(٢) خدم نسائكم : خلاخيلها .

فجلت بنو النضير ، واحتملوا ماأقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها ، فيحتملون ماوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام . وكان بنو النضير من سبط من أسباط بنى إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله الجلاء على بنى إسرائيل فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم فى الدنيا كما عُذبت بنو قريظة ، فأنزل الله : ﴿ **سبح لله مافى السماوات ومافى الأرض** ﴾ حتى بلغ ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ ، فكان نخيل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، فأعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ **ماأفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يقول بغير قتال . فأعطى النبى ﷺ أكثرها المهاجرين ، وقسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار كانا ذوى حاجة لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما ، وبقى منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدى بنى فاطمة) [1] .

والملاحظ أن هذه الرواية تشير إلى أنّ غزوة بنى النضير كانت بعد غزوة بدر ، وإلى هذا ذهب الإمام البخارى رحمه الله والزهرى .

(قال معمر : عن الزهرى ، عن عروة : كانت غزوة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة ، وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء على أن لهم ماأقلت الإبل إلا السلاح ، فأُنزلت : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . .** ﴾ فأجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء ، وكان الله قد كتب عليهم الجلاء ، ولولا ذلك لعذبهم بالقتل أو السبى .

وقوله ﴿ **لأول الحشر** ﴾ أى كان جلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام .

ويرويه عقيل عن الزهرى قوله : وأسنده زيد بن المبارك الصنعانى عن عروة عن عائشة . وذكر عائشة غير محفوظ .

وقال ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر : (إن يهود بنى النضير ، وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى بنى النضير ، وأقرّ قريظة ومنّ عليهم حتى حاربوا بعد ذلك) . أخرجه البخارى) [2] .

---

(١) الدر المنثور / ٨ / ٢٨ / ٩٣ .   (٢) البخارى ، كتاب المغازى ، باب حديث بنى النضير (٥ / ١١٢) .

(وذهب موسى بن عقبة وابن إسحاق إلى أن غزوة بنى النضير كانت بعد أحد ، وكذلك قال غيرهما . ورواه ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة) [١] .

هذا ولم يرجح الإمام الذهبى فى كتابه ـ المغازى ـ أيّاً من الروايتين ، بل أوردهما معاً عقب بدر وعقب أحد .

والذى ركزت عليه الرواية السابقة هو مدى التخطيط المشترك بين قريش واليهود للقضاء على النبى ﷺ ، ومحاولة الفتك به ، وكيف أنهم خافوا من تنفيذ هذا الاغتيال عندما كان بين ثلاثين من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله .

أما الرواية التى تحدثت عن غزوة بنى النضير وأنها كانت بعد أحد ، فقد وردت فى مغازى موسى بن عقبة ، كما أوردها الذهبى عنه بهذه الصيغة :

(إن رسول الله ﷺ خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى عقل الكلابيَّين [٢] ، وكانوا قد دسوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ ، فحضوهم على القتال ، ودلوهم على العِورة ، فلما كلمهم رسول الله ﷺ فى عقل الكلابيين ، قالوا :

اجلس يا أبا القاسم حتى تُطعم وترجع بحاجتك ، ونقوم ونتشاور . فجلس بأصحابه ، فلما خلوا والشيطان معهم ، ائتمروا بقتل رسول الله ﷺ وقالوا : لن تجدوه أقرب منه الآن ، فاستريحوا منه تأمنوا . فقال رجل : إن شئتم ظهرت فوق البيت الذى هو تحته فدليت عليه حجراً فقتلته ، فأوحى الله إليه فأخبره بشأنهم وعصمه ، فقام كأنه يقضى حاجة ، وانتظره أعداء الله ، فراث [٣] عليهم . فأقبل رجل من المدينة فسألوه عنه فقال : لقيته قد دخل أزقة المدينة ، فقالوا لأصحابه : عجل أبو القاسم أن نقيم أمرنا فى حاجته ، ثم قام أصحاب رسول الله ﷺ ، فرجعوا ونزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم** ﴾ [٤]) [٥] .

ولاتخرج رواية ابن إسحاق عن ذلك .

والملاحظ أن الصبغة التى انتشرت بعد أحد فى محاولة الفتك بالنبى ﷺ والعليّة من

---

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للإمام الذهبى / ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) هما اللذان قتلهما عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه خطأً ، ولم يعلم أن لهما أماناً من رسول الله ﷺ ، وعقلهما: ديتهما .

(٣) راث عليهم : أبطأ عليهم .　　(٤) المائدة : ١١ .　　(٥) المغازى للذهبى / ١٥١ .

أصحابه تكاد تكون متشابهة ، فأصحاب الرجيع وبئر معونة إنما استشهدوا ليبلغوا دعوة الله تعالى فى نجد ، وغُدِر بهم . وخطة بنى النضير كانت تنصب فى ظاهرها على الدعوة إلى الحوار والمناظَرة ، وهم على استعداد أن يسلموا جميعاً بعد إيمان أحبارهم . ولانستبعد أن تكون هذه الخطط عن تبييت مشترك بين اليهود والمشركين فى الأرض العربية ، وذلك على أثر أجواء أحد ومحنتها الرهيبة فى الصف الإسلامى .

وحتى لانضيع فى متاهات الرواية ، نعود إلى الآية القرآنية ؛ لتكون المنطلق لرواية السيرة وفقه جوانبها المتعددة .

﴿ سبح لله مافى السماوات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

وتسبيح الله تعالى ابتداء إشارة إلى أن كل مافى هذا الكون خاضع لله عز وجل ، والذين كفروا وخرجوا على منهج الله لابد أن يساقوا للانقياد لهذا المنهج ، فقد سبقوا إلى أرض المحشر . إيذاناً بالسوق الأخير من هذه الأرض المباركة إلى الله تعالى .

﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ (١) .

﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ (٢) .

وتتدخل الإرادة الربانية فى بنى النضير ، كما تدخلت فى قريش من قبل .

وكما خرجت قريش بخيلها وخيلائها تحاد الله وتكذب رسوله ، استعصت بنو النضير تُحادُّ الله وتكذب رسوله وتعلم أنه الحق ، وتغتر بقوتها وخيلها وخيلائها وتتحدى رسول الله ﷺ .

﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ .

ولابد أن نشهد كل فقرة من كل آية ، من خلال السورة ، والحدث الذى يوضح هذه الفقرة .

(١ ، ٢) سورة مريم / ٨٥ ، ٨٦ .

وهذه الصورة الأولى من ﴿ **الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ :

(. . ثم خلا بعضهم إلى بعض فتناجوا ، فقال حيي بن أخطب :

يامعشر اليهود قد جاءكم محمد في نفير من أصحابه لايبلغون عشرة [١] ، فاطرحوا عليهم حجارة من فوق هذا البيت الذى هو تحته فاقتلوه ، فلن تجدوه أخلى منه الساعة ! فإنه إن قتل تفرق أصحابه ، فلحق من كان معه من قريش بحرمهم ، وبقى من هاهنا من الأوس والخزرج حلفاؤكم ! فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن !

فقال عمرو بن جحاش : أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة .

قال سلام بن مكشم : ياقوم ، أطيعونى هذه المرة ، وخالفونى الدهر ، والله إن فعلتم ليُخبرن بأنا قد غدرنا به ؛ وإن هذا نقض العهد الذى بيننا وبينه ، فلا تفعلوا ! ألا فو الله لو فعلتم الذى تريدون ليقومن بهذا الدين منهم قائم إلى يوم القيامة ، يستأصل اليهود ويظهر دينه !

وقد هيأ [٢] الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ ، ويحدرها ، فلما أشرف بها جاء رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما هموا به ، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة ، وتوجه إلى المدينة ، وجلس أصحابه يتحدثون وهم يظنون أنه قام يقضى حاجة ، فلما يئسوا من ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما مقامنا هاهنا بشىء ! لقد وُجِّه رسول الله ﷺ لأمر ، فقاموا . فقال حيي : عجَّل أبو القاسم ! قد كنا نريد أن نقضى حاجته ونغديه.

وندمت اليهود على ماصنعوا ، فقال لهم كنانة بن صويراء :

هل تدرون لما قام محمد ؟ قالوا : لا والله ، ماندرى ولاتدرى أنت ! قال : بلى والتوراة ، إنى لأدرى ؛ قد أخبر محمد ما هممتم به من الغدر ، فلا تخدعوا أنفسكم ؛ والله إنه لرسول الله ، وماقام إلا أنه أُخبر بما هممتم به . وإنه لآخر الأنبياء ، كنتم تطمعون أن يكون من بنى هارون فجعله الله حيث شاء ، وإن كتبنا والذى درسنا فى التوراة التى لم تغير ولم تبدل أن مولده بمكة ، ودار هجرته يثرب ، وصفته بعينها ماتخالف حرفاً مما فى كتابنا ، ومايأتيكم به أولى من محاربته إياكم ، ولكنى أنظر إليكم ظاعنين ، يتضاغى [٣]

(١) ومعه أبو بكر وعمر وعلى والزبير وطلحة ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة .

(٢) أى : عمرو بن جحاش . (٣) يتضاغى : يبكى .

صبيانكم ، قد تركتم دوركم خلوفاً وأموالكم ، وإنما هى شرفكم ، فأطيعونى فى خصلتين ، والثالثة لاخير فيها !

قالوا : ماهما ؟

قال : تسلمون وتدخلون مع محمد ، فتأمنون على أموالكم وأولادكم وتكونون من عِلية أصحابه ، وتبقى بأيديكم أموالكم ، ولاتخرجون من دياركم .

قالوا : لانفارق حكم التوراة وعهد موسى !

قال : فإنه مرسل إليكم : اخرجوا من بلدى ، فقولوا : نعم ، فإنه لايستحل لكم دماً ولا مالاً وتبقى أموالكم ، إن شئتم بعتم ، وإن شئتم أمسكتم .

قالوا : أما هذه فنعم .

قال : أما والله إن الأخرى خيرهن لى ، أما والله لولا أن أفضحكم لأسلمت ، ولكن والله لاتعيّر شعثاء (١) بإسلامى أبداً حتى يصيبنى ماأصابكم .

فقال سلام بن مكشم : قد كنتُ لما صنعتم كارهاً ، وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من دارى فلا تعقب يا حيى كلامه ، وأنعم له بالخروج ، واخرج من بلاده ! قال : أفعل ، أنا أخرج !) (٢) .

لقد كانت قيادات بنى النضير على خلاف فى الموقف ، كما كانت قيادات قريش فى بدر .

وإن كان حيى بن أخطب هو الذى يضرم حطب الحرب والفتنة ضد رسول الله ﷺ بما يفجر قلبه من حقد فهو يمثل صورة أبى جهل فى عدائه اللدود لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكما كان أبو سفيان فى بدر يدعو إلى عدم المواجهة مع محمد وأصحابه ، بعد أن نجَّا الله عيرهم ، ولإصراره على أن المواجهة بغى والبغى منقصة وشؤم .

وكنانة بن صويراء هو الذى يدعو صراحة لدخول يهود فى الإسلام ، لما يعرف من صدق رسول الله ﷺ ، يعيد إلى ذاكرتنا صورة عتبة بن ربيعة الذى قال لقومه قبل بدر :

---

(١) هى ابنة كنانة بن صويراء التى كان حسان يشبب بها .

(٢) المغازى للواقدى / ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٦ .

(والله ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، ياقوم ، أطيعونى فى هذا الأمر واعصونى بعده ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلامًا ما سمعت أذناى كلامًا مثله ، وما دريت ما أرد عليه) (١) .

وهو الذى قال لهم فى بدر :

(أطيعونى ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه ، واعصبوا هذا الأمر برأسى واجعلوا جبنها بى ، فإن منهم رجالاً قرابتهم قريبة ، ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه ، فيورث ذلك بينهم شحناء وأضغاناً .. يا قوم ، إن يك محمد كاذبًا يكفيكموه ذؤبان العرب ، وإن يك ملكاً أكلتم فى ملك ابن أخيكم ، وإن يك نبيًا كنتم أسعد الناس به ! يا قوم ، لا تردوا نصيحتى ولا تسفهوا رأيى) (٢) .

وهو الذى قال عنه رسول الله ﷺ : (إن يطيعوا صاحب الجمل الأحمر يهتدوا) (٣).

وإن كان الفرق بين الموقفين والشخصيتين ، أن كنانة بن صويراء تنطق الكتب بين يديه بنبوة محمد ﷺ ، أما عتبة بن ربيعة ، فقد كان من الأميين فى كتب النصارى واليهود .

هؤلاء الكفار من أهل الكتاب حتى كنانة بن صويراء ـ الذى لا يشك لحظة واحدة فى أن محمدًا نبى مرسل ـ منعه من الإسلام أن تعير ابنته بإسلامه ، كما منع أمية بن أبى الصلت ذلك : أن لا تعيره نساء ثقيف بأنه اتبع غلامًا من بنى عبد مناف ، وهو الذى كان يُعدّ نفسه للنبوة .

لقد حرصت على هذه المقارنة بين بدر وبنى النضير ، وبين قيادات قريش ، وقيادات بنى النضير ؛ لأن النصر الذى تحقق فى بنى النضير كما تشير الآيات القرآنية وتركز عليه أنه نصر خالص من عند الله ، لا بحول المؤمنين ولا بقوتهم ، فالمسلمون قال عنهم الله تعالى :

---

(١) سبل الهدى والرشاد /٢/٤٤٩ . (٢) المغازى للواقدى /١/٦٣ .

(٣) وهى فى دلائل النبوة عند البيهقى /٣/٦٣ : (إن يك فى القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر) .

﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ .

ونجد العرض القرآني يؤكد على الإخراج الرباني لهم ، والطرد الإلهي لهم ، ولذلك جاءت الآية القرآنية لتؤكد :

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ .

وقد كتب الله الجلاء على بني إسرائيل . فذاقوه جميعًا ، إلا سبط بني إسرائيل ، تأخر جلاؤهم إلى اليوم ، وتحقق بهم موعود الله وعقوبته :

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا ﴾ .

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ .

﴿ ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ .

فكيف كان إخراجهم ، من خلال الواقع الحي في السيرة ؟ .

(وجاء محمد بن مسلمة فقال : اذهب إلى بني يهود بني النضير فقل لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلده ، فلما جاءهم قال :

إن رسول الله أرسلني إليكم برسالة ، ولست أذكرها لكم حتى أعرِّفكم شيئًا تعرفونه ، قال :

أنشدكم بالتوارة الذي أنزل الله على موسى ، هل تعلمون أني جئتكم قبل أن يبعث محمد ﷺ وبينكم التوارة فقلتم لي في مجلسكم هذا : يابن مسلمة ، إن شئت نفديك فديناك ، وإن شئت أن نهودك هودناك . فقلت لكم : غدوني ولا تهودوني ، فإني والله لا أتهود أبدا ! فغديتموني في صحفة لكم ، والله لكأني أنظر إليها كأنها جزعة . فقلتم لي : ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود ، كأنك تريد الحنيفية التي سمعت بها ، أما إن أبا عامر [1] قد سخطها وليس عليها ، أتاكم صاحبها الضحوك القتال في عينيه حمرة ، يأتي من قبل اليمن ، يركب البعير ويلبس الشملة ، ويجتزئ بالكسرة ، سيفه على عاتقه ، ليست معه آية ، هو ينطق بالحكمة كأنه وشيجتكم هذه ؛ والله ليكونن بقريتكم هذه سلب وقتل ومُثْل ! .

---

(١) هو أبو عامر الراهب ، الذي كان يحلم أن يكون النبي المنتظر ، وهو الذي سماه المسلمون أبو عامر الفاسق .

قالوا : اللهم نعم ، قد قلناه لله ولكن ليس به .

قال : قد فرغت ، إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم : قد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم من الغدر بى ـ وأخبرهم بما كانوا ارتأوا من الرأى وظهور عمرو بن جحاش على البيت يطرح الصخرة . فأسكتوا فلم يقولوا حرفا .

ويقول : اخرجوا من بلدى ، فقد أجلتكم عشراً فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه ! .

قالوا يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس .

قال محمد ـ بن مسلمة ـ : تغيرت القلوب .

فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون ، وأرسلوا إلى ظهرٍ لهم بذى الجدر تجلب ، وتكاروا من ناسٍ من أشجع إبلاً وأخذوا فى الجهاز)[1] .

ونحن نراهم هنا قد استجابوا لرسالة رسول الله ﷺ ، وطغا حلم سلام بن مكشم وكنانة بن صويراء على حقد حيى بن أخطب ، ونفذوا وصية كنانة فى الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ فى الخروج ، ومرت أيام عدة ـ كما ذكر الواقدى آنفاً ـ وهم يتجهزون للخروج من المدينة ، تنفيذاً لأمر رسول الله صلوات الله عليه ، ودعوا الإبل التى كانت ترعى خارج المدينة فى ذى الجدْر لتنضم إليهم مع خروجهم ، واستأجروا إبلاً من قبيلة أشجع لتحملهم وجهازهم خارج المدينة .

لكن الصورة تغيرت تماماً عندهم بعد أن جاء وفد المنافقين . لحثهم على رفض الأمر ، وأنهم سيكونون حلفاءهم يقاتلون معهم ، بل يوجهونهم إلى أخذ المدد من غطفان ومن بنى قريظة .

فاهتبلها حيى بن أخطب ، وعاد ففجر الجو من جديد ، وذكّى حقده فى رفض الخروج فقال :

(أنا أرسل إلى محمد أعلمه أنا لا نخرج من دارنا وأموالنا) .

فواجهه سلام بن مكشم بقوله :

(منتك نفسك والله يا حيى الباطل ، إنى والله لولا أن يسفَّه رأيك أو يزرى بك

---

(١) المغازى للواقدى ١/٣٦٦ .

لاعتزلتك بمن أطاعنى من اليهود ؛ فلا تفعل يا حيى ، فوالله إنك لتعلم ونعلم معك أنه لرسول الله ، وأنَّ صفته عندنا ، فإن لم نتبعه ، وحسدناه حيث خرجت النبوة من بنى هارون ! فتعال نقبل ما أعطانا من الأمن ونخرج من بلاده ، فقد عرفت أنك خالفتنى فى الغدر به ، فإن كان أوان الثمر جئنا أو جاء من جاء منا إلى ثمره فباع أو صنع ما بدا له ، ثم انصرف إلينا فكأنا لم نخرج من بلادنا إذا كانت أموالنا بأيدينا ، إنا إنما شرفنا على قومنا بأموالنا وفعالنا ، فإذا ذهبت أموالنا من أيدينا كنا كغيرنا من اليهود فى الذلة والإعدام ، وإن محمداً إن سار إلينا فحصرنا فى هذه الصياصى يوماً واحداً ، ثم عرضنا عليه ما أرسل به إلينا لم يقبله وأبى علينا .

قال حيى : إن محمداً لا يحصرنا إلا أن أصاب منا نهزة وإلا انصرف ، وقد وعدنى ابن أبى ما قد رأيت .

فقال سلام : ليس قول ابن أبى بشىء .

قال حيى : تأبى نفسى إلا عداوة محمد ، وإلا قتاله .

قال سلام : فهو والله جلاؤنا عن أرضنا ، وذهاب أموالنا ، وذهاب شرفنا ، أو سباء ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فأبى حيى إلا محاربة رسول الله ﷺ فقال له : ساورك بن أبى الحقيق فغضب حيى ـ وكان ضعيفا عندهم فى عقله كأن به جُنة ـ يا حيى ، أنت رجل مشؤوم ، تهلك بنى النضير ، وقال : كل بنى النضير قد كلمنى حتى هذا المجنون .

فضربه إخوته وقالوا لحيى : أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك .

فأرسل حيى أخاه جدى بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إنا لا نبرح من دارنا وأموالنا ، فاصنع ما أنت صانع) .

لقد حاربت يهود بنو النضير ، وأعلنوها شعواء ضد المسلمين ، وانتهى خلاف الحمائم والصقور إلى رأى واحد هو حرب النبى ﷺ وصحبه .

﴿ وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ﴾ .

يقول حيى بن أخطب أكبر مجرميهم :

(أنا أرسل إلى محمد أعلمه أنا لا نخرج من دارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له .

نرم [1] حصوننا ، ثم ندخل ما شيتنا ، وندرب [2] أزقتنا ، وننقل الحجارة إلى حصوننا ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا واتن [3] في حصوننا لا نخاف قطعه ، فترى محمداً يحصرنا سنة ؟؟ !) [4] .

وهذا الاحتياط فى التفكير البشرى صحيح ، فلن يستطيع المسلمون حصار بنى النضير عاماً كاملاً ، وسينسحبون ، والقوم فى مأمن من غذائهم وشرابهم وقوتهم ، أما فى القدرة الإلهية فخطأ محض .

فمن يحارب الله ورسوله ؟ ومن لجند الله فى هذه الأرض ؟ .

﴿ فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ .

إنه سلاح بيد الله وحده ، يرمى به من شاء من عباده ، فإذا هم كأمس الدابر :

﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ وكان هذا فى بدر .

﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ وها هو اليوم فى بنى النضير .

فإذا انهار حصن القلب ، وتحطمت قلعة الشجاعة فى النفس وغزاها الرعب من أقطارها فماذا تنفع الصياصى الحصون .

وظن اليهود أن حصونهم الحصينة ستمنع دخول الرعب والفزع إلى قلوبهم وهم يحادون الله ورسوله ، ولكن هيهات : « فمن عادى لى وليا آذنته بالحرب » .

وهم يعلمون أنهم إنما يحادون الله ويحاربون رسوله الذى يعرفونه فى كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، وما شهدناه من الحوار السابق يؤكد هذا المعنى .

ولنشهد : كيف قذف الله فى قلوبهم الرعب ؟

(فلما رأوا رسول الله وأصحابه قاموا على جدر حصونهم معهم النبل والحجارة . واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال ولم يقربوهم ، وجعلوا يرمون ذلك اليوم بالنبل والحجارة حتى أظلموا . وجعل أصحاب رسول الله ﷺ يقدمون من كان تخلف

---

(١) نرم حصوننا : نصلحها .

(٢) نُدرب أزقتنا : ندخل الدرب فيها ونجعلها صالحة للمشى .

(٣) واتن : دائم .

(٤) المغازى للواقدى ١/ ٣٦٨ .

فى حاجته حتى تتاموا عند صلاة العشاء .. وبات المسلمون يحاصرونهم . يكبرون حتى أصبحوا ...

وأمسوا فلم يقربهم ابن أبى ولا أحد من حلفائه ، وجلس فى بيته ، ويئست بنو النضير من نصره ، وجعل سلام بن مكشم وكنانة بن صويراء يقولان لحيى : أين نصر ابن أبى كما زعمت ؟ قال حيى : فما أصنع ؟ ملحمة كتبت علينا . ولزم رسول الله ﷺ الدرع وبات وظل محاصرهم ، وكان رجل من اليهود يقال له عَزْوَك . وكان أعسر راميًا ، فرمى ، فبلغ نبله قبة النبى ﷺ . فأمر بقبته فحولت إلى مسجد الفضيخ [1] وتباعدت من النبل .

فلما كان ليلة من الليالى فُقد على بن أبى طالب رضى الله عنه حين قرب العشاء ، فقال الناس : ما نرى عليًا يا رسول الله : فقال رسول الله ﷺ : « دعوه فإنه فى بعض شأنكم » ! فلم يلبث أن جاء برأس عزوك ، فطرحه بين يدى رسول الله ﷺ . فقال : يا رسول الله ، إنى كمنت لهذا الخبيث ، فرأيت رجلاً شجاعًا . فقلت : ما أجرأه أن تخرج إذا أمسينا يطلب منا عِزةً . فأقبل مصلتًا سيفه فى نفرٍ من اليهود ، فشددت عليه فقتلته ، وأجلى أصحابه ولم يبرحوا قريبًا ، فإن ثبت معى نفراً رجوت أن أظفر بهم ، فبعث أبو دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة من أصحابه ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا حصونهم ، فقتلوهم وأتوا برءوسهم فأمر رسول الله ﷺ برءوسهم فطرحت فى بعض بئار بنى خطمة ..

فأرسل حيى إلى رسول الله ﷺ : يا محمد ، نحن نعطيك الذى سألت ، ونخرج من بلادك . فقال رسول الله ﷺ : « لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوا منها ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة » [2] . فقال سلام : اقبل ويحك قبل أن نقبل شرا من هذا ! فقال حيى : ما يكون شر من هذا ؟ قال سلام : يسبى الذرية ويقتل المقاتلة مع الأموال ، فالأموال أهون علينا إذا لحمنا هذا الأمر من القتل والسباء . فأبى حيى أن يقبل يوماً أو يومين . فلما رأى ذلك يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب قال أحدهما لصاحبه : وإنك لتعلم أنه رسول الله ، فما تنتظر أى نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا ؟ . فنزلا من الليل فأسلما فأحرزا دماءهما وأموالهما.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسة عشر يومًا ، ثم نزلت اليهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، فأجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة ، وولى إخراجهم محمد

---

(١) مسجد الفضيخ : اسمه « مسجد الشمس » اليوم وهو شرق قباء .
(٢) الحلقة : السلاح .

ابن مسلمة فقالوا : إن لنا ديوناً على الناس إلى آجال . فقال رسول الله ﷺ : تعجلوا وضعوا » (١) .

لقد قذف الله تعالى فى قلوبهم الرعب ، فدك حصون قلوبهم قبل أن يدك حصونهم ، وزلزل قلوبهم وهم فى بروجهم المشيدة .

١ ـ فهذا جيش محمد ﷺ ، قد تكامل واستتم حول حصونهم ، فضرب عليهم الحصار ، وما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا .

٢ ـ وانتظر بنو النضير جيش ابن أبى مع الألفين من أصحابه أن يأتى من المدينة ، فيفك الحصار عنهم ، ويصطرع الجيشان ، جيش ابن أبى وجيش النبى عليه الصلاة والسلام ، وتدور الدائرة على المسلمين ، وتبقى لليهود قوتهم وشكيمتهم وجدّهم وسلاحهم ، ولكن دون جدوى .

٣ ـ وانتظر بنو النضير إخوانهم من بنى قريظة ، إذ لم يحضر جيش المنافقين ، لكن بنى قريظة رفضوا نقض العهد ، وقال زعيمهم كعب بن أسد : « ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حى » ، ولم يعنهم بمال ولا سلاح .

٤ ـ وقطعت النخل ، فقطعت قلوبهم معها ، فهى عماد ثروتهم ، ففزع حيى وأراد أن يوقف عويل النساء على النخل ، فكيف إذا فقدوا المال والمبيت والأهل ؟ !

٥ ـ وعاد الصراع من جديد بين القيادات ، وبدا خطل رأى حيى ، فأبدى استعداده للموافقة على الجلاء ، ولكن هيهات ، كان هذا قبل المعركة ، أما الآن فلا ، إلا أن يخرجوا منزوعى السلاح ، كما قال عليه الصلاة والسلام .

شروط عسرة جديدة ، وثمن باهظ جديد ، لابد أن يقدمه المحادون لله ورسوله .

٦ ـ ورفض حيى أن يقبل ، ترى هل لايزال يأمل فى الثبات سنة على الحصار .

لقد ابتدأت محاولة القتال ، فأخفقت وباءت بالفشل الذريع ، فهذا بطلهم وراميهم عزوك مع الفدائيين الذين غادروا الحصن لتحدى المسلمين وقتالهم ، قد انتهوا صرعى على يد على رضى الله عنه وإخوانه من الفتيان الأنصار الأمجاد ، فلا جدوى من المقاومة .

---

(٣) المغازى للواقدى / ١ / ٣٧٠ وما بعدها .

٧ ـ وأمام رفض حيي الجلاء بدون السلاح ، كانت الطامة الكبرى الجديدة ، فقد خرج اثنان من علية أصحابه يعلنان إسلامهما ، وينضمان للنبي ﷺ ، ويحرزان دماءهما وأموالهما ، إذن اتسع الخرق على الراقع .

الحليف تخلى والفدائيون صرعى ، وفي ابتداء محاولات التسلل من خلفه ، سيسقط وتسقط زعامته ، والقادة الآخرون يهددونه أنه إن لم يقبل فليس أمامه إلا قتل المقاتلة : وسبي النساء والذرية ، ووافق صاغراً ذليلاً على الجلاء بغير السلاح .

إن المسلم ليكتب هذه الأمجاد ، ويسطر هذه الصفحات ، وفي قلبه لوعة ، وفي نفثاته حسرة ، حين يرى الصورة تنقلب اليوم من جديد ، فإذا اليهود يحتلون الأرض ، ويثلمون العرض ، وإذا المهجرون المسلمون لا اليهود ، وإذا بالتقسيم الذى كان مطلباً يهوديًا يرفضه العرب قبل أربعين عاما ، إذا به اليوم مطلب عربي فلسطيني يطلبه العرب فلا تعطيه يهود .

لقد نال اليهود جزاء حربهم لله ورسوله وهم يعلمون أنه حق ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ونساءهم ، فكتب الله عليهم الذل والصغار لهذه المحادة .

واليوم يلقى العرب جزاء حربهم لله ورسوله . وجزاء قتلهم للذين يأمرون بالقسط من الناس ، فيحاصرون ويهجرون ، ويرجون قطعة أرض في هذا الوجود ، فلا تمن عليهم إسرائيل بشبر من الأرض ، وتسميها الأرض المحررة ، وكتب الله عليهم الذل والصغار لهذه المحادة .

﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليًا ولا نصيراً ﴾ [1] .

لقد قذف الله تعالى الرعب في قلوب اليهود ، وماذا بعد ذلك ؟

﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ .

(وكانوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم ، وكان المسلمون يخربون ما يليهم ويحرقون حتى وقع الصلح ، فتحملوا ، فجعلوا يحملون الخشب ونجف الأبواب . وقال رسول الله ﷺ : لصفية بنت حيي رضي الله عنها : « لو رأيتني وأنا أشد الرحل لخالك لحري بن عمرو وأُجلبه منها ! » .

(١) النساء / ١٢٣ .

وحملوا النساء والصبيان ، فخرجوا على بلحارث بن الخزرج ، ثم على الجبلية ، ثم على الجسر ، حتى مروا بالمصلى ثم شقوا سوق المدينة ، والنساء فى الهوادج عليهن الحرير والديباج ، وقُطُف الخز الخضر والحمر ، وقد صف لهم الناس ، فجعلوا يمرون قطاراً إثر قطار ، فحملوا على ستمائة بعير .

يقول رسول الله ﷺ : « هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة من قريش »)[1] .

﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

فلو أصروا على عدم الجلاء لكان الأمر كما قال رئيسهم سلام ، قتل المقاتلة وسبى النساء والذرية ، ولهم فى الآخرة عذاب النار .

لقد كانوا هم الورثة لدين الله والحملة لكتابه ، وكان المقدر أن يكونوا هم الأنصار لله ولرسوله لما يجدونه مكتوبًا عنه فى كتبهم ، لا الأميين الذين كانوا يستتفتحون به عليهم . ولكنهم لما أصروا على كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله ، فكان لهم الجلاء والذل ، ولهم فى الآخرة النار .

وحيى بن أخطب هذا لم ينته دوره بعد ، ولكننا نعرض له منذ لحظة وصول النبى ﷺ ، ونستمع لموقفه من فم ابنته صفية بنت حيى رضى الله عنها وأم المؤمنين فى الأرض تقول :

(كنت أحب ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذانى دونه ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، نزل قُباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى حيى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين[2] قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس . قالت : فأتيا[3] كالَّين ، كسلانين ساقطين ، يمشيان الهوينى . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيى : أهُوَ هُوَ ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عدواته والله ما بقيت)[4] .

---

(١) المغازى للواقدى / ١ / ٣٧٤ .

(٢) مغلسين : مع الغلس أى قبيل الصبح .

(٣) كالَّين : تعبين .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام / م١ / ٥١٨ .

يقول عز وجل :

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين . وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [1] .

لو كان حديثنا فى السيرة ، لانتهى الحديث عن المعركة ، وما يقدمه العرض البشرى للسيرة لايعدو ذكر التضحيات والبطولات والمواقف المشرقة . ونشهد اليوم فى صفنا الإسلامى كثيراً من التضحيات لكننا لانجد الثمار والنتائج المترتبة عليها ، وكثيراً ما تفوق التضحيات والبطولات الثمار المرجوة من النصر والتمكين فى الأرض ، ومرد ذلك ـ والله أعلم ـ إلى الخطأ فى المنهج ، فلابد أن نتلقى السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم ابتداءً ؛ لأنه هو الذى يعرض الأحداث لا للعرض ، ولكن للتربية لتكون هدى ونوراً وموعظة ، وفى القرآن الكريم يكون التركيز كله على بناء هذه النفوس وتربية هذه القلوب ، فهى السلاح الذى لا يهزم ، وهى السيوف التى لا تُفَلّ ، وهى الحصن الذى لايقتحم حين يتحصن بالإيمان والعقيدة الحق ، والقرآن الكريم يعرض النفوس فى ضعفها وفى قوتها ، فى انحدارها وفى سموقها ، وتتم المعالجة على ضوء هذا العرض .

ولم تكن هذه الكلمات ابتداءً إلا تمهيداً للانتقال إلى عملية البناء الداخلى فى القلوب ، والذى يتم استعراضه فى المقاطع التالية من السورة .

لقد قطعت النخيل ، وثار مع قطعها أقاويل كثيرة ، شكلت نوعًا من البلبلة فى النفوس ، وقد أثار هذه البلبلة سموم بنى النضير التى انطلقت إلى هذه النفوس لتأخذ دورها :

كانوا يقولون : يا محمد ، كنت تنهى عن الفساد ، ولم تقطع النخل ؟

واستجاب رسول الله ﷺ لرجائهم ، وأوقف قطع النخل .

وساور القلق النفوس ، هل قطع النخيل هو الحق ، أم إبقاؤها هو الحق ؟ وجاء الجواب :

---

(١) الحشر ٥ ـ ٧ .

﴿ ما قطعتـم من لينة أو تركتمـوها قائمـة على أصـولها فبإذن الله . وليخزى الفاسقين ﴾ .

فقد كـان القطع حكـمة ـ وبإذن اللـه ـ حتى يضـطر اليهود أن يـخضعوا ويتـنازلوا ويذعنوا .

وكان إبقاؤه حكمة ، فهو فى علم الله سيبقى للمؤمنين فيئاً وغنيمة .

ونتيجة القطع والإبقاء واحدة هى : خزى الفاسقين فى قطع نخيلهم يوم قطع ، وفى حرمانهم له يوم تم الجلاء .

(فقد أخـرج عبد بن حـميد ، عن قتـادة قال : قطع المسلمـون يـومئذ النخـل ، وأمسك أناس كراهـية أن يكون فساداً . فقالت الـيهود : آلله أذن لكم فى الـفساد ؟ فقال اللـه : ﴿ ما قطعـتم من لينـة ﴾ . قال : واللينـة ما خـلا العجـوة من النخـل إلى قوله : ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ قال : لتغيظوهم) [1] .

(وأخرج سعـيد بن منـصور ، وعبد بن حـميد ، والبخـارى ، ومسلم ، والـترمذى ، وابن مردويـه ، والـبيهقى فى الدلائل ، عن ابن عـمر ، أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة ولا بقول حسان بن ثابت :

فهـان على سـراة بنى لـؤى ... حريـق بالبـويـرة مستطـير

« فأنزل الله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها ...... ﴾) [2] .

(وأخرج التـرمذى وحسنـه ، والنسائى ، وابن أبـى حاتم ، وابن مردويـه ، عن ابن عباس ، فى قـول الله : ﴿ ما قطعتـم مـن لينة أو تركتموهـا قائمـة على أصولها ﴾ قال : اللينـة : النخلة ، ﴿ وليجزى الفاسقين ﴾ قال : استـنزلوهم من حـصونهم وأمروا بـقطع النخـل ، فحـاك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قـطعنا بعضاً وتركنا بعـضاً ، فلنسألن رسـول الله ﷺ ، هل لنا فيما قطـعنا من أجـر وهل علينا فيما تـركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ ما قطعتم من لينة ... ﴾ الآية) [3] .

(وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنـذر والبيهقى فى الدلائل ، عن مجاهد قال : نهى بعض المهاجـرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هـى مغانم المسلمين ، وقال

(١) الدر المنثور / ٨/٩٨ .

(٢ ، ٣) المصدر نفسه / ٩١ .

الذين قطعوا : بل هى غيظ للعدو ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم فقال : إنما قطعه وتركه بإذن الله) (١) .

وانتهت المعالجة الأولى ، لتبدأ المعالجة الثانية :

﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولاركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

والمعالجة الثانية جاءت لتؤكد للصف المسلم ، أن فيئ بنى النضير هو خالص لرسول الله ﷺ ، فلقد أعطاه الله تعالى إياه صرفاً من دون المسلمين ، والمسلمون لم يخوضوا من أجله معركة ولم يسوقوا خيلاً ولا ركابا .

(أخرج أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن المنذر عن عمر ابن الخطاب قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولاركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنتهم ، ثم يجعل ما بقى فى الكراع والسلاح عدة فى سبيل الله) (٣) .

(وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : **﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾** قال : يذكرهم ربهم أنه نصرهم وكفاهم بغير عدة ولا كراع فى قريظة وخيبر) (٤) .

فقد قذف الله الرعب فى قلوب بنى النضير ، واستسلموا دون قتال ، والأصل فى غنيمة الحرب هى التى يقاتل المجاهد عنها ويغنمها ، وتقسم كما قسمت فى بدر الخمس لله ورسوله ، والأخماس الأربعة للمجاهدين ، وحيث إن هذا الفيىء قد غنمه المسلمون ولم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركابًا ، إنما هو تسليط الله تعالى رسله على الكافرين فينهارون ويستسلمون ، فتبقى الغنائم فى هذه الحالة ملكاً لرسول الله ﷺ ، فقد أفاءها الله تعالى له ، وبذلك تنتهى الفكرة من ذهن الجندى المسلم ومدى أحقيته فى الفيىء .

وإذا كانت الأنفال فى بدر حين راحوا يختصمون عليها جاءتهم المعاتبة مباشرة ونزعها الله من أيديهم وردها إلى الله ورسوله ، ثم أعادها إليهم بعد ذلك وجعل أربعة أخماسها للمجاهدين ، فلا غرو أن نجد هذا الإيضاح هنا لحالة تختلف عن حالة بدر ، فى هذا الفيىء الذى أفاءه الله تعالى على رسوله ، وحين يسمع أمر الله تعالى فى أحقية هذا المال فلن يجد بعد ذلك فى نفسه ، أعطى أو منع .

---

(١) المصدر نفسه / ٩٢ .
(٢) الحشر /٦ .
(٣ ، ٤) الدر المنثور / ٨ / ٩٩ .

وتأتى المعالجة الثالثة ، عقب غزوة بنى النضير فى تحديد مصارف هذا الفيىء :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [1] .

(وتبين هذه الآية الحكم الذى أسلفنا تفصيلاً ، ثم تعلل هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى : **﴿ كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾** ، كما تضع قاعدة كبرى فى التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى : **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** .

ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيىء وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماد كثيرة فى أسس النظام الاجتماعى الإسلامى .

والقاعدة الأولى ـ قاعدة التنظيم الاقتصادى ـ تمثل جانبًا من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام ، فالملكية الفردية معترف بها فى هذه النظرية ، ولكنها محددة بهذه القاعدة ، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعاً من التداول بين الفقراء ، فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفًا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله ، وجميع الأرتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع ، أو تبقى عليه إن وجد.

لقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة ، ففرض الزكاة ، وجعل حصيلتها فى العام اثنين ونصفًا فى المائة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أو خمسة فى المائة من جميع الحاصلات ، وما يعادل ذلك من الأنعام ، وجعل الحصيلة فى الركاز وهو كنوز الأرض مثلها فى المال النقدى ، وهى نسب كبيرة ، ثم جعل أربعة أخماس القيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء ، بينما جعل الفيىء كله للفقراء ، وجعل نظامه المختار فى إيجار الأرض هو المزارعة ـ أى المشاركة فى المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها ـ ، وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، وأن يوظف فى أموال الأغنياء عند خلو بيت المال ، وحرم الاحتكار ، وحظر الربا ، وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء .

---

(١) الحشر / ٧ .

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادى كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى ، التى تعد قيدًا أصيلاً على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى .

ومن ثم فالنظام الإسلامى نظام يبيح الملكية الفردية ، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالى ، كما أن النظام الرأسمالى ليس منقولاً عنه ، فما يقوم النظام الرأسمالى إطلاقًا بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير ، نشأ وحده ، وسار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده ، نظامًا فريدًا ، متوازن الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات ، متناسقًا تناسق الكون كله ، مذ كان صدوره من خالق الكون ، والكون متناسق موزون .

فأما القاعدة الثانية ــ قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ــ فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية ، فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ ــ قرآناً أو سنة ــ والأمة كلها ، والإمام معها لا تملك أن تخالف ما جاء به الرسول .. فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ؛ لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان ... وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان ، فمصدر السلطات فى الإسلام هو شرع الله الذى جاء به الرسول ﷺ ــ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها ، والإمام نائب عن الأمة فى هذا ــ وفى هذا تنحصر حقوق الأمة ، فليس لها أن تخالف ما آتاها الرسول فى أى تشريع .

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يعرض للأمة ، فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلاً من أصول ما جاء به الرسول ، وهذا لا ينقض تلك النظرية ، بل هو فرع عنها ، فالمرجع فى أى تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص ، وألا يخالف أصلاً من أصوله فيما لا نص فيه ، وتنحصر سلطة الأمة ــ والإمام النائب عنها ــ فى هذه الحدود ، وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية ، وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله ، وينسق بين ناموس الكون الذى وضعه الله له ، والقانون الذى يحكم البشر وهو من الله ، كى لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح .

وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بمصدرها الأول .. وهو الله ،

فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله : ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ ، وهذا هو الضمان الأكبر الذى لا احتيال عليه ولا هروب منه ، فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليه المرجع والمآب ، وعلموا أنه شديد العقاب ، وعلموا أنهم مكلفون أن لا يكون المال دولة بينهم وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه فى غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب)[1] .

ولنشهد كيف وزع رسول الله ﷺ الفيىء ، بحيث لا يكون دولة بين الأغنياء :

(فحدثنى معمر عن الزهرى عن خارجة بن الزيد عن أم العلاء قالت :

صار لنا عثمان بن مظعون فى القرعة ، وكان فى منزلنا حتى تُوُفى ، وكان المهاجرون فى دورهم وأموالهم ، فلما غنم رسول الله ﷺ بنى النضير ، دعا ثابت بن قيس بن شماس فقال : « ادع لى قومك ! » قال ثابت : الخزرج يا رسول الله ؟ قال : « الأنصار كلها ! » ، فدعا له الأوس والخزرج ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم فى منازلهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثم قال :

« إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله على بنى النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا :

يا رسول الله ، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا .

ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ :

« اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » !

فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه ، وأعطى المهاجرين . ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيىء شيئاً ، إلا رجلين كانا محتاجين ــ سهل بن حنيف ، وأبا دجانة .

وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم ...

ووسع رسول الله ﷺ فى الناس منها)[2] .

إنه مجتمع يبنى على غير طراز سبق فى تاريخ البشرية ، مجتمع التحم فيه أغنياؤه

(١) فى ظلال القرآن / م ٦ / جـ٢٥ / ٣٥٢٥ .

(٢) المغازى للواقدى / ١ / ٣٧٩ .

وفقراؤه ، وأصبح يمثل مجتمع الإيثار في الأرض . لقد تم التآخي بدافع ذاتي ، لا بقوة السلاح وإرهاب السلطان ، وقاسم الأنصار إخوانهم المهاجرين أرضهم وديارهم وأموالهم ونساءهم ، بطواعية ومروءة عجيبين فى تاريخ البشرية ، وها قد مر عام واثنان وثلاثة على هذا الوضع ، وسنحت فرصة للمهاجرين بأن توزع عليهم ثروة ضخمة من فيىء بنى النضير ، وتمت التجربة الفائقة النجاح ، وآن الأوان لأن يعود للأنصارى ماله وداره وأرضه ، ورسول الله ﷺ الذى قال من قبل : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » هو الذى قال الآن :

« وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، أو يشتركوا فى الفيىء سواء .

وكان الأمر معروضاً على سيدى الأوس والخزرج .

إن ضيفاً ينزل على الرجل أكثر من ثلاثة أيام يتناول الطعام عنده والمبيت ، يبدأ الإحساس لدى المضيف بالثقل والتبرم ، وينتظر الفرصة السانحة ليتحول عنه .

وهذه التجربة ليست ثلاثة أيام ، بل ثلاث سنوات ، والمشاركة فى شطر الأموال والأراضى والبيوت ، ويستمع سيدا الأوس والخزرج للتخيير النبوى ، فينطلقان عن موقف موحد :

يارسول الله بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون فى دورنا كما كانوا .

ولم يكن الموقف موقف زعامة مفروضة فحسب ، لقد كان الموقف أبعد من ذلك وأعمق من ذلك :

كان موقف الأنصار جميعاً هو التأييد المطلق لموقف قيادتهم . لأنهم لم يقولوا فقط : سلمنا يارسول الله ، إنما قالوا : (رضينا وسلمنا يارسول الله) .

هذا المجتمع بهذه المواصفات ، وبهذه المعايير ، وبهذا المستوى من البناء فى الحب والتفانى والود ، حق له أن يثنى رب العزة جل جلاله عليه ، وأن يصبح هذا الثناء قرآناً يتلى فى الأرض ويتعبد به فى الوجود ، فجاء قول الله عز وجل يصف المهاجرين الذين ضحوا بدنياهم فى سبيل الله :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (١) .

---

(١) الحشر / ٨ .

وجاء قول الله عز وجل يصف الأنصار الذين ضحوا بدنياهم لإخوانهم فى سبيل الله :

﴿ والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

لقد حملت الآية الأولى أربع شهادات تزكية من رب العالمين للمهاجرين :

١ ــ أخرجوا من ديارهم وأموالهم .

٢ ــ يبتغون فضلاً من الله ورضوانا .

٣ ــ وينصرون الله ورسوله .

٤ ــ أولئك هم الصادقون .

وحملت الآية الثانية أربع شهادات تزكية من رب العالمين للأنصار :

١ ــ تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم .

٢ ــ يحبون من هاجر إليهم .

٣ ــ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا .

٤ ــ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ومن كان يحمل هذه الصفات الأربع ، فقد وُقى شح نفسه وأفلح .

ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

هذا هو المجتمع النموذج الذى تربى بكتاب الله وعلى يدى رسول الله ﷺ ، وإذا كان مجتمع المهاجرين من الرعيل الأول قد مر عليه ماينوف عن ستة عشر عاماً وهو يتلقى هذه التربية ، فإن مجتمع الأنصار لم تتجاوز التربية فيه خمس سنوات (١) ، لكن مجتمع المهاجرين كان هو محضن التربية للأنصار الوافدين الجدد ، ورأوا بأعينهم المثل العليا للذين هجروا أرضهم وأموالهم وديارهم وأبناءهم فى سبيل الله ، فاحتذوا حذوهم ،

---

(١) الحشر / ٩ .

(١) إذا أخذنا بالحسبان فترة سنتين قبل الهجرة ، والتى تمت خلالهما بيعتى العقبة الأولى والثانية .

وشاركوهم فى أموالهم وديارهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ولم يجدوا فى صدورهم حاجة ولا غضاضة ، فلم يكن الأمر تكلفاً ولا نفاقاً ولا هدفاً سياسياً ، بل كان صادراً عن حب حقيقى عميق كما قال جل شأنه :

﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ .

لقد خلصوا من حظ أنفسهم ، ومن العبودية لها ، وتحررت أنفسهم من الشح والبخل وحب الذات والأثرة ، وبقيت ترتقى حتى وصلت مرحلة الإيثار فى صف الأخوة ، وقام المجتمع على الحب والود ، ولم يقم على الإرهاب والضغط والنفاق السياسى ، وكشفت هذه الحقيقة تماماً يوم كان بيدهم الخيار أن يستردوا ديارهم وأموالهم بتوجيه نبوى ، فأبوا ذلك قائلين :

يارسول الله تقسمه بينهم ، ويكونون فى دورنا كما كانوا .

لقد بادلوهم الفضل ، فقد شعر الأنصار بدور المهاجرين فى تربيتهم وتفقيههم فى دين الله ، فأحبوهم وآثروهم على أنفسهم ، وشهد الله تعالى لهم بذلك .

قد تكون العواطف صادقة فى لحظة من اللحظات ، ويتم التصعيد بها ، لكن أن يستمر هذا الأمر حتى يصبح خلقاً يتصف به ، أو خليقة يُتحلى بها ، فهنا مكمن العظمة .

فإذا كان الأمر تسامياً فى البداية ، واستمرت التجربة بعد ذلك ، فلا بد من النزول إلى أرض الواقع ، وكان استمرار هذا التسامى ثلاث سنوات تجربة فريدة بحد ذاتها ، وكافية للحكم على تميز هذا المجتمع فى الوجود ، ، جاءت الفرصة لاختتام هذه التجربة من رب العالمين ، ورسول رب العالمين .

جاءت الفرصة بعد بدر لتعيد الأمور إلى نصابها ، وتعيد هذا التسامى إلى وضعه الفطرى ، وجاء قول الله عز وجل :

﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ .

وقد انتهى التوارث بين المتآخين ، وعاد التوازن إلى وضعه الطبيعى بين أولى الأرحام ، وجاء قول الرسول ﷺ :

« وإن أحببتم قسمته بين المهاجرين ، وتحولوا عن دياركم » .

ومع ذلك لم تكن القضية تسامياً عاطفياً فقط ، ولم تكن واجباً دينياً فقط ، بل أصبح

خلقاً وسجية ، أصبح حباً يتغلغل فى الأفئدة ، وانخلاعاً عن شح النفس فلا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، وإيثاراً فى التعامل على النفس ولو كان بهم فاقة أو خصاصة .

لقد تمت وحدة بين شعبى مصر وسوريا عام ثمانية وخمسين وتسعمائة وألف للميلاد ، بتصعيد شعبى عاطفى ، عبَّر فيها الشعب السورى عن مدى حبه لمصر وقيادتها آنذاك . ولكن هذا التصعيد سرعان ماهبط ، وما أن حانت الفرصة حتى تم الانفصال بين الدولتين ، وهبطت حدة هذا الحب ، وساد الشقاق والخلاف بين الدولتين ولم يلتئم إلى اليوم ، وقد مر عليه قرابة ثلث قرن .

والذين جاؤوا من بعدهم ، راحوا يأخذون من هذا المعين على تفاوت بين المستويين وهم يدينون بالحب والولاء للمهاجرين والأنصار الذين تربوا على أيديهم . لم يكونوا يملكون إلا الدعوة الخالصة لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، ويضرعون إلى ربهم ألا يجعل فى قلوبهم غلا للمؤمنين :

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ (١) .

وجاءت شهادة رب العالمين لهذين الفريقين ، السابقين واللاحقين ، فى آية أخرى :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (٢) .

وجاءت الشهادة النبوية :

« خيركم قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . . » (٣) .

ونؤكد فنقول : إن المجتمع الذى يقوم على هذه اللبنات بهذه الصياغة ، هو الذى يعطيه الله تعالى نصره وتأييده ، ويمن على المؤمنين به فيقول لهم :

﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يأولى

---

(١) الحشر / ١٠ .   (٢) التوبة / ١٠٠ .   (٣) رواه الستة إلا ابن ماجة .

الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ [١] ، ويقول لهم :.

﴿ **وماأفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ [٢] .

وحين تسأل الحركة الإسلامية اليوم عن سبب فقدان النصر ، وعن سبب تخلى الله تعالى عنها ، فى موطن أو مكان ، فستأخذ الجواب من هذا الواقع الإسلامى الأول ، وننظر إلى مدى نجاحها فى تكوين لبناتها وصياغة أفرادها على هذا المستوى من الحب والود ، أم أن الغل والشقاق هو الذى يسود ؟ ؟ ؟

ومن الجانب النفسى إلى الجانب الحقوقى المادى ، يطالعنا فقه عمر رضى الله عنه فى الذين يستحقون الفيىء ، وهى المشكلة العويصة التى واجهته حين طالبه المجاهدون المسلمون بتوزيع الأراضى التى غنموها فى الشام والعراق ، وكان فى حسه الإسلامى الذى تربى على أن لايكون المال دولة بين الأغنياء فقط ، يرفض هذا التوزيع — ويهدد المجاهدون بأخذ حقهم بالسيف . ثم يعكف على كتاب الله ، ويعلن أن هذه الأراضى جميعاً ليست من حق المجاهدين فقط ، بل هى حق المسلمين إلى قيام الساعة ، وحكمها حكم الفيىء الذى أفاءه الله تعالى على رسوله فى بنى النضير .

(أخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن زنجويه معاً فى الأموال ، وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى سننه ، عن مالك بن أوس بن الحدثان قال :

قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ حتى بلغ ﴿ **عليم حكيم** ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **للفقراء المهاجرين** ﴾ إلى آخر الآية فقال : هذه للمهاجرين ، ثم تلا : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ إلى آخر الآية فقال : هذه للأنصار ، ثم قرأ : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم** ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة ، وليس أحد إلا له فى هذا المال حق إلا ماتملكون من وصيتكم ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى — وهو

---

(١) الحشر / ٢ ـ ٥ .　　(٢) الحشر / ٦ .

يسيرٌ حمره ـ نصيبه منها لم يعرف فيها جبينه) (١) .

(وأخرج ابن أبى شيبة وابن زنجويه فى الأموال ، وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ماعلى وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا المال حق إلا ماملكت أيمانكم) (٢) .

(وأخرج عبد بن حميد والبيهقى فى سننه عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : قسم عمر ذات يوم قسماً من المال ، فجعلوا يثنون عليه ، فقال : ماأحمقكم ! لو كان لى ماأعطيتكم منه درهماً) (٣) .

وأخرج ابن سعد عن السائب بن يزيد : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول :

والذى لا إله إلا هو ـ ثلاثاً ـ مامن الناس أحد إلا له حق فى هذا المال أُعطيَه أو مُنِعَهُ ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، ومأأنا فيه إلا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله ﷺ ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقِدمه فى الإسلام ، والرجل وغناه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه) (٤) .

ولكن مجتمع المدينة وبعد أحد ، لم يعد فقط مجتمع الخلَّص من المهاجرين والأنصار ، إنما أضيف إليه مجتمع جديد هو مجتمع المنافقين ، يعرف بسمات أشخاصه لا بتميزهم فى مجتمع منعزل . ويأخذ الحديث عن المنافقين شوطاً واسعاً ، لما كان لهم من دور تآمرى رهيب ضد المسلمين فى بنى النضير بعد دورهم المخزى فى أحد :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون . لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الدر المنثور / ٨ / ١٠٣ .

ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ [1] .

تأتي هذه الجولة لتتحدث من جديد عن اليهود والمنافقين ، حيث تعرض مواقفهم من جهة ، وسماتهم من جهة ثانية ، وتوضح روايات السيرة الصورة المذكورة في القرآن الكريم بأجلى بيان :

(... وأخذوا في الجهاز ــ بنو النضير ــ فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول ابن أُبَيّ ، أتاهم سويد وداعس فقالا :

يقول عبد الله بن أُبَي : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم في حصنكم فيموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم ، ويُمدكم حلفاؤكم من غطفان ، وأرسل ابن أبي إلى كعب بن أسد يكلمه أن يمد أصحابه فقال : لا ينقض من بني قريظة رجل واحد العهد ، فيئس ابن أبي من قريظة ، وأراد أن يلحم الأمر فيما بين بني النضير ورسول الله ﷺ ، فلم يزل يرسل إلى حيي حتى قال حيي : أنا أرسل إلى محمد فأعلمه أنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع مابدا له ، وطمع حيي فيما قال ابن أبي فقال سلام :

ليس قول ابن أبي بشيء ، إنما يريد ابن أبي أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً ، ثم يجلس في بيته ويتركك . قد أراد من كعب بن أسد النصر فأبى كعب وقال : لاينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حيّ ، وإلا فإن ابن أبي وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ماوعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد ، وحصروا أنفسهم في صياصيهم ، وانتظروا نصرة ابن أبي ، فجلس في بيته ، وسار محمد إليهم ، فحصرهم حتى نزلوا على حكمه ، فابن أبي لاينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس كلهم ، ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حربهم كلها ، إلى أن تقطعت حربهم فقدم محمد فحجز بينهم ، وابن أبي لايهودي على دين يهود ، ولا على دين محمد ، ولا هو على دين قومه ، فكيف تقبل قولاً قاله ؟ .

قال حيي : تأبى نفسي إلا عداوة محمد ، وإلا قتاله . . .

---

(١) الحشر / ١١ ــ ١٧ .

وأرسل حيى أخاه جدى بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إنا لانبرح من دارنا وأموالنا ، فاصنع ماأنت صانع ، وأمره أن يأتى ابن أبىّ فيخبره برسالته إلى محمد ، ويأمره بتعجيل ماوعد من النصر ، فذهب جدى بن أخطب إلى رسول الله ﷺ بالذى أرسله حيى ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه فأخبره ، فأظهر رسول الله ﷺ التكبير ، وكبّر المسلمون لتكبيره وقال : « حاربت اليهود » !

وخرج جدى حتى دخل على ابن أبى وهو جالس فى بيته مع نفير من حلفائه ، وقد نادى منادى رسول الله ﷺ يأمرهم بالسير إلى بنى النضير ، فيدخل عبد الله بن عبد الله ابن أبى على عبد الله أبيه ، وعلى النفر معه ، وعنده جُدى بن أخطب ، فلبس درعه ، وأخذ سيفه فخرج يعدو ، فقال جُدى :

لما رأيت ابن أبى جالساً فى ناحية البيت ، وابنه عليه السلاح ، يئست من نصره ، فخرجت أعدو إلى حيى ، فقال : ماوراءك ؟ قلت : الشر ! ساعة أخبرت محمداً بما أرسلت به إليه أظهر التكبير وقال : « حاربت يهود » . فقال : هذه مكيدة منه . قال : وجئت ابن أبى فأعلمته ونادى منادى محمد بالسير إلى بنى النضير ، فقال : ومارَدَّ عليك ابن أبى ؟ . فقال جدى : لم أر عنده خيرا ، قال : أنا أرسل إلى حلفائى فيدخلون معكم .

وسار رسول الله ﷺ فى أصحابه ، فصلى العصر فى فناء بنى النضير ، فلما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا على جدر حصونهم معهم النبل والحجارة . واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال ولم يقربوهم . . .

وأمسوا فلم يقربهم ابن أبى ولا أحد من حلفائه ، وجلس فى بيته ، ويئست بنو النضير من نصره ، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صويراء يقولان لحيى :

أين نصر ابن أبى كما زعمت ؟

قال حيى : فما أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا . .) [1] .

لقد أكد القرآن مرة ثانية الأخوة بين المنافقين والكافرين ، رغم زعمهم أنهم مسلمون ، ولكنها أخوة زائفة أقل وأذل من أن تحقق بينهم الموالاة والنصرة ، إذا جد الجد :

﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا

(١) المغازى للواقدى / ١/ ٣٦٨ ـ ٣٧١ متفرقات .

لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون ﴾ [1] .

وسبب ذلك الخوف الحقيقى من المؤمنين ، وهم ابتداءً ، لم يكونوا منافقين إلا بدافع الخوف والرعب والمصلحة ، وإلا فلِم يظهرون ما لا يبطنون ! ! ولم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ؟ ! .

لا سبب حقيقى إلا الخوف والحفاظ على المصالح ، ولأنهم لايفقهون حقيقة التوحيد ، ولا وجود له فى كيانهم . فرهبتهم المؤمنين تفوق رهبتهم الله عز وجل :

﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون ﴾ .

والحديث عن هذا البناء النفسى لهم ضرورة قائمة أن يتعرف عليها المؤمنون ، ولا يفت ذلك فى أعضادهم حين يرون مثل هذه التجمعات ، فقد عادت الآيات تزيد الموقف تشخيصاً ، والقلوب تحليلاً ، والنفوس تمحيصاً لتكون عارية على حقيقتها :

﴿ لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ .

(ومازال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز فى ـ تشخيص ـ حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان ، بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة فى الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة ، فما كانوا يقاتلونهم إلا فى المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين ، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان ، حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء ، وسبحان العليم الخبير .

وتبقى الملامح النفسية الأخرى : **﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾** على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة ، **﴿ ذلك بأنهم قوم لايعقلون ﴾** .

والمظاهر قد تخدع ، فترى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، وترى عصبيتهم بعضهم لبعض ، كما ترى تجمع المنافقين أحياناً فى معسكر واحد ، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجى خادع ، وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخادع ، فيبدو من ورائه صدق الخبر فى دنيا الواقع

(١) الحشر / ١١ ، ١٢ .

المنظور ، وينكشف الحال عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات ، وماصدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقاً إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب ، وهذا الرياء الذى لايمثل حقيقة الحال ، وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة .

والقرآن يقر هذه الحقيقة فى قلوب المؤمنين ، ليهون فيها من شأن أعدائهم ، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم ، فهو إيحاء قائم على حقيقة ، وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت ، ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتجمعت قلوبهم فى الصف الواحد ، فلم تقف لهم قوة فى الحياة .

والمؤمنون بالله ينبغى لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم ، فهذا نصف المعركة ، والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة فى سياق وصفه لحادث وقع ، وفى سياق التعقيب عليه ، وشرح ماوراءه من حقائق ودلائل شرحاً يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه ، ويتدبره كل من جاء بعدهم ، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة !) (1) .

وحين نعرض الصورتين المتقابلتين للمجتمع المؤمن ، وللمجتمع الكافر والمنافق يتبين لنا تماماً الفوارق الشاسعة بينهما ، وذلك من خلال العرض القرآنى نفسه .

فالمجتمع المؤمن يقوم على الحب والألفة والمودة والإيثار والالتحام بين كل أجياله :

١ ـ ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله وأولئك هم الصادقون ﴾ .

٢ ـ ﴿ والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

٣ ـ ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن / م٦ / جـ ٢٨ / ٣٥٢٩ .

حيث يقابل هذه الصورة تماماً وبعدها مباشرة صورة المجتمع الكافر والمنافق :

١ ـ ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

٢ ـ ﴿ لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون ﴾ .

٣ ـ ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون ﴾ .

٤ ـ ﴿ لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون ﴾ .

٥ ـ ﴿ كمثل الذين من قبلهم ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

٦ ـ ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ .

إنها صورة متقابلة تمثل البون الكامل بين الفريقين ، وأمام هذا التباين والتميز والمفاصلة يأتى التوجيه القرآنى فى ختام السورة ، ويركز على المعانى الإيمانية الثابتة المستقرة فى النفس .

وفى أعماق الضمير : فى نداءات متكررة ، تتابع عملية الصياغة والبناء :

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

والتشديد على تقوى الله عز وجل مرتين فى الآية الواحدة لم يأت أمراً عارضاً ، إنما جاء ليؤكد مبدءًا شاملاً حول قضية التحام البناء .

فالمجتمع المنافق والكافر صار بأسه بينه شديداً ، وتوزعت قلوبه من الخوف والرغب ؛ لأنه لم يتق الله ، ولم تنظر نفوسهم إلى اليوم الآخر النظرة التى تملأ كيانهم ومشاعرهم ، وغدا خوف الله هو الذى يملك أفئدتهم ، ولأنهم لم يكونوا كذلك ، ولم يكونوا يفقهون حقيقة التوحيد حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر ، فانهارت قلوبهم ، وتحطمت حصون نفوسهم ، ووصفهم الله تعالى أدق وصف :

﴿ **لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله** ﴾ ؛ لأنهم لايفقهون حقيقة التوحيد ، ولايفقهون حقيقة اليوم الآخر ، ولايفقهون حقيقة اطلاع الله تعالى عليهم على مايعملون ، فضمر خوف الله من قلوبهم ، واختفى تقوى الله من وجودهم ، فصارت رهبة العبيد هى التى تسيطر على قلوبهم .

فكانوا بناءً على هذا الفقدان لايقاتلون إلا من وراء جدر ، وكانوا بأسهم بينهم شديد ، وكانوا كما قال القرآن : ﴿ **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** ﴾ فهم ينطلقون فى كل تصرفاتهم وأعمالهم رغبة فى مصلحة ، وخوفاً من بلية ، وهذا هو ميزانهم فيمالىء المنافقون الكفار ، أملاً فى انتصارهم ، وتحقيق مكاسب من معونتهم ، أما إذا لم تتحقق هذه المصلحة ، فيقبعون فى جحورهم ولاينصرونهم ، ولو نصروهم . فما هى إلا لحظات حتى يولن الأدبار ، خوفا من المؤمنين الذين يقاتلونهم .

ولابد أن يبقى الأمران متقابلين فى حس المسلم ؛ ليكون على بينة من أمره :

﴿ **لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله** ﴾ .

﴿ **اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ .

وحين لايتحقق هذا الشرط ، ويتناقص تقوى الله فى القلوب ليحل محلها تقوى الناس ، وصار نظر العبد لصالحه الحاضر القائم لا لغده بين يدى الله عز وجل ، وضمر فى حس المسلم خوفه من اطلاع الله تعالى على مايعمل .

حينئذ تقل الفوارق ، ويتلاشى التباين، ويقترب الفريقان من بعضهم اقتراباً ، يكاد يجعلهم شيئاً واحداً . . حينئذ يمكن أن يقع . ماقاله رب العزة :

﴿ **ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [(١)] .

وأى تربية فى هذا الوجود أعظم من هذه التربية .

فالمجتمع المؤمن ، والمؤمنون ، لم يأخذوا المواصفات السابقة من الحب والود والألفة والإيثار والالتحام ، والنصرة ، وانتزاع الغل من القلوب ؛ لأنهم يحملون إسم الإيمان ، أو ولدوا من نسل قوم مؤمنين ، فالمنافقون مثلهم ، آمنوا يوم آمن الآخرون ، وحملوا اسم الإسلام كما حمله أولئك . . ومع ذلك بقى المؤمنون مؤمنين ، وتحول زاعمو الإيمان إلى منافقين .

---

(١) الحشر / ١٩ .

وحين يتوجه الخطاب القرآنى إلى ﴿ الذين آمنوا ﴾ والذين أثنى عليهم ثناءً عطرهم إلى قيام الساعة ، لم يمنع ذلك كله من توجيه التحذيرات الصارمة لهم إذا أخلوا بالشروط من نزع ذلك منهم إذا أخلوا بتقوى الله ، والخوف منه ، والخوف من معاصيه ، والخوف من لقائه فى اليوم الآخر ، والخوف من خبرته بعملهم وأنهم محاسبون عليه . إن هذا الشرط إذا ضعف ، ضعفت معه النتائج التى كانت متحققة على قوة الإيمان ، وقد يستمر الضعف أكثر وتتراجع النتائج أكثر إلى درجة . تنتقل من :

تقوى الله إلى نسيان الله .

وعندئذ ينقلب المؤمنون إلى المعسكر الآخر ، معسكر المنافقين والكافرين .

ولابد من تنمية تقوى الله فى القلوب ولتزكو وتزداد وتتأصل ، وتبقى لها الرعاية والمتابعة والمحافظة عليها ، لتحافظ على النتائج التى أسفرت عنها ، وتحافظ على الثمار التى جنتها .

أما لو تركت بلا رعاية وبلا عناية وبلا متابعة ، فسوف تضمر وتضمر ، وتضعف وتضعف ، ثم تتلاشى ، وتتحول من تقوى الله إلى نسيان الله ، وعندئذ يصبح المثل هو (الفاسقون) :

﴿ ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ .

والنقلة رهيبة ، فليس التنازل عن التربية والتهاون فيها والاستخفاف فيها أمراً ثانوياً فى عملية البناء التى يجب أن تستمر دون انقطاع . . .

إن هذا التهاون وهذا الإهمال وهذا الوهن ، سوف يقود إلى النار ، وسوف يحول معسكر الذين آمنوا إلى الفاسقين ، وعندها تكون الخسارة ضخمة ، ضخمة لاتقدر بثمن :

﴿ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[1] .

ولابد أن يعى المؤمنون هذا الدرس ، ولابد أن يعى الدعاة إلى الله هذا الدرس ، حين ينظرون إلى واقعهم فى لحظة من اللحظات ، وقد أهملوا تربيتهم ، أو نسوها ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فإذا النصر هزيمة ، والحب حقد ، والإيثار أثرة وبغى ، والجمعة فرقة ، وذات البين فاسدة ، قد حلّت بها الحالقة ، فحلقت الدين لا الشعر ... وأصبحوا والفاسقون مثلهم ، فى تفرق كلمتهم ، وصراع أهوائهم ، واختلاف مشاربهم ، وتباين

---

(١) الحشر / ٢٠ .

قناعتهم ، وإذا هم مفضوحون أمام أعدائهم ، تحولت معركتهم لداخلهم ، واستشرى السرطان فى جسدهم ، وراحوا يندبون حظهم ، لم هذا ؟

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ .

فما أحرانا أن نعى إلى هذا الدرس ، وأن نتيقظ على هذه التحذيرات ، وأن المواصفات قد تتغير تغيراً جذرياً فى الصف المؤمن نفسه ، فإذا هم كالفاسقين ، وإذا هم كأصحاب النار .

وما العلاج ؟

العلاج كان فى هذا القرآن ، الذى هو حبل الله المتين ، وكلماته التامة ، والذى يفعل فعله فى التربية ، فيحول من كان على شفا جرف هار إلى الحصن الحصين والقلعة الحصينة ، هو الذى يفتت كل عوامل الانحراف كما تفتت الجبال :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (1) .

هذا القرآن ، هو هدىً ونور وشفاء وموعظة للمتقين .

أما الكافرون ، فهو عليهم عمى ، وأولئك فى ضلال مبين .

فالأمر إذن مع هذا القرآن ، أمر تفاعل وتأثر ، وعندئذ تقع المعجزة أما عندما يسد القلب :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ وتقفل القلوب عنه ، فلا يجد مدخلاً له بعد أن ران الكفر على القلب واستحوذ عليه ، عندئذ لاجدوى :

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة رإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (2) .

فالجبل يتفتت ويهبط من خشية الله ، ويكون خاشعاً متصدعا ، ولا يتحرك هذا القلب ولا يستجيب ولايتفاعل ولايتأثر ، فقد أقفل وانتهى أمره حين يكون قد نسى الله فأنساه نفسه .

---

(1) الحشر / ٢١ .   (2) البقرة / ٧٤ .

ويحضرنى موقف مأذكر أشد منه إيلاماً فى النفس ، فقد كان بعض الدعاة ذات يوم فى جلسة مغلقة ، يحسبهم العدو جميعاً وكانت قلوبهم شتى ، وهم فى معركة مع عدوهم ، أكلت أخضرهم ويابسهم ، وأبادت خضراءهم ، وأفنت أهلهم ، وقد اجتمعوا ليختاروا أميراً لهم ، يسمعون له ويطيعون ، ويجاهدون معه عدوهم . ومر قرابة أسبوع كامل . وهم عاجزون عن اختيار الأمير .

ولكن الأنكى من ذلك كله ، أنهم كانوا يتعاقبون الكلمات ، يذكرون أنفسهم بتقوى الله ، ومغبة الفرقة ، وعاقبة الشقاق ، ويلقون الكلمات المؤثرة ، وفيهم الخطباء والفصحاء وفرسان المنابر ، وعلى يديهم اهتدى كثير من خلق الله ، ولكن دون جدوى ، وافترقوا على غير لقاء ، وكان آخر لقاءاتهم حين انقسموا بعدها فريقين وحزبين وجماعتين ، لقد كنت جزءاً من هذه المرحلة ، وشهدت بعينى كيف تقسو القلوب وتقفل ، ويتجرع (الذين آمنوا) عاقبة نسيان الله وبروز حظ النفس ، خسائر ودماء وتضحيات ، وسيطرة الطغاة وتمكنهم فى رقاب المؤمنين .

﴿ هو الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [1] .

وكيف لايتصدع الجبل ويخر خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

﴿ الله الذى لاإله إلا هو ﴾ ، فهو خالقه وخالق البشر والوجود كله ، وخالق الأكوان كلها ، وهو **﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾** ، فلا تخفى عليه خافية الحاضر والماضى والمستقبل ، المشهود والمغيب عن البشر وغيرهم فى هذا الوجود كله بعلم الله .

﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ الذى أقام هذا الوجود ، بفيض رحمته ، ورعاه بفيض رحمته ، وأخضعه له بفيض رحمته ، ورحمته سبقت غضبه ، ورحمته وسعت كل شىء .

وهذا هو المدعون لتقواه وخوفه والخشية منه .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ مرة ثانية ؛ لتؤكد أن لاحاكم فى هذا الوجود

---

(١) الحشر / ٢٢ ـ ٢٤ .

إلا الله ، ولا سلطان إلا لله ، فهو ﴿ **الملك** ﴾ ملك السماوات والأرض وملك يوم الدين .

﴿ **القدوس** ﴾ وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة ، ويلقى فى ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقى فيوض الملك القدوس ، والتسبيح له والتقديس .

﴿ **السلام** ﴾ وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه ، فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه ، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان ، وقد هدأت شرته ، وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

﴿ **المؤمن** ﴾ واهب الأمن وواهب الإيمان ، ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله ، ويرتفع إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

﴿ **المهيمن** ﴾ وهذا بدأ صفحة جديدة فى تصور صفة الله سبحانه ، إذا كانت الصفات السابقة (القدوس السلام المؤمن) صفات تتعلق مجردة بذات الله ، فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس ، توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك ﴿ **العزيز ، الجبار ، المتكبر** ﴾ فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء ، فلا عزيز إلا هو ، ولا جبار إلا هو ، ولا متكبر إلا هو ، وما يشاركه أحد فى صفاته هذه ، ومايتصف بها سواه فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجىء ختام الآية ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ .

ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة : ﴿ **هو الله** ﴾ فهى الألوهية الواحدة ، وليس غيره بإله ، ﴿ **الخالق البارىء** ﴾ والخلق : التصميم والتقدير ، والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان ، والفارق بينهما لطيف دقيق . ﴿ **المصور** ﴾ وهى كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها ، ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شئ شخصيته الخاصة .

وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج ، مرحلة مرحلة ـ حسب التصور الإنسانى ـ فأما فى عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات ، وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو

حقيقتها المطلقة ، فهذه لا يعرفها إلا الله ، إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذى نعرفها به فى حدود طاقتنا الصغيرة .

﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ الحسنى فى ذاتها بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ، ولا توقف على استحسانهم ، والحسنى التى توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها ، وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها ، وأن يتدرج فى مراقبة وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموحية ، وفى فيوضها العجيبة ـ هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات هذا الوجود وينبعث من كل موجود .

﴿ يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ، ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء ، كما يتلاقى فيه المطلع والختام فى تناسق والتئام) . (١)

ونشير إلى أن عرض هذه الصفات العلى لله رب العالمين ، هو الذى صحح مفهوم الألوهية فى البشرية التائهة الضالة ، كما كان أهل الكتاب يعرضون الله تعالى فى تصوراتهم البشرية القاصرة ، وهؤلاء اليهود الذين قدموا الله تعالى للبشرية بعد أن كتبوا الكتاب بأيديهم ، قدموه بالمنتقم الثائر الذى يغلبه العبيد أحياناً فيثأر منهم لنفسه ، وأن الصراع بينه وبينهم أحياناً ، وبينه وبين أعدائهم ، وهاهم وعلى رأسهم حيى بن أخطب ووراءه بنو النضير يحادون الله تعالى ، ويحاربون رسوله وهم يعلمون أنه حق ، ويواجهون قدر الله تعالى بحجة واهية : تأبى نفسى إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

وحين يقع بهم البلاء يقولون على لسان حيى ، أبى جهل اليهود :

ما أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا .

هذه الصورة التى نفرت الناس من دين الله ، ومن شريعته ، حين جعلوا الإله لهم وحدهم ، وقد خلقهم ليستعبد بقية خلقه فيهم .

كانت هذه الآيات التى عرضت صفات الله العلى وأسماءه الحسنى ، هى التى

---

(١) فى ظلال القرآن / م٦ / جـ ٢٨ / ٣٥٣٤ .

أعادت إلى الأرض وإلى البشرية التصور الصحيح عن إلهها وخالقها .

فهو الرحمن الرحيم ، الملك القدوس السلام المؤمن .

وهو المهيمن العزيز الجبار المتكبر .

وهو الخالق البارىء المصور، له مافى السموات والأرض .

وبالعودة إلى بداية السورة ، فى قوله عز وجل :

﴿ سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

بهذه الآيات ، انهارت المقولة اليهودية كلها التى تجعل من الله تعالى إله الشعب المختار فقط ، فإذا الشعب المختار ينهزم ويحاصر ويجلى ، وإذا هو الذين كفروا ، وإذا هو الذى يقذف فى قلبه الرعب ، وإذا هو الذى يخرب بيته بيده ، وإذا الأميون هم الذين آمنوا ، وهم المفلحون ، وهم الذين يفيىء الله تعالى عليهم كنوز الشعب المختار .

لقد كانت السورة كلها تسبيحة واحدة ، لإعادة العقيدة إلى البشرية من جديد إلى ربها ، وتصحيح مفاهيم العقيدة المغلوطة فى هذه الأرض ، وتحطيم المقولة الفاسدة التى أفسدت البشرية منذ قرون ، وشاركت بها انحرافات النصرانية كذلك ، ليعود النور إلى الأرض ، والهدى إلى الأرض ، ويستمع البشر إلى صفات الله العلى وأسمائه الحسنى كما أنزل وذكرها جل وعلا ، وتعود الحاكمية الحقيقية لهذه الأمة ، القوامة على عقيدة البشرية وتصوراتها وشريعتها ، فى كتاب **﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾** وتتجاوب البشرية وتتناغم أرجاء الوجود ، مع هذه الحقائق الخالدة المطلقة الباقية : **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾** .

سورة محمد ﷺ

وتتم متابعة التربية بعد أحد لهذا الجيل المسلم الذى يصنع على عين الله ، وتشتد الحملة على المنافقين ، والحث على الجهاد فى سبيل الله ، ورفع معنويات المؤمنين .

نستمع إلى صاحب الظلال رحمه الله وهو يعطينا أجواء السورة ، وأجواء المعركة ومحورها الرئيسى فيقول :

(هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر اسمها سورة القتال ، وهو اسم حقيقى لها ، فالقتال هو موضوعها ، والقتال هو العنصر البارز فيها ، والقتال فى صورها وظلالها ، والقتال فى جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها ، فهى تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا ، وحقيقة الذين آمنوا فى صيغة هجوم أدبى على الذين كفروا ، وتمجيد كذلك للذين آمنوا ، مع إيحاء بأن الله عدو للأولين ، ولى للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة فى تقدير الله سبحانه ، فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فى السورة : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم فى صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان فى المعركة والتقنيل العنيف : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصاراً لله ، وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم : ﴿ **ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا**

فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض ...** ﴾ ﴿ **... فلا ناصر لهم** ﴾ .

ثم تمضى السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر فى ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان ، وحال المؤمنين وحال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ، وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم** ﴾ .. كما تصف متاع المؤمنين فى الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، فى وفر وفيض ... فى صورة أنهار جارية ، ذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان ، ثم سؤال : أهؤلاء ﴿ **كمن هو خالد فى النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾ ؟

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى من المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين ، أعقبها فى السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطراً على الجماعة الإسلامية الناشئة ، لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل فى تلك الفترة ، التى يبدو من الوقائع التى تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود وضعف مركز المنافقين ـ كما ذكرنا فى تفسير سورة الأحزاب ـ ...

وفى الجولة الثالثة والأخيرة فى السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾ وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعداءهم : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ وتحضيض لهم على الثبات عند القتال : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم** ﴾ .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها ، وحض على البذل الذى ييسره الله ، ولم يجعله استئصالاً للمال كله رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لو أحفاهم فى السؤال : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** ﴾ .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل فى القتال : ﴿ **ها أنتم أولاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لايكونوا أمثالكم** ﴾)[1] .

﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾[2] .

إعلان المفاصلة العقيدية ابتداء بين الفريقين ، لكل منهما شرعة ومنهاج يختلف عن الآخر ولا يلتقيان أبدا ، بعد أن تفارقا فى قضية العقيدة .

فالذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله ، وضلوا عنه ، لا عجب أن يكون عملهم ضلال كله ، فقد واجهوا الهدى ، وصدوا عنه غيرهم إذ لم يكتفوا بمواجهتهم له فقط .

والذين آمنوا ، وأتبَعُوا هذا الإيمان بالعمل الصالح ، وآمنوا بالوحى الذى نزل على رسول الله ﷺ كله ، وآمنوا بكل ماجاءهم به نبيهم الصادق الأمين ، ومحمد هو الحق من ربهم ، وما جاء به محمد هو الحق من ربهم ، فهؤلاء كفَّر عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم .

والسبب فى هاتين النتيجتين المختلفتين هو :

أن الذين كفروا اتبعوا الباطل .

وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ حتى تعرف البشرية أين تسير وكيف تسير .

---

(١) فى ظلال القرآن / م ٦/جـ٢٦ / ٣٢٧٨ ـ ٣٢٨١ .
(٢) محمد / ١ ـ ٣ .

وإن كان التفسير المأثور ربطها بوقت نزولها :

(فقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردوية ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** ﴾ قال : هم أهل مكة قريش نزلت فيهم ، ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال : هم أهل المدينة الأنصار ، ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ قال : أمرهم) [1] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً) [2] .

(وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ قال : شأنهم . وفى قوله : ﴿ **ذلك بأن الذين كفروا واتبعوا الباطل** ﴾ قال : الشيطان)[3] .

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثختنموهم فشدوا الوثاق فإما منًا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم . ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ [4] .

لقد جاءت آيات الأنفال فى بدر لتقول :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ [5] .

وجاءت آيات آل عمران عن أحد لتقول للمؤمنين أن يحملوا هم لواء القتل :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . . ﴾ .

وجاءت الأوامر العامة للمؤمنين تقول لهم :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [6] .

وجاءت الآيات فى النساء تحث المؤمنين على القتل والقتال .

---

(١) الدر المنثور / ٤٥٧ . (٢) المصدر نفسه / ٧ / ٤٥٧ . (٣) المصدر نفسه .

(٤) محمد / ٤ ، ٥ . (١) الأنفال / ١٢ . (٢) البقرة / ٢١٦ .

وهنا دعوة حارة بعد تلك المفاصلة بين الفريقين على إعلان الحرب والمواجهة عليهم ، فالذين يعلنون حربهم لله ورسوله فيما يعتقدون ، لابد أن ينضم المؤمنون إلى ربهم يجاهدون فى سبيله ، ويقاتلون أعداءه ، بدون أن تأخذهم رأفة فيهم :

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ .

للقضاء على قوتهم وتجمعهم وخضد شوكتهم ، وتحطيم جيشهم .

﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ :

أى لاتلجؤوا إلى الأسر قبل أن تثخنوا فى قتل الكفار ، وتمعنوا فى القضاء عليهم ، وحين ينهار الجيش ، وتفل القوة ، وتتفرق الجموع مثخنة بالجراح عندئذ يمكن الأسر ، وهذا مادعت إليه الآيات فى بدر وعاتبت به رسول الله ﷺ :

﴿ ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (١) .

فكان العتاب على أخذ الأسرى قبل الإثخان فى القتل .

فعن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : **﴿ ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾** قال : (ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا فى الأسارى : **﴿ فإما منًا بعد وإما فداءً ﴾** فجعل الله النبى والمؤمنين فى الأسارى بالخيار إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم وإن شاءوا فادوهم) (٢) .

(وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير فى قوله : **﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾** قال : لاتأسروهم ولا تفادوهم حتى تثخنوهم بالسيف) (٣) .

(وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : **﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾** قال : مشركى العرب ، يقول : **﴿ فضرب الرقاب ﴾** حتى يقولوا لاإله إلا الله) (٤) .

---

(١) الأنفال / ٦٨ . (٢) الدر المنثور / م ٤ / جـ ١٠ / ١٠٨ . (٣ ، ٤) الدر المنثور / ٧ / ٤٥٧ .

وحين لم ير أكثر المفسرين أى تعارض بين آيات الأسرى فى بدر وآيات الأسرى فى سورة محمد ، إذ أنها تصب جميعاً باتجاه واحد هو : أن يكون الأسر بعد الإثخان فى القتل.

فقد اختلفوا حول آيات سورة محمد وسورة براءة : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين . .** ﴾ .

وجمهور المفسرين على أن آيات سورة التوبة قد نسخت هذه الآيات ، حين أمرت بقتل المشركين . وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والضحاك ومجاهد والسدى.

فقد (أخرج ابن مردويه وابن جرير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإمّا منّا بعد وإما فداءً** ﴾ قال : هذا منسوخ نسختها : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين** ﴾[1])[2] .

(وأخرج عبد بن حميد ،عن قتادة رضى الله عنه فى قوله :﴿ **فإمّا منّا بعد وإما فداءً** ﴾ قال : فرخص لهم أن يمنوا على من شاءوا منهم ، نسخ الله ذلك بعد فى براءة فقال : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾)[3] .

(وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد رضى الله عنه قال : نسخت : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ ماكان قبل ذلك من فداء أو منٍّ)[4] .

(وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن ليث رضى الله عنه قال : قلت لمجاهد : بلغنى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لايحل قتل الأسارى ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ **فإمّا منّا بعد وإما فداءً** ﴾ فقال مجاهد : لاتعبأ بهذا شيئاً ، أدركت أصحاب رسول الله وكلهم ينكر هذا . ويقول : هذه منسوخة ، إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين رسول الله وبين المشركين ، فأما اليوم فلا . يقول الله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ ويقول : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ فإن كانوا من مشركى العرب لم يقبل منهم شىء إلا الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا

---

(١) التوبة / ٥ .
(٢) الدر المنثور / ٧ / ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
(٣) الدر المنثور / ٧ / ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
(٤) المصدر نفسه / ٤٥٩ .

استحيوهم ، وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا ، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفانى) [1] .

بينما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه لم يكن يرى قتل الأسارى :

فقد (أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن الحسن رضى الله عنه قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رضى الله عنهما رجلاً يقتله . فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا ، إنما قال الله : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّا بعد وإما فداءً** ﴾) [2] .

(وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى سننه ، عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أعتق ولد زانية وقال: قد أمرنا الله ورسوله أن نمن على من هو شر من هذا قال : ﴿ **فإمّا منّا بعد وإما فداءً** ﴾) [3] .

ويرى الشهيد سيد قطب رحمه الله هذا الرأى فيقول :

(والخلاصة التى ننتهى إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى ، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر ، وأنه هو الأصل الدائم للمسألة ، وماوقع بالفعل خارجاً عنه كان لمعالجة حالات خاصة وأوضاع وقتية ، فقتل بعض الأسرى كان فى حالات فردية يمكن أن يكون دائماً لها نظائر ، وقد أُخِذُوا بأعمال سابقة على الأسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال ولم يكن ممكناً أن يطبق الإسلام فى جميع الحالات النص العام : ﴿ **فإما منّا بعد وإما فداء** ﴾ فى الوقت الذى يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين ، ومن ثم طبقه الرسول ﷺ فى بعض الحالات ، فأطلق بعض الأسارى منّا ، وفادى بعضهم بالمال ، وفى حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء .

فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى ، فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهى : ﴿ **فإما منّا بعد وإما فداء** ﴾ ؛ لانقضاء الأوضاع التى كانت تقتضى الاسترقاق . فليس الاسترقاق حتمياً ، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى فى الإسلام ، وهذا هو الرأى الذى نستوحيه من النص القرآنى الحاسم ، ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث .

---

(١) الدر المنثور / ٧ / ٤٥٨ .

(٢ ، ٣) المصدر نفسه / ٤٥٨ .

ويحسن أن يكون مفهوماً أننى أجنح إلى هذا الرأى ؛ لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده ، لا لأنه يهجس فى خاطرى أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرىء الإسلام منها ! ، إن مثل هذا الخاطر لايهجس فى نفسى أبدا . فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير ؛ لأنه ما من إنسان يعرف شيئا من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيراً مما يرى الله ، إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه ، فأجنح إلى هذا الرأى بإيحاء النص واتجاهه) [1] .

﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ .

وهنا يتضح مفهوم جديد من مفاهيم الجهاد فى الإسلام ، فضرب الرقاب وإثخان القتل ، وشد الوثاق ـ عملية مستمرة ، لا تنقطع حتى تضع الحرب أوزارها .

فمتى تضع الحرب أوزارها فى المفهوم الإسلامى ؟

حين لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال : حتى لايكون شرك) [2] .

(وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضى الله عنه : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال : حتى يعبد الله ولا يشرك به) [3] .

ونتسائل متى يكون هذا الوقت ؟ أى متى لايكون شرك ؟ ومتى يعبد الله ولا يشرك به شيئا . . ؟

يجيبنا على ذلك نصوص مروية أخرى عن صحابة رسول الله والتابعين :

فقد (أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه ، عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال : حتى يخرج عيسى ابن مريم فيسلم كل يهودى ونصرانى وصاحب ملة ، وتأمن الشاة من الذئب ، ولاتقرض فأرة جراباً ، وتذهب العداوة بين الناس كلها . ذلك ظهور الإسلام على الدين كله ، وينعم الرجل المسلم حتى تقطر رجله دماً إذا وضعها) [4] .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٨ / ٣٢٨٥ .
(٢ ، ٣) الدر المنثور / ٧ / ٤٥٩ .
(٤) الدر المنثور / ٧ / ٤٦٠ .

(وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال : يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكما عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها) (١).

وأخرج ابن سعد والنسائى وأحمد والبغوى والطبرانى وابن مردويه ، عن سلمة بن نفيل رضى الله عنه قال : (بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال : يارسول الله ، إن الخيل قد سيِّبت ووضع السلاح ، وزعم أقوام أن لاقتال ، وأن قد وضعت الحرب أوزارها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كذبوا ، فالآن جاء القتال ، ولاتزال طائفة من أمتى يقاتلون فى سبيل الله لايضرهم من خالفهم يُزيغ الله قلوب أقوام ليرزقهم منهم ويقاتلون حتى تقوم الساعة ، ولا تزال الخيل معقوداً فى نواصيها الخير حتى تقوم الساعة ، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج ») (٢) .

وفى رواية الإمام أحمد : « ألا إن عقر دار المؤمنين بالشام ، والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » (٣) .

هذه معالم الجهاد فى الإسلام من خلال النصوص القرآنية ونصوص الحديث ، تلقاها الجيل الأول ، وتربت نفوسهم على أن المحنة والابتلاء والتمحيص لاتعفى أبداً من متابعة الطريق اللاحب إلى منتهاه ، وتربت نفوسهم على أن الجهاد ليس أمراً عارضاً ، أو حدثاً مؤقتاً ، أو تراجعاً تحت مطارق المحنة . لابد من السير على هذا الطريق مهما كان الثمن باهظاً ، لأن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، ولا مهر للجنة دون المال والنفس ، ولقاء الكافرين أمر حتمى ، وصراعهم قدر لاينتهى إلى قيام الساعة ، فلو سيبت الخيل ، وألقى السلاح ، فهذا تراجع عن الطريق ، وتنكب له ، وليس إذناً ربانياً بالقعود والتخاذل .

« كذبوا فالآن جاء القتال . ولا تزال طائفة من أمتى يقاتلون فى سبيل الله . . . .

حتى تقوم الساعة ، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج » .

وها قد مر على هذه الآيات خمسة عشر قرناً ، ولما تضع الحرب أوزارها بعد ، والدعاة إلى الله مضطهدون ، وشريعة الله مقصاة عن الحياة ، والشرك ضارب أطنابه فى كل أرض فأنّى تضع الحرب أوزارها بعد .

---

(١) المصدر نفسه / ٤٦٠ .   (٢) المصدر نفسه / ٤٦٠   (٣) مسند الإمام أحمد / ٤ / ١٠٤ .

وتأتى الشام فى أكثر من نص نبوى لتكون معقل المسلمين ، ورباط المجاهدين إلى يوم القيامة . فهى عقر دار المؤمنين ، وهى فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى ، وفى غوطة دمشق بالذات . وسينبعث جيل عقب جيل ، يحمل لواء الجهاد . قد يتعثر ، وقد يخطئ ، وقد يجنح ، وقد يزيغ فيأتى الجيل الذى بعده ليقوّم الطريق ، ويسير على الجادة .

﴿ ولو شاء الله لانتصر منهم ﴾ :

فقد كان بالإمكان أن تبقى الدولة للمسلمين فى أحد ، ولكن على حساب المبدأ الذى يثيب المخالفين ، وينصر من يريد فى الدنيا ، ويجزى المتنازعين والفاشلين خيراً ومثوبة ، وهذا يخالف سنن الله تعالى فى بناء الأمم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فقتادة يقول : (إى والله بجنوده الكثيرة ، كل خلقه له جند ، فلو سلط أضعف خلقه لكان له جنداً) (١) .

وابن جريج فى قوله تعالى : ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ قال : (لأرسل عليهم ملكاً قد مرَّ عليهم . وفى قوله : ﴿ **الذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ قال : نزلت فيمن قتل من أصحاب النبى ﷺ يوم أحد) (٢) .

(وأخرج عبد الرزاق ، وابن حميد ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فى يوم أحد ورسول الله ﷺ فى الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : اعلُ هبل . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . فنادى المشركون : يوم بيوم بدر ، وإن الحرب سجال ، لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم . فقال رسول الله ﷺ : « قولوا : الله مولانا ولامولى لكم ، إن القتلى مختلفة ، أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلاكم ففى النار يعذبون ») (٣) .

﴿ فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ :

أما الذين كفروا فقد أضل أعمالهم ، بينما المؤمنون ولو أخطئوا ولو عثروا ولو زلوا ، فلن يضلهم الله تعالى ، سيهديهم ، ويصلح بالهم ، فيزيل الغاشية عنهم ، ويهدئ بالهم ، ويرضيهم بقضائه وقدره . هؤلاء الأحياء منهم ، أما الشهداء فسيرون أمام أعينهم قرة عينهم بسلامة عملهم لهم ، وإصلاح بالهم في زفّ الجنة لهم ، ويدخلهم الجنة (فيهدى

(١ ، ٢) الدر المنثور / ٧ / ٤٦١ .
(٣) الدر المنثور / ٧ / ٤٦١ .

أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لايخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا) [1] .

فهذا قول مجاهد رضى الله عنه ، أما قول مقاتل فقال : (بلغنا أن الملك الذى كان وكل يحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شىء أعطاه الله فى الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزلة فى الجنة . دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه) [2] .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم ﴾ [3] .

إنه شرط وجزاء ، فنصرة دين الله هى الشرط ، وجزاؤه نصر المؤمنين وتثبيت أقدامهم . هذه السنة الثانية الدائمة فى النصر والهزيمة ، لكن هناك سنة استثنائية حين لاتطرد هذه السنة ولاتتحقق مواصفاتها ، وذلك حين يكون الانتصار للنفس ، والقتال للغنيمة والمال ، والرغبة فى الدنيا ، كما تم فى أحد من نفرٍ خالف وعصى ، وترك موقعه للغنيمة ــ هذه هى السنة الاستثنائية للمؤمنين أنفسهم حين يفقدون بعض شروط النصر من خلوص النفس من حظوظها ، وخلوص النفس من شهواتها ، فعندئذ يكون التمحيص ، ويكون الابتلاء ، وتكون مشيئة الله تعالى أن لاينتصر من الكافرين ، وأن يبلو بعضهم ببعض ، ويتخذ الشهداء إلى الجنة ، وينتظر المنتظرون الجولة الثانية بعد من قضى نحبهم .

هاتان السنتان هما اللتان تحكمان جند الله تعالى فى النصر والهزيمة .

أما سنة الكفار فلا .

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾ [4] .

إنها التعاسة فى الدنيا ، حتى ولو انتصروا النصر الطارئ المؤقت ، فهم لابد منهزمون ، والتعاسة فى الآخرة ؛ لأنهم كرهوا ما أنزل الله وحاربوه ، فكرههم الله وأحبط أعمالهم ، فليس لهم فى آخرتهم شىء ، والذين قتلوا منهم فسيضلون أعمالهم فى الآخرة ، ولن

(١ ، ٢) المصدر نفسه / ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(٣) محمد / ٧ ــ ١١ .

(٤) محمد / ٨ .

يجدوا شيئاً لهم إلا مأثماً ومغرماً ، وتكون النار عاقبتهم على كرههم لما أنزل الله وحربهم لأوليائه.

إنها معان تتعمق أكثر وأكثر فى هذا الجيل الربانى الأول ، ولايكتفى القرآن بعرضها مرة واحدة فقط ، إنها تعرض مرة وثانية وثالثة لتتأصل بالنفس البشرية المسلمة ، وتعرض كل مرة بلون ، وكل مرة بإطار ، وكل مرة بسياق ، حتى تحفر فى الأعماق حفراً لا يقبل التزعزع ، ولا عجب ، فالله تعالى هو مولى الذين آمنوا ، هو حاميهم وناصرهم ، والزائد عنهم لأنهم جنده . أما الكافرون ولو كان معهم كل أساطيل الأرض ، وكل عتاة الدنيا . وكل جبروت الطغاة ـ فلا مولى لهم ، كل هؤلاء ليسوا قادرين على تحقيق نصر أو تحقيق مكسب ، طالما أن الله تعالى مع جنده المؤمنين ، ولا غالب إلا الله ، ولا ناصر إلا الله . لقد فقه هذا المعنى عتاة قريش أنفسهم يوم صد الله أبرهة عنهم وهم ضعاف عزل ، فقال شاعرهم :

أين المفر والإله الغالب   والأشرم المطلوب ليس الطالب

بل قال أشدهم عتواً على الله ورسوله قالها أبو جهل :

(لئن كنا إنما نقاتل الله . فلعمرى لأحد بالله من قبل ولا طاقة) .

وكما أن السنتين الثابتتين مع المؤمنين . هما اللتان تحكماهما . فكذلك هذه السنة التى تحكم الكافرين فى كل عصر ومصر :

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾(١) .

فيما مضى ، وفيما سيأتى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تتصل الدنيا بالآخرة ، والأرض بالسماء بالنسبة للمؤمنين :

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ (٢) .

أما الذين ينتظرون نعيمهم فى دنياهم ، فأولئك كالبهائم ثم يرتقون ، ومثلهم ينعمون ، يأكلون ويشربون ويتمتعون . وتنتظرهم النار فى الآخرة :

---

(١) محمد / ١٠ .   (٢) محمد / ١٢ .

﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم** ﴾ (١) .

فهناك نهاية رحلتهم وخاتمة مطافهم ، حيث ينزلون فى النار المنزل الأخير .

وقد تختلف المظاهر فى الدنيا . فيبدو الكافرون أقوياء متمكنين ، كما هى قريش يوم عادت منتفشة بعد أحد ، ورأت أنها ثأرت بيوم بدر ، وهى تحمل هبلها وعزاها ، وكأن المظاهر توحى أنها لن تتزلزل ولن تتزعزع ، فهى القوية القادرة المتمكنة ، فهلا انساح النظر ، وانفرج المشهد إلى القرى التى مثلها فى بطون التاريخ ، كانت أشد عتواً من قريش ، وأكثر تجبراً منها ففدت كأمس الدابر ، وصارت أحاديث ، ومزقت كل ممزق :

﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ (٢) .

ويأتى التعبير القرآنى للحضرة النبوية .

فهى قريته ، وأهلها أخرجوه منها ، تماماً كما قال عليه الصلاة والسلام :

« إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلىَّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى ماخرجت » .

وسيهلك الأهل المتجبرون الخارجون على الله ورسوله ، وتبقى القرية أم القرى وموطن أول بيت وضع للناس .

(أخرج عبد بن حميد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج منك فأعتى الأعداء من عدا على الله فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول أهل الجاهلية » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾) (٣) .

فقد تلقى عليه الصلاة والسلام بشارة النصر ولما يغادر مكة بعد إلى الغار .

ويفترق بعدها الفريقان ، إلى الذى يتلقى عن ربه البينة ، والذى يتلقى من شيطانه تزيين عمله ، فيتبع هواه ، ويحسب نفسه على هدى . وبين من يتبع الهدى من ربه ، ومن يتبع

---

(١) محمد / ١٢ . (٢) محمد / ١٣ . (٣) الدر المنثور / ٧ / ٤٦٣ .

الهوى من نفسه وشيطانه افتراق كبير كبير ، وهوة لاتردم ، ولا يلتقيان أبدا ، ولا يستويان أبدا : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم** ﴾[1] .

لايستويان فى الدنيا ، ولا يستويان فى الآخرة ، ففى الدنيا الهلاك والدمار للكافرين ؛ لأنهم حادوا الله ورسوله فلا ناصر له منهم ، واتبعوا أهواءهم ، وفى الآخرة النار مثوىً لهم ، وتتأكد هذه المعانى ثانية وثالثة :

﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسنٍ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾ [2] .

فكلا الفريقين يشربان ويأكلان .

فللمؤمنين (﴿ **أنهار من لبن لم يتغير طعمه** ﴾ : لم يخرج من بين فرث ودم ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ لم تدنسه الرجال بأرجلهم ﴿ **وأنهار من عسل مصفى** ﴾ لم يخرج من بطون النحل) [3] .

(وأخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور ، عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه : سمعت رسول الله يقول : « فى الجنة : بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعده ») [4] .

---

(١) محمد / ١٤ . (٢) محمد / ١٥ .

(٣ ، ٤) الدر المنثور / ٧ / ٤٦٤ .

الجوله الثانية : مع المنافقين

بعد المعركة المعلنة المفتوحة بين المؤمنين والكافرين ، يأتى الحديث عن المعركة العنيقة الداخلية بين المؤمنين والمنافقين ، ومنذ أحد وقضية المنافقين تأخذ حيزاً ضخماً فى التربية القرآنية ، يتناسب مع خطورة هذا المعسكر ودوره ، ويأتى القرآن الكريم كشافاً يحرق كل الأساليب الملتوية التى يلجأ إليها المنافقون ، ويكاد يحرقهم معه ، لولا خيط رفيع يسعى لإنقاذهم به من هذا المستنقع الآسن :

﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم . فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم . فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ (١) .

(أخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضى الله عنه قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبى ﷺ فيستمع المؤمنون منه مايقول ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفا ؟ فنزلت : **﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾**) (٢).

(وأخرج ابن أبى حاتم ، عن عكرمة رضى الله عنه قال : كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس رضى الله عنهما : ماذا قال آنفا ؟ فيقول : كذا وكذا . وكان ابن عباس رضى الله عنهما من الذين أوتوا العلم) (٣) .

إن الصورة الأولى الشاخصة لهم أنهم لايفقهون ماأنزل الله ، رغم أنهم يشتركون فى السماع مع المؤمنين ، وهم يمثلون الأرض القيعان التى لاتمسك ماءً ولاتنبت كلأً ، وإن كانوا يتظاهرون عكس ذلك ، وإن كانوا يتظاهرون بالاهتمام فيسألون أهل العلم : ماذا قال آنفا . وقد يسألون مع خبث طويتهم من باب التهكم أن رسول الله ﷺ يقول

---

(١) محمد / ١٦ ـ ١٩ .　　(٢ ، ٣) الدر المنثور / ٧ / ٢٦ / ٤٦٦ .

ما لا يُفهم ، وهو لايستطيع أن يُفَقِّه الناس فى دين الله . إن الآية تحتمل كل هذه المعانى ، لكن الذى أكده القرآن ـ وبغض النظر عن بواعثهم ونواياهم ـ أنهم قد طبع الله على قلوبهم ، فلا يتأثرون ، ولا يتفقهون ، ولا يتفاعلون مع هذا القرآن رغم سماعهم له صباح مساء ، وهذا الختم على القلوب لم يأت عرضاً أو مصادفة ، فقد جاء مرتبطاً بوعى وتصميم عن اتباع الهوى والانقياد إليه .

إن القرآن الذى يتلى واحد ، فهو للمؤمنين نور وشفاء وهدى وموعظة وبيان .

وهو للمنافقين عمى ؛ لأن أهواءهم التى سيطرت عليهم جعلت هذا الحجاب الكثيف بين قلوبهم وبين القرآن ، وإن المرء ليعجب فى الحقيقة من هؤلاء الناس الذين يستمعون إلى أشرف خلق الله ، ينطق بكلام الله العربى المبين ، فلا يتحرك لهم وتر ، ولا يخفق لهم خافق ، وإلا فكيف يستمرون على نفاقهم ؟ بينما يفعل فى نفوس المؤمنين فعل السحر ، يتحركون به ، ويتعظون به ، ويسارعون فى تطبيق أحكامه .

وفى الآية مؤشر آخر ، على أن الذين يتبعون أهواءهم سواءً كانوا كفاراً أو منافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، أو عصاة المؤمنين الذين يسمعون كلام الله فلا يجاوز آذانهم ؛ لأن الذنوب المتراكمة قد شكلت الران الذى حدثنا عنه عليه الصلاة والسلام :

« إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الران الذى ذكره الله تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون** ﴾ »(١) .

أما الذين اهتدوا فيزيدهم القرآن هدىً وبصيرة ، ويحرك فى قلوبهم نوازع الخير ، فكأنما يعطون التقوى إعطاءًا ربانياً : ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ .

وأولئك المنافقون الذين يعيشون فى ظهرانى المؤمنين ، هل يحسبون أنهم لن يموتوا ، ولن يلاقوا ربهم حتى انغمسوا فى أهوائهم هذا الانغماس ، واتبعوا مصالحهم هذا الاتباع ، ماذا ينتظرون ؟ :

﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم** ﴾ .

---

(١) أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وهو حديث حسن .

إنهم يكذبون بالساعة فى أعماقهم ، ويتظاهرون بالإيمان بها فى ظاهرهم . . فكيف يكذبون بالساعة واليوم الآخر وقد جاءت النذر الأولى ، وجاءت أشراط الساعة ، وعلاماتها ، وجاء النبى الخاتم الذى ختمت به الرسالات ، كما بشر بذلك أهل الكتاب ، وبشر بذلك التوراة والإنجيل ، فهو عليه الصلاة والسلام . كما قال عن نفسه :

« أنا محمد وأنا أحمد ، والمقفى ، والحاشر ، ونبى التوبة ، ونبى المرحمة ، ونبى الملحمة » (١) .

(والحاشر هو الذى يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى . كما فسرها الحسن البصرى رحمه الله) (٢) .

وهو عليه الصلاة السلام بعث بين يدى الساعة ، إيذاناً بقربها فهو أول أشراطها عليه الصلاة والسلام .

فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس رضى الله عنه قال :

« بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

وأخرج أحمد عن بريدة رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت تسبقنى » (٣).

فإذا لم يفقه هؤلاء المنافقون مِن سيد ولد آدم ، ومِن خاتم الأنبياء ، ومِن نذير الساعة ، ومن الخاتم والمقفى والحاشر ، فممن يفقهون ؟ !! وهل لهم من عذر عندما تأتيهم الساعة بغتة فتبهتهم ؟ ! .

والمهتدون الصالحون قد يقع منهم الخطأ والزلل والتقصير ، وهؤلاء أمة غير أمة المنافقين ، ومع أن القرآن يزيدهم هدى ، لكن الطبيعة البشرية لاتعفيهم من الخطأ . . فها هو جل شأنه يدعو نبيه محمداً ﷺ ؛ لتأكيد الوحدانية للبشر جميعاً يقلها ويعلّمها ، فهى أثقل مافى هذا الوجود ، وحق هذه الوحدانية وحق الربوبية أنّى للبشر أن يؤدوه ، وأنّى لهم أن يبلغوا عشر معشار واجبهم نحو لاإله إلا الله . فلا غرو أن يكلف سيدهم عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات :

---

(١) رواه أحمد ومسلم وهو حديث صحيح . (٢) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣١٩ .
(٣) مسند الإمام أحمد / ٥ / ٣٤٨ .

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ (١) .

إنه من حق الله تعالى أن يقوم العبيد بواجب العبودية نحو ربهم وخالقهم ، فإذا ساروا في الطريق جادين جاهدين فالله تعالى يغفر لهم الزلات ويعفو عن العثرات ، طالما أنهم مُوَحِّدون موقنون .

لكن الذين طبع على قلوبهم فلهم شأن آخر غير شأن المؤمنين .

وهذا موقفهم من العلم الذى جاء به رسول الله ﷺ .

فما هو موقفهم من الجهاد ؟

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٢) .

المؤمنون ينتظرون الوحى انتظار الأرض العطشى للمطر ، فقد جاءهم ما يحييهم ، وغدا القرآن حياتهم ، ويتجهون يسألون : **﴿ لولا نزلت سورة ﴾** .

وخاصة فى بعض القضايا التى يرجون من الله تعالى أن يحكم فيها ، فهم فى جاهلية ، ويودون الحكم فى كل أمر ، ينتظرون التعليمات للتنفيذ ، فهم جند الله تعالى .

ويشارك المنافقون فى هذه الرغبة ظاهراً ، ولا يستطيعون أن يتخلوا عن هذه المشاركة ، فهل يمكن أن يظهروا بعزوفهم عن كتاب الله ! ! ! إنه تصرف واضح يفضحهم ويدينهم .

وتأتى السورة ، تدعو إلى ربط الدعوى بالعمل ، إلى ربط الإيمان بالتطبيق العملى ، تدعو إلى الجهاد ، وقتال المشركين ، وتكون الطامة ؛ فالدعوى ستكشف ، والادعاء سيسقط ، ويتحطمون تحت مطارق الصدق ومسؤوليات القتال فى سبيل الله .

---

(١) محمد / ١٩ .   (٢) محمد / ٢٠ ـ ٢٤ .

ويأتى التعبير القرآنى ليصفعهم صفعة تخرج كل ذرة من ذرات الشجاعة فى قلوبهم ـ إن كان فيها شيء من الشجاعة ـ وكأنهم الساعة ماضون للمعركة :

﴿ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

(وهو تعبير لاتمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أى عبارة أخرى ، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع ، والضعف إلى حد الرعشة ، والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفرداً حافلاً بالظلال والحركة التى تشغف الخيال ! وهى صورة خالدة لكل نفس لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر وهى هى طبيعة المرض والنفاق) (١) .

وتبقى التربية هى الهدف الرئيسى للقرآن الكريم ، وبعد هذا التشخيص للداء الذى يعتمل فى صدور المنافقين ، وتحطيم القناعات الزائفة فى نفوسهم والسخيفة التى تصور لهم إمكان إخفاء مافى نفوسهم عن الله عز وجل ، وعن رسوله ، وعن جماعة المؤمنين . وحين تبدأ النفس بعد هذا الخزى تود أن تنزل فى عالم الحقد والبأس ، والسقوط ، تقف الآية الكريمة لتلوى عنانهم مباشرة ، وترفعهم من وهدة السقوط ، وتمسك بتلابيبهم قبل الهاوية لتقودهم إلى النور .

إن الطريق مفتوحة إلى الهدى والنور ، ولايكلفهم الأمر غاليًا أبداً .

﴿ فأولى لهم . طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

إنه كتاب الله المعجز الصادر عن بارىء النفس ومصوِّرها ، وعن خالق الوجود والعليم بمكنونات الصدور ، وصانع هذه النفس ، القادرة على الانحدار والسمو ، إنها الصلة النفسية المباشرة التى تمسك بهذا القلب مباشرة . مع أعنف أحواله .

من صورة المغشى عليه من الموت .

وعوضاً عن أن نتابع الغشية عنده فيموت فى نتن النفاق وأهله يمسك به مباشرة ، ولما تتم الآية : **﴿ فأولى لهم . طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾** .

وتوضح الآية التالية مغبة الإصرار على التدنى ، والخوف من الجهاد والتخلى عنه :

---

(١) فى ظلال القرآن / م ٦ / جـ ٢٦ / ٣٢٩٦ .

﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ .

(أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضى الله عنه : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم** . . ﴾ الآية قال : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ؟ ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن !) [١] .

وعن قتادة كذلك : (كل سورة أنزل فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين) [٢].

وعن ابن جريج رضى الله عنه قال : (كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى ، وإلى بيان ماينزل عليه فيه ، فإذا أنزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم** ﴾ قال : وعيد من الله لهم) [٣] .

وصلة الآية بالجهاد صلة وثيقة ، لعل ابن كثير رحمه الله هو الذى ذكر ذلك فقال :

(وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم** ﴾ أى عن الجهاد واتكلتم عنه ﴿ **أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ أى تعودوا إلى ماكنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال وبذل الأموال . وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، قال البخارى : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان ، حدثنى معاوية بن أبى مزرد ، عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن عز وجل . فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك : قالت : بلى . قال : فذلك لك » . قال أبو هريرة رضى الله عنه : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ ثم رواه البخارى من طريقين آخرين عن معاوية بن أبى مزرد به قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى**

(١ ، ٢ ، ٣) : الدر المنثور / م ٧ / جـ ٢٦ / ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ ، ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به) (١) .

والفساد فى الأرض أن يكون ثمرة التولى عن الجهاد والتخلى عنه ـ قرره القرآن فى مكان آخر فى سورة البقرة فى قوله عز وجل .

﴿ . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (٢) .

وأما تقطيع الأرحام ، فنظرة واحدة إلى العرب قبل الإسلام ، وإلى مايسمى بأيام العرب فى الجاهلية ، يعطينا أوضح صورة عن هذا التقطيع ، حيث تأكل الحرب الأخضر واليابس ، وتفنى الشباب ، وتُحل القتل والدمار بين الإخوة والقبائل المتجاورة المتحدرة من أصل واحد ، وتبذر الفناء فى العشيرة الواحدة.؛ لأن القتال آنذاك كان للدنيا وللسمعة وللرياء ولم يكن لله ، وكانت الثارات وذحول الجاهلية هى التى تتحكم فى الناس ، فتقطع أرحامهم ، وتمزق أوصالهم ، وتفسد ذات بينهم ، وتفتت مابقى بينهم من أواصر .

والإفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام هو خروج عن منهج الخلافة فى الأرض :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ (٣) .

وهؤلاء المفسدون يستحقون لعنة الله وغضبه :

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ .

وعطفاً على بداية المقطع ، عن الذين يستمعون إلى رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده قالوا : ماذا قال آنفا ، فهم الذين أصمهم وأعمى أبصارهم ؛ لأنهم لايتدبرون القرآن ، وكيف يتدبرون آيات الله ، والأقفال على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ؟ لقد اختاروا ابتداء الكفر ، وأقدموا على رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ، فتعرت حقيقتهم ، لايفقهون مايقولون : **﴿ لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾** (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣١٨ .
(٢) البقرة / ٢٥١ .
(٣) البقرة / ٣٠ .
(٤) الأعراف / ١٧٩.

وتأتى صورة ثالثة من صور المنافقين ، لتطاردهم فى خلواتهم وتخطيطهم وتفضحهم بما مكروا من أمر :

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزَّل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ (1) .

وتشير هذه الآيات من جديد إلى التخطيط المشترك بين فريقين ، فريق المنافقين وفريق اليهود .

أما المنافقون ، فلم يتابعوا مسيرهم على طريق الهدى بعد إذ عرفوه ، ودخلوا فى هذا الدين ، لقد نكصوا على أعقابهم ، وارتدوا على أدبارهم ، وقد تبين لهم الهدى فتنكروا له . ويحلل القرآن سبب هذا الموقف ، وذلك لوجود قوة مكافئة للقوة المسلمة ، هى قوة اليهود ، وإن كانت التصفية قد نزلت ببنى قينقاع وبنى النضير ، فلا يزال بنو قريظة فى قلاعهم وحصونهم ، واتجاه المنافقين هو أن يمسكوا العصا من الوسط ، ولا يقطعوا حبالهم مع أحد ، فيقولون لليهود : **﴿ سنطيعكم فى بعض الأمر ﴾** ، والله يعلم مايخفون ومايعلنون .

ولابد أن تكون العقوبة متناسبة مع الجريمة ، وملائكة العذاب الذين يتناولونهم من لحظات مغادرتهم دنياهم يضربون وجوههم وأدبارهم ، فكما ارتدوا على أدبارهم فيأتيهم العذاب على وجوههم وأدبارهم جزاءً نكالاً ؛ لمواقفهم المشينة .

لقد كان الحب والود عميقاً بين الفريقين . نأخذ من صور هذا الحب هذه اللقطة بين زيد بن رفاعة وعبد الله بن أبى ، تحدثنا عن حزنهم على بنى النضير :

(ولقى المنافقون عليهم يوم خرجوا حزناً شديداً ، لقد لقيت زيد بن رفاعة بن التابوت وهو مع عبد الله بن أبى وهو يناجيه فى بنى غنم وهو يقول :

توحشت بيثرب لفقد بنى النضير ، ولكنهم يخرجون إلى عز وثروة من حلفائهم ، وإلى حصون منيعة شامخة فى رءوس الجبال ليست كما ها هنا .

---

(1) محمد / ٢٥ - ٢٨ .

قال : فاستمعت : إليهما ساعة . وكل واحد منهما غاش لله ورسوله) [1] .

وتلك صور أخرى مشابهة فى موقف آخر ، عند خروج بنى النضير كذلك :

قال الضحاك بن خليفة ـ وهو يرى خروجهم ـ :

(واصباحاه ، نفسى فداؤكم ماذا تحملتم به من السؤدد ، والبهاء ، والنجدة ، والسخاء ؟

ويقول نعيم بن مسعود الأشجعى : فداءً لهذه الوجوه التى كأنها المصابيح ظاعنين من يثرب من للمجتدى الملهوف ؟ ومن للطارق السغبان ؟ ومن يسقى العُقار ؟ ومن يطعم الشحم فوق اللحم ؟ ما لنا بيثرب بعدكم مقام .

يقول أبو عيسى بن جبر وهو يسمع كلامه : نعم فالحقهم حتى تدخل معهم النار .

قال نعيم : ماهذا جزاؤهم منكم ، لقد استنصروكم فنصروكم على الخزرج ، ولقد استنصرتم سائر العرب به فأبوا ذلك عليكم .

قال أبو عيسى : قطع الإسلام العهود) [2] .

فقد اتبع المنافقون ماأسخط الله فى الولاء لغير الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، وكرهوا رضوانه فى الولاء الخالص لله ، ففقدوا رأسمالهم كله ، وأحبط الله أعمالهم بذلك .

هذا التفسير هو الذى اختاره ابن عباس رضى الله عنهما كما أخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم ...** ﴾ إلى : ﴿ **إسرارهم** ﴾ هم أهل النفاق) [3] .

وإن كان قتادة رضى الله عنه كما روى عنه يرى أن هذه الآيات نزلت فى اليهود ، وكذلك ابن جريج ـ لكن المتوافق مع سياق الآيات هو التفسير المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم

(١) مغازى للواقدى / ٢ / ٣٧٤ .   (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٣٧٤ .

(٣) تفسير ابن جرير / ١١ / ٢٦ / ٣٧ .

حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [١] .

والمنافقون فى هذه المرحلة ، لم يكن الاتجاه القرآنى يمضى بكشف أشخاصهم ليتيح الفرصة لهم للعودة إلى الصف ، وعدم تحديد هواياتهم بأشخاصهم وأعيانهم ، يبقى الباب مفتوحاً لديهم للتراجع عن مواقفهم ، والالتحاق بالصف المسلم ، لكن هذا لايعنى أنهم مغمورون غير معروفين ، ينفذون مؤامراتهم ، ويدسون الدسيسة فى الصف المسلم ، فيظنون أن الله لايخرج أضغانهم ، وكما يقول ابن كثير رحمه الله :

(أيعتقد المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر .

والإضغان جمع ضغن وهو مافى النفوس من الحقد والحسد للإسلام وأهله والقائمين بنصره ، وقوله : ﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم** ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يامحمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً . ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين ستراً منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها) [٢] .

وكما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية : ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لايخرج الله أضغانهم** ﴾ قال : (أعمالهم ، خبثهم والحسد الذى فى قلوبهم) [٣] .

(لقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم فى الغالب على المسلمين ، فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافياً ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين ، ويقول لرسول الله ﷺ : ﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم** ﴾ أى لو نشاء لكشفنا عنك بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه ـ وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم ـ ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته وانحراف منطقهم فى خطابك سيدلك على نفاقهم : ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ .

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها : ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾) [٤] .

---

(١) محمد / ٢٩ ٣١ .
(٢) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣٢٢ .
(٣) الدر المنثور / ٧ / ٥٠٣ .
(٤) فى ظلال القرآن / م٦ / جـ ٢٦ / ٣٢٩٩ .

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾ :

والابتلاء هو السبيل الوحيد لتمييز المؤمنين عن المنافقين ، وهو السبيل الوحيد لمعرفة الصابرين على البأساء والضراء وحين البأس ، والقضية إن كانت محصورة فى العبادة والصلاة فمن السهل حضور جماعة المسلمين ، والمحافظة عليها - وإن كانت الصلاة نفسها ابتلاء فما يتخلف عن صلاة الجماعة فى ذلك المجتمع الربانى إلا منافق مغموص عليه فى النفاق ، وأثقل الصلاة على المنافقين صلاة الفجر وصلاة العشاء . . - لكن الأصعب والأشد هو الجهاد والصبر على طعن القنا وضرب السيوف فى سبيل الله ، فلا بد أن يبرز المجاهدون والصابرون ، ولا يتساوون مع المتخاذلين والمنافقين .

والمسلم يسأل الله تعالى العافية ، لكن إن وقع الابتلاء فلابد أن يكون عند حسن ظن ربه به ، كما قال البراء بن مالك رضى الله عنه : (ليرين الله ماأصنع) .

« لاتتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، وإذا لقيتموهم فاثبتوا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »(١) .

والابتلاء مستمر فى كل المراحل ، ابتداءً من الإيمان وانتهاء بالجهاد .

فعن سبرة بن الفاكه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال :

« إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه فأسلم فغفر له ، فقعد له بطريق الهجرة ، فقال له : تهاجر وتذر دارك وأرضك وسماءك فعصاه فهاجر ، فقعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل فتنكح المرأة ، ويغنم المال فعصاه فجاهد » ثم قال رسول الله ﷺ :

« فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة »(٢) .

حث للصف المؤمن على الجهاد :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه النسائى وابن حبان .

كفار فلن يغفر الله لهم . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ [1] .

بعد أن زحزح المنافقون من الساحة تبقى المعركة الحقيقية بين المؤمنين والكافرين .

فالكافرون يقول تعالى عنهم :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ﴾ .

فالذين كفروا سواءً أكانوا من اليهود الذين يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم وقد تبين لهم الهدى فانحرفوا عنه ، أو كانوا من المشركين الذين يعرفون صدق رسولهم . وأنهم ماجربوا عليه كذباً قط ، إنما حاربوه استعلاءً واستكباراً أن يكونوا تبعاً له ، ولم يكتفوا بعدم إيمانهم فقط ، إنما حملوا لواء الحرب لله ورسوله ، وحرب المؤمنين فى كل مكان وجدوا فيه ، فصدوا عن سبيل الله ـ هؤلاء جميعاً مهما كانت قوتهم وجبروتهم وطغيانهم لن يضروا الله شيئاً ، ولن يحولوا دون انتشار هذا الدين فى الآفاق ، ولن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . لكنهم يحرقون أنفسهم فى الدنيا والآخرة ، وسيلقون جزاء محادّتهم لله ورسوله أن يحبط عملهم كله ، وإن كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا . لن يغنى عنهم أن يكونوا من أهل الكتاب وأنهم من نسل الأنبياء ، وأنهم . . أو أن يكونوا حماة البيت ، يحملون لواء سقاية البيت وعمارة المسجد الحرام ، فالعمل سيحبط للفريقين ، مادامو كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، ومادامو حرباً لله ورسوله والمستضعفين من المؤمنين .

ولابد من أن يتضح هذا الأمر فى ذهن العصبة المؤمنة ، حتى تتخلى نهائياً عن خط الكفر وأهله ، ولا تساورها الشكوك كما ساورت المنافقين فى محاولة تقديم المصلحة على الهدى ، ومحاولة إطاعة الكافرين فى بعض الأمر والمؤمنين فى بعض الأمر ، لابد من موقف حاسم واضح بين .

---

(١) محمد ـ ٣٢ ـ ٣٨ .

﴿ .. أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ :

وإبطال العمل هو كما تم التحذير عنه من قبل ، فى محاولة التوفيق بين المؤمنين والكافرين ، وتجزئة الطاعة بين المؤمنين والكافرين .

ثم يأتى التحذير الثانى بعد التحذير الأول ، ليحس المسلم بالمفاصلة الكاملة بينه وبين الكافرين :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ .

التحذير من التأثير بالأحياء من الكفار أو بالموتى منهم ، فالأحياء سيحبط أعمالهم ، والموتى لن يغفر الله لهم ، وكلاهما سيكون حطبًا للنار يوم القيامة .

ولايجوز أن تلين القناة أو تهين العزيمة ، أمام هذه القوة العاتية الطاغية الباغية التى تحيط بالمسلمين من كل موقع ، وفى الأجواء بعد أحد لابد من التركيز على هذا البناء النفسى .

فكما قال الله تعالى لهم فى أحد :

﴿ ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

يتابع هذا الخط ، ويتابع هذا البناء بقوله عز وجل :

﴿ ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ .

فلا سلم مع هؤلاء الكفار الذين لايرضون منكم إلا سلماً على دخن تتركون فيه دينكم أو تساومون عليه ، ولايضركم أن تكونوا هزمتم فى معركة ، أو خسرتم حرباً ، فلاتزالون أنتم الأعلون . والعلو ليس بالضرورة بالانتصار ، قد يكون العلو ــ رغم الجراح والآلام والتضحيات ــ هو الثبات والصبر ، كما صبر الصالحون من قبلنا ، فسيبقى سجل الأعمال وافراً بالأجر لن ينقص منه شيئاً ، سواءً كانت النتيجة النصر على العدو ، أو الاستشهاد فى المعركة ، أو الجرح فى سبيل الله .

« تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو علىَّ ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذى نفس محمد بيده مامن كلم ـ جرح ـ يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم

القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك ، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولايجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » [١] .

وإذا كان الذى يحول دون الجهاد الركون إلى الدنيا والتثاقل إلى الأرض ـ فالدنيا أهون من أن تحول دون الجهاد :

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم ﴾ .

والدنيا عندما تكون مطية للآخرة ، فيمكن أن يتحول كل مافيها خيراً وزخراً للمؤمنين . وعظمة هذا الدين أنه يخاطب النفس البشرية فى كل أبعادها ، فليس خاصاً بالنخبة من البشر . إنه يريد أن يرفع البشر جميعاً كلاً حسب طاقته ، وليس بالضرورة أن يكون الإيمان والتقوى تخلياً عن الدنيا ، فالمال مبخلة مجبنة : **﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾** و **﴿ إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعاً ﴾** [٢] .

والذين يتحررون من هذه الغرائز المصلون : **﴿ إلا المصلين ﴾** ، والمؤمنون المتقون .

﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم ﴾ .

فليست الطبيعة البشرية رغم الإيمان والتقوى فيها ، أن يقدَّم المال كله إنفاقاً ، فللنفس حظ ، وللولد والأهل نصيب ، ولو سئل المؤمنون أموالهم لسقطوا فى الامتحان ، ولتزلزل الكثيرون عن مواقعهم :

﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ .

(أى إن يحرجكم تبخلوا **﴿ ويخرج أضغانكم ﴾** قال قتادة : قد علم الله تعالى أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان ، وصدق قتادة ، فإن المال محبوب ولايصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه) [٣] .

وحيث لم يسأل الله تعالى المال كله ، فهذا لايعنى أن لا يسأل الجهاد بالمال :

---

(١) رواه مسلم . (٢) المعارج / ١٩ ـ ٢١ . (٣) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣٢٥ .

﴿ هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء . . ﴾ [1] .

« من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا » [2] .

« من جهز غازياً فى سبيل الله أو خلفه فى أهله كتب له مثل أجره حتى لا ينقص من أجر الغازى شىء » [3] .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« طوبى لمن أكثر من الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف ، مع الذى له عند الله من المزيد » فقيل : يارسول الله ، النفقة ؟ قال : « النفقة على قدر ذلك » قال عبد الرحمن : فقلت لمعاذ : إنما النفقة بسبعمائة ضعف . قال معاذ : قلّ فهمك ، إنما ذاك إذا أنفقوها وهم مقيمون فى أهلهم غير غزاة ، فإذا غزوا وأنفقوا أخبأ الله لهم من خزائن رحمته ماينقطع عنه علم العباد وصفتهم ، فأولئك حزب الله وحزب الله هم الغالبون » . [4]

﴿ . . . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ :

لقد نزلت هذه الآية تخاطب الجيل القرآنى الفريد ، خير أهل الأرض على الأرض ، وإن كانت ماضية تخاطب كل الأجيال إلى يوم الدين ، ولعل كثيراً من الأجيال سقطت فى الابتلاء ، فأبدل الله تعالى خيراً منها ، وبقى لواء هذا الدين مرفوعاً إلى يوم القيامة .

ولاشك أن الجيل الأول قد أصبح طباق الأرض ثم التابعين وتابعيهم .

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

أما بعد تلك الأجيال الثلاثة من السلف الصالح رضى الله عنهم ، فبقيت الطائفة التى تقاتل عن الحق وتزود عنه فى كل جيل ، وحين تتولى الجماهير الغافلة عن الدين والجهاد فى سبيله ، فالله تعالى يخرج من بين ظهرانيها من يتابع الجهاد حتى تقوم الساعة وهم على ذلك .

(١) محمد / ٣٨ .
(٢) متفق عليه .
(٣) ابن حبان .
(٤) أخرجه الطبرانى ، وفيه راو لم يسم .

ونستطيع القول أن الانتقال من الأمة المسلمة إلى الطائفة المسلمة قد تم بعد القرون الثلاثة الأولى .

« خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يخونون ولايؤتمنون ، ويشهدون ولايستشهدون ، وينذرون ولايوفون ، ويظهر فيهم السمن » (١) .

فستبقى الخيرية في الأمة بعدها كما يقول عليه الصلاة والسلام :

« لاتزال طائفة من أمتي منصورين ، لايضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة » (٢) .

وفي رواية : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم : تعال ، صل لنا فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمير ، تكرمة الله لهذه الأمة » (٣) .

ونؤكد إذن أن الجيل الأول الذي نزلت عليه هذه الآية لم يتول ولم يتوان ، بل كان على منهج الله وشرعه حتى انتشر الدين في الأرض كلها ، وكان الدين كله لله . ولعلنا نعرض نموذجًا من هذا الجيل وذلك في الفترة التي تواكب فيها نزول هذه الآيات .

نموذجًا خاصاً ، ونموذجًا عاماً ، نودع بهما الفترة بين أحد والخندق ، ونشهد من خلالهما ثمرة هذا التوجيه القرآني في الحث على الجهاد في سبيل الله ، والحث على البذل والإنفاق في سبيل الله .

أما النموذج الخاص : فهو مقتل أبي رافع اليهودي .

وكان لابد من الوصول إلى خيبر من جند محمد ﷺ بعد أن أوت إليها بني النضير ، وقد تحدثهم نفسهم بغزو المدينة ، والثأر لكرامتهم المهدورة وأرضهم المسلوبة التي جعلها الله فيئاً للمسلمين .

وقد خرجوا بأمر رسول الله ﷺ لأربع خلون من ذي الحجة على رأس ستة وأربعين شهرا ، وغابوا عشرة أيام .

عن عبد الله بن أنيس قال : (خرجنا من المدينة حتى أتينا خيبر قال : (وقد كانت أم

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه ابن ماجة وهو صحيح .

(٣) رواه مسلم والإمام أحمد .

عبد الله بن عتيك ، بخيبر يهودية أرضعته) وقد بعثنا رسول الله ﷺ خمسة نفر : عبد الله ابن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة ، والأسود بن خزاعى ، ومسعود بن سنان . قال : فانتهينا إلى خيبر . وبعث عبد الله إلى أمه فأعلمها مكانه فخرجت إلينا بجراب مملوء تمراً كبيساً وخبزاً ، فأكلنا منه ثم قال لها : ياأماه قد أمسينا بيتينا عندك فأدخلينا خيبر . فقالت : كيف تطيق خيبر ، وفيها أربعة آلاف مقاتل ؟ ومن تريد فيها ؟ قال : أبا رافع . فقالت : لاتقدر عليه . قال : والله لأقتلنه أولأقتلن دونه قبل ذلك . قالت : فادخلوا على ليلاً . فدخلوا عليها ، فلما نام أهل خيبر ، وقد قالت لهم ادخلوا فى خمر [١] الناس ، فإذا هدأت الرجل فاكمنوا ! ففعلوا ودخلوا عليها ، ثم قالت : إن اليهود لاتغلق أبوابها عليها فرقاً أن يأتيها ضيف ، فيصبح أحدهم بالفناء ولم يضف ، فيجد الباب مفتوحاً فيدخل فيتعشى . فلما هدأت الرجل قالت : انطلقوا حتى تستفتحوا على أبى رافع فقولوا : إنا جئنا لأبى رافع بهدية فإنهم سيفتحون لكم ففعلوا ذلك . ثم خرجوا لايمرون بباب من بيوت خيبر إلا أغلقوه ، حتى أغلقوا بيوت القرية كلها حتى انتهوا إلى عَجَلَة [٢] عند قصر سلام [٣] قال : فصعدنا وقدمنا عبد الله بن عتيك ؛ لأنه كان يرطن باليهودية ، ثم استفتحوا على أبى رافع فجاءت امرأته ، فقالت : ماشأنك ؟ فقال عبد الله ابن عتيك ورطن باليهودية : جئت أبا رافع بهدية ، ففتحت له ، فلما رأت السلاح أرادت تصيح . قال عبد الله بن أنيس : وازدحمنا على الباب أينا يبدر له ، فأرادت أن تصيح . قال : فأشرتُ إليها السيف قال : وأنا أكره أن يسبقنى أصحابى إليه . قال : فسكنت ساعة ثم قلت لها : أين أبو رافع ؟ وإلا ضربتك بالسيف . فقالت : هو ذاك فى البيت . فدخلنا عليه فما عرفناه إلا ببياضه كأنه قطنة ملقاة فعلوناه بأسيافنا فصاحت امرأته ، فهمَّ بعضنا أن يخرج إليها ثم ذكرنا أن رسول الله ﷺ نهانا عن قتل النساء . قال : فلما انتهينا جعل سمك [٤] البيت يقصر علينا ، وجعلت سيوفنا ترجع .

قال ابن أنيس : وكنت رجلاً أعشى لا أبصر بالليل إلا بصراً ضعيفاً . قال فتأملته كأنه قمر فأتكىء بسيفى على بطنه حتى سمعت خشَّه [٥] فى الفراش ، وعرفت أنه قد قضى . قال : وجعل القوم يضربونه جميعاً . ثم نزلنا ونسى أبو قتادة قوسه فذكرها بعدما نزل ، فقال أصحابه : دع القوس ، فأبى فرجع فأخذ قوسه . وانفكت رجله فاحتملوه بينهم ،

---

(١) فى خمر الناس : فى جماعتهم وكثرتهم . (٢) عَجَلَة : درجة من النخل .
(٣) سلام بن أبى الحقيق : هو أبو رافع . (٤) سمك البيت : سقفه .
(٥) خشه : صوت شقه للفراش .

فصاحت امرأته ، فتصايح أهل الدار بعد ماقتل ، فلم يفتح أهل البيوت عن أنفسهم ليلاً طويلاً ، واختبأ القوم في بعض مناهر [1] خيبر ، وأقبلت اليهود ، وأقبل الحارث أبو زينب ، فخرجت إليه امرأته ، فقالت : خرج القوم الآن . فخرج الحارث في ثلاثة آلاف في آثارنا ، يطلبوننا بالنيران في شعل [2] السعف ولربما وطئوا في النهر ، فنحن في بطنه وهم على ظهره فلا يرونا . فلما أوعبوا في الطلب فلم يروا شيئاً رجعوا إلى امرأته فقالوا لها : هل تعرفين منهم أحداً ؟ قالت : سمعت منهم كلام عبد الله بن عتيك ، فإن كان في بلادنا هذه فهو معهم ، فكروا الطلب ثانية وقال القوم فيما بينهم : لو أنا بعضنا آتاهم فنظر هل مات الرجل أم لا . فخرج الأسود بن خزاعي حتى دخل مع القوم وتشبّه بهم . فجعل في يده شعلة كشعلهم حتى كرّ القوم الثانية إلى القصر وكرّ معهم ، ويجد الدار قد شحنت . قال : فأقبلوا جميعاً ينظرون إلى أبي رافع مافعل ، فأقبلت امرأته معها شعلة من نار ثم أحنت عليه تنظر أحيّ أم ميت هو ، فقالت : فاظ [3] وإله موسى ! قال : ثم كرهت أن أرجع إلا بأمر بيّن ، فدخلت الثانية معهم ، فإذا الرجل لايتحرك منه عرق ، فخرجت اليهود في صيحة واحدة . قال : وأخذوا في جهازه يدفنونه ، وخرجت معهم وقد أبطأت على أصحابي بعض الإبطاء ، فانحدرت عليهم في النهر فخبرتهم ، فمكثنا في مكاننا يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجنا مقبلين إلى المدينة ، كلنا يدعي قتله ، فقدمنا على النبي ﷺ وهو على المنبر ، فلما رآنا قال : « أفلحت الوجوه » ! فقلنا : أفلح وجهك يارسول الله ! قال : « أقتلتموه ؟ » قلنا : نعم ، وكلنا يدعي قتله . قال : « عجلوا على بأسيافكم » . فأتينا بأسيافنا ثم قال : « هذا قتله ، هذا أثر الطعام في سيف عبد الله بن أنيس » قال : وكان ابن أبي الحقيق قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب ، وجعل لهم الجعل العظيم لحرب رسول الله ﷺ ، فبعث النبي ﷺ إليه هؤلاء النفر . . . .

ويقال كانت السرية في شهر رمضان سنة ست) [4] .

لقد أوقفت هذه العملية غزواً للمدينة ، أو أجلته على الأقل ، إذ أن العدو قد تكالب على المسلمين من كل جانب ، وكلٌ يخطط لحربهم والقضاء عليهم ، والعين النبوية الساهرة ترقب الأخبار من كل مكان ، وتضع الخطة المناسبة للمواجهة ، والجنود المسلمون

---

(١) مناهر : جمع منهر شق في الحصن نافذ يخرج منه الماء .

(٢) شعل السعف : قطعة من خشب تشعل فيها النار ، والسعف أغصان النخلة .

(٣) فاظ : مات .

(٤) المغازي للواقدي / ١ / ٣٩١ ـ ٣٩٥ .

من المهاجرين والأنصار يتسابقون فى الفداء . فقد كانت هذه العملية أصلاً مكافئة لعملية اغتيال كعب الأشرف بعد بدر .

فعن ابن إسحاق قال : (حدثنى الزهرى ، عن كعب بن مالك قال : كان مما صنع الله لرسوله ﷺ ؛ أن هذين الحيين من الأنصار كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ، لاتصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله ﷺ إلا قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفى الإسلام ، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك .

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلاً علينا ، فتذاكروا من رجل لرسول الله ﷺ كابن الأشرف ، فذكروا ابن الحقيق وهو بخيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم ، فخرج إليه من الخزرج خمسة من بنى سلمة) (١) .

هذا على المستوى الخاص بينما تطالعنا على **المستوى العام** غزوتان كبيرتان هما غزوة دومة الجندل وغزوة المريسيع ـ غزوة بنى المصطلق ـ وكلاهما لصد هجوم مبيت .

---

(١) المغازى للذهبى / ٣٤١ .

١ ـ غزوة دومة الجندل

كانت السنة الرابعة قد انصرمت ، وأزفت السنة الخامسة ، ولاتزال الحشود من كل مكان تتجمع ، فينهد لها رسول الله ﷺ ومن معه .

(قيل سميت بدومى بن إسماعيل عليه السلام ؛ لكونها كانت منزلة ، ودَوْمَةُ بالفتح موضع آخر ، وهذه الغزوة كانت فى ربيع الأول ، ورجع النبى ﷺ قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً .

وقال المدائنى : خرج رسول الله ﷺ فى المحرم يريد أكيدر دومة ، فهرب أكيدر وانصرف النبى ﷺ .

وقال الواقدى ـ عن رواته ـ : أراد رسول الله ﷺ أن يقرُب إلى أدنى الشام ليرهب قيصر ، وذُكِر له أن بدومة الجندل جمعاً عظيماً يظلمون من مرَّ بهم ، وكان بها سوق وتجار ، فخرج رسول الله بألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ودليله مذكور العذرى ، فنكب عن طريقهم ، فلما كان بينه وبين دومة يوم قوى قال له : يارسول الله إن سوائمهم ترعى عندك ، فأقم حتى أنظر . وسار مذكور حتى وجد آثار النعم ، فرجع وقد عرف مواضعهم ، فهجم النبى ﷺ على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وجاء الخبر إلى دومة فتفرقوا ، ورجع النبى ﷺ .

وهى عن المدينة ستة عشر يوماً وبينها وبين دمشق خمس ليال للمُجدِّ ، وبينها وبين الكوفة سبع ليال ، وهى أرض ذات نخل ، يزرعون الشعير وغيره ، ويستقون على النواضح ، وبها عين ماء) (١) .

---

(١) المغازى للذهبى / ١ / ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ، وعند الواقدى / ١ / ٤٠١ ـ ٤٠٤ ، وعن ابن إسحاق / ٢ / ٢١٣ .

٢ ـ غزوة المريسيع

(وتسمى غزوة بني المصطلق ، كانت في شعبان سنة خمسٍ على الصحيح ، بل المجزوم به .

قال الواقدى : استخلف النبى ﷺ على المدينة زيد بن حارثة . .

فحدثنى شعيب عن عباد عن المسور بن رفاعة قال : خرج رسول الله ﷺ فى سبعمائة .

وقال يونس بن بكير : قال ابن إسحاق : حدثنى . . . قالوا :

خرج رسول الله ﷺ وبلغه أن بنى المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرية أم المؤمنين ، فسار النبى ﷺ حتى نزل بالمريسيع ماء من مياههم ، فأعدوا لرسول الله ﷺ . فتزاحف الناس فاقتتلوا . فهزم رسول الله ﷺ بنى المصطلق وقتل منهم من قتل منهم ونفل نساءهم وأبناءهم وأموالهم ، وأقام عليهم من ناحية قديد [1] والساحل .

وقال الواقدى عن معمر وغيره : إن بنى المصطلق من خزاعة كانوا ينزلون ناحية الفرع [2] ، وهم حلفاء بنى مدلج ، وكان رأسهم الحارث بن ضرار ، وكان قد سار فى قومه ومن قدر عليه ، وابتاعوا خيلاً وسلاحاً وتهيأ للمسير إلى رسول الله ﷺ .

قال الواقدى : وحدثنى سعيد بن عبد الله بن أبى الأبيض عن أبيه عن جدته وهى مولاة جويرية قالت : سمعت جويرية تقول : أتانا رسول الله ﷺ ونحن على المريسيع فأسمع أبى يقول : أتانا ما لا قبل لنا به . قالت : وكنت أرى من الناس والخيل والعدد أصف من الكثرة ، فلما أن أسلمت وتزوجنى رسول الله ﷺ ورجعنا ، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى فعرفت أنه رعب من الله . وكان رجل منهم قد أسلم يقول : لقد كنا نرى رجالاً بيضاً على خيل بلق ماكنا نراهم قبل ولابعد .

---

(١) قديد : قرية جامعة بين مكة والمدينة ، كثيرة المياه ، وقيل موضع قرب مكة .

(٢) الفرع : تبعد عن المدينة جنوباً .

قال الواقدى : ونزل رسول الله ﷺ الماء ، وضربت له قبة من أدم ومعه عائشة وأم سلمة ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ثم أمر عمر فنادى فيهم قولوا : لاإله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ففعل عمر ، فأبوا ، فكان أول من رمى رجل منهم بسهم ، فرمى المسلمون ساعة بالنبل ، ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا ، فحملوا ، فما أفلت منهم إنسان ، وقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم ، وقتل من المسلمين رجل واحد(١) .

لقد كان تحرك النبى ﷺ إلى أقصى الشمال حتى دومة الجندل وإلى الجنوب قرب مكة ، وذلك ليطهر المنطقة كلها من الجيوب التى تستعد لمواجهته والانقضاض على المدينة ، وكان المسلمون يتحرقون للقاء العدو ، فقد أصبحت الأعداد الضخمة هى سمة التحرك ، فكما رأينا أن قرابة الألف قد اتجهوا لدومة الجندل ، والسبعمائة لبنى المصطلق ، وهما جيشان يعدلان جيش أحد ، وهذا يعنى أن التربية الجهادية قد أخذت مداها ، والدعوة إلى الجهاد والصبر على لقاء العدو قد أثمرت وأينعت كذلك .

غير أننا ونحن نقف فى قلب الصف المسلم ، ونشهد جوانب التربية من خلاله ونشهد الحرب غير المعلنة بين المنافقين والمؤمنين ـ نلاحظ أن معسكر المنافقين بدأ يتقلص شيئاً فشيئاً ، ويمتد معسكر الإيمان ليضم العديد من أفراده ، ولايقف معسكر المنافقين مكتوف الأيدى وعلى رأسه عبد الله بن أبى ، وهو يجد التناقص والتقلص يتسلل إلى معسكره .

لقد فشل مع بنى قينقاع وبنى النضير ، وفقد أكبر حليفين له داخل المدينة ، فلا بد أن يتجه إلى ضرب الصف المسلم المتماسك ، وإثارة الفرقة والخلاف فيه ، لعله يستطيع أن يعيد ترتيبه من جديد ، فيضم قومه الخزرج إليه على الأقل ، وأراد أن يضرب ضربته الذكية التى لو نجحت معه لتغير وضع الإسلام كله ، ولكن عظمة المؤمنين وتغلغل الإيمان فى أعماقهم واجه هذه الضربة ، وتحولت القضية ، حتى كادت تجهز على المنافقين ، ولم يعد لهم معسكر بعد ذلك .

فما الذى جرى فى هذه المرحلة ، حتى انقلبت الموازين ، وتحطم معسكر المنافقين ؟ ؟ !

---

(١) المغازى للذهبى / ١ / ٢٥٨ ـ ٢٦٠ ، وعند الواقدى / ١ / ٤٠٤ ـ ٤١٣ ، وفى السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٨٩ .

نعود إلى أحداث السيرة تروى لنا ذلك .

(قال ابن عيينة : حدثنا عمرو بن دينار ، سمعت جابراً يقول : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة ، فكسع [1] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار ، وقال المهاجرى : ياللمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « مابال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . فقال عبد الله بن أبى بن سلول : أوقد فعلوها ؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : وكانت الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم النبى ﷺ ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك . فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبى ﷺ : « دعه لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ») [2] .

وعن زيد بن أرقم قال : (غزونا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا ناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكانت الأعراب يسبقوننا ، فيسبق الأعرابى أصحابه ، فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع حتى يجيىء أصحابه . فأتى الأنصارى فأرخى زمام ناقته لتشرب فمنعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجه ، فأتى عبد الله بن أبى فأخبره فغضب ، وقال : لاتنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله ؛ يعنى الأعراب . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال زيد : فسمعته فأخبرت عمى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فحلف وجحد ، فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلىَّ عمى فقال : مأأردت أن مقتك رسول الله أو كذبك المسلمون ، فوقع علىَّ من الغمّ ما لم يقع على أحد قط ، فبينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ ، وقد خفقت برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فعرك أذنى ، وضحك فى وجهى . فما كان يسرنى أن لى بها الخلد أو الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى فقال : ماقال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت : ماقال لى شيئاً ، فقال : أبشر . فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين حتى بلغ منها ﴿ **الأذل** ﴾) [3] .

وقال إسرائيل عن أبى إسحاق عن زيد بن أرقم ، قال :

(سمعت عبد الله بن أبى يقول لأصحابه : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك

---

(١) كسع : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٢) البخارى / كتاب التفسير /٦ /٦٥ /٦٦ سورة المنافقون ، وصحيح مسلم (٢٥٨٤) ، والمغازى للذهبى / ٢٦٤ .

(٣) صحيح البخارى / كتاب التفسير / ٦ / ٥٦ سورة المنافقون .

لعمى ، فذكره لرسول الله ﷺ ، فحلفوا ماقالوا ، فصدّقهم وكذبنى ، فأصابنى همّ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ فأرسل إلىّ رسول الله ﷺ فقرأها علىّ وقال « إن الله قد صدقك يازيد ») [1].

(وقال أنس بن مالك : زيد بن أرقم هو الذى يقول له رسول الله ﷺ : « هذا الذى أوفى الله بإذنه ») [2] .

ونستمع إلى سورة المنافقون تنصر الغلام زيد ، وتكذب فحل قومه عبد الله بن أبى ، وتصفعه مع أتباعه حتى تحرقهم بشررها :

﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنّة فصدّوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ [3] .

لقد جاءت شهادة رب العالمين بتكذيب ابن أبى ، تصدّق شهادة الغلام زيد بن أرقم :

﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ .

﴿ **اتخذوا أيمانهم جنّة فصدّوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون** ﴾ .

ولنعد إلى تفصيل أوسع عند الواقدى : يجلى لنا صورة الصد عن سبيل الله ، وصورة الأيْمان التى اتخذوها جنة ، وسوء عملهم وصنيعهم .

قالوا : (فبينا المسلمون على ماء المريسيع قد انقطعت الحرب وهو ماء ظنون [4] ، إنما يخرج فى الدلو نصفه أقبل سنان بن وبر الجُهنى ــ وهو حليف فى بنى سالم ــ ومعه فتيان من بنى سالم يستقون فيجدون على الماء جمعاً من العسكر من المهاجرين والأنصار ؛ وكان جهجاه بن سعيد الغفارى أجيراً لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأدلى سنان وأدلى جهجاه دلوه ، وكان جهجاه أقرب السقاء إلى سنان بن وبر ، فالتبس دلو سنان ودلو جهجاه ، فخرجت إحدى الدلوين وهى دلو سنان بن وبر . قال سنان : فقلت :

(١ ، ٢) صحيح البخارى / كتاب التفسير / ٦ / ٥٦ سورة المنافقون .

(٣) المنافقون / ١ ــ ٤ . (٤) الظنون : القليل .

دلوى ، فقال جهجاه : والله ماهى إلا دلوى . فتنازعا إلى أن رفع جهجاه يده فضرب سناناً فسال الدم ، فنادى : ياآل خزرج ! وثارت الرجال . قال سنان : وأعجزنى جهجاه هرباً وأعجز أصحابى ، وجعل ينادى فى العسكر : ياآل قريش ، ياآل كنانة ! فأقبلت إليه قريش سراعاً . قال سنان : فلما رأيت مارأيت ناديت الأنصار . قال : فأقبلت الأوس والخزرج وشهروا السلاح حتى خشيت أن تكون فتنة عظيمة ، حتى جاءنى ناس من المهاجرين يقولون : اترك حقك ! .

قال سنان : وإذا ضربته لم يضرنى شيئاً . قال سنان : فجعلت لا أستطيع أفتات على حلفائى بالعفو لكلام المهاجرين ، وقومى يأبون أن أعفو إلا بأمر رسول الله ﷺ ، أو أقتص من جهجاه ، ثم إن المهاجرين كلموا حلفائى ، فكلموا عبادة بن الصامت وناساً من حلفائى ، فكلمنى حلفائى فتركت ذلك ولم أرفعه إلى النبى ﷺ)[1] .

كان من الممكن لمثل هذه الحادثة أن تحول المعسكر الإسلامى إلى بحيرة من الدماء ، وتعود يوماً من أيام العرب فى الجاهلية التى تفانى فيها العرب ـ غير أن هذا الدين الجديد الذى صاغ هذه الأمة صياغة جديدة ، وأصبح الصف كله يحتكم إلى الله ورسوله ، هو الذى حصن هذا الصف من هذه الكارثة .

قد تقع الخطيئة الفردية ، وقد يخرج مسلم عن طوره ، فيتشاجر مع آخر ، وقد تندُّ كلمات ، لا تماثل المستوى الإسلامى المطلوب ، وقد تقع تصرفات تخرج عن التوجيه الإسلامى الأمثل ـ من فرد أو أكثر ـ لكن هذا المجتمع الذى تلقى هذه التربية لم يعد من السهل عليه الانجراف وراء العصبية والثأر .

لقد وصلت القضية إلى الذروة ، واجتمع الخزرج وانضم إليهم الأوس ، واجتمع المهاجرون ، والسلاح بأيديهم ، فهم قادمون من معركة ، لكن القيادات العظيمة لم تعد تنطلق من عصبيتها . إذا انطلق بعض الأفراد من ذلك تبقى مالكة صمام الأمان أن يفلت من أيديها ، وجل ماوقع الخلاف عليه أن ترفع القضية لرسول الله ﷺ أو تنهى الفتنة دون إشغال النبى ﷺ بها .

الفريقان مدججان بالسلاح ، لكن عبادة بن الصامت الذى أنزل الله تعالى به فى محكم كتابه :

---

(١) المغازى / ٢ / ٤١٦ .

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (١) .

هذا القائد لن يدع الأمر يفلت من يديه ، أو يترك سم الجاهلية يستشرى فى جسد هذه الأمة ، فتصرف التصرف المناسب ، واستجاب الصف المؤمن المتراص المتلاحم له ، ودفنت الفتنة فى مهدها .

أما رفيق صباه عبد الله بن أبى ، زعيم النفاق والذى أنزل الله تعالى فيه :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ﴾ (٢) .

عبد الله بن أبى هذا له اتجاه آخر ، ومشرب آخر ، يريد أن تشتعل النار ، وتدق طبول الحرب ، ويتفجر الصف لتعود له زعامته . ها هو يبذل كل ما فى قلبه من حقد ، ومافى نفسه من سم ، ومافى عقله من تخطيط ، ومافى مشاعره من كراهية ، ليصل إلى مبتغاه ، وهو بين رهطه من المنافقين فماذا يحقق ؟

(وكان ابن أبى جالساً فى عشرة من المنافقين : ابن أبى ، ومالك ، وداعس ، وسويد ، وأوس بن قيظى ، ومعتب بن قشير ، وزيد بن اللصيت ، وعبد الله بن نبتل – وفى القوم زيد بن أرقم غلام لم يبلغ أو قد بلغ ، فبلغه صياح جهجاه ، فغضب ابن أبى غضباً شديداً ، وكان مما ظهر من كلامه وسمع منه أن قال :

والله ما رأيت كاليوم مذلة ! والله إن كنت لكارهاً لوجهى هذا ، ولكن قومى غلبونى ! أوقد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وأنكروا ملتنا ، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال المثل : سمن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاه وأنا حاضر ، لايكون لذلك منى

---

(١) سورة المائدة / ٥٤ – ٥٦ .   (٢) سورة المائدة / ٥١ ، ٥٢ .

غِيَر ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! ثم أقبل على من حضر من قومه فقال :

هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموه بلادكم فنزلوا منازلكم ، وآسيتموهم في أموالكم حتى استغنوا ! أما والله لو أمسكتم بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه ، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا) [1] .

لقد نفخ ابن أبي في الفتنة بأضخم مايستطيع ، فهو يمثل التيار المنافق ، وليس بين يديه فرصة ذهبية على مستوى هذه الفرصة ، وأفصح عن كل ما يعتلج في نفسه من حقد وكراهية وبغض ، وراح يستفز كوامن الجاهلية كلها من مرقدها حتى تنطلق فتأكل كل شيء .

ـ فهو يركز ابتداء على المذلة التي نالته ونالت قومه ، والعربي يأبى الضيم ويرفض الذل ، ويؤكد أنه ماحضر لهذه الغزوة إلا كارها مغلوباً على أمره لاعتبارات سياسية أطاع بها قومه .

ـ ولم يتورع في سفاهته وحقده عن تشبيه المسلمين بالكلب السمين الذي تطعمه فيأكلك فيما بعد ، فهو لايحمل حتى مواصفات الوفاء من الكلب العادي ، الذي يتعلق بك ويفديك إذا أطعمته .

ـ وهو يرى أن الموت أهون من هذه الذلة ، أن يرتفع في صفوف أهل المدينة من يدعو قريشاً لثاراتها ، ويدعو المهاجرين لمواجهة الأنصار ويهتف بها وهو حيّ .

ـ وإذا كانت هذه قمة الذل عنده ، فهل يقبل هذا الواقع ؟ أبداً إنه يقسم لو عاد إلى المدينة ـ إلى رهطه وحزبه ، وجيشه ـ ليقلبن المدينة على رأس رسول الله ﷺ وأصحابه ، وليخرجن الأعز منها الأذل ، فهو صاحب العز والقوة والأتباع .

أترى حقاً أنه يثق بنفسه بهذه القوة ؟ ! أم أنه النفخ والعجيج الفارغ الكاذب ، علّه يصل إلى أن يشعل ناراً في قلب أحد الحاضرين فيثأر له ولكرامته ، وتنطلق الفتنة بعد ذلك فلا يهدأ أوارها إلا بالحرب الضروس التي تأكل الأخضر واليابس .

ـ ثم عاد فكرر حقده على استقبال رسول الله ﷺ وصحبه من قومه ومشاركتهم

---

(١) المغازي للواقدي / ٢ / ٤١٦ .

فى الأموال والبيوت والبلاد ، ثم زادوا على ذلك بأنهم يقتلون دونهم ، ويحاربون الأحمر والأسود من أجلهم ، حتى يكون فناء قومه وضآلة عددهم أمام تزايد قوة المهاجرين عدداً ونفوذا .

وحين نراجع الدول التى انهارت فى التاريخ ، والوحدات التى تحطمت وتفككت ، والحروب التى قامت فى الصف الواحد ، نجد أن هذه الأمور هى التى ينطلق منها المتحاربون لتبرير موقفهم ، وهى موطن الصراع الحقيقى فى النفوس الجاهلية .

وفى التغلغل فى أعماق ابن أبى نلحظ مايلى :

ـ أنه لم يتكلم هذا الكلام إلا ضمن مجموعة محدودة من المنافقين ، والذين يطمئن إلى ولائهم التام له . عدا زيد بن أرقم الذى يرى حبه له ، فلم يعر له التفاتاً من جهة لصغر سنه ، ويرى منه مدى تعظيمه له ، إذ يقول زيد فى مكان آخر عن مكانة عبد الله بن أبى فى نفسه :

(قال : والله ماكان فى الخزرج رجل واحد أحب إلىَّ من عبد الله بن أبى ، والله لو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﷺ)[1] .

ـ وبناء على هذه القالة ، فلم تكن تعدو لدى ابن أبى أكثر من نفث سمومه وحقده بين هذه المجموعة الصغيرة التى يثق بولائها له ، وإن كان يطمح أن يحرك فيهم ولو بواحد منهم ثورة عارمة ، تدفعه إلى قتل أحد المهاجرين ، فتنطلق الفتنة من عقالها دون قيد ، ويتحقق الهدف فى أن يعود الخزرج لحمة واحدة ضد المهاجرين ، ويولوه قيادتهم ، فيعود له مجده المسلوب ، وعزه المهضوم .

ـ ويظهر أنه على ثقة بمجموعة كبيرة فى داخل المدينة ، هو قادر على تحريكها لإحداث الانقلاب المطلوب ، الذى يصل إلى حد إخراج المسلمين المهاجرين من يثرب . أو أنها عملية تعميق للثقة به فى هذه المجموعة الصغيرة ليكونوا على استعداد لمتابعة مسيرتهم وثقتهم بوجاهته وقوته وقدرته فلا ينفضوا عنه ، لكن حقيقة الجبن والخور التى تمتلكهم ، لم تدفع بأحد منهم أن يتخذ موقفاً واحداً يؤيد قناعته ، وكما يقول القرآن الكريم عن المنافقين :

﴿ والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض . . ﴾[2] .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤١٧ .　　(٢) التوبة من الآية / ٦٧ .

إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لايبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض ، فالولاية تحتاج إلى نجدة وإلى شجاعة وإلى تعاون وإلى تكاليف ، وطبيعة النفاق تأبى ذلك كله ، ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على مايبدو من تشابه بينهم فى الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآنى الدقيق .

لايغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء :

﴿ والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

أما كيف انتقلت هذه المعلومات إلى رسول الله صلوات الله عليه ، وماهى أبعادها فى الصف الإسلامى ؟ فهى كما يلى :

(فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ ، فيجد عنده نفراً من أصحابه من المهاجرين والأنصار ـ أبا بكر وعثمان وسعدا ومحمد بن مسلمة ، وأوس بن خولى ، وعباد بن بشر ـ فأخبره الخبر ، فكره رسول الله ﷺ خبره ، وتغير وجهه ، ثم قال رسول الله ﷺ : « ياغلام ، لعلك غضبت عليه » . قال : والله لقد سمعت منه ، قال : « لعله أخطأ سمعك » . قال : لا يانبى الله . قال : « لعله شبه عليك » ! قال : لا يانبى الله ، لقد سمعته منه يارسول الله ، وشاع فى العسكر ماقال ابن أبى ، وليس للناس حديث إلا ما قاله ابن أبى ، وجعل الرهط من الأنصار يؤنبون الغلام ويقولون : عمدت إلى سيِّد قومك تقول عليه ما لم يقل ، وقد ظلمت وقطعت الرحم ! فقال زيد : والله لقد سمعت منه ! ... وقام النفر من الأنصار الذين سمعوا قول النبى ﷺ ورده على الغلام ، فجاءوا إلى ابن أبى فأخبروه ، وقال أوس بن خولى : ياأبا الحباب ، إن كنت قلته فأخبر النبى يستغفر لك ، ولا تجحده فينزل مايكذبك ، وإن كنت لم تقله فأت رسول الله فاعتذر إليه واحلف لرسول الله ماقلته ، فحلف بالله العظيم ماقال من ذلك شيئاً . ثم إن ابن أبى أتى إلى رسول الله ﷺ ، قال : « يابن أبى ، إن كانت سلفت منك مقالة فتب » . فجعل يحلف بالله . ماقلت ماقال زيد ، ولا تكلمت به ! وكان فى قومه شريفاً ، فكان يظن أنه قد صدق . . .

قال : فبينا رسول الله ﷺ يسير من يومه ذلك ، وزيد بن أرقم يعارض النبى ﷺ براحلته يريد وجهه فى المسير ، ورسول الله ﷺ يستحث راحلته فهو مغذ فى السير ، إذ نزل عليه الوحى . قال زيد بن أرقم : فما هو إلا أن رأيت رسول الله ﷺ تأخذه البرحاء ، ويعرق جبينه ، وتثقل يدا راحلته حتى ماكاد ينقلها ، عرفت رسول الله ﷺ يوحى إليه ، ورجوت أن يكون ينزل عليه تصديق خبرى . قال زيد بن أرقم : فسرى عن رسول الله ﷺ ، فأخذ بأذنى وأنا على راحلتى حتى ارتفعت من مقعدى ، ويرفعها إلى السماء وهو يقول : « وفت أذنك ياغلام ، وصدّق الله حديثك » . ونزل فى ابن أبى السورة من أولها إلى آخرها : ﴿ إذا جاءك المنافقون . . . ﴾)[1] .

فى هذا الجو التفصيلى نفقه أبعاد معانى الآيات فى سورة (المنافقون) .

﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون** ﴾ :

فها هو يحلف كاذباً أنه ما قال ماقال أمام أوس بن خولى ، وأمام رسول الله ﷺ ، ويصدقه قومه لشرفه ، ويود أن يحافظ على هذا الشرف بهذه الأيمان الخائنة الكاذبة .

لكننا نتسائل : هل يمكن لمسلم فى قلبه ذرة واحدة من الإيمان بأن رسول الله ﷺ يوحى إليه ، ويجرؤ على هذه الأيمان الكاذبة ؟ ! يستحيل ذلك ، ومن أجل هذا جاءت الآية اللاحقة لتقول بوضوح وصراحة ونصاعة :

﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون** ﴾ .

إنه إعلان لأول مرة عن المنافقين أنهم قد ارتدوا عن دينهم بعد إيمانهم ، وثبتوا على هذه الردة فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون شيئاً من كلام الله وكلام رسوله .

ثم يأتى الوصف المزرى لهم ، بحيث يحطم كل مظاهرهم الخارجية التى ينتفشون فيها بعد أن فقدوا عنصر الإيمان الذي يجعلهم أعضاء فى الصف المسلم :

﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم . .** ﴾[2] .

هذا هو ظاهرهم فهم يصطفون مع القيادات ، كما رأينا فى ابن أبى قبل نزول الآيات ، وكيف توجهت قيادات الخزرج للوم زيد رضى الله عنه لما افتأت به على سيد

(١) المغازى للواقدى / ٢/ ٤١٦ ـ ٤١٨ ، ٤٢٠ .
(٢) من الآية / ٤ من سورة المنافقون .

قومه ، ويحلفون فيصدَّقون ويكذَّب غيرهم .

وإن يقولوا يسمع لقولهم . . وأجسامهم وهياكلهم تؤهلهم لتبوئ موطن القيادة .

أما بعد نزول الآيات ، وبعد تعرية داخلهم ، وهتك سريرتهم ، فمن هم ؟

﴿ كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ .

فهم لايملكون إلا مظاهر الرجولة أما مقوماتها فلا ، وهم يتحسسون من كل كلمة ومن كل موقف .

ونقود دليلاً على ذلك : ماجرى بين ابن أبى وسادة المؤمنين من قومه بعد الآيات :

(وحدثنى يونس بن محمد الظفرى عن أبيه ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال :

مر عبادة بن الصامت بعبد الله بن أبي عشية راح النبى ﷺ من المريسيع . وقد نزل على النبى ﷺ سورة « المنافقون » فلم يسلِّم عليه ، ثم مرَّ أوس بن خولى فلم يسلِّم عليه ، فقال ابن أبى : إن هذا الأمر قد تمالأتما عليه ، فرجعا إليه فأنَّباه وبكَّتاه بما صنع ، وبما نزل من القرآن إكذاباً لحديثه ، وجعل أوس بن خولى يقول : لا أُكذِّب عنك أبدا حتى أعلم أن قد تركت ماأنت عليه وتبت إلى الله ، إنا أقبلنا على زيد بن أرقم نلومه ونقول له : كذبت على رجل من قومك ، حتى نزل القرآن بتصديق حديث زيد وإكذاب حديثك ، وجعل ابن أبى يقول : لا أعود أبدا . . .) [1] .

﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ .

ويأتى الحكم الربانى الصارم عليهم بعد إثبات ردتهم وإصرارهم عليها ، ليؤكد حكماً جديداً آخر :

﴿ . . هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

ومنذ الآن فجميع المؤمنين يتعاملون مع ابن أبى وحزبه الذين سمعوه ولم ينكروا عليه وغيرهم ــ على أنهم هم العدو الحقيقى ، قاتلهم الله . على إفكهم ، والمؤمنون إذن فى

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٢٠ .

حزب الله ورسوله يقاتلونهم .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ [1] :

ولهذا الاستغفار قصة ، تجلى هاتين الآيتين :

(فحدثنى عبد الله بن الهرير ، عن أبيه ، عن رافع بن خديج ، قال : سمعت عبادة ابن الصامت يقول يومئذ لابن أبى قبل أن ينزل فيه القرآن : إيت رسول الله يستغفر لك . قال : فرأيته يلوى رأسه معرضاً . يقول عبادة :

أما والله لينزلن فى ليّ رأسك قرآن يصلى به) [2] .

ونزل فى لى رأسه قرآن يصلى به ، لم يصف الحادثه فقط ، إنما تحدث عن أبعادها الرهيبة فى الصف المؤمن ، وفى نظرته نحو هؤلاء المنافقين :

﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

فهم الكافرون ، وهم المرتدون وهم الأفاكون الكاذبون ، وهم الفاسقون . .

وجاءت بقية الآيات بعد أن صدرت الأحكام الربانية عليهم ، لهذا الغلام المؤمن فتصدق نقله من فوق سبع سموات كما سمع :

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .. ﴾ [3] .

وفات هؤلاء المهازيل الأرجاس ، أن الله تعالى عنده خزائن السموات والأرض ، لكن أنى يفقهون ذلك ؟ !

﴿... ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ [4] .

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل .. ﴾ [5] .

---

(١) المنافقون / ٥ ، ٦ . (٢) المغازى للواقدى / ٢/ ٤٢٠ .
(٣ ، ٤) المنافقون / ٧ . (٥) المنافقون / ٨ .

وفات هؤلاء المهازيل الأرجاس ، أن عزة المؤمنين مستقاة من عزة الله عز وجل ، فكيف يعتز المنافق ويذل المؤمن ؟! . ولكن هؤلاء أنىَّ لهم أن يعلموا ذلك بعد ردتهم عن دينهم وكفرهم بعد إيمانهم ؟! :

﴿... ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (١) .

وحقيقة الأمر لا يعلمون .

فبمن يعتز عبد الله بن أبى ؟! لا شك أن أكبر سندٍ له هو ابنه ، فماذا كان موقف ابنه ؟

(وبلغ ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى مقالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله ﷺ مر محمد بن مسلمة يأتك برأسه . فجاء إلى النبى ﷺ فقال :

يارسول الله ، إن كنت تريد قتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى ، فوالله لأحملنَّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ماكان فيها رجل أبرَّ بوالدٍ منى ، وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر ، ولا يشرب شراباً إلا بيدى ، وإنى لأخشى يارسول الله أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار ، وعفوُك أفضل ، ومنّك أعظم .

قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله ، ما أردت قتله ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا » فقال عبد الله :

يا رسول الله ، إن أبى كانت هذه البحرة (٢) قد اتسقوا عليه ليتوجوه عليهم ، فجاء الله بك فوضعه الله ، ورفعنا بك ، ومعه قوم يُطيفون به ويذكرون أموراً قد غلب الله عليها) (٣) .

فهذا هو العز الأول الذى يركن إليه عبد الله بن أبى ، وقد غرَّه ما رأى من برٍّ ابنه به ، حتي ليكون الخادم المذلل له لطعامه وشرابه ، وكانت المفاجأة الصاعقة له أن يستعد ابنه ليطيح رأسه عن جسده لو أمر رسول الله ﷺ بذلك .

وبقى فى ذهن عبد الله بن أبى أن يجد من ينصره فى المدينة ، فقد كان يهدد بحزبه هناك : لئن عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

---

(١) المنافقون / ٨ .　(٢) البحرة : البلدة .　(٣) المغازى / ٢ / ٤٢١ .

فماذا كان عند دخولها ؟ !

(ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما ، أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة - أى ابن عبد الله بن أبى - واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك ! فقال مالك ويلك ؟ فقال :

والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة ، فشكا إليه عبد الله بن أبى ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال :

أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن) [1] .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى في مسنده : (حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدنى ، قال : قال عبد الله بن أبى بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال : وجاء النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فوالذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك ، فإنى أكره أن أرى قاتل أبى) [2].

وندع للإمام السهيلى التعليق على هذه الحادثة بقوله :

(وذكر مقالة عبد الله بن أبى ، وأن ابنه عبد الله بن عبد الله استأذن النبى ﷺ فى قتل أبيه من أجل تلك المقالة ، وفى هذا العَلَم العظيم والبرهان النيّر من أعلام النبوة ، فإن العرب كانوا أشد خلق الله حمية وتعصباً . فبلغ الإيمان منهم ، ونور اليقين من قلوبهم إلى أن يرغب الرجل منهم فى قتل أبيه وولده تقرباً إلى الله ، وتزلفاً إلى رسوله ﷺ ، مع أن الرسول ﷺ أبعد الناس نسباً منهم ، وما أخّرَ إسلام قومه وبنى عمه ، وسبق إلى الإيمان به الأباعد إلا لحكمة عظيمة ، إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لقيل : قوم أرادوا الفخر برجل منهم ، وتعصبوا له ، فلما بادر إليه الأباعد ، وقاتلوا على حبه من كان منهم أو من غيرهم ، علم أن ذلك عن بصيرة صادقة ، ويقين قد تغلغل فى قلوبهم ، ورهبة من الله أزالت صفة قد كانت سدكت [3] فى نفوسهم من أخلاق الجاهلية لايستطيع إزالتها إلا

(١ ، ٢) تفسير ابن كثير / ٧/٢٣ / تفسير سورة المنافقون .

(٣) سدكت : ثبتت ولزمت .

الذى فطر الفطرة الأولى ، وهو القادر على ما يشاء .

وأما عبد الله بن عبد الله ، فكان من كتاب النبى ﷺ ، وكان اسمه حباب ، وبه كان يكنى أبوه ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . مات شهيداً باليمامة رضى الله عنه .

وروى الدارقطنى مسنداً أن النبى ﷺ مر على جماعة فيهم عبد الله بن أبى فسلَّم عليهم ثم ولى ، فقال عبد الله : لقد عثا ابن أبى كبشة فى هذه البلاد ، فسمعها ابنه عبد الله ، فاستأذن النبى ﷺ فى أن يأتيه برأس أبيه فقال : « لا ، لكن برّ أباك » [1] .

لقد كانت هده الآيات إيذاناً بأفول نجم عبد الله بن أبى ، وكانت قد قتلته معنويا لا جسدياً ، ومن أجل ذلك ، وبعد دخوله المدينة ، وموقف ابنه منه ، تغير حاله ليعانى من الاحتراق البطيىء فى قومه .

(وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلتُه يوم قلتَ لى اقتله ، لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى) [2] .

وإذا كان الحديث قد انتهى مع المنافقين وعنهم ـ فهم الذين كفروا بعد ما آمنوا ، وهم العدو ، وهم الفاسقون وهم الذين يؤفكون ، وهم الذين لا يفقهون ، وهم الذين لا يعلمون ـ يتجه الحديث إلى المؤمنين ليكونوا على مستوى إيمانهم ، فلا ينحدروا مع المنافقين ، وإنما يكون الانحدار بصورتين :

الأولى : الانشغال بالأهل والولد والمال عن ذكر الله تعالى والجهاد فى سبيله .

الثانية : البخل بما فى اليد عن الإنفاق فى سبيل الله .

وكما ختمت سورة « محمد » ﷺ تختم سورة « المنافقون » ويركزان على المعانى نفسها ، على الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ [3].

---

(١) الروض الأنف للسهيلى / ٤ /١٨ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام / م٢/٢٩٣ . (٣) المنافقون / ٩ ـ ١١ .

وكذلك جاءت آيات سورة القتال :

﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [1] .

ولا بد لنا قبل أن نودّع سورة « المنافقون » وغزوة المريسيع أن نستعرض على ذيولها مواقف ثلاثة .

الموقف الأول : جرى أثناء الغزوة ، وهو محاولة تشكيك فى إدخال الصف المسلم من بعض المنافقين ، يمثل نموذجاً من عمليات انحسار النفاق .

(حدثنى عبد الحميد بن جعفر ، عن ابن رومان ، ومحمد بن صالح عن عاصم بن عمرو بن قتادة قالا : وفقدت ناقة رسول الله ﷺ القصواء من بين الإبل ، فجعل المسلمون يطلبونها فى كل وجه ، فقال زيد بن اللصيت - وكان منافقاً وهو فى رفقة قوم من الأنصار ، منهم عباد بن بشر بن وقش ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، وأسيد بن حضير - فقال : أين يذهب هؤلاء فى كل وجه ؟ قالوا : يطلبون ناقة رسول الله قد ضلت . قال : أفلا يخبره الله بمكان ناقته ؟ فأنكر القوم ذلك عليه فقالوا : قاتلك الله يا عدو الله ، نافقت ، ثم أقبل عليه أسيد بن حضير فقال : والله لولا أنى لا أدرى مايوافق رسول الله من ذلك لأنفذت خصيتك بالرمح ياعدو الله ، فلم خرجت معنا وهذا فى نفسك ؟ . قال : خرجت لأطلب من عرض الدنيا ، ولعمرى إن محمداً ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة ، يخبرنا عن أمر السماء .

فوقعوا به جميعاً وقالوا : والله لا يكون منك سبيل أبداً ، ولا يظلنا وإياك ظل أبداً ، ولو علمنا مافى نفسك ماصحبتنا ساعة من نهار ، ثم وثب هارباً منهزماً منهم أن يقعوا به ، ونبذوا متاعه ، فعمد لرسول الله ﷺ فجلس معه فراراً من أصحابه متعوذاً به ، وقد جاء رسول الله ﷺ خبر ما قال من السماء ، فقال رسول الله ﷺ والمنافق يسمع : « إن رجلاً من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله وقال : ألا يخبره الله بمكانها ؟ — فلعمرى إن محمداً ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة ! - لا يعلم الغيب إلا الله . وإن الله تعالى أخبرنى بمكانها ، وإنها فى هذا الشعب مقابلكم ، قد تعلقّ زمامها بشجرة فاعمدوا عمدها » .

فذهبوا فأتوا بها من حيث قال رسول الله ﷺ : ، فلما نظر المنافق إليها قام سريعاً إلى

(١) القتال / ٣٨ .

رفقائه الذين كانوا معه ، فإذا رحله منبوذ ، وإذا هم جلوس لم يقم رجل من مجلسه فقالوا له حين دنا : لا تدن منا ! قال : أكلمكم ! فدنا فقال : أذكِّرُكم بالله ، هل أتى أحد منكم محمداً فأخبره بالذى قلت ؟ قالوا : لا والله ، ولا قمنا من مجلسنا هذا :

قال : فإنى قد وجدت عند القوم ماتكلمت به ، وتكلَّم به رسول الله ﷺ - وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ ، وإنه قد أتى بناقته - وإنى قد كنت فى شك من شأن محمد فأشهد أنه رسول الله ، والله لكأنى لم أسلم إلا اليوم .

قالوا له : فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فذهب إلى رسول الله ﷺ فاستغفر له واعترف بذنبه) [1] .

وتمثل هذه الصورة نموذجا من نماذج كثيرة كانت منافقة أو مخدوعة بالمنافقين ، وحين ترى الآيات الباهرات تدخل الإسلام عن يقين ثابت ، وتجدد إسلامها من جديد .[2]

الموقف الثانى : وهو الذى أدى كذلك إلى انحسار النفاق ، هو موت كبير زعمائهم زيد بن رفاعة :

(فحدثنى عبد الله بن الهرير عن أبيه عن رافع بن خديج قال : لما رجعنا من المريسيع قبل الزوال كان الجهد بنا يومنا وليلتنا ، ما أنا فى رجل إلا لحاجته أو لصلاة يصليها ، وإن رسول الله ﷺ يستحث راحلته ، ويخلف بالسوط فى مراقها حتى أصبحنا ، ومددنا يومنا حتى انتصف النهار أو كرب . ولقد راح الناس وهم يتحدثون بمقالة ابن أبى وماكان منه ، فما هو إلا أن أخذهم السهر والتعب بالمسير ، فما نزلوا حتى مايسمع لقول ابن أبى فى أفواههم - يعنى ذكراً - وإنما أسرع رسول الله ﷺ بالناس ليدعو حديث ابن أبى ، فلما نزلوا وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا ، ثم راح رسول الله ﷺ بالناس مبرِّداً ، فنزل من الغد ماء يقال له : « بقعاء » فوق النقيع ، وسرح الناس ظهرهم فأخذتهم ريح شديد حتى أشفق الناس منها ، وسألوا عنها رسول الله ﷺ ، وخافوا أن يكون عيينة بن حصن قد خالف إلى المدينة ، وقالوا : لم تهج هذه الريح إلا من حدث ! وإنما بالمدينة الذرارى والصبيان وكانت بين النبى ﷺ مدة ـ هدنة ـ فكان ذلك حين انقضائها . فدخلهم أشد

(!) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

(٢) ذكر الواقدى فى رواية مرجوحة عنده أن زيداً بقى على نفاقه فقال : (ويقال إنه لم يزل فسيلاً ـ الردىء الرذيل ـ حتى مات وصنع مثل هذا فى تبوك) وأورد ابن إسحاق عنه فى تبوك قوله : (فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، قال بعض الناس : لم يزل متهما بشر حتى هلك) .

الخوف . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ خوفهم فقال : « ليس عليكم بأس منها ، ما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكنه مات اليوم منافق عظيم النفاق فى المدينة ، فلذلك عصفت الريح ، وكان موته للمنافقين غيظاً شديدا ، وهو زيد بن رفاعة بن التابوت مات ذلك اليوم » .

(وحدثنى خارجة بن الحارث عن عباس بن سهل عن جابر بن عبد الله قال : كانت الريح يومئذ أشد ماكانت قط إلى أن زالت الشمس ، ثم سكنت آخر النهار ، فسألت حين قدمت قبل أن أدخل بيتى : من مات ؟ فقالوا : زيد بن رفاعة بن التابوت . وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك من شدة الريح حتى دفن عدو الله فسكنت الريح)[١].

أما ماذا كان وقع هذا الخبر على ابن أبى ، فنشهده من هذه الرواية :

(حدثنى عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه قال : قال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبى : أبا حباب ، مات خليلك ! قال : أى أخلائى ؟ قال : من موته فتح للإسلام وأهله . قال : من ؟ قال : زيد بن رفاعة بن التابوت . قال : ياويلاه ، كان والله وكان ! فجعل يذكر ، فقلت : اعتصمت بالذنب الأبتر. قال : من أخبرك يا أبا الوليد بموته ؟ قلت : رسول الله ﷺ أخبرنا الساعة أنه مات الساعة ، قال : فأسقط فى يده وانصرف كئيبا حزيناً . قالوا : وسكنت الريح آخر النهار فجمع الناس ظهورهم)[٢] .

لقد قتل عبد الله ثلاث مرات :

الأولى : بعد أن فضحه القرآن وكذبه ، وصدق بن أرقم .

الثانية : حين وصله استعداد ابنه لقتله ، ويوم أن وضع السيف على عنقه ليعترف بأنه الأذل وأن محمداً هو الأعز ، ولم يدعه يدخل المدينة حتى أذن له رسول الله ﷺ .

الثالثة : يوم مات كهفه وساعده زيد بن رفاعة الذى كان موته كما قال عبادة رضى الله عنه فتحاً للإسلام وأهله ، وكان من بنى قينقاع ، وكان قد أظهر الإسلام ، وكان كهفاً للمنافقين .

الموقف الثالث : وقد ثأر فيه عبد الله بن أبى لنفسه يوم أن أطلق قالة الإفك فى عائشة رضى الله عنها ، وتولى كبر هذا الحديث ، حيث زعزع الصف المسلم ،

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٢٢ .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٢٣ . وساقها الذهبى فى مغازيه من الصحاح / ١ / ٢٦٧ .

وأهاج الفتنة فيه ، ثم فقأه الله تعالى وأذله كما أذله مع زيد يوم نزلت براءة عائشة رضى الله عنها من السماء :

﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ (١) .

(وقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلول . فقال وهو على المنبر: « يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » - فقام سعد بن معاذ فقال : يارسول الله ، أنا أعذرك منه . إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً - ولكن احتملته الحمية ، فقال : كذبت لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت) (٢) .

لقد كان ابن أبى كالحية الرقطاء ، ينفث سمه وحقده أنى كان ، وكاد أن يوقع الفتنة من جديد بين الحيين ، لولا أن تدارك رسول الله ﷺ الأمر .

لكننا نلاحظ انحدار المستوى لابن أبى ، فبعد أن كان الشريف الذى لا يكذب ، ولا يمس ، غدا المجرم الذى يدافع عنه أن لا يقتل .

وكى يمسح رسول الله ﷺ آثار هذه الفتنة :

(مكث أياماً ثم أخذ بيد سعد بن معاذ فى نفر ، فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة ومن معه ، فتحدثا عنده ساعة ، وقرب سعد بن عبادة طعاماً فأصاب منه رسول الله ﷺ وسعد بن معاذ ومن معه ، ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أياماً ، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة ونفر معه ، فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ ، فتحدثا ساعة ، وقرب سعد بن معاذ طعاماً فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عبادة ومن معهم ، ثم خرج رسول الله ﷺ . وإنما فعل ذلك لأن يذهب ما كان فى أنفسهم من ذلك القول الذى

---

(١) النور / ١١ .

(٢) البخارى /م٢ /جـ٥ . غزوة الإفك /١٥١.

تقاولا)[1] .

وأحس سعد بن عبادة رضى الله عنه بعد ذلك بخطأ موقفه . وتخلى عن عبد الله بن أبى بعد هذا الموقف الانفعالى وحسم فتنة بين الخزرج والمهاجرين فداء لرسول الله ﷺ وعل حساب قومه ، وانقمع ابن أبى خزياً لا يؤبه له ، وذلك كله قبل نزول براءة عائشة رضى الله عنها .

كانت هذه الفتنة على ذيول أقوال عبد الله بن أبى فى الغزوة ، وقد تورط حسان بن ثابت رضى الله عنه فى الحديث فى الإفك ، ونال من صفوان بن المعطل وجعيل بن سراقة فقال :

أمسى الجلابيب[2] قد عزوا وقد كثروا   وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

لقد ذكرها ابن أبى فقال :

ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وغضب صفوان بن المعطل فجاء بسيفه وضرب حسان فقال :

تلق ذبابة السيف منى فإننى   غلام إذا هوجيت لست بشاعر .

(فوثبت الأنصار إليه فأوثقوه رباطاً ـ وكان الذى ولى ذلك منهم ثابت بن قيس بن شماس ـ وأسروه أسراً قبيحاً ، فمرّ بهم عمارة بن حزم فقال : ما تصنعون ؟ أين أمر رسول الله ورضائه أم من أمر فعلتموه ؟ قالوا : ما علم به رسول الله ﷺ . قال : لقد اجترأت ، خلّ عنه ! ثم جاء به وبثابت إلى رسول الله ﷺ يسوقهم ، فأراد ثابت أن ينصرف ، فأبى عمارة حتى جاء إلى رسول الله ﷺ فقال حسان :

يارسول الله ، شهر علىّ السيف فى نادى قومى ثم ضربنى لأن أموت ، ولا أرانى إلا ميتاً من جراحتى ، فأقبل رسول الله ﷺ على صفوان . فقال : « ولم ضربته ، وحملت السلاح عليه ؟ » وتغيظ رسول الله ﷺ . فقال :

يارسول الله ، آذانى ، وهجانى وسفّه علىّ وحسدنى على الإسلام .

ثم أقبل رسول الله ﷺ على حسان فقال :

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٣٥ .

(٢) الجلابيب : لقب لمن كان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون ، وأصل الجلابيب الأزر الغلاظ ، واحدها جلباب ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقبوهم بذلك .

« أسفهت على قوم أسلموا ؟ » . ثم قال رسول الله ﷺ : « احبسوا صفوان ، فإن مات حسان فاقتلوه به » [1] .

إلى هنا والأمر قد تداركته يد النبوة العظيمة ، ورسول الله ﷺ يعانى أشد المعاناة من النيل من أهله وصحبه ، ولكنه كان فوق جراحاته ، وأمر بحبس صفوان بن المعطل ، لما قام به من ضرب حسان .

أما ماذا فعلته التربية النبوية فى هذا الجيل بعد ذلك ، فنشهدها من خلال سعد بن عبادة رضى الله عنه ، ومدى تراجعه عن موقفه السابق .

(فخرجوا بصفوان ، فبلغ سعد بن عبادة ما صنع صفوان ، فخرج فى قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال : عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونه ، فغضب لما قيل له ، ثم أسرتموه أقبح الإسار ، ورسول الله بين أظهركم ! قالوا : فإن رسول الله أمرنا بحبسه وقال : « إن مات صاحبكم فاقتلوه ») [2] .

وهنا تبدو عظمة سعد الذى يدرك مهوى قلب النبى ﷺ ، فيؤثر هواه على قومه ونفسه وعلى الناس أجمعين .

يقول سعد : والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للعفو ، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق ، وإن رسول الله ليحب أن يُترك صفوان ، والله لا أبرح حتى يطلق !

فقال حسان : ما كان لى من حق فهو لك يا أبا ثابت .

وأبى قومه ، فغضب قيس بن سعد ابنه غضبًا شديداً فقال : عجباً لكم ما رأيت كاليوم ! إن حسان قد ترك حقه وتأبون أنتم ، ما ظننت أن أحداً من الخزرج يرد أبا ثابت فى أمر يهواه .

فاستحيا القوم وأطلقوه من الوثاق .

فذهب به سعد إلى بيته فكساه حلة .

ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلى فيه ، فرآه رسول الله ﷺ فقال : « صفوان ؟ » قالوا : نعم يارسول الله . قال « من كساه ؟ » قالوا : سعد بن عبادة : فقال : « كساه الله من حلل الجنة » .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٣٦ .
(٢) المغازى للواقدى / ٢/ ٤٣٧ .

ثم كلم سعد بن عبادة حسان بن ثابت فقال :

لا أكلمك أبدا حتى تذهب إلى رسول الله فتقول : كل حق لى قبل صفوان فهو لك يارسول الله . فأقبل حسان فى قومه حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، كل حقٍ لى قِبَلَ صفوان بن المعطل فهو لك . قال . عليه الصلاة والسلام : « قد أحسنت وقبلتُ ذلك » .

فأعطاه رسول الله ﷺ أرضا براحاً ، وهى بيرحاء وما حولها ، وأعطاه سعد بن عبادة حائطاً كان يجذُّ مالاً كثيرة عوضاً عما عفا من حقه) [1] .

ومما ساقه البخارى عن دور عبد الله بن أبى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قولها .

(وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى بن سلول . قال عروة : أخبرتُ أنه كان يشاع عضاه ويُتحدث به عنده ، فيُقِرُّه ويستمعه ويستوشبه ، وقال عروة أيضاً : لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش فى أناس آخرين لا علم لى بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى ، وإن كبر ذلك يقال عبد الله بن أبى ابن سلول) .

وانتهت غزوة المريسيع بكل ما حملت من محن ، وما أثير بها وعلى أعقابها من فتن ، لتمتحن الصف الإسلامى فتفرز المنافقين فيه ، وتحاصرهم من كل جانب ، وتسقطهم من المجتمع .

وحاول النفاق من خلال حديث الإفك أن يعيد الخلخلة من جديد إلى الصف الإسلامى ، لكنه باء بالخذلان ، فتحطمت على صخرة هذا المجتمع مؤامرات النفاق والمنافقين ، وعادت اللحمة من جديد بعد تربية مستمرة طويلة استمرت ثلاث سنين متواليات ، لتهيىء المجتمع الإسلامى إلى المحنة الأعظم إلى غزوة الخندق ، حيث تبلغ هذه المرحلة ذروة المحن ، كما نشهد ذلك فى الفصل التالى بإذن الله .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ /٤٣٨ .

من سورة الأحزاب
غزوة الأحزاب

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ (١) .

إنه العرض القرآني المعجز للمعركة في آية واحدة ، ابتداءً وانتهاءً ، وتأتي الآيات التالية بعد ذلك لتعرض النفوس على المشرحة ، وتحدد مواطن القوة ومواطن الضعف ، وتعالج هذه النفوس بهذا الدرس العظيم ، فتمضي عملية البناء راسخة عميقة الجذور قدماً إلى الأمام ، ويرتفع البناء الصلب الشاهق محكماً قوياً قد عولجت كل ثغراته وفجواته .

لو جئنا لكل كتب السيرة ، لوجدنا الصورة تختلف في العرض ، ووجدنا الحيز الذي عالجه القرآن لا يعدو فيها عشر الأحداث الضخمة المتتالية في الغزوة ، فالهدف في كتب السيرة والعرض البشري فيها هو تسلسل الأحداث . ومتابعتها والتشويق في عرضها ، أما الهدف القرآني فيختلف تماماً عنه في العرض البشري هناك ؛ لأن الهدف هنا هو ربط المؤمنين بالله عز وجل واهب النصر ، والتبرؤ من الحول والقوة البشريين ، وسندور مع القرآن حيث دار .

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود .. ﴾

فمن هذه الجنود ؟

يقول الواقدي بسنده عن رواته :

(قالوا : لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير ساروا إلى خيبر ، وكان بها من اليهود قومٌ أهل عدد وجلد ، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير - كان بنو النضير سرهم وقريظة من ولد الكاهن من بني هارون - فلما قدموا خيبر ، خرج حيي بن

---

(١) سورة الأحزاب / ٩ .

أخطب ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وهوذة بن الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلى من الأوس من بنى خطمة وأبو عامر الراهب فى بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعو قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ . فقالوا لقريش : نحن معكم حتى نستأصل محمداً . قال أبو سفيان : هذا الذى أقدمكم ونزعكم ؟ قالوا نعم ، جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله . قال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد . قال النفر : فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم ، وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها . ثم نحلف بالله جميعاً لايخذل بعضنا بعضا ، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل مابقى منا رجل ، ففعلوا ، فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا . ثم قالت قريش بعضها لبعض :

قد جاءكم رؤساء أهل يثرب وأهل العلم والكتاب الأول ، فسلوهم عما نحن عليه ومحمد أينا أهدى ؟ قالت قريش : نعم . فقال أبو سفيان :

يا معشر اليهود ، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد ، ديننا خير أم دين محمد ؟ فنحن عمار البيت ، وننحر الكوم [1] ونسقى الحجيج ، ونعبد الأصنام .

قالوا : اللهم أنتم أولى بالحق منه ، إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ، وتنحرون البدن ، وتعبدون ماكان عليه آباؤكم ، فأنتم أولى بالحق منه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾ [2] .

فاتعدوا لوقت وقتوه . فقال صفوان بن أمية : يامعشر قريش ، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه ، ففوا لهم به ! لايكون هذا كما كان ، وعدنا محمداً بدر الصفراء فلم نف بموعده ، واجترأ علينا بذلك ، وقد كنت كارهاً لميعاد أبى سفيان يومئذ .

فخرجت اليهود حتى أتت غطفان ، وأخذت قريش فى الجهاز ، وسيَّرت فى العرب تدعوهم إلى نصرها وألبوا أحابيشهم ومن تبعهم ، ثم خرجت اليهود حتى جاءوا بنى سليم ، فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش ، ثم ساروا فى غطفان فجعلوا لهم تمر

---

(١) الكوم : جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . (٢) النساء / ٥١ .

خيبر سنة ، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا ، فأنعمت بذلك غطفان ، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن .

وخرجت قريش ومن تبعها من أحابيشها أربعة آلاف ، وعقدوا اللواء فى دار الندوة ، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس ، وكان معهم من الظهر ألف بعير وخمسمائة بعير ، وأقبلت سليم فلاقوهم بمر الظهران . وبنو سليم يومئذ سبعمائة ، يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية ـ وهو أبو الأعور الذى كان مع معاوية بصفين ـ وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت بنو أسد يقودها طليحة بن خويلد الأسدى ، وخرجت بنو فَزَارة وأوعبت [1] يقودهم عيينة بن حصن ، وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رخيلة وهم أربعمائة ، لم توعب أشجع ، وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بنى مرة وهم أربعمائة .

لما أجمعت غطفان السير أبى الحارث بن عوف المسير وقال لقومه : تفرقوا فى بلادكم ولاتسيروا إلى محمد ، فإنى أرى أن محمداً أمره ظاهر ، ولو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة فتفرقوا فى بلادهم ، ولم يحضر واحد منهم ، وهكذا روى الزهرى وروت بنى مرة :

حدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم ، وعاصم بن عمرو بن قتادة قالا : شهدت بنو مرة الخندق وهم أربعمائة ، وقائدهم الحارث ابن عوف المرى ، وهجاه حسان وأنشد شعراً ، وذكروا مجاورة النبى ﷺ يومئذ ، فكان هذا أثبت عندنا أن شهد الخندق فى قومه ، ولكنه كان أمثل تقية من عيينة .

قالوا : وكان القوم جميعاً الذين وافوا الخندق من قريش وسُلَيم وغطفان وأسد عشرة آلاف ، فهى عساكر ثلاثة وعناج [2] الأمر إلى أبو سفيان .

فأقبلوا ، فنزلت قريش برومة [3] ووادى عقيق فى أحابيشها ومن ضوى إليها العرب ، وأقبلت غَطَفان فى قادتها حتى نزلوا بالزغابة إلى جانب أحد ، وجعلت قريش تسرح ركابها فى وادى العقيق فى عضاهه [4] ، وليس هناك شىء للخيل إلا ماحملوه معهم من علف ـ وكان علفهم الذرة ـ وسرحت غطفان إبلها إلى الغابة فى أثلها وطرفائها فى

(١) أوعبت : خرجت بأجمعها . (٢) عناج الأمر : ملاك الأمر .
(٣) رومة : أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة ، وبها البئر المشهور .
(٤) عضاهه : جمع عضاه وهى الشجر الضخم ، أو كل ذات شوك .

عضاه الجرف ، وقدموا فى زمان ليس فى العِرض [1] زرع ، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر ، فأدخلوا حصادهم وأتبانهم ، وكانت غطفان ترسل خيلها فى أثر الحصاد ـ وكانت خيل غطفان ثلاثمائة ـ بالعرض فيمسك ذلك من خيلهم .

وكادت إبلهم تهلك من الهزال ، وكانت المدينة ليالى قدموا جديبة .

فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة خرج ركب من خزاعة إلى النبى ﷺ فأخبروه بفصول قريش ، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً ، فذلك حين ندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم فى أمرهم بالجد والجهاد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا ، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله) [2] .

لقد أوعبت الجزيرة العربية ـ أو الحجاز بتعبير أدق ـ فى جمع قبائلها ورجالها لحرب محمد ﷺ ، وقاد أبوسفيان جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ، لم تشهد الجزيرة العربية له مثيلاً من قبل واستنفر كل العرب حوله ليكونوا صفاً واحداً ضد محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان لقيادات بنى النضير التى أخرجت من المدينة الدور الأكبر فى التعبئة ، وخاصة حيى بن أخطب أبو جهل اليهود . والحاقد الأكبر فيهم ، ولخص أبو سفيان مبدأه فى هذه الحرب قائلاً :

(أحب الناس إلينا من أعاننا على حرب محمد) .

وبلغ الحقد اليهودى مداه يوم أعطى قادة يهود فتواهم للمشركين ، بأنهم أهدى سبيلاً من محمد ، ولا أدل على جحودهم وكذبهم من رواية صفية أم المؤمنين رضى الله عنها عن أبيها حيى بن أخطب وماجرى من حوار بينه وبين أخيه أبى ياسر ، عندما رأيا رسولْ الله ﷺ أول مرة .

(قال أبو ياسر : أهو هو ؟

حييّ : نعم والله .

أبو ياسر : أتعرفه وتثبته ؟

حييّ : نعم .

أبو ياسر : فما فى نفسك منه ؟

---

(١) العِرض : كل وادٍ فيه قُرى ومياه .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٤١ .

حيىّ : عداوته والله مابقيت)[1] .

﴿ .. يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. ﴾[2].

ومع كل هذا لم يمنعهم ذلك من أن يقولوا لأبى سفيان وحزبه : أنتم أهدى من محمد .

هؤلاء العشرة آلاف فى ميزان الله ، وقد تجمعوا وتألبوا من كل حرب وصوب ، هم (جنود) هم أقل من أن يعرفوا بالجنود ، وقد يكونوا ثلاثة ، وقد يكونوا عشرة آلاف ، وقد يكونوا الملايين وملايين الملايين ، فماذا هم فى ميزان الله ؟ (جنود) .

وماذا يقابلهم . ؟ لقد قابلهم الله تعالى (بجنود) .

والمؤمنون لم يروهم .

يا لها من عظمة معجزة .

﴿ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ﴾ .

فماذا هم عن هؤلاء الجنود ؟ وماذا عن هذه الريح ؟

١ ـ أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، وأبو نعيم ، والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طرق ، عن حذيفة قال :

(لقد رأينا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود .... ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً منها ، أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة مايرى أحد منا إصبعه .... حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد ، وإذا برجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل . ثم دخل العسكر فإذا فى الناس رجال من بنى عامر يقولون : الرحيل الرحيل يا آل عامر لامقام لكم ، وإذا الرحيل فى عسكرهم مابجاوز عسكرهم شبرا فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم ، ومن بينهم الريح يضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبى ﷺ . فلما انتصفت فى الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً متعممين ، فقالوا : أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يشتمل فى شملة يصلى ، وكان إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم أنى تركتهم يرتحلون ، فأنزل الله :

(١) انظر السيرة : لابن هشام / م٢ / ٥١٨ .
(٢) من الآية ١٤٦ من سورة البقرة .

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود . . . ﴾)[1] .

٢ ـ (عن عبد الله بن عمر قال : أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال : ائتنا بطعام ولحاف . قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال : « من لقيت من أصحابي فمرهم أن يرجعوا » قال : فذهبت الريح تسغى كل شئ فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ . قال : فما يلوي أحد منهم عنقه ، وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه علي ، وكان فيه حديد ، فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على يدي كفي فأنفذها إلى الأرض)[2] .

٣ ـ (وعن مجاهد قوله **﴿ إذ جاءتكم جنود . . ﴾** قال : عيينة بن بدر وأبو سفيان وقريظة ، وقوله : **﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾** قال : ريح الصبا أُرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم ، وقوله : **﴿ وجنوداً لم تروها ﴾** قال : يعني الملائكة ولم تقاتل يومئذ)[3] .

٤ ـ (وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ في العظمة ، وأبو نعيم في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

لما كانت ليلة الأحزاب جاءت الشمال (ريح الشمال) إلى الجنوب ، قالت : انطلقي فانصري الله ورسوله فقالت الجنوب : إن الحرة لاتسرى بالليل ، فغضب الله عليها وجعلها عقيما ، فأرسل الله عليهم الصبا فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم فقال رسول الله ﷺ :

« نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » . فذلك قوله : **﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ﴾**)[4] .

٥ ـ قال ابن إسحاق : (. . فقال : « ياحذيفة ، قم فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، ولاتحدثن شيئاً حتى تأتينا » قال : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لاتقر لهم قدراً ولاناراً ولابناء . فقام أبو سفيان ، فقال : يامعشر قريش ،

---

(١) الدر المنثور / ٦ / ٥٧١ .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري / م١٠ / ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه / ٨٠ .

(٤) الدر المنثور / ٦ / ٥٧٣ . ونص الحديث عند البزار : عن ابن عباس قال : « أتت الصبا الشمال ليلة الأحزاب . فقالت : مري حتى تنصري رسول الله ﷺ . فقالت الشمال : إن الحرة لاتسرى بالليل . فكانت الريح التي نُصر بها الرسول ﷺ الصبا » مجمع الزوائد للهيثمي / ٦ / ١٣٩ ، وقال فيه : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

لينظر امرؤ مَن جليسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جانبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان :

يامعشر قريش ، إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع [1] والخف [2]، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلَغَنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، ماتطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ماأطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىَّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتينى ، ثم شئت لقتلته بسهم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط [3] لبعض نسائه مراجل .

فلما رآني أدخلنى إلى رجليه ، وطرح علىَّ طرف المرط ، ثم رجع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلَّم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم) [4].

٦ ـ (وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن قتادة فى قوله : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ قال : نزلت هذه الآية يوم الأحزاب ، وقد حصر رسول الله ﷺ شهراً ، فخندق رسول الله ﷺ ، وأقبل أبو سفيان بقريش ومن معه من الناس حتى نزلوا بعفوة رسول الله ﷺ ، وأقبل عيينة بن حصن أخو بنى بدر بغطفان ومن تبعه حتى نزلوا بعفوة رسول الله ﷺ ، وكاتبت اليهود أبا سفيان فظاهروه ، فبعث الله عليهم الرعب والريح ، فذكر أنهم كانوا كلما بنوا بناء قطَّع الله أطنابه ، وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها ، وكلما أوقدوا ناراً أطفأها الله ، حتى لقد ذكر لنا أن سيد كل حى يقول : يابنى فلان ، هلمَّ إلى ، حتى إذا اجتمعوا عنده قال : النجاة النجاة ، أتيتم لما بعث الله عليهم الرعب) [5] .

لقد رأينا آثار جند الله تعالى ، وهى الريح ، وكم فعلت فى القوم ، ورأيناها إعصاراً تدمر كل شئ ، تقلب القدور ، وتهدم البيوت ، وتقطع الأطناب ، وتطفئ النار . وإن أهلكت الدبور عاداً ، لكنها لم تنشط لنصر الله ورسوله ، وما أروع تلك المناجاة بينها وبين

---

(١) الكراع : الخيل .
(٢) الخف : البعير .
(٣) مرط ، مراجل : كساء من وشى اليمن .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٢٣٢ .
(٥) الدر المنثور / ٦ / ٥٧٦ .

أختها الصبا . إننا لنحس ونحن نقرأ النص أن الوجود كله يشارك فى المعركة ، وأن لهذا الوجود مشاعره . لم ينقل لنا إلا مشاعر الصبا وغيرتها أن تنصر الله ورسوله ، وكيف تحث أختها الدبور لتشارك فتعتذر عن النصرة ، وتتعلل بقولها : إن الحرة لاتسير بليل ، فتنال عقوبة التخاذل عن نصرة رسول الله صلوات الله عليه ، ويجعلها عقيماً ، لاتحمل مطراً ولاغيثاً ، وتندفع الصبا لتشارك فى المعركة ، فتصبح لنا نحن المسلمين ، ويثنى عليها الحبيب المصطفى صلوات الله عليه . فيقول : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »[1] .

وكان الجند الثانى هو الرعب ، كما رأينا فى النص السابق رقم « ٦ » :

(فبعث الله عليهم الرعب والريح . . .)

وحدثنا عن فعل الريح ، وأما فعل الرعب فقال عنه :

(حتى لقد ذكر لنا سيد كل حي يقول : يابنى فلان . هلمّ إلى ، حتى إذا اجتمعوا عنده قال : النجاة النجاة ، أتيتم لما بعث الله عليهم من الرعب) .

وهو جند ثان قال عنه عليه الصلاة والسلام : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر »[2] .

وتلك شهادة ثانية عن جيش الرعب الذى يرسله الله تعالى على أعدائه .

عن معاوية بن حيدة القشيرى قال : أتيت النبى ﷺ فلما دفعت إليه قال :

« أما إنى سألت الله أن يغنينى بالسنة تحفيكم[3]، وبالرعب يجعله فى قلوبكم » فقال بيده جميعاً ــ أى معاوية ــ أما إنى قد حلفت هكذا وهكذا أن لا أؤمن بك . فما زالت السنة تحفينى ، ومازال الرعب يجعل فى قلبى حتى قمت بين يديك)[4] .

وكان الجند الثالث سيد من سادات بنى غطفان ، نعيم بن مسعود الأشجعى :

(حدثنا عبد الله بن عاصم الأشجعى عن أبيه . قال : قال نعيم بن مسعود :

كانت بنوقريظة أهل شرف وأموال ، وكنا قوماً عرباً ، لا نخل لنا ولا كرم ، وإنما

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ، وقال عنه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ٦٥ : (ورجاله ثقات) ، وهو عن أنس . وقال عن حديث ابن عباس : (رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين ــ رجال أحدهما ثقات) .

(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

(٣) السنة تحفيكم : الجدب ينزل بكم فيهلككم .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى / ٦ / ٦٦ ، وقال : (رواه النسائى وغيره غير ذكر الرعب والسنة ، ورواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن) .

نحن أهل شاة وبعير ، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم . وآكل من طعامهم . ثم يحملوننى تمراً على ركابى ماكانت ، فأرجع إلى أهلى . فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله ﷺ سرت مع قومى وأنا على دينى ، وقد كان رسول الله ﷺ عارفاً ، فأقامت الأحزاب ماأقامت حتى أجدب الجناب وهلك الكراع والخف ، وقذف الله عز وجل فى قلبى الإسلام ، وكتمت قومى إسلامى ، فأخرج حتى آتى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء وأجده يصلى ، فلما رآنى جلس ثم قال : « ماجاء بك يانعيم ؟ » قلت : إنى جئت أصدقك وأشهد أن ماجئت به هو الحق ، فمرنى بما شئت يارسول الله ، فوالله ماتأمرنى بأمر إلا مضيت له ؛ قومى لايعلمون بإسلامى ولاغيرهم . قال « مااستطعت أن تخذِّل الناس فخذل » قال : قلت : أفعل ، ولكن يارسول الله أقول ؟ . فأذن لى . قال : « قل ما بدا لك فأنت فى حل » .

قال : فذهبت حتى جئت بنى قريظة ، فلما رأونى ، رحبوا وأكرموا وحيوا ، وعرضوا على الطعام والشراب . فقلت : إنى لم آت لشئ من هذا إنما جئتكم نصباً بأمركم ، وتخوفاً عليكم لأشير عليكم برأى وقد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم . فقالوا : قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ماتحب من الصدق والبر . قال : فاكتموا عنى . قالوا : نفعل . قال : إن أمر هذا الرجل بلاء صنع مارأيتم فى بنى قينقاع وبنى النضير ، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال ، وكان ابن أبى الحقيق قد سار فينا ، فاجتمعنا معه لنصركم ، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون ، وإنكم والله ماأنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة ؛ أما قريش وغطفان فهم قوم قد جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها ، وإن كانت الحرب أو أصابهم مايكرهون انشمروا إلى بلادهم ، وأنتم لا تقدرون على ذلك ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، وقد غلظ عليهم جانب محمد ، أجلبوا عليه أمس إلى الليل ، فقتل رأسهم عمرو بن عبد وهربوا منه ، مجرحين وهم لا غناء بهم عنكم لما تعرفون عندكم . فلا تقاتلوا مع غطفان وقريش حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم تستوثقون به منهم . قالوا : أشرت بالرأى علينا والنصح ، ودعوا له وشكروا وقالوا : نحن فاعلون . قال : لكن اكتموا عنى . قالوا : نعم ، نفعل .

ثم خرج إلى أبى سفيان بن حرب فى رجال من قريش فقال : يا أبا سفيان ، قد جئتك

بنصيحة فاكتم عنى . قال : أفعل . قال : تعلم أن قريظة قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرادوا إصلاحه ومراجعته ، أرسلوا إليه وأنا عندهم : إنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نُسلمهم إليك تضرب أعناقهم ، وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم - يعنون بنى النضير - ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك ، فإن بعثوا إليك يسألونكم رهنًا فلا تدفعوا إليهم أحداً واحذروهم على أشرافكم ، ولكن اكتموا عنى ولا تذكروا من هذا حرفا . قالوا : لانذكره .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنى رجل منكم فاكتموا عنى ، واعلموا أن قريظة بعثوا إلى محمد - وقال لهم مثل ما قال لقريش - فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم ، وكان رجلاً منهم فصدقوه .

وأرسلت اليهود غزَّال بن سموأل إلى أبى سفيان بن حرب وأشراف قريش : إن ثواءكم قد طال . ولم تصنعوا شيئاً ، وليس الذى تصنعون برأى ، إنكم لو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمد . فتأتون من وجه وتأتى غطفان من وجه ، ونخرج نحن من وجه آخر - لم يفلت من بعضنا ، ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهاناً من أشرافكم يكونون عندنا ، فإنا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا فى عقر دارنا وقد نابذنا محمداً بالعداوة ، فانصرف الرسول إلى بنى قريظة . ولم يرجعوا إليهم شيئا . وقال أبو سفيان : هذا ما قاله نعيم) [1] .

(فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله لقد حدثكم نعيم بن مسعود بحق فأرسلوا إلى بنى قريظة . إنا والله ماندفع إليكم رجلاً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيم لحق ، مايريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها . وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم حتي تعطونا رهناً : فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم) [2] .

ونعود إلى نص الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٨٠ وما بعدها . (٢) تاريخ الإسلام للذهبى - المغازى / ٢٩٤ .

فنجد الهدف الرئيسى منها هو ربط هـذه القلوب المؤمنة بالله عز وجل ، الذى أرسل الريح والجنود ، فهزم الأحزاب وحده . وبذلك تنقـطع القلوب من الاعتماد على الأسباب وتتصل برب الأرباب ، وحده لا شريك له ، وهو المقـصود من هذا العرض القرآنى - والله أعلم .

وتأتى الآية الثانـية لتضع على الساحة الـذروة التى وصلت إليها المحنة ، حية شاخصة كأنها تعـاد فى عرض حى جديد ، والجديد فيـه ليس مظاهره فقط ، إنما عرضه من داخل أعماق القلوب ، وكأن القلوب نفسها تشخـص ، والروع والفزع يجسد ، والزلزلة القلبية والنفسية تعرض حسب مراحل غليانها :

﴿ إذ جاءوكم من فوقكـم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ [1] .

ونستعرض من الأحداث مايسعف فى تجلية هذه الصورة :

﴿ إذ جاء وكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ :

أخرج ابن إسحـاق ، وابن مردويه عن ابن عـباس قال : أنزل الله فـى شأن الخندق ، وذكر نعمـه عليهـم ، وكفايته إياهـم عـدوهم بعد سـوء الظن ، ومقالة من تكلـم من أهـل النفاق : **﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليـكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنـا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها .. ﴾** وكانت الجنود الـتى أتت المسلمين أسد وغطفـان وسليما ، وكانت الجنود التى بعث الله علـيهم من الريح والملائكة فقال : **﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم .. ﴾** ، فكان الذين جاؤوهم من فوقهم بنى قريظة ، والذين جاؤوهم من أسفل منهم قريشاً وغطفان وأسداً ..) [2] .

ولنشـهد كيـف جاءت بنو قـريظة من فـوقهم ، بـعد أن شهدنـا كيف جاءت قـريش غطفان .

قال ابن إسحاق : (وخرج عدو الله حيى بن أخـطب النضرى ، حتى أتى كعـب بن أسد القرظـى ، صاحب عقد بنى قـريظة وعهدهم ، وكان قـد وادع رسول الله ﷺ على قومه ، وعـاقده على ذلك وعـاهده ، فلما سـمع كعب حيـى بن أخطب أغلـق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه . فأبى أن يفتح لـه ، فناداه حيى : ويحك ياكعب ! افتح لى ، قال :

---

(١) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .
(٢) الدر المنثور / م٦ / ٥٧٤ .

ويحك يا حيي : إنك امرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض مابيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً . قال : ويحك افتح لي أكلمك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك [1] أن آكل معك منها : فأحفظ [2] الرجل . ففتح له . فقال : ويحك ياكعب ، جئتك بعز الدهر وببحرطام [3] ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نقمي إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لايبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . قال ، فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام [4] قد هَرَاق ماؤه ، فهو يرعد و ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً .

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب [5] حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغَطَفَان ، ولم يصيبوا محمداً أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ .

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ابن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة بن دليم ، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وخوات بن جبير ، أخو بني عمرو بن عوف فقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فألحنوا لي لحنًا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » .

قال : فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدة . فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ ، فسلموا عليه ، ثم قالوا : عضل والقارة ، أي عذر كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ،

(١) جشيشتك : هو البر يطحن غليظاً .
(٢) أحفظه : أغضبه .
(٣) طام : مرتفع ويريد كثرة الرجال .
(٤) الجهام : السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه .
(٥) الذروة والغارب : هذا مثل وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ القراءة من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك - فيجد البعير لذة ، فيأنس عند ذلك ، فضرب هذا الكلام مثلاً في المراوضة والمخاتلة .

خبيب وأصحابه : فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين ») [1] .

لقد أوضحت هذه الرواية كيف تم غدر اليهود بالمسلمين ، ونقضهم للعهد ، وماهو دور حيي بن أخطب في ذلك ، لكن رواية الواقدى تلقى أضواء أكثر على النفسية اليهودية التى حاربت المسلمين من دون أن تخرج فى إطارها العام عنها ، ومنهجنا هو الحرص على روايات الواقدي حين لا نتعارض مع الروايات المعتمدة ، لكنها تقدم تفصيلات هامة ذات بال ، تعّمق جوانب البحث ، وتضيىء كثيراً من النقاط الجزئية ، فيتضح مدلول الآية أكثر فأكثر .

يقول الواقدى : (فحدثنى أبو أيوب بن النعمان ، عن أبيه ، قال : كان حيى بن أخطب يقول لأبى سفيان بن حرب ولقريش فى مسيرة معهم : إن قومى قريظة معكم ، وهم أهل حلقة وافرة ، هم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً ، فلما دنوا قال أبو سفيان لحيى ابن أخطب : ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد ، فذهب حيى حتى أتى بنى قريظة ، وكان رسول الله ﷺ حين قدم صالح قريظة والنضير ومن بالمدينة من اليهود ألا يكونوا معه ولا عليه . ويقال : صالحهم على أن ينصروه ممن دهمه منهم ، ويقيموا على معاقلهم الأولى التى بين الأوس والخزرج ، ويقال إن حيى بن أخطب عدل من ذى الحليفة ، فسلك على العصبة حتى طرق كعب بن أسد ، وكان كعب صاحب عقد بنى قريظة وعهدها) [2].

لقد أشعل هذه الفتنة كلها حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ، وشاركه أبو سفيان ابن حرب ، وكان اتجاههما أن لا يتركا أحداً من العرب أو اليهود إلا ويضماه إلى هذا الجيش اللجب ، ودخول بنى قريظة الحرب ضد رسول الله ﷺ هوأعظم نجاح يحققه ابن أخطب فى تصور أبى سفيان ، وهو أن ينقض الأمر على محمد داخل المدينة ، ويتم الانقضاض عليه فيصبح بين فكى الكماشة ، ويستأصل بين براثن الأسد ولذلك استحثّ أبو سفيان حيياً لذلك ، وعدل عن ذى الحليفة ليسرع الخطا فيلقى زعيم بنى قريظة وينهى معه هذا الأمر .

(فكان محمد بن كعب القرظى يحدث فيقول : كان حيى بن أخطب رجلاً مشئوماً ، هو شأم بنى النضير قومه ، وشأم قريظة حتى قتلوا ، وكان يحب الرئاسة والشرف عليهم ــ وله فى قريش شبه : أبو جهل بن هشام ــ ، فلما أتى حيى إلى بنى

(١) السيرة النبوية لابن هشام م٢/ ٢٢٠ .

(٢) المغازى للواقدى /٢/ ٤٥٤ .

قريظة كرهت بنو قريظة دخوله دارهم ، فكان أول من لقيه غزّال بن سموأل ، فقال له حيي : قد جئتك بما تستريح به من محمد ، هذه قريش قد حلّت وادى العقيق ، وغطفان بالزغابة . قال غزال : جئتنا والله بذل الدهر : قال حيي : لا تقل هذا .

ثم وجّه إلى باب كعب بن أسد فدقّ عليه ، فعرفه كعب وقال : ما أصنع بدخول حيي على ، رجل مشئوم قد شأم قومه ، وهو الآن يدعونى إلى نقض العهد ! قال : فدق عليه ، فقال كعب : إنك امرؤ مشئوم قد شأمت قومك حتى أهلكتهم ، فارجع عنا ، فإنك إنما تريد هلاكى وهلاك قومى !

فأبى حيي أن يرجع . فقال كعب : يا حيي ، إنى عاقدت محمداً وعاهدته ، فلم نر منه إلا صدقا والله ما أخفر لنا ذمة ، ولا هتك لنا ستراً ، ولقد أحسن جوارنا . فقال حيي : ويحك ، إنى قد جئتك ببحرطام وبعز الدهر ، جئتك . بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بالزغابة إلى نقمى ، قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، والعدو عشرة آلاف ، والخيل ألف فرس ، وسلاح كثير ، ومحمد لا يفلت فى فورنا هذا ، وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

قال كعب : ويحك ، جئتنى والله بذل الدهر ، وبسحاب يبرق ويرعد ليس فيه شيء ، وأنا فى بحر لجى لا أقدر على أن أريم دارى ، ومالى معي والصبيان والنساء ، فارجع عنى ، فإنه لا حاجة لى فيما جئتنى به . قال حيي : ويحك ، أكلّمك . قال كعب : ما أنا بفاعل . قال : والله ما أغلقت دونى إلا لجشيشتك أن آكل معك فيها ، فلك ألا أدخل يدى فيها . قال : فأحفظه ، ففتح الباب ، فدخل عليه .

فلم يزل يفتله فى الذروة والغارب حتى لان له ، وقال : ارجع عنى يومك هذا حتى أشاور رؤساء اليهود فقال : قد جعلوا العقد والعهد إليك فأنت ترى لهم ، وجعل يلح عليه حتى فتله عن رأيه .

فقال كعب بن أسد : يا حيي ، قد دخلتُ فيما ترى كارها له ، وأنا أخشى ألا يقتل محمد ، وتنصرف قريش إلى بلادها ، وترجع أنت إلى أهلك ، وأبقى فى عقر الدار ، وأقتل ومن معى . فقال حيي : لك مافى التوراة التى أنزلت على موسى يوم طور سيناء ، لئن لم يقتل محمد فى هذه الفورة ورجعت قريش وغطفان قبل أن يصيبوا محمداً ، لأدخلن حصنك حتى يصيبنى ما أصابك .

فنقض كعب العهد الذى كان بينه وبين رسول الله ﷺ ودعا حيى بالكتاب الذى كتب رسول الله ﷺ بينهم فشقه حيى ، فلما شقه حيى علم أن الأمر قد لحم وفسد ، فخرج على بنى قريظة وهم حلق حول منزل كعب بن أسد ، فخبرهم الخبر . يقول الزبير ابن باطا : واهلاك يهود . وتولى قريش وغطفان ويتركوننا فى عقر دارنا وأموالنا وذرارينا ، ولا قوة لنا بمحمد إما بات يهودى على حزم قط ، ولا قامت يهودية بيثرب أبداً .

ثم أرسل كعب بن أسد إلى نفر من رؤساء اليهود الخمسة ـ الزبير باطاء ، ونباش بن قيس ، وغزال بن سموأل ، وعقبة بن زيد ، وكعب بن زيد ـ فخبرهم خبر حيى ، وما أعطاه حيى أن يرجع إليه فيدخل معه فيصيبه ما أصابه ، يقول الزبير بن باطا : وما حاجتك إلى أن تُقتل ويُقتل معك حيى ! قال : فأسكت كعب وقال القوم : نحن نكره نزرى برأيك أو نخالفك وحيى من قد عرفت شؤمه ، وندم كعب بن أسد على ماصنع من نقض العهد ، ولحم الأمر ، لما أراد الله تعالى من هلاكهم) (١).

لئن شُبّه حيى بن أخطب بأبى جهل قريش ، فقد كان كعب بن أسد يشبه عتبة بن ربيعة ، وخاصة لاتحاد الموقف . وذلك حينما وقف عتبة بن ربيعة يدعو قومه إلى العودة إلى مكة قبل الحرب مع محمد رسول الله ﷺ ، ويقول :

(يامعشر قريش إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا واخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ماتريدون) (٢) .

وهو الموقف الذى أثنى عليه رسول الله ﷺ فقال :

« إن يطيعوا صاحب الجمل الأحمر يهتدوا » وفى رواية :

« إن يك فى أحد من القوم خير ففى صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا » (٣) .

ولئن عيَّر حيى بن أخطب كعب بن أسد بالبخل فقال له :

ما أغلقت دونى إلا لجشيشتك أن آكل معك منها .

(١) المغازى / ٢/ ٤٥٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م٢/٦٢٣.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام م١/ ٦٢١ .

فقد عيَّرَ أبو جهل عتبة بن ربيعة بالجبن ، حين دعا إلى السلم مع محمد ، فقال عنه : انتفخ والله سَحره .

وغضب كعب أن عُيِّر بالبخل ، ففتح الباب لحيى ، وما زال حيى به حتى نقض العهد .

وغضب عتبة أن عُير بالجبن ، فلبس عمامته ، ودعا إلى المبارزة ، وكان من أول القتلى في المعركة وكم تفعل العصبية في النفوس فتقود إلى النار أناساً أحلامهم مثل الجبال وشهادة كعب أنه لم ير من رسول الله ﷺ إلا صدقاً ووفاء ، لها وزنها في عالم الحروب والأمم ، فرغم كل كيد وحقد ، فهو يعترف أنه لم ير إلا وفاء .

وإغراء حيى لكعب بتصفية محمد ﷺ لاقت هوى في نفس كعب ، ومن هنا أُتِيَ الرجل فالحقد هو الذى يحركه ، وهو المترسب في الأعماق ، واستطاع حيى أن يوقظ كل مافى نفس الرجل من شر ، وهاهو دور شياطين الإنس والجن :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولوشاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ (1) .

وشاءت إرادة الله تعالى هلاك هذه الأمة ، يوم استجابت لنوازع الشر.

وكان التخطيط الخبيث من حيى أن دفع كعباً لتمزيق الكتاب ، واتخاذ الموقف قبل أن يتشاور مع قيادات اليهود ، فإذا الرجل قد تورط ، وصعب عليه الرجوع ، ورغم أن إشارة قادة قريظة كانت بعدم نقض العهد ، إلا أن العصبية العمياء لزعامة كعب حالت بينهم وبين تدارك الموقف ، وساهموا بسلبيتهم في هلاك قومهم حين لم يزروا برأى سيدهم كعب بن أسد .

(فبينا رسول الله ﷺ والمسلمون في الخندق ، أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وهو في قبته .. فقال : بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت .

فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ ، وقال : « من نبعث يعلم لنا علمهم ؟ » فقال عمر : الزبير بن العوام ، فكان أول الناس بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ، فقال :« اذهب

---

(1) الأنعام /١١٢ .

إلى بنى قريظة » فذهب الزبير فنظر ، ثم رجع فقال : يارسول الله ، رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم [1] .. ثم دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، فقال : « إنه قد بلغنى أن بني قريظة قد نقضوا العهد الذى بيننا وبينهم وحاربوا . فاذهبوا وانظروا إن كان مابلغنى حقاً ؛ فإن كان باطلاً فأظهروا القول ، وإن كان حقا فتكلموا بكلام تلحنون لى به أعرفه ؛ لا تفتوا فى أعضاد الناس » .

فلما انتهوا إلى كعب بن أسد وجدو القوم قد نقضوا العهد ، فناشدوهم الله والعهد الذى كان بينهم أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك قبل أن يلتحم الأمر ، وألا يطيعوا حيى بن أخطب . فقال كعب : لانرده أبدا ؛ قد قطعته كما قطعت هذا القِبال لقبال نعله ووقع كعب بسعد بن معاذ يسبه فقال أسيد بن الحضير :

تسب سيدك ياعدو الله ؟ ما أنت له بكفء ! أما والله يابن اليهود لتولين قريش إن شاء الله منهزمة وتتركك فى عقر دارك فنسير إليك فتنزل فى جحرك هذا على حكمنا ، وإنك لتعلم النضير ، كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة ، ديتك نصف ديتهم ، وقد رأيت ماصنع الله بهم ، وقبل ذلك بنو قنيقاع ، نزلوا على حكمنا .

قال كعب : يابن الحضير ! تخوفنى بالمسير إلى ؟ أما والتوراة ، لقد رآنى أبوك يوم بعاث . لولا نحن لأجلته الخزرج منها ، إنكم والله ما لقيتم أحدا يحسن القتال ولا يعرفه ، نحن والله نحسن قتالكم ، ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام ، وشتموا سعد بن عبادة شتماً قبيحاً حتى أغضبوه فقال سعد بن معاذ : دعهم فإنا لم نأت لهذا ، مابيننا وبينهم أشد من المشاتمة ـ السيف ! .

وكان الذى يشتم سعد بن عبادة نباش بن قيس فقال : عضضت ببظر أمك : فانتفض سعد بن عبادة غضباً . فقال سعد بن معاذ : إنى أخاف عليكم مثل بنى النضير . قال غزال ابن سموأل : أكلت أير أبيك : قال سعد بن معاذ : غير هذا القول أحسن منه .

قال : ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ ، فلما انتهوا إليه قال سعد بن عبادة : عضل والقارة وسكت الرجلان .. ثم جلسوا فكبر رسول الله ﷺ وقال : « أبشروا يامعشر

---

(١) فى البخارى باب غزوة الخندق ٤٩/٥ عن ابن المنكدر قال : سمعت جابراً يقول : قال رسول الله ﷺ : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا . فقال : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير أنا . فقال : « إن لكل نبى حوارياً وحوارى الزبير » .

المسلمين بنصر الله وعونه »)[1] .

أما كيف وصل الخبر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟ فلا ندرى ، لكن الأمر يدل على وجود بعض المتعاطفين مع المسلمين في قلب بني قريظة . وهو الذى نقل الخبر إلى عمر رضى الله عنه . وكانت الخطوة الأولى أن انتدب رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ، بإشارة عمر رضي الله عنهما ، وقال بعد عودته : رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم وقد جمعوا ماشيتهم .

وهذه المظاهر التى طرأت عليهم توحى بقوة احتمال صحة الخبر الذى جاء به عمر رضى الله عنه ، وإلى هنا ينتهى دور المهاجرين فى هذا المجال ، فلا علاقة البتة بين اليهود والمهاجرين ، ويأتى دور الأنصار فى معالجة الموقف ؛ لأن العهود والمواثيق والولاءات السابقة ، كانت بين اليهود وبين الأوس والخزرج .

وحتى يقطع رسول الله ﷺ دابر الشك باليقين دعا سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير سيدى الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، ليمضوا إلى بنى قريظة ، ويتأكدوا من صحة الخبر .

وهذا الاختيار لم يأت عرضا من رسول الله ﷺ .

فبنو قريظة ابتداءً هم حلفاء الأوس ، وإذا كان أحد قادراً على ثنيهم عن عزمهم على نقض العهد ، فهما سيدا الأوس سعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، فالمهمة مزدوجة وهى التأكد من صحة الخبر ومحاولة ثنيهم عن غدرهم ، وتحميلهم مغبة هذا الغدر .

ومشاركة سعد بن عبادة فى الوفد ذات دلالة ضخمة ، وهى أن الأوس والخزرج يد واحدة على عدوهم ، وموقف واحد وجيش واحد وراء رسول الله ﷺ ، وذلك ليتأكد اليهود من ذلك ، فلا يعللوا أنفسهم بالانقسام الداخلى فى الصف الإسلامى ، خاصة وقد نقلت لهم جواسيسهم من المنافقين مادار بين السعدين قبل فترة قريبة أثناء حديث الإفك ، فتأتى هذه المهمة المشتركة لتقطع دابر ألسنة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، وتؤكد وحدة الصف الإسلامى بعد تلك الأزمة العابرة .

ودلالة ثالثة كذلك ، هى أن يتحمل سيدا الأوس والخزرج مسئولية المواقف مشتركين ، فهذه أول مهمة تأتى يشتركان فيها معاً . بعد تلك الملاسنة الخشنة بينهما ،

(١) المغازى / ٢ / ٤٥٧ وما بعدها .

وذلك لتزيل ما يحتمل أن يبقى فى قلبيهما من جراح ، وتوحد المحنة بينهما من جديد ، ويكونا رواداً لقومهما فى المواجهة أمام اليهود والمشركين .

وكانت المقابلة العاصفة التى كشفت النفسية اليهودية الخبيثة اللئيمة الخسيسة من جديد ، فإذا كعب بن أسد الذى لم ير من رسول الله ﷺ إلا وفاءً وصدقاً ، هو الذى يتصدى للمواجهة ، ويعلن فى صفاقة وخسة . لا نرده أبداً ، قد قطعته كما قطعت هذه القبال ـ لقبال نعله ـ ووقع بسعد بن معاذ يسبه .

إنه يعلن براءتين فى وقت واحد براءة من حلف محمد ﷺ وبراءة ثانية من حلف الأوس ، ومن أجل هذا يتبجح ، فينال من سيد الأوس سعد . وتختفى الحية الرقطاء ـ حيى ـ بوجهها الأصفر الكالح ، لتدع هذا الأحمق المنتفش يتحمل مسئولية الموقف الذى سيقود قومه إلى الذبح بهذه العصبية المجنونة . وقد أدرك أسيد بن حضير رضى الله عنه ـ السيد الثانى للأوس ـ الموقف بكل أبعاده وأسمع كعبا وقادة قريظة من خلفه ما يقتضيه الموقف .

فقد سفه كعباً وهو ينال من سيده سعد ، ليؤكد لليهود أن الأوس كلهم رجل واحد خلف سعد بن معاذ ، فإن كان يخطر ببال كعب بن أسد القرظى أن التنافس بين سعد وأسيد قد يقود إلى الشقاق فى صف الأوس ، فقد وئدت هذه الأحلام إلى الأبد ، فكان الرد صفعة تناسب سفاهة سيد بنى قريظة ، وأشار من طرف خفى إلى أن المصير المحتوم الذى سيلقاه هو الدمار له ولقومه ، فليس أقوى من بنى النضير وقد أجلوا صاغرين عن المدينة ، وليس أقوى من بنى قينقاع ، وقد أجلوا صاغرين عن المدينة ، وإن كان يعتمد على قريش وقوتها وجبروتها ، فقريش سوف تنسحب منهزمة .

إن هذا الرأى فى الحقيقة هو رأى سادة بنى قريظة جميعاً ، لكن الحقد الذى ينز من قلوبهم جعلهم يركبون رءوسهم سفهاً ، ويصرون على المواجهة مع المسلمين .

وبذلك أدى أسيد الدور المطلوب ، وهو محاولة ثنيهم عن الغدر الذى بيتوه ، وذلك بما أوضح لهم من مغبة نتائج هذا الأمر ، ويؤكد لهم أن الذلة والصغار ستكون ثمرة هذا الموقف الحنظل . ويصر كعب على عنجهيته ، وشيطانه حيى يوغر بصدره ، ويبجحه إلى نفسه ، فيندفع كالمعتوه لا يدرى مايقول : يابن الحضير تخوفوننى بالمسير إلىّ ؟ أما والتوراة لقد رآنى أبوك يوم بعاث ، لولا نحن لأجلته الخزرج منها .

إنه بذلك يريد أن يبعث الجاهلية من جديد ، ويحرك أحقاد بعاث ، حية بين الحيين ، ولكن هيهات ، قد كان هذا فى بداية الأمر والإسلام جديد لم تخالط بشاشته بعد القلوب ، أما الآن فدون ذلك خوض البحار ، بحار الإيمان والحب التى ربطت بين هذين الحيين بالإسلام . فإذا الذى يدافع عن سعد بن عبادة سعد بن معاذ ، وحين يعير المسلمون بالجهل بالحرب ، فهذا يذكى نار الالتحام من جديد .

ثم تتحول القضية من الحوار الهادف والكلام المجدى إلى شتائم مقذعة حقيرة ، قام بها سادة يهود لا سفهاؤهم ، فإذا القوم سادتهم كسفهائهم ..

عضضت ببظر أمك .

أكلت أير أبيك .

هذا كلام السوقة والسافلين ، وهم كذلك حين تنكشف نفسيتهم الحاقدة اللئيمة ، فلا بد أن يرووا غريزة حقدهم ، وحسم سعد بن معاذ رضى الله عنه الموقف :

ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة أى ـ السيف ـ .

فلكل مقام مقال . وسيشهد بنو قريظة الرد على هذا الغدر المبيت والسفاهة المرذولة .

وحسب توجيهات النبى ﷺ أن يلحنوا له لحنا يعرفه إن كان الخبر صحيحا فى نقض قريظة للعهد ، فلتكن كلمة السر بينهم حتى لا يفت الخبر فى أعضاد المسلمين ، ويحطم نفسيتهم فكان الرد كلمتين عضل والقارة .

وفهمها عليه الصلاة والسلام على حقيقتها ، ففى عضل والقارة .. تم الغدر بخبيب وأصحابه ، وكذلك الأمر فى يهود اليوم ، فاكتفى عليه الصلاة والسلام بقوله :

« الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه » لقد أديت المهمة ، وتأكد الغدر المبيت ، وكشف الحقد عن أنيابه : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ..** ﴾

﴿ **.. وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾ :

أ ـ (﴿ **وإذ زاغت الأبصار** ﴾ أى : شخصت ، وقيل : مالت ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها دهشاً من فرط الهول ، ﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ أى : زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ، واحدها حنجرة ، فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت ، قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار

كاد ، قال :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية　　هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أى كادت تقطر ، ويقال : إن الرئة تنتفخ عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلاً ؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سحره ، وقيل : إنه مثل مضروب من شدة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة ، قال معناه عكرمه . روى حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن عكرمه قال : بلغ فزعها ، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته ، أى لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة ..) . (١)

ب ـ (أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن حاتم ، عن قتادة فى قوله :﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ قال : شخصت من مكانها ، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت) (٢) .

(وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن عكرمة فى قوله ﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ قال : فزعها . ولفظ ابن أبى شيبة قال : إن القلوب لو تحركت أو زالت خرجت نفسه ، ولكن إنما هو الفزع) (٣) .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حاتم ، عن أبى سعيد الخدرى رضى اللهُ عنه قال : قلنا يوم الخندق : يارسول الله هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : « نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله بالريح) (٤) .

جـ ـ (قالوا : ونجم النفاق ، وفشل الناس ، وعظم البلاء ، واشتد الخوف ، وخيف على الذرارى والنساء وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ ورسول الله ﷺ والمسلمون وجاه العدو ، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم يعتقبون خندقهم ويحرسونه ...) (٥)

د ـ تقول أم سلمة رضى الله عنها : (قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف ـ المريسيع وخيبر ، وكنا فى الحديبية ، وفى الفتح ، وفى حنين ـ لم يكن من ذلك شىء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / م٧/ جـ ١٤ / ١٤٤، ١٤٥.　(٢ ، ٣) الدر المنثور / ٦/ ٥٧٦ .
(٤) الدر المنثور / ٦ /٥٧٣ .　(٥) المغازى للواقدى /٢ /٤٥٩ .

الحرجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، والمدينة تحرس حتى الصباح ، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفا حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال) (١).

هـ ـ ويقول الصديق رضى الله عنه : (لقد خفنا على الذرارى بالمدينة من بنى قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان ، ولقد كنت أوفى على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة ، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل ، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة تحرس) (٢) .

و ـ ويقول حذيفة رضى الله عنه : (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقرٌّ . فقال رسول الله ﷺ: « ألا رجل يأتينى بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ؟ » فسكتنا ، فلم يجبه منا أحد . ثم قال : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيامة ؟ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد . ثم قال :« ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيامة؟ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد . فقال : « قم ياحذيفة فائتنا بخبر القوم » فلم أجد بداً حين دعانى باسمى أن أقوم . قال : « فاذهب فائتنى بخبر القوم ولا تذعرهم على » (٣) فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصْلى ظهره بالنار ، فوضعت سهمًا فى كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا تذعرهم علىّ » ولو رميته لأصبته ، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام ، فلما أتيته بخبر القوم وفرغت ، قررت (٤) ، فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كان يصلى بها ، فلم أزل نائما حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : « قم يانومان » (٥) .

ومن هذه النصوص المتعددة يبدو لنا مدى الخوف الذى وصل بالمسلمين وبالمؤمنين ، والحديث عنهم ، وقد قرره القرآن فى هذه الغزوة دون الغزوات الأخرى ، فى أجل صورة حسية ومعنوية :﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ .

---

(١) المغازى /٢/٤٦٧ .

(٢) المصدر نفسه / ٤٦٠.

(٣) لاتذعرهم علىَّ : لا تهيجهم علىَّ وفسرها الحديث الآخر : لا تحدث فيهم حدثا حتى تأتينى .

(٤) قررت : بردت .

(٥) مسلم / جـ ٤ كتاب الجهاد والسير ./باب ٣٦ / جـ ٩٩ / ص ١٤١٤ .

والمبالغات البشرية أحياناً تنفى الخوف في الصف الإسلامى ، وتعتبره يتناقض مع الإيمان وهذا المد الشعورى الطاغى كثيراً ما يجعل الإحباط يسيطر على النفس البشرية ، ويبدأ التشكيك بالأخ ويسحب الحكم على الجماعة المسلمة وسقوطها نتيجة هذه الظاهرة ، ونتيجة ذلك الحكم المغالى فى الفهم ، والمجافى للواقع البشرى ، ولقد شهدنا نموذجاً من هذا الشعور فى الجيل الثانى الذى تلقى عن جيل الصحابة ، فالذى كان يسأل حذيفة رضى الله عنه يقول له :

(يا أبا عبد الله ، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يابن أخى ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ماتركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا) [١] .

فتخيل الأمور شىء ، ومعاينة الواقع شىء آخر ، والحديث عن الإسلام وبطولاته شىء ، . والتطبيق الحى العملى للإسلام شىء آخر .

وهذه القضية من أكبر القضايا التى عانت منها الجماعات المسلمة التى تسعى لإعادة التمكين فى الأرض ، إنها حين تتحدث عن البيئة المحيطة ، والأحزاب المعادية ، والحكومات القائمة ، تتحدث من علٍ وبنقاء وطهر ، وهى تقيِّم لوثات تلك الأحزاب الجاهلية ، وتصدر الأحكام المبرمة على الناس والأشخاص والأحداث ، وتلصق كل الانحرافات بالخصوم ، وتتصور أنها بمجرد أن يتاح لها الحكم فسوف تعيد سيرة الشيخين أبى بكر وعمر ، وسوف يكون شبابها ورجالها فى طهر الملائكة ، خالين من الهوى والأنانية وحب الذات والاختلاف ، وستتحرر الأرض كلها بهم ، فليس فيهم إلا الشجاعة والنجدة والإيثار والتضحية والنبل والارتفاع فوق الذات ، والعدل للخصم والصديق ، إلى آخر تلك القيم التى يمثلها الإسلام .

وحين يعالج الأمر على ضوء الواقع ، نلاحظ أن هذه الحركات الإسلامية قد مرَّ على بعضها ماينوف عن نصف قرن ، ولم تتمكن فى الأرض ، ولم تحقق موعود الله فيها ، وحين يُسأل عن ذلك يكون الجواب جاهزاً وحاضراً فى البديهة ، إنه العدو ، الاستعمار ، إسرائيل ، القوى الكبرى فى الأرض ، وهم الذين يحولون دون تمكين الجماعة المسلمة وتحكيم شريعة الله فى الأرض .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٢٣١ .

هذا حق ، وسيبقى أعداء الله فى وجه هذه الدعوة إلى قيام الساعة .

ولكنه جزء من الحقيقة ، وليس الحقيقة كلها ، والجانب الآخر هو سلامة البناء الداخلى للجماعة ، وصحة الطريق الذى تسير إليه ، وارتفاع الجماعة إلى مستوى القوم الذين ذكرهم الله تعالى أنهم البديل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم . . .** ﴾ إلى آخر الآية .

وأحوج ماتحتاج إليه الحركة الإسلامية اليوم هو أن تنكفىء على ذاتها ، وتقيم مسيرتها وأشخاصها ومستوى تربيتها وتفقه الخلل فيها ؛ لترتفع إلى المستوى المطلوب .

ولعل نجاح التجربة الأفغانية ، وعظمة المجاهدين الأفغان الذين هزموا أعظم قوة عاتية فى الأرض ، دليل واضح على أن العدو مهما عتا وتجبر فهو عاجز عن أن يئد الحركة المسلمة ، ويوقف المسيرة .

ونعود إلى نقطة الانطلاق ، فالحديث عن خيرة أهل الأرض ، وعن خير القرون فيها ، ويحدثنا القرآن عن مستوى هذه المحنة فيقول فى وصف صفوة البشر :

﴿ **. . . وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . .** ﴾ :

ورأينا مصداق هذه الآية فى الفقرات الآنفة الذكر ، لتتم التربية على ضوء ذلك .

(إن النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص وأعيان الذوات ؛ ليصور نماذج البشر ، وأنماط الطباع ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية ، هذه التى لا تنتهى بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ، ولاتنقضى بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ولكل قبيل ، ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة فى المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير)(1) .

﴿ **. . وتظنون بالله الظنونا . .** ﴾ :

والأرجح أن هذه الظنون خصت المنافقين فى الصف الإسلامى ، والذين سيأتى الحديث التفصيلى عنهم فيما بعد ، كما هى الرواية عن مجاهد :

---

(1) فى ظلال القرآن / م٥ / ٢٨٣٥ .

(أخرج ابن جرير ، والغريابى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ هم المنافقون يظنون بالله ظنوناً مختلفة) [1] .

قال ابن جرير : (ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك) [2] ، (وقوله : ﴿ **وتظنون بالله** ﴾ الظنون الكاذبة وذلك كظن من ظن منهم أن رسول الله ﷺ يغلب ، وأن ماوعده الله من النصر أن لايكون ، ونحو ذلك من ظنونهم الكاذبة التى ظنها من ظن ممن كان مع رسول ﷺ فى عسكره) [3] .

أما الرواية عن الحسن كما أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : (﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ قال : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ماوعدهم الله ورسوله حق أنه سيظهر على الدين كله) [4] .

﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا** ﴾ .

ويحدثنا سيد قطب رحمه الله عن هذه الحالة فيقول : (إنها صورة الهول الذى روّع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها ، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلاها وأسفلها ، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول من قلب إلى قلب ، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله وسلوكها بالشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج ، ومن ثم كان الابتلاء كاملاً ، والامتحان دقيقاً والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لاتردد فيه .

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته ، وكل انفعالاته ، وكل خلجاته ، وكل حركاته ، ماثلاً أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير .

ننظر فنرى الموقف من خارجه : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ .

ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس : ﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ . . وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب . ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ ولايفصل فى هذه الظنون . ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات فى شتى القلوب . ثم تزيد سمات الموقف بروزاً ، وتزيد خصائص الهول فيه

---

(١) الدر المنثور / ٦ / ٥٧٧ . (٢ ، ٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / م١٠ / ٨٤ .

(٤) الدر المنثور / ٦ / ٧٧٥ ، وابن جرير /١٠ / ٨٤ .

وضوحاً : ﴿ **هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ والهول الذى يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولاً مروعاً رعيباً ، قال محمد بن سلمة : كان ليلنا بالخندق نهاراً ، وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب فى أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوما ، ويغدو عمرو بن العاص يوما ، ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوما ، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يومًا ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً ، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً) [١] .

وسنقف بإسهاب وتفصيل للحديث عن ابتلاءات المؤمنين فى الخندق من خلال أحداث المعركة .

١ ـ فى قدوم العدو :

فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة ، خرج ركب من خزاعة إلى النبى ﷺ فأخبروه بفصول قريش ، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً ، فذلك حين ندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم فى أمرهم بالجد والجهاد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا ، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله ، وشاورهم رسول الله ﷺ ـ وكان رسول الله يكثر مشاورتهم فى الحرب ـ فقال : أنبرز لهم من المدينة ، أم نكون فيها ونخندقها علينا ، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل ؟ فاختلفوا ، فقالت طائفة : نكون مما يلى بعاث إلى ثنية الوداع إلى الجرف . فقال قائل : ندع المدينة خلوفاً ، فقال سلمان : يارسول الله ، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فهل لك يارسول الله أن نخندق ؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين . وذكروا حين دعاهم النبى ﷺ أن يقيموا ولايخرجوا . فكره المسلمون الخروج ، وأحبوا الثبات فى المدينة) [٢].

٢ ـ الجهد فى حفر الخندق :

أ ـ (فحدثنى أبو بكر بن أبى سبرة قال : حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن جهم أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً [٣] خلف ظهره ويخندق من

---

(١) فى ظلال القرآن / م٥ / ٢٨٣٧ .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٤٤ .

(٣) سلع : الجبل المعروف الذى بسوق المدينة .

المزاد[1] إلى ذباب [2] إلى راتج [3] ، فعمل يومئذ فى الخندق ، وندب الناس ، فخبرهم بدنو عدوهم وعسكرهم إلى سفح سلع ، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم ، وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم فى الخندق لينشط المسلمين ، وعملوا ، واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى [4] وكرازين [5] ومكاتل [6] ، يحفرون به الخندق ، وهم يومئذ سلم للنبى ﷺ يكرهون قدوم قريش ، ووكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه ، فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب ، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بنى عبيد ، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان.

فحدثنى محمد بن يحيى بن سهل ، عن أبيه ، عن جده ، قال :

ب ـ كنت أنظر إلى المسلمين والشباب ينقلون التراب ، والخندق بسطة [7] أو نحوها ، وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رءوسهم فى المكاتل ، وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من جبل سلع وكانوا يجعلون التراب مما يلى النبى ﷺ وأصحابه ، وكانوا يسطرون الحجارة مما يليهم كأنها حبال التمر ، وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها) [8] .

جـ ـ (فحدثنى ابن أبى سبرة ، عن مروان بن أبى سعيد ، قال : كان رسول الله ﷺ يومئذ يحمل التراب فى المكاتل ويطرحه ، والقوم يرتجزون ورسول الله ﷺ يقول :

« هذا الجمال لا جمال خيبر   هـذا أبـر ربـنـا وأطهـــر »

وجعل المسلمون يومئذ إذا رأوا من الرجل فتوراً ضحكوا منه ، وتنافس الناس يومئذ فى سلمان الفارسى ، فقال المهاجرون : سلمان منا ! وكان قوياً عارفاً بحفر الخنادق ، وقالت الأنصار :

---

(١) المزاد : اسم أطم لبنى حرام من بنى سلمة غربى مسجد الفتح .

(٢) ذباب : أكمة فى المدينة إذا خرجت منها كانت ذباب على يمينك وسلع على يسارك من ثنية الوداع .

(٣) راتج : الجبل الذى إلى جنب جبل بنى عبيد غربى بطحان .

(٤) مساحى : جمع مسحاة وهى المجرفة من الحديد .

(٥) كرازين : جمع كرزن وهو الفأس .

(٦) مكاتل : جمع مكتل وهى الزنبيل الكبير وقيل إنه يسع خمسة عشر صاعاً .

(٧) بسطة : قامة الرجل .

(٨) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٤٧ .

هو منا ونحن أحق به ! فبلغ رسول الله ﷺ قولهم فقال :

« سلمان رجل منا أهل البيت » .

ولقد كان يومئذ يعمل عمل عشرة رجال حتى عانه[1] يومئذ قيس بن أبى صعصعة فلُبط[2] به ، فسألوا رسول الله ﷺ فقال : « مروه فليتوضأ له ، وليغتسل به ، ويكفأ الإناء خلفه » ، ففعل فكأنما حُلَّ من عِقال .[3]

وعن الفضيل بن بشر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : لقد كنت أرى سلمان يومئذ ، وقد جعلوا له خمسة أزرع طولاً وخمساً فى الأرض ، فما تحينته حتى فرغ وحده وهو يقول :

« اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة »)[4] .

د ـ وعن أبى إسحاق قال : (سمعت البراء يحدث قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى عَنِىَّ الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته برتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

« اللهم لولا أنت مااهتدينا ولاتصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا »

قال : ثم يمد صوته بآخرها)[5] .

هـ ـ (عن أبى واقد الليثى قال : رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق ، فأجاز من أجاز ، وردَّ من رد ، وكان الغلمان يعملون معه ، الذين لم يبلغوا ولم يجزهم ، ولكنه لما لحم الأمر ، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذرارى ، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ ، وإنه ليضرب مرة بالمعول ، ومرة يغرف بالمسحاة التراب ، ومرة يحمل التراب فى المكتل ، ولقد رأيته يوماً بُلغ[6] منه ، فجلس رسول الله ﷺ ، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به .

---

(١) عانه : أصابه بالعين ، والعين حق .
(٢) لبط به : أى صُرع وسقط إلى الأرض .
(٣) حُلَّ من عقال : كأنما حُلَّ وثاقه .
(٤) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٤٦ ومابعدها .
(٥) البخارى / كتاب ٦٤ / باب غزوة الخندق / جـ ٥ / ١٤٠ .
(٦) بـُلغَ به : أى بلغ به التعب مبلغاً عظيماً .

النوم ، فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه ، وأنا قربت منه ، ففزع ووثب ، فقال : ألا أفزعتموني ! فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة　　　فاغفر للأنصار والمهاجـــرة

اللهـــم العـــن عضلاً والقـــارة　　　فهم كلفوني نقل الحجارة »

فكان ممن أجاز رسول الله ﷺ يومئذ ابن عمر ، وهو ابن خمس عشر سنة ، وزيد بن ثابت وهو ابن خمس عشرة ، والبراء بن عازب وهو ابن خمس عشرة) [١] .

و ـ (وعن عبد الحميد جعفر ، عن أبيه قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق ، وكان حفره ستة أيام وحصنه ، ونزل رسول الله ﷺ دبر سلع ، فجعله خلف ظهره ، والخندق أمامه ، وكان عسكره هنالك ، وضرب قُبة من أدَم ، وكانت القبة عند المسجد الأعلى الذى بأصل الجبل ـ جبل الأحزاب ـ وكان النبى ﷺ يعقب بين نسائه ، فتكون عائشة أياماً ، ثم تكون أم سلمة ، ثم تكون زينب بنت جحش ، فكان هؤلاد الثلاث اللاتى يعقب بينهن فى الخندق ، وسائر نسائه فى أُطم بنى حارثة ، ويقال : كُنَّ فى المُسيْر أُطـم بنى زريـق ، وكان حصنيـاً ، ويـقـال كـان بعضهـن فى فـارغ ، وكـل ذلك قـد سمعنـاه) [٢] .

٣ ـ الجوع فى حفر الخندق ، والمعجزات النبوية :

أ ـ عن أنس رضى الله عنه قال : (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة ، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون :

نحـــن الذين بايعـــوا محمـــدا　　　على الجهـــــاد ما بقينـــا أبـــدا

قال : يقول النبى ﷺ : وهو يجيبهم :

« اللهم إنه لاخير إلا خير الآخرة　　　فبارك فى الأنصار والمهاجـرة »

قال : يؤْتونْ بملء كفىٍ من الشعير ، فيصنع لهم بإهالة [٣] سَنِخَةٍ [٤] ، توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ، ولها ريح منتن) [٥] .

(١ ، ٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٥٣ ومابعدها .

(٣) إهالة : الدهن الذى يؤتدم به ، سواءً كان زيتاً أو سمناً أو شحماً .

(٤) سنخة : تغير لونها وطعمها من قدمها .

(٥) البخارى / ٦٤ / باب غزو الخندق ٥ / ١٣٨ .

ب ـ عن عبد الواحد بن أيمن ، عن أبيه ، قال : أتيت جابراً رضى الله عنه فقال :

(إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدية [١] شديدة ، فجاء النبى ﷺ فقالوا : هذه كُدية عرضت فى الخندق ، فقال : « أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبى ﷺ المعول ، فضرب، فعاد كثيباً أهيل [٢] أو أهيم. فقلت : يا رسول الله ، ائذن لى إلى البيت . فقلت لامرأتى : رأيت بالنبى ﷺ شيئا ما كان فى ذلك صبر ، فعندك شىء ؟ قالت : عندى شعير وعَنَاق[٣] . فذبحت العَنَاق ، وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم فى البُرمة ، ثم جئت النبى ﷺ ، والعجين قد انكسر ، والبُرمةُ [٤] بين الأثافى [٥] قد كادت أن تنضج ، فقلت : طعيِّم لى . فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان ، قال : « كم هو ؟ » فذكرت له . قال : « كثير طيب » . قال : « قل لها : لاتنزع البُرمة ، ولا الخبز من التنورحتى آتى » . فقال : « قوموا » ، فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل على امرأته قال :

ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم .

قالت : هل سألك ؟ . قلت : نعم ، فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا [٦] .

فجعل يكسر الخبز ، ويجعل عليه اللحم ، ويخمّر البُرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ، ويغرف حتى شبعوا ، وبقى بقية ، قال : « كلى هذا وأهدى ، فإن الناس أصابتهم مجاعة ») [٧] .

وفى رواية أخرى عنه قال : (لما حفر الخندق رأيت النبى ﷺ خَمصًا [٨] شديداً فانكفيت [٩] إلى امرأتى ، فقلت : هل عندك شىء فإنى رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديدًا فأخرجت إلىَّ جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمةٌ داجن فذبحتُها ، وطَحَنَتُ الشعير ، ففرغت إلى فراغى ، وقطَّعتُها فى برمتها ، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت : لاتفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه ، فجئت فساررته ، فقلت : يارسول الله ، ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبى ﷺ :

---

(١) كُدية : القطعة الشديدة الصلبة من الأرض .
(٢) كثيبا أهيل : صار رملا يسيل ولايتماسك .
(٣) عناق : الأنثى من المعز .
(٤) البُرمة : القدر .
(٥) الأثافى : الحجارة التى توضع عليها القدر .
(٦) تضاغطوا : تزدحموا .
(٧) المصدر نفسه ٥ / ١٣٨ .
(٨) خمصاً : جوعاً .
(٩) انكفيت : انقلبت .

« يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سوراً [1] فحيّ [2] هلا بكم » .

فقال رسول الله ﷺ : « لا تنزلن بُرمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيىء » فجئت ، وجاء رسول الله ﷺ يقدمُ الناس حتى جئت امرأتي . فقالت : بك وبكَ . فقلتُ :

قد فعلت الذى قلت . فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برُمتنا فبصق وبارك ثم قال : « ادع خابزة فلتخبز معى ، واقدحى من برمتكم ولاتنزلوها » ، وهم ألف . فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا [3] ، وإن برمتنا لتغِطُّ [4] كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو) [5] .

جـ ـ (وحدثنى سعيد بن منياء ، أنه حُدّث أن ابنة لبشير بن سعد قالت :

دعتنى أمى عمرة بنت رواحة ، فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ، ثم قالت : أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك ، عبد الله بغدائهما ، فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى . فقال : « ماهـذا معك ؟ » قلت : تمر بَعَثَتْ به أمى إلى أبى وخالى ، قال : « هاتيه » ، فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأتُهما ، ثم أمر بثوب فبُسِط ، ثم دحا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : « اصرخ فى أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء ، فاجتمعوا فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب) [6] .

د ـ (عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ قالت : نعم . فأخرجت أقراصاً من شعير ، ثم أخرجت خماراً لها فلفَّت الخبز ببعضه ثم دسَّته تحت يدى ولاثتنى ببعضه [7] ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله ﷺ . قال : فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال لى رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة ؟ » فقلت : نعم ، قال : « بطعام » . فقلت : نعم . فقال لمن معه : « قوموا » . فانطلق ، وانطلقت بين أيديهم . حتى جئت أبا طلحة فأخبرته

(١) سوراً : هو هنا الصنيع بالحبشية ، وقيل : العرس بالفارسية .
(٢) حيّ هلا : هى كلمة استدعاء ، فيها حث ، أى هلموا مسرعين .
(٣) انحرفوا : مالوا عن الطعام .
(٤) لتغطّ : تغلى وتفور .
(٥) البخارى / كتاب ٦٤ / باب غزوة الخندق ٥ / ١٣٩ .
(٦) المغازى للذهبى / ٢٨٦ وهو فى السيرة / م٢ / ٢١٨ .
(٧) لاثتنى به : أى لفتنى ببعضه وهو الخمار .

فقال أبو طلحة : ياأم سليم ، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم . فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ . فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه فقال رسول الله ﷺ : « هلمى يا أم سليم ماعندك » . فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففُتَّ ، وعصرت أم سليم عُكة [١] فأدْمَتْه [٢] ، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقول ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا . ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً) [٣] .

٤ ـ جهاد العدو فى غزوة الخندق :

أ ـ (عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء يوم الخندق بعد ماغربت الشمس ، جعل يسب كفار قريش ، وقال : يارسول الله ، ماكدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبى ﷺ ، « والله ماصليتها » . فنزلنا مع النبى ﷺ بطحان ، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ماغربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب) [٤] .

ب ـ (عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : قال عبد الله بن مسعود : إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ماشاء الله ، ثم أمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء) [٥] .

(قال : وفى الباب عن أبى سعيد ، وجابر ، وعن النسائى عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فحبسنا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فاشتد ذلك علىَّ فقلت فى نفسى : نحن مع رسول الله ﷺ وفى سبيل الله ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام فصلى

---

(١) عُكَّة : إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالباً والعسل .
(٢) أدمته : أى صيرت ماخرج من العكة له إداماً .
(٣) البخارى / كتاب علامات النبوة ٦١ / ٤ / ٢٣٤ . وقد أوردته فى الخندق رغم عدم إشارة النص لذلك ، أخذا برأى ابن حجر العسقلانى رحمه الله فى فتح البارى / ٦ / ٥٨٨ إذ يقول : (والمراد بالمسجد الموضع الذى أعده النبى ﷺ للصلاة فيه حين محاصرة الأحزاب للمدينة فى غزوة الخندق .
(٤) البخارى / كتاب ٦٤ / باب غزوة الأحزاب ٥ / ١٤١ .
(٥) الترمذى / باب ماجاء فى الرجل تفوته الصلاة ٥ / ١٣٢ / ٣٣٧ .

بنا الظهر ، ثم أقام فصلى بنا العصر ، ثم أقام فصلى بنا المغرب ، ثم أقام فصلى بنا العشاء ، ثم طاف علينا فقال :

« ماعلى الأرض عصابة يذكرون الله غيركم ») [١] .

جـ ـ (فحدثنى ابن أبى سبرة ، عن الحارث بن فضيل ، قال : همّت بنو قريظة أن يغيروا على بيضة المدينة ليلاً ، فأرسلوا حيى بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألف رجل ، ومن غطفان ألف ، فيغيروا بهم ، فجاء رسول الله ﷺ الخبرُ بذلك فعظم البلاد ، فكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلى فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ، ومعهم خيل المسلمين ، فإذا أصبحوا أمنوا ، فكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول :

لقد خفنا على الذرارى فى المدينة من بنى قريظة أشد من خوفنا من قريش وغَطَفَان ، ولقد كنت أوفى على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة ، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل ، فكان مما ردَّ الله به قريظة مما أراد وأن المدينة كانت تحرس) [٢] .

د ـ (وحدثنى أبو بكر بن أبى سبرة ، عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، قال : خرج نباش بن قيس ليلة من حصنهم يريد المدينة ، ومعه عشرة من اليهود من أشدائهم وهم يقولون :عسى أن نصيب منهم غرة ، فانتهوا إلى بقيع الغرقد ، فيجدون نفراً من المسلمين من أصحاب سلمة بن أسلم بن حريش ، فناهضوهم فرامَوهم ساعة بالنبل ، ثم انكشف القرظيون مولين ، وبلغ سلمة بن أسلم وهم بناحية بنى حارثة ، فأقبل فى أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم ، فجعلوا يطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود ، وأوقدوا النيران على أطامهم وقالوا : البيات ! وهدموا قرنى [٣] بئر لهم وهوروها [٤] عليهم ، فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديدا) [٥] .

هـ ـ (وحدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر ، عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، قالت أم سلمة : كنت مع رسول الله ﷺ فى الخندق فلم أفارقه مقامه كله ، وكان يحرس بنفسه فى الخندق ، وكنا فى قر شديد ، فإنى لأنظر إليه قام فصلى ماشاء الله أن يصلى فى قبته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : « ياعباد بن بشر » . فقال عباد :

---

(١) سنن النسائى / باب كيف يقضى الفائت الصلاة ١ / ٢٤٠ . (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٦٠ .

(٣) القرنان : منارتان تبنيان عى رأس البئر ، ويوضع فوقهما خشبة تعلق البكرة فيها .

(٤) هوروها : هدموها . (٥) المصدر السابق / ٢ / ٤٦٢ .

لبيك . قال : « أمعك أحد ؟ » قال : نعم ، أنا فى نفر من أصحابى كنّا حول قبتك . قال : « فانطلق فى أصحابك فأطف بالخندق . فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غرة . اللهم ادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم ، واغلبهم لايغلبهم غيرك » . فخرج عباد بن بشر فى أصحابه ، فإذا بأبى سفيان فى خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق ، وقد نذر بهم المسلمون ، فرموهم بالحجارة والنبل ، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم (١) بالرمى فانكشفوا راجعين إلى منزلهم ، ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجده يصلى فأخبرته .

قالت أم سلمة : فنام حتى سمعت غطيطه ، فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر ، فخرج فصلى بالمسلمين ، فكانت تقول : يرحم الله عبّاد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها أبدا) (٢) .

(فحدثنى أيوب بن النعمان ، عن أبيه ، قال : كان أسيد بن الحضير يحرس الخندق فى أصحابه ، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفره الخيل ، فإذا طليعة من المشركين مائة فارس أو نحوها عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يغيروا إلى المسلمين ، فقام أسيد بن حضير عليها بأصحابه ، فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوهم ووَلّوا ، وكان فى المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسى ، فقال لأسيد : إن هذا مكان فى الخندق تتقارب ونحن نخاف تطفره خيلهم ـ وكان الناس عجلوا فى حفره ـ وبادروا فباتوا يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق وأمنوا أن تطفره خيلهم ، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة ، وكانوا فى قر شديد وجوع) (٣) .

و ـ (فحدثنى إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه ، قال . قال محمد بن مسلمة : أقبل خالد ابن الوليد تلك الليلة فى مائة فارس ، فأقبلوا من العقيق حتى وقفوا بالمذاد وُجاه قبة النبى ﷺ ، فنذرت بالقوم ، فقلت لعباد بن بشر ـ وكان على حرس قبة النبى ﷺ وكان قائماً يصلى ـ فقلت : أُثبت ! فركع ثم سجد . وأقبل خالد فى ثلاثة نفر هو رابعهم . فأسمعهم يقولون : هذه قبة محمد ، ارموا ، فرموا ، فناهضناهم حتى وقفنا على شفير الخندق ، وهم بشفير الخندق من الجانب الآخر فترامينا ، وثاب إلينا أصحابنا ، وثاب إليهم أصحابهم ، وكثرت الجراحة بيننا وبينهم ، ثم اتبعوا الخندق على حافتيه وتبعناهم ، والمسلمون على محارسهم ، فكلما نمر بمحرس نهض معنا طائفة وثبت طائفة ، حتى انتهينا إلى راتج ،

---

(١) أذلقناهم : أضعفناهم . (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٦٣ . (٣) المصدر نفسه / ٤٦٥ .

فوقفوا وقفة طويلة ، وهم ينتظرون قريظة ، يريدون أن يغيروا على بيضة المدينة ، فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن أسلم بن حريش يحرس ، فيأتون من خلف راتج ، فلاقوا خالد بن الوليد فاقتتلوا واختلطوا ، فما كان إلا حلب شاة حتى نظرت إلى خيل خالد مولية وتبعه سلمة بن أسلم حتى ردَّه من حيث جاء ، فأصبح خالد وقريش وغطفان تزرى عليه وتقول : ماصنعت شيئاً فيمن فى الخندق ولافيمن أصحر[1] لك . فقال خالد : أنا أقعد الليلة ، وابعثوا خيلاً حتى أنظر أى شىء تصنع .

فحدثنى ابن أبى سبرة ، عن عبد الواحد بن أبى عون ، عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت : والله إنى لفى جوف الليل فى قبة النبى ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيعة وقائل يقول : ياخيل الله ـ وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين : ياخيل الله ـ ففزع رسول الله ﷺ بصوته ، فخرج من القبة ، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها ، منهم عبَّاد بن بشر . فقال : « مابال الناس ؟ » قال عباد :

يارسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب ؛ الليلة نوبته ينادى : ياخيل الله ، والناس يثوبون إليه وهو من ناحية حسبكة مابين ذباب ومسجد الفتح . فقال رسول الله ﷺ لعبَّاد بن بشر : « اذهب فانظر ، ثم ارجع إلىَّ إن شاء الله فأخبرنى » . قالت أم سلمة : فقمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به . قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً حتى جاء عبَّاد بن بشر فقال : يارسول الله هذا عمرو بن عبد فى خيل المشركين ، معه مسعود بن رفية فى خيل غطفان ، والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة . قالت : فدخل رسول الله ﷺ فلبس درعه ومغفره ، وركب فرسه ، وخرج معه أصحابه حتى أتى تلك الثغرة ، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال : « حرفهم الله ، [2] وقد كثرت فيهم الجراحة » . قالت : فنام حتى سمعت غطيطه ، وسمعت هائعة أخرى ففزع فوثب فصاح : « يا عباد بن بشر » قال : لبيك ! قال : « انظر ما هذا » ، فذهب ثم رجع فقال : هذا ضرار بن الخطاب فى خيل من المشركين ، معه عيينة بن حصن فى خيل غطفان عند جبل بنى عبيد والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل ، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه ، وركب فرسه ، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة ، فلم يأتنا حتى كان السحر فرجع وهو يقول : « رجعوا مغلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة » ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس) [3] .

---

(١) أصحر لك : برز لك . (٢) حرفهم : صرفهم . (٣) المغازى للواقدى / ٢/٤٦٥ ـ ٤٦٧ .

٥ ـ محاولة فك الحصار :

(فلما اشتد على الناس البلاء ، بعث رسول الله ﷺ ـ كما حدثنى عاصم بن عمرو ابن قتادة ومن لا أتهم ، عن محمد بن مسلم الزهرى ـ إلى عيينة بن حصن ، إلى الحارث ابن عوف وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولاعزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا : يارسول الله ، أمراً تحبه فتصنعه أم شىء أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ، أم شىء تصنعه لنا ؟ فقال : « بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » فقال له سعد ابن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ! ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ قال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك » . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا مافيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا)[1] .

أما فى رواية الواقدى فعنده عن محمد بن عبد الله ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، قال : حُصِرَ رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة حتى خلُص إلى كل امرىء منهم الكرب ، وقال رسول الله ﷺ : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إنك إن تشأ لا تعبد » . فبينا هم على ذلك من الحال أرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف قال : « أرأيت إن جعلتُ لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب ؟ » قالا : تعطينا نصف ثمر المدينة ، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما عن الثلث ، فرضيا بذلك وجاء بعشرة من قومهما حين تقارب الأمر ، فجاء وا وقد أحضر رسول الله ﷺ أصحابه ، وأحضر الصحيفة والدواة ، وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم ، وعباد بن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ مقنَّع فى الحديد ، فأقبل أسيد بن الحضير إلى رسول الله ﷺ ولا يدرى بما كان من الكلام ، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وجاء عيينه ماداً رجليه بين يدى رسول الله ﷺ وعلم مايريدون فقال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ /٢٢٣

ياعين الهجرس[1] اقبض رجليك ! أتمد رجليك بين يدى رسول الله ﷺ ؟ ومعه الرمح - والله لولا رسول الله ﷺ لأنفذت خصيتيك بالرمح ! ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إن كان أمراً من السماء فامض له ، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف ... فقام عيينة وهو يقول :

أما والله للتى تركتم خير لكم من الخطة التى أخذتم ، وما لكم بالقوم من طاقة .

فقال عباد بن بشر : ياعيينة ، أبالسيف تخوفنا ؟ ستعلم أينا أجزع ...

فقال النبى ﷺ : « ارجعوا ، بيننا السيف » ! رافعًا صوته .

فرجع عيينة والحارث وهما يقولان : والله ما أرى أن ندرك منهم شيئاً ، ولقد انهجت للقوم بصائرهم ، والله ماحضرت إلا كرهاً لقوم غلبونى ، وما مقامنا بشىء ، مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنا خذلناها ولم ننصرها .

قال عيينة : هو والله ذلك :

قال الحارث : أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد ، والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب ، مع أنى أرى أمر محمد أمراً ظاهراً ، والله لقد كان أحبار يهود خير ، وإنهم يحدثون أنهم يجدون فى كتبهم أنه يبعث نبى من الحرم على صفته .

قال عيينة : إنا والله ما جئنا ننصر قريشاً ، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ، ولا خرجت معنا من حرمها ، ولكنى كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر ، مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود ، فهم جلبونا إلى هاهنا ، قال الحارث : قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف والله لنقاتلن عن هذا السعف ، مابقى منها رجل مقيم ، وقد أجدب الجناب ، وهلك الخف والكراع .

قال عيينة : لا شىء .

فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا : ماوراءكم ؟ قالوا : لم يتم الأمر ؛ رأينا قوماً على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً ! وإنما يقع حر محمد ببنى قريظة ، إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعة حتى يعطوا ما بأيديهم . قال الحارث : بعداً وسحقاً ! محمد أحب إلينا من اليهود)[2] .

---

(١) عين الهجرس : ولدا الثعلب ، والهجرس أيضاً : القرد .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٧٧ وما بعدها .

وسنقف بعض الوقفات أمام هذا الابتلاء الذى نزل بالمؤمنين وزلزلهم زلزالاً شديداً .

١ ـ لأول مرة يحضر سلمان الفارسى رضى الله عنه معركة مع المسلمين ، وسلمان طراز خاص وطاقات جديدة أضيفت إلى الطاقات الإسلامية ، وخبرات عالمية ، فهو ابن دهقان فارس ، وهو الذى عاش فى بلاط الحضارة الفارسية ، وهو الذى تنقل فى أقصى المعمور يبحث عن النور ، وكان أن أضاف أول خبراته فى حفر الخندق من الناحية النظرية ، وساهم فى التنفيذ العملى ، وكان له دور بارز وواضح فى الحفر نفسه ، حتى ليتسابق عليه الأنصار والمهاجرون يعتبرونه منهم ، لما أبرز من قوة عضلية ، وخبرة عملية فى الحفر ، فيحسم الأمر رسول الله ﷺ بقوله : « سلمان منا أهل البيت » .

ولا ننفى الأثر النفسى الذى عاش فيه المسلمون بعد أحد ، ولا يزالون يعيشون فى أجوائه . ومن أجل هذا كانوا مهيئين لأية فكرة تدعو إلى الإقامة فى المدينة . بعدما ذاقوا مرارة الخروج منها فى أحد ، ومرارة الخروج على رأى رسول الله ﷺ ، فكان الدرس العملى أبلغ بكثير من التحذير النظرى ، ورغم متاعب حفر الخندق ومشاقها ، فكانوا على استعداد للاستجابة إلى هذا الأمر ، وخاصة أنه عليه الصلاة والسلام حدد المواقع ووزع العمل واستعدت المدينة لأمر ماسبق لها فى حياتها مثيل له .

٢ ـ وقد بذلوا جهوداً فائقة ولا شك فى حفر الخندق ، وبرزت النفسيات واضحة جلية خلال ذلك وارتبط هذا الأمر ارتباطاً وثيقا بالإيمان .

ولكن القائد الذى يحرص على نجاح خطته هو القائد الفذ الذى يعيش فرداً من أمته ، ويتعب ويكد معها ولا يستعلى عليها ، وسيد القادة في الأرض عليه الصلاة والسلام ، لا يرضى وأحد من أمته فى النار .

إن مانراه اليوم من القيادات بمثل هذه المناسبات هو أن تتشرف بوضع حجر الأساس لأى مشروع ، ثم يبقى الجهد والكد والمشقة على الجمهرة الكادحة من الأمة ، ومع ذلك ترضى الأمة هذا الواقع . إن المسلمين فى الخندق هم فى غنى عن جهد رسول الله ﷺ وتعبه ، وإذا كان المقياس والميزان هو الحب ، فلم تعرف البشرية حباً مثل حب رسول الله ﷺ . والمسلمون الذين يقدمون دماءهم رخيصة فدى لقائدهم ورسولهم محمد عليه الصلاة والسلام ليسوا بعاجزين أن يقدموا جهدهم وتعبهم ، ويوفروا خدمة نبيهم محمد علية الصلاة والسلام ، بل هم على استعداد أن يفنوا عن آخرهم ولايمس محمداً عليه الصلاة والسلام شوكة تؤذيه فى رجله ، وقد فعلوا ذلك وما بخلوا به .

ولكن هل رضى رسول الله ﷺ بهذا الواقع دون أن يشارك صحبه وجيشه تعبه وجهده ؟ ؟ ؟ أبداً ، لقد حمل بالمكتل ، وغطى الغبار جلدة بطنه وحفر بالفأس ، ونقل الصخر ، وكان الملجأ لصحبه عند العجز ، وبهذه الروح النبوية ، وبهذه التربية العملية ، استطاع عليه الصلاة والسلام أن يحفر الخندق فى هذه المدة الوجيزة الوجيزة ، وينتهى منه قبل وصول العدو .

وبرزت النفوس عارية كذلك فى هذه التجربة وقد تجلت هذه الصورة أوضح مايكون فى سورة النور ، بأجلى بيان حيث يقول عز وجل :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِواذًا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . ألا إن لله مافى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ (١) .

يقول الإمام السيوطى : (أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل ، عن عروة ومحمد بن كعب القرظى ، قالا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب ، نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة ، قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد ، وجاء رسول الله ﷺ الخبر وضرب الخندق حول المدينة ، وعمل فيه ، وعمل المسلمون فيه ، وأبطأ رجال من المنافقين . وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنه فى اللحوق لحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله فى أولئك المؤمنين : **﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾** إلى قوله : **﴿ والله بكل شيء عليم ﴾**) . (٢)

لقد ارتبط الإيمان هنا بالإذن ، فالذين يستأذنون هم الذين يؤمنون بالله ورسوله

---

(١) النور / ٦٢ ـ ٦٤ .

(٢) الدر المنثور / ٦ / ٢٢٩ .

وجاءت حصراً فى بداية الآية : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ .

فعادل الإيمان بالله ورسوله طاعة رسول الله ﷺ واستئذانه .

وهو عليه الصلاة والسلام يأذن لمن يشاء منهم .

أما الذين يخالفون ، ويتسللون لواذاً ، فليحذروا أن تصيبهم فتنة فينتكسوا مع المنافقين ، أو يصيبهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة لمعصيتهم لله ورسوله .

(أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن يحيى بن أبى كثير قال : نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يقاتلوا ناحيته من خيبر ، فانصرف الرجال عنهم وبقى رجل فقاتلهم فرموه ، فقتلوه ، فجيىء به إلى النبى ﷺ فقال : « أبعد مانهينا عن القتال ؟ » فقالوا : نعم . فتركه فلم يصل عليه)[1] .

(وأخرج عبد الرزاق ، عن مجاهد قال : أشد حديث سمعناه عن النبى ﷺ قوله فى سعد بن معاذ فى أمر القبر ، ولما كانت غزوة تبوك قال :« لا يخرج معنا إلا رجل مقوٍ » فخرج رجل على بكر له صعب ، فصرعه فمات فقال الناس : الشهيد الشهيد ، فأمر النبى ﷺ بلالاً أن ينادى فى الناس « لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يدخل الجنة عاص »)[2] .

(وأخرج عبد الرزاق عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو : لا يقاتل أحد منكم ، فعمد رجل منهم ورمى العدو وقاتلهم ، فقتلوه ، فقيل للنبى ﷺ : استشهد فلان . فقال : « أبعد مانهيت عن القتال ؟ » قالوا : نعم . قال : « لايدخل الجنة عاص »)[3] .

(وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك فى قوله : ﴿ **لايستأذنك الذين يؤمنون بالله** ﴾ . قال : كان لايستأذنه إذا غزا إلا المنافقون ، فكان لايحل لأحد أن يستأذن رسول الله ﷺ أو يتخلف بعده إذا غزا ، ولاتنطلق سرية إلا بإذنه ، ولم يجعل الله للنبى ﷺ أن يأذن لأحد حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع** ﴾ يقول : أمر طاعة ﴿ **لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ فجعل الإذن إليه ، يأذن لمن يشاء ، فكان إذا جمع رسول الله ﷺ الناس لأمر يأمرهم وينهاهم صبر المؤمنون

(١ ، ٢ ، ٣) الدر المنثور / ٦ / ٢٣٣ .

فى مجالسهم ، وأحبوا ماأحدث لهم رسول الله ﷺ بما يوحى إليه ، وبما أحبوا وكرهوا فإذا كان شىء مما يكره المنافقون خرجوا يتسللون يلوذ الرجل بالرجل يستتر لكى لا يراه النبى ﷺ . فقال الله تعالى : إن الله يبصر الذين يتسللون منكم لواذاً . . .) [١] .

وحتى يتجسد معنى هذه الآيات واقعياً اليوم ، وندرك مدى الالتزام بالمنهج القرآنى والنبوى بالتربية ، وأثر الالتزام بهذا المنهج ، وأثر العدول عنه ، نجدنا مساقين لاستعراض تجربة جهادية أخفقت فى عصرنا الحاضر . وبهذا الاستعراض تتجلى معانى هذه الآيات أكثر فأكثر والتى أدى تنكبها إلى الفتنة والعذاب الأليم .

أ ـ ابتدأت هذه التجربة بحماس الشباب واندفاعه ضد طاغوت كافر لاشك فى كفره وحربه لدين الله ، وكان هذا الشباب يملك العاطفة الصادقة ، والاستعداد للتضحية ، لكنه لايملك العلم الشرعى الكافى يحدد من خلاله الحلال والحرام ، وكانت هذه المخالفة الأولى للمنهج ، فالذى يتصدى للقيادة الإسلامية ويتصدر لها لابد أن يكون عالماً مجتهداً كما نص الفقهاء على ذلك فى أول شرط من شروط الأمير أو الخليفة ، ويمكن أن يشفع له هذا الجانب إن كان عليماً بالحرب بأن يؤول إلى عالم مجتهد .

ب ـ وكانت المخالفة الثانية للمنهج أن اجتمعوا على قيادة لا على قائد ، وعلى إمارة لاعلى أمير ، وكانت هذه القيادة ملتحمة فى الظاهر مفككة فى الباطن ، وكانت موزعة الأهواء مشتتة القناعات ، وهذه هى المخالفة الثانية للمنهج ، فالفهم الإسلامى للقيادة أن تناط بأمير يكون له السمع والطاعة ، لا أن يكون الأمير واحداً من عشرة ، يعادل صوته صوتهم ، وتكون الأغلبية والأكثرية هى الميزان لا طاعة الأمير التى قال فيها رسول الله ﷺ :

« من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعصى الأمير فقد عصانى » [٢] .

وقد أدت هذه المخالفة إلى تعطيل كل قرار يمكن أن يدفع مواجهة هذا الطاغوت إلى الخط الشرعى المطلوب ، والمحضن الجهادى الأصيل .

جـ ـ وكانت هذه القيادة بعيدة عن ساحة المعركة ، توجه أوامرها من خارج موقع المعركة ، فهى قيادة عاجزة نظرياً عن التخطيط المحكم والدقيق للمواجهة ، وهى عاجزة عملياً عن التنفيذ الذى تريد طالما [illegible] ادة فى الداخل تتصرف بقناعتها ، وتنفذ

(١) الدر المنثور / ٦ / ٢٣٣ . (٣) رواه الستة إلا الترمذى وأبو داود .

برأيها ، لكنها مضطرة لإعلان الطاعة ؛ لتصل إلى حاجاتها من المال والعتاد والسلاح ، وهذه هى المخالفة الثالثة للمنهج ، بتنوع القيادات واختلاف التوجه ؛ لأن الإسلام لايقر إلا أميراً واحداً بله عن إمارة ، بله عن إمارتين متنازعتين كما يقول عز وجل :

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم واصبروا إن الله معه الصابرين ﴾ (١) .

د ـ وكان إعلان الحرب والمواجهة ضد الطاغوت ، لم تعد له العدة الكافية التى تكافىء هذا الإعلان ، وسارت الحرب على مستوى العمليات ضد مواقعه وأزلامه ، من دون أن تملك أرضاً محررة تسيطر عليها ، واستطاع الطاغوت أن يجهض كثيراً من العمليات ، ويقتل كثيراً من المجاهدين المرابطين فى مواقعهم ويكشف كثيراً من الخيوط التى تدل على قواعدهم ، ويتذرع بذلك ليفتك بالآمنين ولكل من يساعدهم معنوياً أو مادياً ، فيقطع عنهم المعونة والمدد ، وكانت هذه المخالفة الرابعة للمنهج الإسلامى التى فى المواجهة والتى تقوم على الإعداد المكافىء لها :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون ﴾ (٢) .

هـ ـ وأصبح القتل بالظنة ، وكانت هذه المخالفة الخامسة للمنهج ، وذلك يدل أن تتوجه العمليات إلى قتل قيادات الطاغوت التى تتولى كبر هذا الكفر ، والتى لايتطرق الشك إلى أحد بكفرها ومحادتها لله ورسوله ، واستهان المجاهدون بذلك ـ على اجتهاد خاطىء منهم ـ وانحرف المسار كله عن الهدف الرئيسى ، وأصبحت كلمة التوحيد لاتكفى لتعصم الدم والمال : « فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى » (٣) .

وغاب عنهم ذلك الأمر القاطع الحاسم الجازم الذى ينهى عن قتل المؤمنين حسب الظاهر ، والله أعلم بالسرائر ، حتى وصل الأمر إلى قتل بعض العلماء أو التخطيط لقتلهم ؛ لأنهم يجارون السلطان الطاغى أو يسكتون عليه ، عدا عن الأفراد العاديين الذين ينفذون أوامر الحاكم لكسب قوتهم .

و ـ ولم يعد الأمر خالصاً لله ، فقد خالطته نوازع النفس ، والأثرة وحب الذات والشهرة ، وهذا يحول دون النصر ، وكانت هذه المخالفة السادسة للمنهج :

(١) الأنفال / ٤٦ . (٢) الأنفال / ٦٠ . (٣) متفق عليه .

﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (١) .

مما حدا ببعض الخارجين على القيادة ـ خارج ساحة المعركة ـ أن يبلغ معلومات خاطئة ، وتعليمات كاذبة ، ويقنع المجاهدين فى ساحة المعركة بالمواجهة السافرة المباشرة مع العدو ، واستبيح الكذب الصراح الحرام باسم مصلحة الدعوة ومصلحة الإسلام .

ز ـ وفقد عنصر السمع والطاعة للقيادة ـ على الخلل الذى فيها ـ فوقعت المواجهة السافرة المباشرة مع العدو ، الذى استغل هذا الإعلان ليسفر عن وجهه الحاقد الكالح المجرم ، فيذبح الآمنين ، ويقتل الرجال والنساء والأطفال ، ويدك المدينة المسلمة بالطائرات وقاذفات الصواريخ ويئد الناس أحياء أو بجراحاتهم قبل وفاتهم . ويتحقق فيه قول الله عز وجل :

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ (٢) .

بينما انطلق المجاهدون يدفعون عن أنفسهم ، ويبذلون أرواحهم فى سبيل الله ، يتمثل بهم قول الله عز وجل :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾ (٣) .

لكن هذا لم يعف قيادة هؤلاء المجاهدين من المخالفة والمعصية ، وماترتب على ذلك من نتائج حالت دون التمكين فى الأرض ، وكانت هذه هى المخالفة السابعة للمنهج ، إذ لم تأتهم أوامر بالإذن بالمواجهة من القيادة التى بايعوها على السمع والطاعة ، بينما استجابوا لأخ خارج عن هذه القيادة .

ح ـ وأقدمت قيادة الحركة على التوقيع على حلف مع خصومها الفكريين من قبل لمحاربة هذا الطاغوت ، ودفعهم إلى الوقوف معها ضده ، وإن كان بيان هذا التوقيع يحمل الإقرار بدين الدولة الإسلام ، وبالشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ، لكنه يعيد القبول بذلك ؛ لا لأنه منزل من عند الله ، بل لأنه تراث هذه الأمة الأصيل ، وكانت هذه المخالفة الثامنة للمنهج .

---

(١) آل عمران / ١٥٢ . (٢) البقرة / ٢٠٤ ـ ٢٠٦. (٣) البقرة / ٢٠٧ .

ومع ضعف هذا الإعلان ، فقد سار هذا التحالف فى كل بياناته فيما بعد بعيداً عن المنطلق الإسلامى ، وأصبح المنطلق الوطنى والقومى هو الذى يحكم هذه البيانات جميعاً ، والتحركات جميعاً ، وبذلك اختلفت الراية المعلنة من راية إسلامية إلى راية وطنية ، وهذا انحراف خطير جداً يصل إلى القتال تحت راية عمية جاهلية .

« من قتل تحت راية عمية ، ينصر العصبية ، ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية » (١) .

ط ـ وساد واقع هذه الحركة ـ دون إعلان ـ سيطرة النوازع الإقليمية بين بلد وبلد ، وغدت التجمعات والتحزبات فيها تنخوها العصبية لمدينة أو جزء من المدينة ، وتوزعت المحسوبيات فيها حسب مواقع بعض هذه القيادات ؛ لتزعزع الثقة الكاملة بين قواعد هذه الجماعة وقياداتها ، ويفقد العدل الذى قامت الجماعة لتحقيقه فى الأرض داخل صفها نفسه ، وكانت هذه المخالفة التاسعة للمنهج .

« إنما أهلك الذين قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، وإذا سرق فيهم الشريف تركوه » (٢) .

ى ـ وبلغ التمزق والتناحر فى داخل صف هذه الحركة أن وصلت لتستعين بحلفائها على أبنائها ، وتطرح أمامهم أسرارها ، ويتسابق بعض قياداتها فى الهجوم على بعضهم لكسب موالاة الحلفاء لفريق على فريق ، حتى ليسجن بعض أبنائها ، ويطرد البعض الآخر ، بسعى بعض قياداتها لدى السلطة الحليفة وبأمر وتوجيه منها ، حتى انتهى الأمر بها بعد ذلك إلى الانقسام والتشرذم ، وتعجز عن إصلاح صفها بطرد المفسدين منها ، وكانت هذه المخالفة العاشرة للمنهج الذى يقول الله تعالى فيه :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون ﴾ (٣) .

هذه المخالفات العشر الضخمة ، وغيرها ، قد حاولت دون التمكين والنصر لهذه الحركة والتى كانت محط آمال المسلمين فى الأرض . ومع ذلك لابد من الإشارة إلى الملاحظات التالية :

أ ـ ليس هذا العرض تقييماً شاملاً لهذه الحركة الجهادية ، إنما هو حديث محصور

---

(١) رواه مسلم والنسائي . (٢) متفق عليه . (٣) المائدة / ٥٧ ، ٥٨ .

بالمخالفات التى وقعت خارجة عن المنهج الإسلامى ، ومخالفة واحدة منها فى الإسلام تحول دون تحقيق النصر على العدو ، فكيف إذا وجدت جميعها داخل هذا الصف المجاهد ؟

أما التقييم الشامل لإيجابيات هذه الحركة وسلبياتها ، لتكون درساً بين يدى العاملين والمجاهدين فى سبيل الله ، فمكانه غير هذا المكان ، وهذه أمانه فى عنق أبناء هذه الحركة ، ليستفيد العاملون المخلصون فى الأرض الإسلامية منها ، ومن خبراتها وطاقاتها ، ويتجنبوا أخطاءها وزلاتها .

ب ـ إن وجود هذه المخالفات لايعنى أنها سمة عامة لدى جميع أفرادها وقياداتها ، بل يوجد فيها نماذج عالية من الفقهاء والعلماء والمخلصين ، وفيها قطاع ضخم من الجنود العاملين المجاهدين الذين قدموا حياتهم ويقدمونها رخيصة فى سبيل الله .

جـ ـ إن الحرب الشرسة من أعداء الإسلام فى الأرض ، والتى تحول دون إمكانية التربية والتوجيه الكافيين ، وتلاحق العاملين للإسلام فى وطنهم ورزقهم ، وتود أن تفتنهم عن دينهم ، وتلاحقهم فى كل صقع للقضاء عليهم ـ هذه الحرب لها دور كبير فى الحيلولة دون تحقيق أهداف الجماعة المسلمة .

د ـ إن وجود الخطأ أو الانحراف فى التجربة لايلغى التجربة كاملة ، وقد حفل التاريخ الإسلامى بتجارب كثيرة قامت للهدف نفسه ـ تمكين الإسلام فى الأرض ـ وأخفقت هذه التجارب ، وبقيت رصيداً للأمة المسلمة تدرسها بعناية ، فتفخر بشهدائها وطاقاتها العالية ، والنماذج التطبيقية للإسلام فيها ، وتتجنب عثراتها ، وتبرأ من انحرافاتها التى تمثل أشخاصها الذين زالوا عن المنهج ، ولاتنال المنهج نفسه .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ابتلاء المؤمنين فى الخندق :

٣ ـ هذا الجهد الذى بذله المسلمون فى الخندق لم يكونوا يألفونه من قبل ، ورافق ذلك جوع شديد ، فالمسلمون يربطون على بطونهم الحجارة من الجوع ، وهم العصابة المؤمنة فى الأرض ، أتترك سدى نهبة للجهد والحصار والجوع ؟

﴿ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما ﴾ (١) .

فكانت تلك المعجزات الربانية فى إطعامهم وإسقائهم من زاد لايكفى إلا القليل ، ليزداد الذين آمنوا إيمانا ، وثقة بربهم عز وجل ، وتبرز من خلال تلك الأحداث نفسية

---

(١) النساء / ١٤٧

المرأة المسلمة التى تعيش فى قلب المعركة ، فهذا جابر الشاب الذى سمعنا قصة زواجه بالمرأة الثيب الجامعة لترعى أخواته الست ، تحرص على أن ينالها شرف استضافة رسول الله ﷺ ، وعندما يبلغها الخبر بهذا الجمع الهائل القادم عليها .

قالت لجابر : هل سألك ؟ . قال : نعم .

وانتهى الأمر بهذا السؤال أمام جيش من الضيوف على عناق وقليل من خبز الشعير .

وفى رواية : فقلت : والله إنها الفضيحة ! فأتيت المرأة فأخبرتها . فقالت : أنت دعوتهم أو هو دعاهم ؟ فقلت : بل هو دعاهم : قالت : دعهم هو أعلم .

ويقول ابن حجر رحمه الله وهو يعدد هذه الروايات :

وفى هذا السياق اختصار وبيانه فى رواية يونس ، قال : فلقيت من الحياء ما لايعلمه إلا الله عز وجل ، وقلت : جاء الخلق على صاع من شعير وعناق ، فدخلت على امرأتى أقول : افتضحت ، جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين ، فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ فقلت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، ونحن قد أخبرناه بما عندنا ، فكشفت عنى غماً شديداً . وفى الرواية التى تلى هذه : فجئت امرأتى فقالت : بك وبك ، قلت : قد فعلتُ الذى قلت . وكان قد ذكر فى أولها أنها قالت له : لا تفضحنى برسول الله وبمن معه فجئت وساررته . ويجمع بينهما بأنها أوصته أولاً بأن يعلمه بالصورة ، فلما قال لها إنه جاء بالجميع ظنَّت أنه لم يعلمه فخاصمته ، فلما أعلمها أنه أعلمه سكن ماعندها لعلمها بإمكان خرق العادة ، ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها . وقد وقع لها مع جابر فى قصة التمر : أن جابراً أوصاها لما زارهم رسول الله ﷺ أن لا تكلمه ، فلما أراد رسول الله ﷺ الانصراف نادته يارسول الله ، صل علىَّ وعلى زوجى ، فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » ، فعاتبها جابر ، فقالت له : أكنت تظن أن الله يورد رسوله بيتى ثم يخرج ولا أسأله الدعاء ! . أخرجه أحمد بإسناد حسن فى حديث طويل ، ووقع فى رواية أبى الزبير عن جابر فى نحو هذه القصة أنها قالت لجابر : فارجع فبيّن له ، فأتيته فقلت : يا رسول الله ، إنما هى عناق وصاع من شعير قال : فارجع فلا تحركنَّ شيئاً من التنور ولا القدر حتى آتيها واستعر صحافًا . .) [1] .

ورسول الله ﷺ هو الذى يطعم الناس ويخدمهم بيديه ، إنها بركته عليه الصلاة والسلام ، وبصاقه الشريف هو الذى كان السبب فى هذا النماء والبركة .

---

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى / ٦ / ٣٩٨ .

إننا حين نتحدث عن المائدة التى أنزلها الله تعالى من السماء ، استجابة لدعوة عيسى عليه الصلاة والسلام . وأكل منها الحواريون ، وعلى صدق نبيهم ـ لتدهشنا هذه المعجزة ، . أو ليست هذه مائدة من السماء لحوالى ألف من الحواريين ، استضافهم ربهم عز وجل بيد نبيه ﷺ ؟ ! !

لقد بقى الطعام كما هو (وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز) .

وفى رواية تمر عمرة بنت رواحة رضى الله عنها (. . حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب) .

٤ ـ كان لابد لهذا الطعام حتى يتمكن المسلمون من جهاد عدوهم ويقوون عليه ، فعظمة المعجزات فى الإسلام أنها لم تأت لترفع المسئولية والجهد البشرى عن المسلمين ، ويعيشوا بالدعاء فقط .

إن الله تعالى الذى أطعم الألف من أهل الخندق ، كان بالإمكان أن يطعمهم بمائدة تنزل من السماء ، وأن ينصرهم بالملائكة التى تقاتِل عنهم من السماء وهم ينظرون ، لكن لو تم هذا فكيف يستقيم أمر هذا الدين بعد ذلك ؟

إن الله تعالى شاءت إرادته أن يختبر صبر المسلمين على الجوع ، وصبرهم على البرد ، وصبرهم على الخوف ، وصبرهم على الجهاد ، ليكونوا أسوة لمن بعدهم فى كل شىء ، وصبرهم على الفاقة ، وإيثار حبيبهم على أنفسهم بإطعامه وإكرامه ، وصبرهم على المشقة والتعب والجهد فى الحفر ، حتى تعلم الأجيال بعد ذلك أن المسؤولية البشرية قائمة ، لم يُعفَ منها سيد خلق الله عليه الصلاة والسلام وصفوة الخلق معه ، والدعاء وحده لايكفى ما لم يرافقه بذل الجهد ، وتحمل الابتلاء ، والإعداد للمواجهة ، والتخطيط لتفتيت كيان العدو ، فقد وزع عليه الصلاة والسلام خيالته ، وأعاد قسماً منها إلى المدينة ، على رأسها سلمة بن أسلم رضى الله عنه ، بعد غدر بنى قريظة لاقبله ، يمضون ليلهم بالتكبير حتى الصباح ، حتى لاتطمع قريظة بالهجوم على المدينة ، ولم يكتف سلمة رضى الله عنه بصد الهجوم المباغت القرظى ، بل مضى يطاردهم داخل حصونهم ، حتى هو مواقر فى بئر لهم وهوّروها [1] عليهم فلم يقدروا يطلعون من حصونهم وخافوا خوفاً شديداً .

---

(١) هوروها عليهم : أسقطوها عليهم .

وكانت حراسة الخندق شغل رسول الله ﷺ الشاغل ، يطلب من عباد بن بشر رضى الله عنه أن يدع قيمته ويمضى لحراسة الخندق فى جميع الاتجاهات .

لم تكن المحاولات قليلة ، فلم تكن تمر ليلة إلا وهجوم مباغت يأتى على الخندق من طرف من أطرافه ، وبالنبل والحجارة يصد المشركون ، وتتوزع المسئوليات بين الأحزاب ، قريش وغطفان وقريظة ، فى محاولات مستميتة لاقتحام الخندق ، وتطويق المسلمين ، غير أن الوعى والاستعداد فاق تصورات العدو ، بمواجهة مباشرة أو غير مباشرة .

ويكفى أن نعلم أن الهجوم الشديد الأول انتهى وكانت صلاة العصر تفوت المسلمين .

أما الهجوم الشامل فقد استمر طيلة النهار وهو يأمن الليل ، والمسلمون يقاتلون ويواجهون ويصدون ، حتى ليصلى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بعد صد ذلك الهجوم الشرس ، ويغادر عليه الصلاة والسلام قبته ثلاث مرات ، وقد لبس سلاحه وركب فرسه عندما سمع صوت الحطمة ، والاشتباك بين المسلمين وأعدائهم .

والدعاء لاينقطع . والمواجهة لاتنقطع .

﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا ﴾ .

٥ ـ وكانت محاولة رسول الله ﷺ فى فك الحصار عن المسلمين ، والاتصال السرى بقيادات غطفان ومراوضتهم على ثلث ثمار المدينة .

لقد أشفق عليه الصلاة والسلام على جنده ، الذين لم يدخروا جهداً ولاروحاً ولامالاً وقدموه فى سبيل الله ، والبرد والخوف والجوع يعصف بهم ، فكانت هذه الصفات ، تذليلاً لفك الحصار .

والقضية تعنى أول ماتعنى الأنصار فهم جمهرة المقاتلين ، وذراريهم ونساؤهم محاصرون فى الآطان ، فلا بد من أن يؤدى الفكر البشرى دوره فى محاولة تفتيت هذه الحرب الضروس ، وتفريق كلمة المشركين فيها ، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يجاوز المراوضة حتى يضع بين يدى سيدى الأنصار الأمر فيحكمان فيه . لم يحملهم عليه الصلاة والسلام مسئولية تهيئة هذا الموضوع ، فقد قام به وحده وقدمه بين يديهم جاهزاً ، حتى لايكونوا فى حرج من السعى له .

وكان جواب السعدين :

(يا رسول الله أمر تحبه فتصنعه ؟ أم شيء أمرك الله به لابد من العمل به ؟ أم شيء تصنعه لنا ؟) .

إنها قمة الأدب مع رسول الله ﷺ : فإن كان أمراً من الله فلا مجال فيه للرأى .

لكن الجديد فى الأمر : يارسول الله أمر تحبه فتصنعه .

فيكفى أن يكون لرسول الله ﷺ هوىً فيه أو حب ، فهم جاهزون كذلك للتنفيذ ، ولو لم يكن هناك وحى ، ولو أدى الأمر إلى أن يعطى ثلث ثمارهم لعدوهم . أو كل ثمرهم ، أو كل أموالهم .

فقد محضوه الحب ، ومحضوه الولاء ، وفدوه بالولد والأهل والنفس ، فيكفى أن يحب ذلك ويهواه حتى ينفذوه .

وأما إن كان لمصلحتهم هم ، فعندها يكون لهم كلام مناسب .

يقول عليه الصلاة والسلام « بل شيء أصنعه لكم ، والله ماأصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رموكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرها » .

فإذا كان البلاء قد بلغ ذروته فلابد من هذه المحاولات ، لتخفيف حدته وشدته ، لكن هل نفد صبر المؤمنين ؟ وهل نزل بهم الوهن والعجز حتى يساوموا على أموالهم لإنقاذ أنفسهم من الحصار ؟

أبداً لقد كان الموقف عنيفاً وشديداً :

يا رسول الله إن كانوا ليأكلون العلهز فى الجاهلية من الجهد ، ماطمعوا بهذا منا قط ، أن يأخذوا تمرة إلا بشرًى أو قِرًى . فحين أتانا الله تعالى بك ، وأكرمنا بك ، وهدانا بك ، نعطى الدنية ! لا نعطيهم أبداً إلا السيف ! فقال رسول الله ﷺ : « شقَّ الكتاب » فتفل سعد فيه ، ثم شقَّه وقال : بيننا السيف .

وحاول عيينة بن حصن أن يراوغ ويهدد ، فجاءه الجواب المناسب :

يا عيينة ، أبالسيف تخوفنا ، ستعلم أينا أجزع : . . أما والله لولا مكان رسول الله ماوصلتم إلى قومكم ، فقال النبى ﷺ : « ارجعوا بيننا السيف » رافعاً صوته .

لقد امتحن الله المؤمنين بالجوع فصبروا ، وبالخوف فثبتوا ، وبالجهد فحفروا وعملوا ، وبالقتال فقاتلوا واستبسلوا ، وبالبرد فصبروا ، حتى أذن الله بعد ذلك بتفريج الكرب ، واستجابة الدعاء ونصر الله .

الجولة الثانية مع المنافقين

أ ـ الداعين إلى الفرار :

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إليناولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ (١) .

لقد أخذ الحديث عن المنافقين قرابة نصف الآيات التى نزلت فى الأحزاب ، مع أن كتب السيرة لاتشير إلا إلى أفراد فى هذا الجيش برز منهم النفاق ، ولكنْ المنهج القرآنى فى التربية من خلال أحداث السيرة يطارد هؤلاء المنافقين ، ويحصرهم حتى ينهيهم عن آخرهم .

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ .

(عن ابن زيد قال : قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبى ﷺ :

(١) الأحزاب / ١٢ ـ ٢٠ .

يا فلان ، أرأيت إذ يقول رسول الله ﷺ إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله ، فأين هذا من هذا ، وأحدنا لايستطيع أن يخرج يبول من الخوف ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)[١] .

وفى رواية ثانية : أن المتكلم أكثر من واحد ، فعن قتادة فى قوله ﴿ **وإذ يقول المنافقون . . .** ﴾ قال :

(قال ذلك أناس من المنافقين ، قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم وقد حصرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته ، ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا)[٢] .

ـ وأما هذا الوعد فمتى تم وكيف ؟ فهو ما نراه فى رواية الطبرى عن عمرو بن عوف قال :

(خط رسول الله ﷺ الخندق عام ذكرت الأحزاب من أجم الشيخين[٣] طرف بنى حارثة حتى بلغ المذاد ، ثم جعل أربعين ذراعًا بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى وكان رجلاً قوياً ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون سلمان منا . فقال النبى ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » . قال عمرو بن عوف : فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزنى وستة من الأنصار فى أربعين ذراعا ، فحفرنا تحت ثلاثة دوبار حتى بلغنا الصربى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مروة . فكسرت حديدنا وشقت علينا . فقلنا : ياسلمان ، ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة ، فإما أن نُعدِل عنها فإن المعدل قريب ، وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإنا لانحب أن نجاوز خطه ، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال : يارسول الله ، بأبينا أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من بطن الخندق مروة فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مايجىء منها قليل ولاكثير ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنا لانحاول أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان فى الخندق ، ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق فأخذ رسول الله ﷺ المِعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها . وبرقت منها برقة أضاءت مابين لابتيها حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم . فكبَّر رسول الله ﷺ

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى / م ١٠ / ٨٤ .

(٢) تفسير الطبرى / ١٠ / ٨٥ .   (٣) الشيخين : موضع بين المدينة وجبل أحد .

تكبير فتح ، وكبَّر المسلمون ، ثم ضربها الرسول ﷺ الثانية ، فصدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت مابين لابتيها حتى لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم ، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبَّر المسلمون ، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، ثم أخذ بيد سلمان فرقى . فقال سلمان : بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد رأيت شيئاً مارأيته قط ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال : « هل رأيتم مايقول سلمان ؟ » . قالوا : نعم يارسول الله بأبينا أنت وأمنا ، قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج فرأيناك تكبِّر فنكبّر ولانرى شيئاً غير ذلك . قال :

« صدقتم ، ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم ، أضاء لى منه قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبرائيل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق لى الذى رأيتم ، أضاء لى منه قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبرائيل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثالثة وبرق منها الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبرائيل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر » فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله موعود صدق بأن وُعدنا النصر بعد الحصر . فطبقت الأحزاب فقال المسلمون : ﴿ **هذا ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ الآية ، وقال المنافقون : ألا تعجبون ، يُحدّثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم تحفرون الخندق من الفرق [1] ولاتستطيعون أن تبرزوا وأنزل القرآن :

﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾ [2] .

ورواية رابعة تحدد الشخص الذى قال هذا الكلام وهو معتِّب بن قشير :

(وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وآتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتِّب بن

(١) الفرق : الخوف .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / ١٠ / ٨٥ ، وفى فتح البارى / ٧ / ٣٩٧ . قوله : (وأخرجه البيهقى مطولاً من طريق كثير بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده وفى أوله : خط رسول الله . .) .

قشير ، أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط)[1] .

لكننا نجد عند القرطبى رواية غريبة ترفع عدد هؤلاء المنافقين والمتكلمين فى هذا الموضوع إلى السبعين :

(قوله تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شك ونفاق ، ﴿ **ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾ أى باطلاً من القول ، وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتِّب بن قشير ، وجماعة نحو سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق : كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولايستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ وإنما قالوا ذلك لما فشا فى أصحاب النبى ﷺ من قوله عند ضرب الصخرة على ماتقدم فى حديث النسائى فأنزل الله تعالى هذه الآية)[2] .

ومع الأخذ بهذه الرواية التى ترفع عدد المنافقين إلى سبعين شخصاً ، دون أن توجد رواية أخرى تعضدها ، فيمكن القول أن النسبة انخفضت كثيراً . فنسبة سبعين إلى ثلاثة آلاف ، تختلف كثيراً عن نسبة ثلاثمائة إلى تسعمائة ، ففى أحد تكاد تجمع الروايات عن انسحاب ثلث الجيش الإسلامى . مع عبد الله بن أبى ، غير المنافقين الذين بقوا فى الجيش ، وأظهروا نفاقهم بعد هجوم خالد ومحنة الجيش الإسلامى ، وهذا يؤكد عظمة التربية التى تمت من خلال القرآن الكريم ، وعلى يدى رسول الله ﷺ حتى ليبقى أمراً نشازاً ومستنكراً وجود النفاق والمنافقين .

وفى قلب هذه المحنة التى اشتد فيها الخوف إلى أقصاه ، كشفت هذه النفوس الخبيثة ـ التى وصفها القرآن الكريم بأن فيها مرض ، وكان هذا المرض هو الشك بالله ورسوله وصدق موعوده .

وثلاث سنوات من التوجيه الربانى ، والرعاية النبوية والجهد الدءوب من الصف الإسلامى قلَّص عدد المنافقين إلى اثنين فى المائة بعد أن كان ثلاثين فى المائة .

وواضح كذلك أنهم فقدوا قوة التأثير فيمن حولهم ، وهم لا يظهرون إلا فى قلب المحنة .

ونعود مع القرآن الكريم لمتابعة مواقفهم النفسية من وراء هذه المقولات التى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٢٢٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / م ٧ / جـ١٤ / ١٤٦ .

يطرحونها ، والتى لايدع القرآن منها شاردة ولا واردة إلا ويسجلها ، ويحصى عليهم أنفاسهم ، ويسجل حركاتهم وقناعاتهم ومشاعرهم .

(فقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة فى الخناق ، فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون ، فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك ، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروّع نفوسهم ترويعاً لايثبت له إيمانهم المهلهل ! فجهروا بحقيقة مايشعرون غير مبقين ولامتجملين ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون فى كل جماعة ! وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء ، فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان) [1] .

﴿ وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا ﴾ [2] .

﴿ وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ .

فقد روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فى ذلك قولهم :

(قالوا : بيوتنا مخلية نخشى عليها السرق .

ويقول الطبرى : يقول تعالى ذكره : ويستأذن بعضهم رسول الله ﷺ فى الإذن بالانصراف عنه إلى منزله ، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله ﷺ) [3] .

ثم تختلف الروايات بعدها إن كان الذين طلبوا الإذن هما رجلان فقط ، أو بنو حارثة جميعاً ، وإن كان المؤدى واحداً فى ذلك .

---

(١) فى ظلال القرآن / م٥ / ٢٨٣٨ . (٢) الأحزاب / ١٣ ـ ١٧ .

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن / م ١٠ / ٨٦ .

(فقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدى رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا** ﴾ قال : إلى المدينة عن قتال أبى سفيان ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى** ﴾ قال : جاءه رجلان من الأنصار ومن بنى حارثة أحدهما يدعى أبا عرابة بن أوس ، والآخر يدعى أوس بن قيظى ، فقالا : يا رسول الله ﴿ **إن بيوتنا عورة** ﴾ يعنون أنها ذليلة الحيطان ، وهى فى أقصى المدينة ، ونحن نخاف السرق فائذن لنا ، فقال الله : ﴿ **ماهى بعورة إن يريدون إلا فرارا** ﴾)[1] .

(وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى** ﴾ قال : إن الذين قالوا بيوتنا عورة يوم الخندق : بنو حارثة بن الحارث)[2] .

وفى رواية ثالثة عند القرطبى : إن الذين قالوا ذلك هم بنو حارثة وبنو سلمة يقول :

(وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى قبيلتين من الأنصار بنى حارثة وبنى سلمة ، دهموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق ، وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ ، فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ماساء نا ما كنا هممنا به إذ الله ولينا . وقال السدى : الذى استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بنى حارثة أحدهما أبو عرابة بن أوس ، والآخر أوس بن قيظى .

قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه)[3] .

والمرجح أن أبا عرابة بن أوس وأوس بن قيظى قد جاءا يستأذنان رسول الله ﷺ فى العودة إلى بيوتهم على ملأ من بنى حارثة ، والإذن لبنى حارثة جميعاً ، وليس لهما فقط ، كما ذكر الواقدى فى مغازيه :

(واجتمعت بنو حارثة فبعثوا أوس بن قيظى إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا ، فأذن لهم رسول الله ﷺ وتهيؤوا للانصراف ، فبلغ سعد بن معاذ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، لا تأذن لهم ؛ إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا ، ثم أقبل عليهم فقال لبنى حارثة : هذا لنا منكم أبدا ، ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا . فردهم رسول الله ﷺ)[4] .

(١ ، ٢) الدر المنثور /٦/٥٧٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / م ٧/ ١٤/ ١٤٨ .

(٤) المغازى للواقدى / ٢/٤٦٣ .

ورواية الضحاك عند القرطبى تشير إلى أنهم بعد منعهم دخلوا المدينة بغير إذنه : (ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه) .

والظاهر أن الذين يمثلون النفاق ، سواءً الذين قالوا : ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾ أو الذين قالوا ﴿ **إن بيوتنا عورة** ﴾ و ﴿ **يأهل يثرب لا مقام لكم** ﴾ كان عددهم حوالى ثمانين شخصاً ، وذلك فى أعلى الأرقام التى ذكرت عنهم .

(وجاء القرآن الكريم مصدقاً قول سعد ، فليس الخوف على بيوتهم حقيقة ومن عدوهم ، إنما يريدون الفرار ، (فأكذبهم الله تعالى بقوله : ﴿ **وماهى بعورة** ﴾ ، ثم أظهر ما تكن صدورهم فقال : ﴿ **إن يريدون إلا فرارا** ﴾)[1] .

وروى عن ابن عباس أن الذى قال : ﴿ **يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا** ﴾ هم اليهود :

(قالت اليهود لعبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه من المنافقين : ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون)[2] .

﴿ **ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا** ﴾ .

(عن ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله :﴿ **ولو دخلت عليهم من أقطارها** ﴾ يقول : ولو دخلت المدينة عليهم من نواحيها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، سئلوا أن يكفروا لكفروا . قال : هؤلاء المنافقون لو دخلت عليهم الجيوش والذين يريدون قتالهم ثم سئلوا أن يكفروا لكفروا . قال : والفتنة الكفر وهى التى يقول الله : ﴿ **الفتنة أشد من القتل** ﴾ أى الكفر ، يقول : يحملهم عليه الخوف منهم ، وخبث الفتنة التى هم عليها من النفاق على أن يكفروا به)[3] .

ويقول الإمام النيسابورى : (﴿ **ولو دخلت** ﴾ أى المدينة ، ﴿ **عليهم من أقطارها** ﴾ أو دخلت عليهم بيوتهم من جوانبها وأكنافها ، ﴿ **ثم سئلوا الفتنة** ﴾ أى الارتداد والرجوع إلى الكفر وقتال المسلمين ﴿ **لأتوها** ﴾ والحاصل أنهم يتعللون بأعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ ، ولو دخلت عليهم هذه العساكر المتحزبة ـ التى يفرون منها ـ

---

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابورى حاشية الطبرى / ١٠ / ٨٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى /٧/١٤/ ١٤٨ .

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / م ١٠/٨٦ .

مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها لأجل النهب والسبى ثم عرض عليهم الكفر ويقال لهم كونوا على المسلمين لتسارعوا إليه وما تعللوا بشىء . ويمكن أن يراد أن ذلك الفرار والرجوع ليس لأجل حفظ البيوت ؛ لأن من يفعل فعلاً لغرض فإذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكيلا يؤخذ منه بيته ، فإذا أخذ منه البيت لا يبذله ، فأكذبهم الله تعالى بأن الأحزاب لو دخلت بيوتهم وأخذوها منهم لرجعوا عن نصرة المؤمنين ، فتبين أن رجوعهم عنك ليس إلا لكفرهم ومقتهم الإسلام ﴿ **وما تلبثوا بها إلا يسيرا** ﴾ يرجع إلى الفتنة أى لم يلبثوا بإتيان الفتنة أو بإعطائها إلا زماناً يسيراً ريثما يكون السؤال والجواب أو لم يقيموها إلا قليلا ثم تزول والعاقبة للمتقين ، ويحتمل عود الضمير إلى المدينة ، أى وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا قليلاً ، فإن الله يهلكهم) (١) .

ويتحدث سيد قطب رحمه الله عن هذا العرض النفسى لهم فيقول :

(ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة . يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة ، وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شىء ، ولا متجملين لشىء :

﴿ **ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا** ﴾ .

ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة ، ولم تقتحم عليهم بعد . ومهما يكن الكرب والفزع ، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ، فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها .. ﴿ **ثم سئلوا الفتنة** ﴾ وطلبت إليهم الردة عن دينهم ﴿ **لأتوها** ﴾ سراعًا غير متلبثين ، ولا مترددين ﴿ **إلا قليلا** ﴾ من الوقت ، أو إلا قليلاً منهم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفاراً ، فهى عقيدة واهنة لا تثبت ، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة !

هكذا يكشفهم القرآن ؛ ويقف نفوسهم عارية من كل ستار .. ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد . ومع من ؟ مع الله الذى عاهدوه من قبل على غير هذا ثم لم يراعوا مع الله عهداً) (٢) .

﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** ﴾ .

---

(١) المصدر نفسه ، حاشية التفسير / ١٠/٨٨ .　　(٢) فى ظلال القرآن / ٥/٢٨٣٩ .

(أى من قبل غزوة الخندق وبعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن غزوة بدر ورأوا ما أعطى الله لأهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن . وقال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم مانزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم : ﴿ **وكان عهد الله مسئولا** ﴾ أى مسئولا عنه) (1) .

فأما يوم أحد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته ، وثبتهم وعصمهم من عواقب الفشل ، وكان ذلك درساً من دروس التربية فى أوائل العهد بالجهاد ، فأما اليوم وبعد الزمن الطويل والتجربة الكافية ، فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة .

﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لاتمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا ﴾ .

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونك فى الانصراف عنك ويقولون إن بيوتنا عورة ﴿ **لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل** ﴾ يقول : لأن ذلك أو ما كتب الله منهما واصل إليكم بكل حال كرهتم أو أحببتم ﴿ **وإذا لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ يقول : إن فررتم من الموت أو القتل لم يزد فراركم ذلك فى أعماركم وآجالكم إنما تمتعون فى هذه الدنيا إلى الوقت الذى كتب لكم وعليكم) (2) .

عن قتادة : (﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ : وإنما الدنيا كلها قليل) (3) .

و (عن ربيع بن حثيم : ﴿ **وإذن لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ قال : إلى آجالهم) (4) .

وفى رواية : (﴿ **إلا قليلاً** ﴾ مابينهم وبين الأجل) (5).

(وقوله : ﴿ **من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ..** ﴾ يقول تعالى ذكره : قيل يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونك ويقولون إن بيوتنا عورة هرباً من القتل ، من ذا الذى يمنعكم من الله إن هو أراد بكم سوءاً فى أنفسكم من

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٧ / ١٤/ ١٥٠ .

(2) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى ٨٨/١٠ .

(٣ ، ٤ ، ٥) الدر المنثور /٥٨٠/٦ .

قتل أو بلاء أو غير ذلك . أو عافية وسلامة ، وهل ما يكون بكم في أنفسكم من سوءٍ أو رحمة إلا من قَبِله . . وقوله : ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا** ﴾ يقول تعالى ذكره : ولا يجد هؤلاء المنافقون إن أراد الله بهم سوءاً في أنفسهم وأموالهم من دون الله ولياً يليهم بالكفاية ، ولا نصيراً ينصرهم من الله فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوءٍ في ذلك) [1] .

(وعند هذا المقطع ، وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع ـ يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التي يقررها في أوانها ، ويصحح التصور الذي يدعوهم إلى نقض العهد والفرار :

﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها في الطريق المرسوم ، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر ، ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فار ، فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، في موعده القريب . وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل ، ولا عاصم من الله ، ولامن يحول دون نفاذ مشيئته ، سواء أراد بهم سوءًا أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم ويمنعهم من قدر الله ، فالاستسلام الاستسلام ، والطاعة الطاعة ، والوفاء الوفاء بالعهد مع الله في السراء والضراء ، ورجع الأمر إليه ، والتوكل الكامل عليه ثم يفعل الله ما يشاء) [2] .

ب ـ المعوقين :

﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ [3] .

(١) جامع البيان للطبرى / ١٠ / ٨٨ . (٢) في ظلال القرآن / ٥/ ٢٨٣٩ . (٣) الأحزاب / ١٨ ـ ٢٠ .

﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ .

(أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه ، فى قوله : **﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم .. ﴾** قال : هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبى ﷺ ، فوجد أخاه بين يديه شواء ، ورغيف فقال له :أنت ها هنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف . قال : هلم إلى ، لقد بلغ بك وبصاحبك ، والذى يحلف به ، لا يستقى لنا محمد أبداً . قال : كذبت ، والذى يحلف به ـ وكان أخاه من أبيه وأمه ـ والله لأخبرن النبى ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبى ﷺ يخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام يخبره : **﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾**)[١] .

(وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : **﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾** قال : هؤلاء أناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحماً لا لتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك ، **﴿ والقائلين لإخوانهم ﴾** أى من المؤمنين ، **﴿ هلم إلينا ﴾** أى دعوا محمداً وأصحابه فإنه هالك مقتول ، **﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾** قال : لا يحضرون القتال إلا كارهين ، وإن حضروه كانت أيديهم من المسلمين وقلوبهم من المشركين)[٢] .

وعند القرطبى فيها ثلاثة أقوال :

(**أحدها** : أنهم المنافقون قالوا للمسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا .

الثانى : أنهم اليهود من بنى قريظة ، قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا ، أى تعالوا إلينا ، وفارقوا محمداً فإنه هالك ، وأن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا .

والثالث : ما حكاه ابن زيد : إن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ بين الرماح والسيوف فقال له أخوه . وكان من أمه وأبيه : هلم إلىّ قد تُبع بك وبصاحبك ، أى قد أحيط بك وبصاحبك . قال : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : **﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾**)[٣] .

(١ ، ٢) الدر المنثور / ٦/ (٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى /٧/١٤/١٥٤ .

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج .

﴿ **أشحة عليكم** ﴾ ففى نفوسهم كزازة على المسلمين ، كزازة بالجهد ، وكزازة بالمال ، وكزازة فى العواطف والمشاعر على السواء : ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت** ﴾ .

وهى صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة الجوارح ، وهى فى الوقت ذاته مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذى تنطق أوصاله وجوارحه فى لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار .

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن : ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد** ﴾ فخرجوا من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال والفضل فى الأعمال والشجاعة والاستبسال . ثم هم ﴿ **أشحة على الخير** ﴾ ، فلا يبذلون شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان !

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع فى جيل ولا قبيل ، فهو موجود دائما ، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء ، وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان ﴿ **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم** ﴾ ، فهذه هى العلة الأولى ، العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان ، ولم تهتد بنوره ، ولم تسلك منهجه :﴿ **فأحبط الله أعمالهم** ﴾ ، ولم ينجحوا ؛ لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك : ﴿ **وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ .

وليس هناك عسير على الله ، وكان أمر الله مفعولا ، فأما يوم الأحزاب فيمضى النص فى تصويرهم صورة مضحكة مزرية .

﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ : فهم مايزالون يرتعشون ويتخاذلون ويخذلون ! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت ، وأنه قد ذهب الخوف وجاء الأمان !

﴿ **وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم** ﴾ .

يا للسخرية ! ويا للتصوير الزرى ! وياللصورة المضحكة : وإن يأت الأحزاب يود

هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوماً من الأيام .. ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا مصير ، ولا يعلمون ـ حتى ـ ما يجرى عند أهلها ، إنما هم يجهلونه ، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب ! مبالغة فى البعد والانفصال ؛ والنجاة من الأهوال !

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة ، مع أنهم قاعدون ، بعيدون عن المعركة ، لا يتعرضون لها مباشرة ، إنما هو الخوف من بعيد ! والفزع والهلع من بعيد ! ﴿ **ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا** ﴾ .

وبهذا الخط ينتهى رسم الصورة ، صورة ذلك النموذج الذى كان عائشاً فى الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة ، والذى مايزال يتكرر فى كل جيل وكل قبيل ، بنفس الملامح ، وذات السمات ينتهى رسم الصورة وقد تركت فى النفوس الاحتقار لهذا النموذج ، والسخرية منه ، والابتعاد عنه ، وهوانه على الله وعلى الناس) [1] .

ولابد من العديد من الملاحظات بعد الحديث عن المنافقين فى هذا الموطن :

١ ـ تظهر خطة المنافقين مفضوحة من خلال العرض القرآنى أثناء المعارك ، فبعضهم يبقى داخل الصف ليقوم بدور التثبيط والتخذيل ، وبعضهم يبقى مع القاعدين خارج الصف الجهادى ، ليعيق الانضمام للجهاد ، وقد برزت هذه الخطة واضحة من خلال الصورتين التى عرضهما القرآن الكريم فى أحد والخندق .

فالذين كانوا داخل الصف فى أحد ، قال عنهم القرآن الكريم :

﴿ **... وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ..** ﴾ [2] والذين كانوا داخل الصف في الخندق هم الذين بثوا الإشاعات ، وشككوا في النصر ، ودعوا إلى الفرار والانسحاب :

﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهي بعورة إن يريدون إلا فرارا** ﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن /٥/٢١/٢٨٤٠ .
(٢) آل عمران الآية ١٥٤ .

أما الذين كانوا مع الخالفين والقاعدين عن الجهاد فى أحد فقد كان لهم دور آخر ، وهو الحيلولة دون الانضمام للمجاهدين .

﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ (١) .

وهم يؤدون الدوز نفسه فى الخندق :

﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ (٢) .

٢ ـ هذا عن خطة المنافقين ، أما عن سماتهم ، فقد أصبحت بعد العرض القرآنى مكشوفة عارية مفضوحة ، وعلى رأس هذه السمات الجبن الهالع الذى يدفعهم إلى التخلى عن الجهاد ، وتخذيل المؤمنين عنه ، والخوف من الموت ، ويعرض القرآن هذه الصفة دائماً ، ويتبعها بالإيمان بالقدر والأجل المحتوم المحدد :

﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم .. ﴾ .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ (٣) .

﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ (٤) .

هذا فى أحد ، والصورة تتكرر فى الخندق :

﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا . قل من

---

(١) آل عمران ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢) الأحزاب / ١٨ ، ١٩ .
(٣) آل عمران / ١٥٦ .
(٤) آل عمران / ١٦٨ .

ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا ﴾ .

٣ ـ وإذا كانت سمات المنافقين تتشابه فلابد من الإشارة إلى نقطة هامة ، هى أن هذه الصفات والسمات قد تبرز لدى ضعاف الإيمان ، الخوف من الموت ، والفرار خوفاً من القتل والرعب من لقاء العدو . وبروز هذه السمات لدى ضعاف الإيمان لا تبيح لنا وصمهم بالنفاق ، ورائدنا فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منها كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » (١) .

فيمكن القول حين نجد بعض السمات تتشابه بين المنافقين وبين ضعاف الإيمان أن ضعيف الإيمان لديه خصلة من خصال المنافقين ؛ لأن القرآن أكد وراء هذه السمات ، أن هؤلاء القوم غير مؤمنين ، وذلك فى أكثر من موطن .

فقد كان وصفهم فى أحد :

﴿ ... هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ .

لكنهم أوغلوا فى هذا الخط ، ودخلوا فى الكفر بعد ذلك ، إذ وصفوا فى سورة (المنافقون) التى نزلت على أعقاب غزوة بنى المصطلق : ﴿ .. **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون ﴾** .

وكان وصفهم فى الخندق نفى الإيمان أصلا عنهم :

﴿ . . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

وكأن الإيمان السابق هو تظاهر بالإيمان ، وليس إيماناً حقيقياً ، كما تقول بداية سورة المنافقون :

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ﴾ .

٤ ـ والظاهرة التى نشهدها بشكل عام من خلال تتبع أوضاع المنافقين هى تقلص أعدادهم ، وبهذا التقلص يبرز المغموصون بالنفاق أكثر فأكثر ، ولاتضيع القضية ، فيمكن

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم .

التحديد للتحركات من المنافقين والحذر منهم وملاحقة نشاطاتهم وفضحها . غير أن بنى حارثة نجد تطور أوضاعهم نشازاً بالنسبة لبقية المنافقين .

فقد عصمهم الله فى أحد ولم ينضموا للمنافقين ، ورغم أن القرآن الكريم عرَّض بهم لكن أبقى لهم باب الالتحام بالصف مفتوحاً ، وتولاهم برعايته هم وبنو سلمة :

﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [1] .

غير أن إحدى هاتين الطائفتين قد استفادت من هذه الفرصة ، والتحمت مع الصف المسلم ، بينما فوَّت بنو حارثة هذه الفرصة ، فجاء التقريع القرآنى عليهم عنيفاً فى الخندق ، الذى فضح الموقف كله :

﴿ وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ .

فقد كشف القرآن الكريم مخبوءهم ، وكشف كذلك نقاط الضعف التى يتخفون وراءها :

﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ﴾ .

فهم قد نقضوا عهدهم أن لايولوا الأدبار ثم نكثوا هذا العهد ، وأوغلوا فى الأمر فجاء القرآن ليؤكد خوفهم وفزعهم من لقاء العدو .

٥ ـ والمنافقون ومن هم على شاكلتهم ، إذا ذكر الرجال فهم دون مستوى الرجال ، فالشجاعة لايتصف بها المؤمنون وحدهم ، وإن كان المؤمنون أجدر بالشجاعة من غيرهم ، فقد يكون الكافر شجاعاً ، وقد يقاتل عن عصبية جاهلية ويريق دمه من أجلها ، أما الجبان الرعديد الخوار ، فالنساء أكرم منه وأرفع .

لقد كان أكثر ما يعيب العربى فى الجاهلية أن يوصم بالجبن والبخل ، وقد حوى المنافقون هاتين الصفتين فسقطوا فى ميزان الرجال **﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف**

---

(١) آل عمران / ١٢٢ .

سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ :

٦ ـ ولهذا السقوط ، فهم لا يؤتمنون على حماية مال ولا أرض ولا وطن ولا عرض ، إنهم الساقطون العارون من القيم ، وهم عملاء العدو فى كل وقت ، وقد أبرز القرآن هذه الصفة فيهم ، وأكد أنهم يتخلون عن أوطانهم ، وعن دينهم ، وعن ديارهم إذا دهمهم العدو :

﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ .

﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

٧ ـ وقد يتسائل المرء أحياناً فيقول : لماذا اتبع القرآن هذا المنهج فى التربية . فكشف عوراتهم ، وفضح مواقفهم ، وعرّى مظاهرهم ، وهناك العدو المتربص من الخارج الذى يشمت بالمؤمنين وبالصف المؤمن حين تظهر فيه مثل هذه العورات ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد يمعن هؤلاء فى نفاقهم وكفرهم وتأخذهم العصبية لذاتهم ونفسهم ، فيزدادون حقداً على الإسلام وأهله .

إننا نرى اليوم موقفاً يقفه الدعاة إلى الله ــ والحركات الإسلامية كذلك ــ هو الحرص على التبرير للأخطاء ، وإنزال كل إخفاق يقع أو فشل يتم بالعدو أنه هو السبب فى ذلك .

وهذا الخط يخالف المنهج القرآنى فى التربية .

فقد كان القرآن يتنزل مباشرة على رسول الله ﷺ بعد كل موقف ، وبعد كل معركة يبين الخطأ ، ويحدد المسئولية ، ويكشف التآمر والزيف من المنافقين ، وبالإمكان أن يصل هذا القرآن إلى صفوف المشركين ، ويشهروا بالصف المؤمن لذلك ، وماكان هذا يضير المؤمنين بشىء ، لأن الأمر ليس أمر كسب دعاية رخيصة ، أو سمعة عالية ، الأمر أمر منهج ربانى ، يعرض عليه المؤمنون ويمتحنون ، ويبقى دائماً الخلل فى الشخص لا فى المنهج .

ولذلك حين يصل المؤمنون إلى مرحلة الفشل والعجز فالله تعالى يستبدل بهم غيرهم :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ [1] .

---

(١) محمد / ٣٨ .

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه . . . ﴾[1] .

وحتى لا يمس المنهج ، فلابد من إيضاح الخطأ فى التطبيق أو الانحراف عنه ؛ لأن سلامة المنهج أهم بكثير من سلامة الحركات والأشخاص .

إننا نفاجأ اليوم بفكرة يتكىء عليها أعداء الإسلام وهى : أن الإسلام لايصلح للحياة البشرية ، وحجتهم فى ذلك أن دعاة الإسلام عجزوا عن إقامة المجتمع الإسلامى النموذج ، والدولة الإسلامية ، المثل . ونحن نرد عليهم مباشرة : أن الخلل ليس من الدعاة ، وليس التقصير أو الانحراف من الحركات ، إنما هو من الحرب الطاحنة التى يشبنها الأعداء على الدعاة والعاملين للإسلام .

هذا جزء من الحقيقة ، لكن الحقيقة كاملة هى أن الدعاة لم يكونوا على مستوى المنهج الربانى ، فحيل بينهم وبين التمكين ، ولابد من تكرار المحاولات ، وتجنب الأخطاء والعثرات ، حتى يصلوا إلى المستوى المطلوب .

وهذا هو المنهج القرآنى فى التربية الذى يشدد فى المحاسبة على زلة اللسان ، والموقف الخطأ ، والهفوة النفسية ، كما يشدد على فضح الانحراف ، والتآمر ، والكيد داخل الصف المسلم . وبذلك يحمل الخطأ المخطئين ، ويعرى المنافقين ، ويثنى على السابقين الربانيين المجاهدين ، ويبقى دين الله تعالى هو خط السير للسائرين . على الدرب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) المائدة / من الآية ٥٤ .

الجولة الثالثة : المؤمنون الصادقون

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ [1] .

لقد كان رسول الله ﷺ سيد المجاهدين وسيد العابدين وسيد الصابرين فى الأرض ، ولهذا كان الأسوة الحسنة لأصحابه .

يقول الإمام ابن جرير : (هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ وعسكره بالمدينة من المؤمنين به ، يقول لهم جل ثناؤه . **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾** أن تتأسوا به ، وتكونوا معه حيث كان ، ولاتتخلفوا عنه **﴿ لمن كان يرجو الله ﴾** يقول : فإن من يرجو ثواب الله ورحمته فى الآخرة لايرغب بنفسه ولكن تكون له به أسوة فى أن يكون معه حيث هو) [2] .

(وعن يزيد بن رومان قال : ثم أقبل على المؤمنين فقال : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾** أن لايرغبوا بأنفسهم عن نفسه ولا عن مكان هو به ، **﴿ وذكر الله كثيرا ﴾** يقول : وأكثر ذكر الله فى الخوف والشدة والرخاء) [3] .

(وأخرج ابن أبى حاتم ، عن السدى رضى الله عنه ، فى قوله : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾** .قال : مواساة عند القتال) [4] .

(وأخرج ابن مردويه والخطيب ، فى رواة مالك وابن عساكر وابن النجار ، عن ابن عمر رضى الله عنهما فى قوله : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾** قال : فى جوع رسول الله ﷺ) [5] .

---

(١) الأحزاب / ٢١ ـ ٢٣ .

(٢ ، ٣) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى / ١٠ / ٩٠ .

(٤ ، ٥) الدر المنثور / ٦ / ٥٨٢ .

وعند القرطبى : (الثانية : قوله تعالى ﴿ أسوة ﴾ الأسوة ، القدوة ، والأسوة مايتأسى به ، أى يتعزى به ، فيقتدى به فى جميع أفعاله ، ويتعزى به فى جميع أحواله ، فلقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وقتل عمه حمزة ، وجاع بطنه ولم يلف إلا صابراً محتسباً ، وشاكراً راضيا) (١) .

ولابد من عرض نماذج من هذه الأسوة الحسنة فى هذه المواقف العصيبة :

١ ـ فى حفر الخندق :

(كان البراء بن عازب يقول : ما رأيت أحداً أحسن فى حلة حمراء من رسول الله ﷺ ، فإنه كان أبيض شديد البياض ، كثير الشعر ، يضرب الشعر منكبيه ، ولقد رأيته يومئذ يحمل التراب على ظهره حتى حال الغبار بينى وبينه ، وإنى لأنظر إلى بياض بطنه) (٢) .

(وقال أبو سعيد الخدرى : لكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحفر فى الخندق مع المسلمين ، والتراب على صدره وبين عكنه ، وإنه ليقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

يردد ذلك) (٣) .

(وعن أبى واقد الليثى قال : رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق ، فأجاز من أجاز ، ورد من رد ، وكان الغلمان يعملون معه ، الذين لم يبلغوا ولم يجزهم . ولكنه لما لحم الأمر ، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذرارى ، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول ، ومرة يغرف بالمسحاة التراب ، ومرة يحمل التراب فى المكتل ، ولقد رأيته يوماً بُلغ منه فجلس رسول الله ﷺ ، ثم اتكأ على حجر على شقّه الأيسر ، فذهب به النوم ، فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه ، وأنا قربت منه ، ففزع ووثب ، فقال : « ألا أفزعتمونى ! » فأخذ الكرزن يضرب به ، وإنه ليقول :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

اللهم العن عضلاً والقارة ... فهم كلفونى أنقل الحجارة ») (٤) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٧ / ١٤ / ١٥٥ .

(٢ ، ٣) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٤٩ . (٤) المصدر نفسه / ٤٥٣ .

٢ ـ خوفه على المسلمين :

(وكانت عائشة زوج النبى ﷺ تقول : لقد رأيت لسعد بن أبى وقاص ليلة ونحن بالخندق لا أزال أحبه أبدا . قالت : كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلمة فى الخندق يحرسها ، حتى إذا آذاه البرد جاءنى فأدفأته فى حضنى ، فإذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة يحرسها ويقول :

« ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها » . فبينا رسول الله ﷺ فى حضنى قد دفىء وهو يقول : « ليت رجلاً صالحاً يحرسنى الليلة » . قالت : إلى أن سمعت صوت السلاح وقعقعة الحديد ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ هذا ؟ » . فقال سعد بن أبى وقاص . قال : « عليك بهذه الثلمة فاحرسها » . قالت : ونام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه)(١) .

وقالت أم سلمة : (كنت مع رسول الله ﷺ فى الخندق فلم أفارقه مقامه كله ، وكان يحرس بنفسه فى الخندق ، وكنا فى قر شديد ، فإنى لأنظر إليه قام فصلى ماشاء الله أن يصلى فى قبته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : « هذه خيل المشركين تطيف بالخندق ، من لهم ؟ » ، ثم نادى : « ياعباد بن بشر » . فقال عباد : لبيك ! قال : « أمعك أحد ؟ » . قال : نعم ، أنا فى نفر من أصحابى كنا حول قبتك . قال : « فانطلق فى أصحابك فأطف بالخندق . فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم ، يطمعون أن يصيبوا منكم غِرة . اللهم ادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم واغلبهم لايغلبهم غيرك » ، فخرج عباد بن بشر فى أصحابه ، فإذا بأبى سفيان فى خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق ، وقد نذر بهم المسلمون ، فرموهم بالحجارة والنبل ، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أزلقناهم بالرمى ، فانكشفوا راجعين إلى منزلهم ، ورجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأجده يصلى فأخبرته . قالت أم سلمة : فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر ، فخرج فصلى بالمسلمين . فكانت تقول : يرحم الله عباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها أبدا)(٢).

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : (والله إنى لفى جوف الليل فى قبة النبى ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيعة ، وقائل يقول :

(١ ، ٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

ياخيل الله ! وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين : « ياخيل الله » . ففزع رسول الله ﷺ بصوته ، فخرج من القبة ، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها ، منهم عباد بن بشر . فقال : « مابال الناس ؟ » قال عباد : يارسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب ، الليلة نوبته ينادى « ياخيل الله » والناس يثوبون إليه ، وهو من ناحية حسبكة ما بين ذباب ومسجد الفتح . فقال رسول الله ﷺ . لعباد بن بشر : « اذهب فانظر ، ثم ارجع إلىَّ إن شاء الله فأخبرنى ! » .

قالت أم سلمة : فقمت على باب القبة أسمع كل مايتكلمان به . قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً حتى جاءه عباد بن بشر . فقال : يا رسول الله ، هذا عمرو بن عبد ود فى خيل المشركين ، ومعه مسعود بن رخية . . . فى خيل غطفان ، والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة .

قالت : فدخل رسول الله ﷺ ، فلبس درعه ومغفره ، وركب فرسه ، وخرج معه أصحابه ، حتى أتى تلك الثغرة ، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال : « صرفهم الله ، وقد كثرت فيهم الجراحة » . قالت : فنام حتى سمعت غطيطه ، وسمعت هائعة أخرى ففزع ووثب فصاح : « ياعباد بن بشر » . قال : لبيك ! قال : « انظر ماهذا ؟ » فذهب ثم رجع فقال : هذا ضرار بن الخطاب فى خيل من المشركين ، معه عيينة بن حصن فى خيل غطفان عند جبل بنى عبيد ، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل ، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه ، وركب فرسه ، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثُغرة ، فلم يأتنا حتى كان السحر ، فرجع وهو يقول : « رجعوا مغلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة » ، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس) [1] .

﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

فرسول الله ﷺ القدوة لصحبه ، يجوع أكثر مما يجوعون ، ويتعب أكثر مما يتعبون ، ويقوم بنفسه عليه الصلاة والسلام على ثلمة الخندق فيحرسها ، ولا تذوق عينه الغمض عندما يسمع الهيعة ، فينهض فزعاً ، وعندما يتأكد عن الالتحام مع العدو يدع فراشه ، ويلبس درعه ومغفره ، ويمتطى فرسه ، ويمضى إلى ساحة النزال حتى يطمئن على هزيمة المشركين ، وقد يتم ذلك فى الليلة الواحدة مرة ومرات ، ويشتبك المسلمون فى القتال فيكون على رأس الجيش ، حتى ليحال بينه وبين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٦٦ .

وهم فى اشتباكهم مع العدو ، وحين يود أن يطعم لايرضى أن يطعم لوحده بل ينادى : « يأهل الخندق ، ، إن أخاكم جابرا قد صنع لكم طعاماً » . ويقوم هو عليه الصلاة والسلام بذاته الشريفة يطعم أصحابه ، يغرف من البرمة ، ويتناول الخبز ، حتى ينتهوا عن آخرهم وهم قرابة ألف أو يزيدون ، حتى وعندما يكون الطعام تميرات بيد جارية أنصارية صغيرة لا يرضى إلا أن ينادى المسلمين إلى هذا الطعام ، ويقدمه لهم بثوبه ، ويأكل بعد أن يصدروا جميعاً شباعاً ، وحين تدلهم الخطوب ، وتشتد المحنة يتصل بقيادات غطفان فى محاولة لتفتيت الصف المشرك ، ويتابع الأخبار داخل المدينة ، الذرارى والنساء ، ويبعث من يحرسهم طيلة الليل ، لقد كان عليه الصلاة والسلام سيد الصابرين وسيد المجاهدين ، وأول الجائعين ، وأشد العاملين ، فلا غرو أن يفتد به صحبه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأرواحهم ، فتأسوا به ، واقتفوا بهديه ، واقتدوا بسنته .

ولقد رأينا ذلك التأسى العظيم برسول الله ﷺ ، ففى الوقت الذى لايرقأ لرسول الله ﷺ حضن خوفا على جنده أن يأتيهم عدوهم من تلك الثلمة ، لايرقأ لسعد بن أبى وقاص جفن خوفاً على قائده عليه الصلاة والسلام فيكون فى بهيم الليل حول قبته يحرسه ، وفى الوقت الذى يلبس رسول الله ﷺ سلاحه ودرعه ومغفره ، ويمتطى فرسه ليشارك جنده القتال ، كانت عين عباد بن بشر وصحبه الذين معه باتت تحرس رسول الله ﷺ فى الليل والنهار ، ومع الإشارة أوالكلمة يكون عباد بين يدى قائده يتلقى منه التوجيهات والأوامر ، وكذلك كان المسلمون جميعاً ، فما من محاولة للتسلل والانقضاض من أى جهة من جهات الخندق ، إلا وصدت بعنف وصلابة ، حتى يعود المشركون مثخنين بالجراح ، وعندما دعا داعى المواجهة كان الجيش الإسلامى كله يواجه ، ويتلقى عنف الحرب وضراوة المعركة ، حتى ليعجز عن صلاة الأوقات الأربعة ، وهو يصد الهجوم الكبير والزحف الرهيب .

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾ .

ألا ياروعة الثناء على هؤلاء المؤمنين .

وكم الهوة سحيقة ، والبون شاسع بين من يقولون : **﴿ ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾** .

وبين من يقولون : ﴿ **هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليما** ﴾ .

فهل أحس المنافقون بثقل المحنة فقط ؟ .

أبداً ، لقد كانت المحنة شديدة الوطأة على الفريقين معاً ، وكلا الفريقين نزل به الخوف والفزع ، لكن المنافقين نجم نفاقهم ، وتزعزع إيمانهم ، وكشفوا خبث طويتهم .

أما المؤمنون فقد زادوا تمسكاً بدينهم ، وثقة بربهم ، وتسليماً لقدره ، وإيماناً بنصره وتمكينه :

﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله** ﴾ .

(أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب . .** ﴾ إلى آخر الآية قال : إن الله تعالى قال لهم فى سورة البقرة : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ فلما مسهم البلاء حيث رابط الأحزاب فى الخندق ﴿ **قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله** ﴾ فتأول المؤمنون ذلك ، فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليما)[1] .

فلم يحس المؤمنون باقتراب نصر الله إلا مع هول المحنة وشدتها ، ولم يروا هذه الآية :

﴿ **وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . .** ﴾ إلا فى هذه الشدة وهذا الكرب ، فزادهم ثقة بربهم أنهم صاروا على وشك النصر : ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ .

وقول ثان رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده قال : (خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال : « أخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها ــ يعنى على قصور الحيرة ومدائن كسرى ــ فأبشروا بالنصر » فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ، إذ وعدنا النصر بعد الحصر ، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : ﴿ **هذا ماوعدنا الله ورسوله** ﴾ ذكره الماوردى .. ﴿ **وما زادهم**

---

(١) الدر المنثور / ٦ / ٥٨٥ .

إلا إيماناً وتسليماً ﴾ قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليما .. والمعنى : مازادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب وتصديقاً بالقضاء ، قاله الحسن . . . ولما اشتد الأمر على المسلمين ، وطال المقام فى الخندق ، قام عليه الصلاة والسلام على التل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : « من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة » فلم يجبه أحد ، وقال ثانياً وثالثاً فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : « من هذا ؟ » فقال : حذيفة . فقال : « ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ » قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، منعنى أن أجيبك الضر والقر . قال :

« انطلق حتى تدخل فى القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلىَّ ، انطلق ولا تُحْدِث شيئاً حتى تأتينى » .

فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول : « ياصريخ المكروبين ، ويامجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى » فنزل جبريل وقال :

« إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك » .

فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه ، وأرخى عينيه وهو يقول :

« شكراً شكراً كما رحمتنى ورحمت أصحابى » .

وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً ، فبشر أصحابه بذلك .

قال حذيفة : فانتهيت إليهم ، وإذا نيرانهم تنقد ، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء ، فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ، ولابناء إلا طرحته ، وجعلوا يتترسون فى الحصباء .

وقام أبو سفيان إلى راحلته ، وصاح فى قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس ، وتفرقت الأحزاب ، وأصبح رسول الله ﷺ فعاد إلى المدينة ، وبه من الشعث ماشاء الله ، فجاءته فاطمة بغسولٍ فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : « وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء ، مازلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء » . ثم قال : « انهض إلى بنى قريظة » .

وقال أبو سفيان : مازلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء) [1] .

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / ٧ / ١٤ / ١٥٧ .

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا ﴾ .

ونقف مع هذه الآية من ثلاثة جوانب : سبب نزولها ، وتعدد معناها ، ونماذج من هؤلاء الرجال الذين استحقوا هذا التقريظ والثناء من ربهم عز وجل .

روى البخارى ومسلم والترمذى عن أنس قال :(عمى أنس بن النضر ـ سميت به ـ ولم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكبر عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد لَيَرَيَن الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واها لريح الجنة : أجدها دون أحد ؛ فقاتل حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون مابين ضربة وطعنة ورمية ـ فقالت عمتى الرُبَيّع بنت النضر : فما عرفت أخى إلا ببنانه .

ونزلت هذه الآية : **﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا ﴾** لفظ الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح)[1] .

(وروى البيهقى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾** إلى **﴿ تبديلا . ﴾** ثم قال رسول الله ﷺ :

« أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم ، والذى نفسى بيده لايسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه »)[2] .

وفى معنى الآية :

(القول فى تأويل قوله تعالى : **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما ﴾** يقول تعالى ذكره :

---

(١) المصدر نفسه / ٧ / ١٤ / ١٨٩ . وهو عند الترمذى ،ك تفسير القرآن / ب ٣٤ / ح٣٢٠٠ / جـ٥ / ص٣٤٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٧ / ٤ / ١٨٩ ، والدر المنثور / ٦ / ٥٨٦ ، وقال : أخرجه الحاكم وصححه وتعقبه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة .

من المؤمنين بالله ورسوله رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، يقول : أوفوا بما عاهدوه عليه من الصبر على البأساء والضراء وحين البأس ، فمنهم من قضى نحبه ، يقول فمنهم من فرغ من العمل الذى كان نذره لله ، وأوجبه له على نفسه ، فاستشهد بعض يوم بدر ، وبعض يوم أحد ، وبعض فى غير ذلك من المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من قضى منهم على الوفاء لله بعهده ، والنصر من الله الظفر على عدوه .

والنحب : النذر فى كلام العرب ، وللنحب أيضاً فى كلامهم وجوه غير ذلك ، منها الموت كما قال الشاعر : قضى نحبه فى ملتقى القوم هزبر .

يعنى منيته ونفسه ، ومنها الخطر العظيم كما قال جرير :

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا عشية بسطام جرين على نَحبْ

أى على خطر عظيم ، ومنها النحيب ، يقال : نحب فى سيره يومه أجمع ، إذا مد فلم ينزل يومه وليلته . . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل) (١) .

وأخرج الترمذى ، عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابى جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو ؟ وكانوا لايجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه ، فسأله الأعرابى فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم إنى اطلعت من باب المسجد وعلىَّ ثياب خضر ، فلما رآنى رسول الله ﷺ قال : « أين السائل عمَّن قضى نحبه ؟ » . قال : أنا يارسول الله . قال :

« هذا ممن قضى نحبه » .

وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث يونس بن بكير) (٢) .

فإذا كان النحب الأجل ، فهو ينطق على أنس بن النضر ومصعب بن عمير ، شهداء المسلمين الذين قضوا أجلهم ، واستشهدوا فى المعركة على الوفاء بعهدهم الذى عاهدوا ، وصدقوا ماعاهدوا الله عليه .

والمؤمنون الصادقون ينتظرون أجلهم وهم على ماهم عليه .

وإذا كان النحب العهد ، فهو ينطق على طلحة بن عبيد الله الذى وفى بما عاهد عليه

---

(١) تفسير الطبرى م ١٠ / جـ ٢١ / ٩٢ .

(٢) الترمذى كتاب تفسير القرآن / باب ٣٤ / جـ٥ / ح ٣٢٠٣ / ص ٣٥٠ .

الله ، وأمثاله الذين جاهدوا فى الله حق جهاده .

وطلحة رضى الله عنه الذى فاز بهذه الشهادة ، هو الذى أسماه رسول الله ﷺ بالشهيد الحى ، كما ورد فى الحديث :

« من سرَّه أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله . »[1] .

ولايغيب عن البال كذلك أن أحداً إذا ذكرت أمام أبى بكر رضى الله عنه كان يقـول :

ذلك يوم كله لطلحة .

وهو الذى جاهد جهاد الأحد عشر أنصارياً وحده ، وهو يذب عن رسول الله ﷺ .

وحين نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى أحد ، ثم نزلت ثانية فى آيات الأحزاب ، أو وضعت فيها بأمر رسول الله ﷺ ، وأنها كادت تُفقد ، كما فى الحديث الذى أخرجه أحمد ، وعبد الرزاق ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى داود فى المصاحف ، والبغوى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه ، عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال :

(لما نسخنا المصحف فى المصاحف فَقَدتُ آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهـدوا الله عليه . . .** ﴾ فألحقهتا فى سورتها فى المصحف)[2] .

حين نعلم ذلك لابد لنا أن نعرج على نماذج ممن قضوا نحبهم فى الخندق وصدقوا ماعاهدوا الله عليه .

من النماذج فى الخندق :

أ ــ من نماذج الأنصار : خوات بن جبير . قال :

دعانى رسول الله ﷺ ونحن محاصرو الخندق ، فقال : « انطلق إلى بنى قريظة فانظر هل ترى لهم غرة أو خللاً من موضع فتخبرنى » قال : فخرجت من عنده عند

(١) الترمذى ، كتاب المناقب ٥٠ / ب ٢٦ / جـ٥ / ح ٣٩٣٩ / ص ٦٤٤ ، وقال : حديث غريب .
(٢) الدر المنثور / ٦ / ٥٨٦ ، وهو فى البخارى كتاب التفسير / الأحزاب / جـ٥ / ص ١٤٦ .

غروب الشمس ، فتدليت من سَلْع وغربت لى الشمس فصليت المغرب ، ثم خرجت حتى أخذت فى راتج ، ثم على عبد الأشهل ، ثم فى زهرة ، ثم على بعاث ، فلما دنوت من القوم قلت : أُكمن لهم ، فكمنت ورفعت الحصون ساعة ، ثم ذهب بى النوم فلم أشعر إلا برجل قد احتملنى وأنا نائم ، فوضعنى على عنقه ثم انطلق يمشى . قال : ففزعت ورجل يمشى بى على عاتقه فعرفت أنه طليعة من قريظة ، واستحييت تلك الساعة من رسول الله ﷺ حياء شديداً ، حيث ضيعت ثغراً أمرنى به ، ثم ذكرت غلبة النوم . قال : والرجل يرقل بى إلى حصونهم ، فتكلم باليهودية فعرفته قال : أبشر بجزرة سمينة ! ـ يريد أنه سيقتله مقتلة عظيمة ـ .

قال : وذكرت وجعلت أضرب بيدى ـ وعهدى بهم لايخرج أحد منهم إلا بمعول فى وسطه . قال : فأضع يدى على المعول فأنتزعه ، وشغل بكلام رجل من فوق الحصن ، فانتزعته فوجأت به كبده فاسترخى وصاح : السبع ! فأوقدت اليهود النار على آطامها بشُعَلِ السَّعَف ، ووقع ميتاً وانكشف ، فكنت لا أدرك ، وأُقْبِل من طريقى التى جئت منها . وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : « ظفرت ياخوات » ! ثم خرج فأخبر أصحابه فقال : « كان من أمر خوات كذا وكذا » .

وآتى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه وهم يتحدثون ، فلما رآنى قال : « أفلح وجهك » ! قلت : ووجهك يارسول الله ! قال : « أخبرنى خبرك » ، فأخبرته ، فقال النبى ﷺ : « هكذا أخبرنى جبريل » ، وقال القوم : هكذا حدثنا رسول الله ﷺ .

وفى رواية قال خوات : فرأيتنى وأنا أتذكر سوء أثرى عندهم بعد ممالحة وخِلصية منى لهم . فقلت : هم يمثلون بى كل المثل حتى ذكرت المِعول) [1] .

ب ـ من نماذج المهاجرين :

(ثم إن رؤساءهم أجمعوا أن يغدو جميعاً ، فغدا أبو سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبى جهل ، وضرار بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبى وهب ، ونوفل بن عبد الله المخزومى ، وعمرو بن عبد ـ ونوفل بن معاوية الديلى ، فى عدة فجعلوا يطيفون بالخندق ، ومعهم رؤساء غطفان : عيينة بن حصن ، ومسعود بن رخيلة ، والحارث بن عوف ، ومن سليم رؤساؤهم ، ومن بنى أسد طليحة بن خويلد ، وتركوا

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٦٠ .

الرجال منهم خلوفاً ، يطلبون مضيقاً يريدون يقتحمون خيلهم إلى النبى ﷺ وأصحابه ، فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون ، فجعلوا يكرهون خيلهم ويقولون : هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها ، قالوا : إن معه رجلاً فارسياً فهو الذى أشار عليهم بهذا . قالوا : فمن هناك إذاً . فعبر عكرمة بن أبى جهل ، ونوفل بن عبد الله ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة بن وهب ، وعمرو بن عبد ، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لايعبرون ، وقيل لأبى سفيان : ألا تعبر ؟ قال : قد عبرتم ، فإن احتجتم إلينا عبرنا)[١] .

قال ابن إسحاق : (وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه)[٢] .

ووقع فى مغازى ابن إسحاق من غير رواية ابن هشام عن البكائى فيها زيادة حسنة رأيت أن أوردها هنا تتميماً للخبر :

قال ابن إسحاق : (إن عمرو بن ود خرج فنادى : هل من مبارز ؟ فقام على ـ رضى الله عنه ـ وهو مقنع بالحديد فقال : أنا له يانبى الله ، فقال : « إنه عمرو اجلس » . ونادى عمرو : ألا رجل ـ يؤنبهم ـ ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ، أفلا تبرزون لى رجلاً . فقام على ، فقال : أنا له يارسول الله ، فقال : « اجلس إنه عمرو » ، ثم نادى الثالثة وقال :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز ؟
ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز
وكذاك إنى لم أزل متسرعاً قبل الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى ، والجود من خير الغرائز

فقام على فقال : يارسول الله ، أنا له . فقال « إنه عمرو » . قال : وإن كان عمراً ، فأذن له النبى ﷺ ـ فمشى إليه على حتى آتاه وهو يقول :

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نبة وبصيرة ، والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

---

(١) المغازى للواقدى / ٢/ ٤٧٠ .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام / م / ٢٢٠ .

فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على ، قال : ابن عبد مناف ؟ . فقال : أنا ابن أبى طالب . فقال : غيرك يابن أخى من أعمامك من هو أسن منك، فإنى أكره أن أهريق دمك . فقال له على رضى الله عنه : ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك . فغضب ونزل فسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو على مغضبًا ، وذكر أنه كان على فرسه ، فقال له على : كيف أقاتلك ، وأنت على فرسك ، ولكن انزل معى فنزل عن فرسه ثم أقبل نحو على ..

وقول عمرو لعلى : والله ما أحب أن أقتلك زاد فيه غيره : فإن أباك لى صديقا ، قال الزبير : كان أبو طالب ينادم مسافر بن أبى عمرو فلما هلك اتخذ عمرو بن ود نديماً . فلذلك قال لعلى حين بارزه ما قال) [1].

وعند الواقدى : (وأقبل عمرو يومئذ وهو فارس وعلى راجل فقال له على : إنك كنت تقول فى الجاهلية : لا يدعونى أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها ! قال : أجل . قال على : فإنى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتسلم لله رب العالمين . قال : يابن أخى أخر هذا عنى . قال فأخرى ترجع إلى بلادك فإن يكن محمد صادقا كنت أسعد الناس به ، وإن كان غير ذلك كان الذى تريد . قال : هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبدا ، وقد نذرت مانذرت وحرّمت الدهن . قال : فالثالثة ؟ قال : البراز . قال : فضحك عمرو ثم قال : إن هذه الخصلة ماكنت أظن أحداً من العرب يرومنى عليها . إنى لأكره أن أقتل مثلك وكان أبوك لى نديما ؛ فارجع فأنت غلام حدث ، إنما أردت شيخى قريش ! أبا بكر وعمر . قال . فقال على عليه السلام : فإنى أدعوك إلى المبارزة فأنا أحب أن أقتلك . فأسف عمرو ونزل وعقل فرسه .

فكان جابر يحدث فيقول :

فدنا أحدهما من صاحبه وثارت بينهما غَبرَة فما نراهما ، فسمعنا التكبير تحتها ، فعرفنا أن علياً قتله . فانكشف أصحابه الذين فى الخندق هاربين) [2] .

وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فر وألقى لنا رمحه   لعلك عكرم لم تفعل

---

(١) الروض الأنف للسهيلى / م ٢ / جـ ٣ / ٢٧٩ .

(٢) المغازى للواقدى .

ووليت تعدو كعدو الظليم[1] ما إن تجور عن المعدل

ولم تلق ظهرك مستأنساً كأن قفاك قفا فرعل[2])[3] .

وعن على بن أبى طالب إلى الزبير بن العوام ابن عمته :

عن ابن المنكدر قال : (سمعت جابراً يقول : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « من يأتينا بخبر القوم »[4] . فقال الزبير : أنا . ثم قال « من يأتينا بخبر القوم ؟ » . فقال الزبير أنا ، ثم قال : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير أنا . ثم قال « إن لكل نبى حوارى ، وحوارى الزبير »[5].

وعنه كذلك : أنه حمل على نوفل بن عبيد الله المخزومى بالسيف حتى شقه باثنتين ، وقطع أندوج سرجه ـ والأندوج اللبد الذى يكون تحت السرج ـ ويقال : إلى كاهل الفرس . فقيل : يا أبا عبد الله ، ما رأينا سيفاً مثل سيفك ! فيقول : والله ماهو بالسيف ولكنها الساعد . وهرب عكرمة وهبيرة فلحقا بأبى سفيان ، وحمل الزبير على هبيرة فضرب ثغر فرسه[6] فقطع ثغر فرسه ، وسقطت درع كان محقبها الفرس فأخذ الزبير الدرع ، وفر عكرمة وألقى رمحه .

ومن الزبير بن العوام رضى الله عنه إلى أمه صفية بنت عبد المطلب :

قال ابن إسحاق : (وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت قالت : وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد

---

(١) الظليم : ذكر النعام . (٢) الفرعل : ولد الضبُع .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام م٢/١٢٦ .

(٤) فى التحقيق أن المقصود بخبر القوم هنا هم بنو قريظة ونقضهم للعهد ، حيث ورد عنه رضى الله عنه ذلك وجاء بأخبارهم وكى لا تتعارض مع الأخبار الصحاح الواردة عن حذيفة رضى الله عنه فى خبر قريش عند اشتداد الريح ويقطع بهذا المعنى ما رواه البخارى رحمه الله عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبى سلمة فى النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثاً ، فلما رجعت قلت : يا أبت : رأيتك تختلف قال : أو هل رأيتنى يابنى ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله ﷺ قال : « من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم » فانطلقت ، فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال : « فداك أبى وأمى » انظر : كتاب ٦/جـ٥/ص٢٧ .

(٥) البخارى كتاب المناقب / ب غزوة الخندق / جـ ٥ ص ١٤٢ .

(٦) ثغر الفرس : السير فى مؤخر السرج .

حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا وإن أتانا آت . قالت . فقلت : ياحسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله ، قال : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا : قالت : فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئا ، احتجزتُ ثم أخذتُ عموداً ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته . قالت : فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : ياحسان ، انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لى بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب) (١) .

وتبقى هذه الآية أبد الدهر ، تصف الرجال من المؤمنين الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومضى إلى ربه ، ووفى بذمته وعهده ، ومنهم من ينتظر أن يحين الأوان للوفاء بعهده ، والجهاد فى سبيل الله عز وجل ، وما بدلوا تبديلا .

(﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم ﴿ **ويعذب المنافقين** ﴾ فى الآخرة ﴿ **إن شاء** ﴾ أى إن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت ﴿ **إن الله كان غفوراً رحيما** ﴾) (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢/٢٢٨ . هذا وقد اختلفت آراء العلماء فى هذه الرواية ، قال : السهيلى فى الروض الأنف م ٢ / جـ٣/٢٨١ : (ومجمل هذا الحديث عند الناس أن حساناً كان جباناً شديد الجبن ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره ، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد ، وقال : لو صح هذا لهجى به حسان ، فإنه كان يهاجى الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما ، وكانوا يناقضونه ويردون عليه فما عيَّره أحد بجبن ولا وسمه به ، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق ، وإن صح فلعل حساناً أن يكون معتلاً بعلة منعته من شهود القتال . وهذا أولى ماتأول .. وممن أنكر أن يكون هذا صحيحا أبو عمر رحمه الله في كتاب الدرر له) .

أما الزرقانى فقال فى شرحه على المواهب اللدنية : ٢ / ١١٢ (وإنما كان أولى لأن ابن إسحاق لم ينفرد به بل جاء بسند حسن متصل كما علم فاعتضد حديثه ، وقد قال ابن السراج : سكوت الشعراء عن تعييره بذلك من أعلام النبوة ؛ لأنه شاعره ﷺ .

وأضيف : إن حساناً رضى الله عنه كان فى الحصن ابتداءً مع النساء ، وقد كان كبيراً فى سنه حيث تجاوز الخامسة والستين من عمره ، هذا إضافة إلى ما ورد من أنه شلت أصابعه فى حرب بعاث ، فلا يستطيع الإمساك بالسيف ، ولهذا عندما كان يعيِّر الآخرين بالجبن لم يقابله أحد بذلك ، لاستفاضة ذلك عنه . وقد عيَّر عكرمة بن أبى جهل فى فراره عن عمرو بن عبد ود فى هذه المعركة .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٧/١٤/١٩٠ .

وهكذا نجد فى ختام هذه الآية التلويح للمنافقين أن يؤبوا إلى الله ، فلا يزال باب التوبة مفتوحاً إذا انسلخوا من ذلك المستنقع الآسن الذى يخوضون فيه ، ومغفرة الله ورحمته يمكن أن تشملهم لو انضموا إلى الصف المؤمن ، انضماماً صادقاً مخلصاً ، بعيداً عن التذبذب والرياء والمصلحة .

حيث وضّح لهم الطريق فى ختام آيات المنافقين فى النساء :

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما ﴾ (1) .

إن المستويات الإيمانية تتدرج ، والإيمان يزيد وينقص ، وكان لابد من إبراز النماذج الإيمانية العالية فى هذه المعركة وفى معركة أحد ، فكان أن اختير من المؤمنين رجال :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. ﴾ .

وهذا الطراز الرفيع من المؤمنين . يستوى فيه من استشهد . ومن بقى على العهد ينتظر الفرصة المواتية ليتابع الطريق الشاق الطويل ، المهم أن لا يبدل ولا يغير ، ويبقى على العهد إلى أن يلقى ربه ويقضى نحبه .

ومن أعلى المستويات الإيمانية : **﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾** إلى الدرك الأسفل من الرجال فى الدنيا وهم المنافقون ـ والدرك الأسفل فى النار من التعذيب لهؤلاء المنافقين . ولكن هل هذا قدر لازب لا يتغير على هؤلاء المنافقين ، وبذلك يقف المؤمن عند ذروته ، ويقف المنافق عند دركه الأسفل .

أبداً ، ففى منهج التربية القرآنى لابد من الاعتصام بالله عز وجل .

فالطراز العالى من الرجال ، والنماذج الرفيعة من المؤمنين ، حتى تحافظ على مستواها ، لابد من الثبات ومن الاستقامة على المنهج لتحافظ على هذه الرتبة : **﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾** .

أما إذا بدلوا وغيروا وضعفوا عن قضاء نحبهم والوفاء بعهدهم ، فقد يهبطون إلى المستوى العادى من المؤمنين ، ولو بدلوا أكثر فأكثر . وانسلخوا من آيات الله واتبعوا

(1) النساء / ١٤٥ ـ ١٤٧ .

هواهـم ، فقد يتابعون الهبـوط إلى المستوى الأدنى ، إلى المنافقين ويكـون جزاؤهـم التعذيب .

ليست القضية فى ميزان الله عز وجل ، قضية أوسمة ونياشين . وطبقية موروثـة . لابد من تأدية الضريبـة الباهظـة للموقع العالى ، ضريبة الصدق والوفاء بالعهد ، ودفع الدم والروح ثمنا لهذا الدين ﴿ **وما بدلوا تبديلا** ﴾ .

وفى الصورة المقابلة ، فالطريق مفتوح أمام الدرك الأسفل للارتفاع والسمو .

ليس قدراً وليس أمراً وراثيا مضروباً عليهم ، مفروضاً عليهم أن يبقوا هناك . إن إمكانية التخلص من الوحل قائمة ، وإمكانية التدارك للتخلص من العذاب قائمة إذا ﴿ **تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله** ﴾ فسيكونون مع المؤمنين .

وسينتقلون بالتالى : من العذاب الشديد إلى الأجر العظيم : ﴿ **وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما** ﴾ .

﴿ **ما يفعل الله بعذابكـم إن شكرتم وآمنتـم** ﴾ .

إنها عظمـة هذا الدين ، وعظمـة هذا المنهج ، وهذا هو مانحرص على إبرازه وجلائـه ، ونحن نأخذ من التربية القرآنية مباشـرة ، ونضع أحـداث السيرة فى خدمـة النص القرآنى يجلى معانيه ويوضح غامضه ، ويأخذ بيد الضعفاء إلى السمو والارتفاع ، ويمسك بالأقوياء أن يقعوا أو ينحدروا .

وتأتى صورة المجتمع النبوى العظيم الذى برزت فيه آثار هذه التربية ، فالذين سقطوا بعد السمو ، أفراد قد لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة ، أما الذين ارتفعوا وارتقوا ، وأخلصوا دينهم لله ، وصاروا مع المؤمنين فقد كانوا بالمئات ، واستطاع المجتمع القوى السليم أن يرتفع بهم إلى مستواه ويصهرهم فى بوتقته ، ويصبحوا من اللبنات الأساسية فى البناء الإسلامى .

﴿ **ورد الله الذين كفـروا بغيظهـم لم ينالـوا خـيرا وكفى الله المؤمنـين القتال وكان الله قوياً عزيزا** ﴾ (1) .

(قوله تعالى :﴿ **ورد الله الذين كفـروا بغيظهـم لم ينالوا خيراً ..** ﴾ قال محمد بن

(١) الأحزاب / ٢٥ .

عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت : ﴿ **الذين كفروا** ﴾ هاهنا أبو سفيان وعيينة بن بدر ، ورجع أبو سفيان إلى تهامة ، ورجع عيينة إلى نجد ، ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً حتى رجعوا ، ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم فَكُفِيَ أمر قريظة بالرعب ﴿ **وكان الله قويا** ﴾ أمره ﴿ **عزيزاً** ﴾ لا يغلب)[1] .

وأخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : لما كان يوم الأحزاب حصر النبى ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرىء منهم الكرب ، وحتى قال النبى ﷺ : « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إنك إن تشأ لا تعبد » فبينما هم على ذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعى ، وكان يأمنه الفريقان جميعاً ، فخذل بين الناس ، فانطلق الأحزاب منهزمين بغير قتال فذلك قوله : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[2] .

(وأخرج ابن مردويه ، عن جابر رضى الله عنه قال ، لما كان يوم الأحزاب ردهم الله ﴿ **بغيظهم لم ينالوا خيرا** ﴾ فقال النبى ﷺ : « من يحمى أعراض المسلمين ؟ » قال كعب رضى الله عنه : أنا يا رسول الله . قال عبد الله بن رواحة : أنا يا رسول الله . فقال : « إنك تحسن الشعر » . فقال حسان : أنا يا رسول الله فقال : « نعم اهجهم أنت ، فإنه سيعينك عليهم روح القدس معك »)[3] .

يقول تعالى ذكره ﴿ **ورد الله الذين كفروا** ﴾ به وبرسوله من قريش وغطفان ﴿ **بغيظهم** ﴾ يقول : بكربهم وغمهم بقوتهم ما أمّلوا من الظفر ، وخيبتهم مما كانوا طمعوا فيه من الغلبة ﴿ **لم ينالوا خيراً** ﴾ يقول : لم يصيبوا من المسلمين مالاً ولا إساراً ، ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ بجنود من الملائكة والريح التى بعثها عليهم وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل)[4].

وعن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى ، عن أبيه ، قال : حبسنا يوم الخندق عن الصلاة فلم نصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، حتى كان بعد العشاء بهُوِى كفينا وأنزل الله :﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا** ﴾ فأمر رسول الله ﷺ بلالا فأقام الصلاة وصلى الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصليها فى وقتها ، ثم صلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / ٧ / ١٤ / ١٩٠ .

(٢ ، ٣) الدر المنثور / ٦/٥٩٠ .

(٤) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / م١٠ / جـ ١ ، ٢ ص ٩٤ .

العصر كذلك ، ثم صلى المغرب كذلك ، ثم صلى العشاء كذلك . جعل لكل صلاة إقامة وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً) .

هذا أهم ما أوردته كتب التفسير حول هذه الآية ، ونعود إلى السيرة لنشهد اللحظات الأخيرة من المعركة ، وكيف رد الله الذين كفروا بغيظهم وكفى الله المؤمنين القتال .

(فلما رجعوا إلى أبي سفيان قال : هذا يوم لم يكن لنا فيه شيء ارجعوا ، فنفرت قريش إلى العقيق ، ورجعت غطفان إلى منازلها ، واتعدو يغدون جميعاً ولا يتخلف منهم أحد ، فباتت قريش يعبئون أصحابهم ، ووافوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس ، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وحضهم على القتال ، ووعدهم النصر إن صبروا ، والمشركون قد جعلوا المسلمين فى مثل الحصن من كتائبهم ، فأخذوا بكل وجه من الخندق .

فحدثنى الضحاك بن عثمان ، عن عبيد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قاتلونا يومهم ، وفرَّقوا كتائبهم ، ونحوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد ، فقاتلهم يومه ذلك ، إلى هوى من الليل وما يقدر رسول الله ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم ، وما يقدر رسول الله ﷺ على صلاة الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، فجعل أصحابه يقولون : يارسول الله ، ماصلينا : فيقول :« ولا أنا والله ماصليت » ! حتى كشفهم الله تعالى فرجعوا متفرقين ، فرجعت قريش إلى منزلها ، ورجعت غطفان إلى منازلها ، وانصرف المسلمون إلى قبة النبى ﷺ ، وأقام أسيد بن حضير على الخندق فى مائتين من المسلمين . فهم على شفير الخندق إذ كرت خيل من المشركين يطلبون غِرَّة عليهم خالد بن الوليد ، فناوشوهم ساعة ومع المشركين ، وحشى فزرق الطفيل بن النعمان من بنى سلمة بمزراقه فقتله . فكان يقول : أكرم الله تعالى حمزة والطفيل بحربتى ولم يهنى بأيديهما ، فلما صار رسول الله ﷺ إلى موضع قبته أمر بلالاً فأذن ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : أمره رسول الله ﷺ فأذن وأقام للظهر ، وأقام بعد لكل صلاة إقامة إقامة)[1] .

وكان عبد الله بن أبى أوفى يحدث أن رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم » .

(١) المغازى للواقدى / ٢/ ٤٧٢ .

(فحدثنى كثير بن زيد ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن جابر ابن عبد الله ، قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فى مسجد الأحزاب يوم الإثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء ، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء . قال : فعرفنا السرور فى وجهه . قال جابر : فما نزل بى أمر غائظ مهم إلا تحينت تلك الساعة من ذلك اليوم فأدعو الله ، فأعرف الإجابة) [1] .

وقال أبو نعيم بسنده عن حذيفة : (إن الناس تفرقوا عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ، فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً ، فأتانى رسول الله ﷺ وأنا جاث من البرد فقال : « انطلق إلى عسكر الأحزاب » فقلت : والذى بعثك بالحق ، ما قمت إليك من البرد إلاحياء منك . قال « فانطلق يابن اليمان فلا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلى » . فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار فى عصبة حوله ، قد تفرق الأحزاب عنه ، حتى إذا جلست فيهم حسَّ أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه . قال : فضربت بيدى على الذى عن يمينى فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدى إلى الذى عن يسارى فأخذت بيده ، فكنت فيهم هنيهة ، ثم قمت فأتيت رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى ، فأومأ إلىَّ بيده أن ادن فدنوت ، ثم أومأ إلىَّ فدنوت ، حتى أسبل علىَّ من الثوب الذى عليه وهو يصلى ، فلما فرغ قال : « ما الخبر ؟ » قلت : تفرق الناس عن أبى سفيان ، فلم يبق إلا فى عصبة يوقد النار ، قد صب الله عليه من البرد مثل الذى صب علينا ، ولكنا نرجو من الله ما لا يرجو) [2] .

وفى رواية الواقدى : فقام أبو سفيان فقال : احذروا الجواسيس والعيون ولينظر كل رجل جليسه . قال : فالتفت إلى عمرو بن العاص فقلت : من أنت ؟ وهو عن يمينى ، فقال : عمرو بن العاص . والتفت إلى معاوية بن أبى سفيان ، فقلت : من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبى سفيان . ثم قال أبو سفيان :

إنكم والله لستم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأجدب الجناب [3] وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ، وقد لقينا من الريح ماترون : والله مايثبت لنا بناء ولا تطمئن لنا قدر ، فارتحلوا فإنى مرتحل . وقام أبو سفيان وجلس على بعيره وهو معقول ، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم ، فما أطلق عقاله إلا من بعد ماقام ، ولولا عهد

---

(١) المصدر نفسه /٢/٤٨٨ .

(٢) المغازى : للإمام الذهبى / ٣٠٢ .

(٣) الجناب : الفناء أو الناحية .

رسول الله ﷺ إليَّ : لا تحدث شيئاً حتى تأتى ، ثم شئت ، لقتلته . فناداه عكرمة بن أبى جهل : إنك رأس القوم وقائدهم ، تقشع وتترك الناس ؟ فاستحيا أبو سفيان فأناخ بجمله ونزل عنه وأخذ بزمامه وهو يقوده ، وقال : ارحلوا !

قال : فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خفَّ العسكر . ثم قال لعمرو بن العاص :

يا أبا عبد الله ، لابُدَّ لِى ولك أن تُقيم فى جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر فقال : أنا أقيم . وقال لخالد بن الوليد : ماترى يا أبا سليمان ؟ فقال : أنا أيضاً أقيم . فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار العسكر إلى هذه الجريدة على متون الخيل .

قالوا : وذهب حذيفة إلى غطفان فوجدهم قد ارتحلوا ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، وأقامت الخيل حتى كان السحر ، ثم مضوا فلحقوا الأثقال والعسكر مع ارتفاع النهار بملل . فغدوا إلى السيالة ، وكانت غطفان لما ارتحلت وقف مسعود بن رخيلة فى خيل من أصحابه ، ووقف الحارث بن عوف فى خيل من أصحابه ، ووقف فرسان من بني سليم فى أصحابهم . ثم تحملوا جميعاً فى الطريق واحدة وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المراض ، ثم تفرقت كل قبيلة إلى محالها .

حدثنى عبد الله بن جعفر ، عن عثمان ـ يعنى ابن محمد الأخنسى ـ قال :

لما انصرف عمرو بن العاص قال : قد علم كل ذى عقل أن محمداً لم يكذب . فقال عكرمة بن أبى جهل : أنت أحق الناس ألا يقول هذا . قال عمرو : لم ؟ قال : لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك ـ ويقال : الذى تكلم بهذا خالد بن الوليد ، ولا ندرى ، لعلهما قد تكلما بذلك جميعاً .

قال خالد بن الوليد : قد علم كل حليم أن محمداً لم يكذب قط . قال أبو سفيان بن حرب : إن أحق الناس ألا يقول هذا أنت . قال : ولم ؟ قال : نزل على شرف أبيك ، وقتل سيد قومك أبى جهل .

حدثنى محمد بن عبد الله ، عن الزهرى عن ابن المسيَّب قال :

كانت محاصرة المشركين رسول الله ﷺ فى الخندق بضعة عشر يوماً ... فلما أصبح رسول الله ﷺ بالخندق ، أصبح وليس بحضرته أحد من العساكر قد هربوا وذهبوا ، وجاء رسول الله ﷺ الثبت أنهم انقشعوا إلى بلادهم ، ولما أصبحوا أذن رسول

الله ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم ، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك ، وكره رسول الله ﷺ أن تعلم بنى قريظة رجعتهم إلى منازلهم ، فأمر بردهم ، وبعث من ينادى فى أثرهم ، فما رجع رجل واحد ، فكان ممّن يردهم عبد الله بن عمر ، أمره رسول الله ﷺ قال عبد الله : فجعلت أصيح فى أثرهم فى كل ناحية : إن رسول الله أمركم أن ترجعوا . فما رجع رجل واحد منهم من القر والجوع فكان يقول : كره رسول الله ﷺ يرى سرعتهم . وكره أن يكون لقريش عيون . قال جابر بن عبد الله :

أمرنى رسول الله ﷺ أن أردَّهم ، فجعلت أصيح بهم فما يرجع أحد ، فانطلقت فى أثر بنى حارثة ، فوالله ما أدركتهم حتى دخلوا بيوتهم ، ولقد صحت فما يخرج إليَّ أحد من جهد الجوع والقر ، فرجعت إلى النبى ﷺ ، فأخبرته ، فضحك ﷺ (١) .

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ..﴾ .

ولا شيء يعبر عن هذه النفسية المغتاظة . كما تعبر رسالة أبى سفيان لرسول الله ﷺ . وكيف مضوا يجترون حقدهم وقد سقط فى أيديهم :

(وحدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبى وجزة قال : لما ملت قريش المقام ، وأجدب الجناب ، وضاقوا بالخندق ، وكان أبو سفيان على طمع أن يغير على المدينة كتب كتابا فيه :

باسمك اللهم ، فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك في جمعنا ، وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمّك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ، تبقر فيه النساء .

وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى ، فلما أتى بالكتاب دعا رسول الله ﷺ أبيَّ ابن كعب ، فدخل معه قبته ، فقرأ عليه كتاب سفيان ، وكتب إليه رسول الله ﷺ : « من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب ... أما بعد فقديمك غرّك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك : من

(١) المغازى للواقدى ٤٨٩/٢/ وما بعدها .

علّمك الذى صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح [1] ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك ») [2] .

وتعقيبا على غزوة الخندق واستعراضها من خلال القرآن الكريم ، ترد الملاحظات التاليـــة :

١ ـ لقد تشابهت الآية الأولى والآية الأخيرة فى العرض القرآنى حول غزوة الأحـزاب :

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ .

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهـم لم ينالـوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

وبين هاتين الآيتين تم التركيز على ضراوة المحنة ، وشدة الابتلاء ، وموقف المؤمنين فيه ، وموقف المنافقين وتم توضيح هذه المواقف ، والتمييز بين الفريقين ، ثم هزيمة الكافرين .

٢ ـ لقد شارك فى الحرب خمسة عناصر انتهتا لصالح المسلمين ، وكفى الله بها المؤمنين القتال :

أ ـ **الجنود** : وهم الملائكة الذين حضروا الحرب وبثوا الرعب فى قلوب الكافرين ، وأكثروا سواد المسلمين ، ولم يشاركوا فى القتال ، والأحاديث الصحيحة التى تؤكد قول جبريل فيما بعد ، تؤكد هذا المعنى .

« وضعت السلاح ولم تضع الملائكة السلاح بعد ، إنى ماض إلى بنى قريظة فمزلزل من حصونهم » .

ب ـ **الريـح** : وقد رأينا فعلها الشديد الذى نصرت به رسول الله ﷺ ، وقد ذكرها أبو سفيان عنصراً من أهم العناصر الرئيسية فى انسحابه :

وقد لقينا من الريح ماترون والله مايثبت لنا بناء ، ولا تطمئن لنا قدر .

جـ ـ **نعيم بن مسعود** ، ودوره الرئيسى فى تخذيل المشركين واليهود عن الصف

(١) الراح : الأيدى .

(٢) المغازى للواقدى / ٢/ ٤٩٢ .

المسلم : وتشير بعض الروايات لذلك وهى التى أخرجها ابن سعد عن سعيد بن المسيِّب :

فبينما هم على ذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعى وكان يأمنه الفريقان جميعاً ، فخذل بين الناس ، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال ، فذلك قوله : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ .

د ـ دعاء الرسول ﷺ وتضرعه إلى ربه عز وجل : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فى مسجد الأحزاب يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء ، فعرفنا السرور فى وجهه) .

هـ ـ صمود المسلمين العظيم وثباتهم : ففى الهجوم الأخير الذى رصد المشركون له كل قواتهم ، وجيشوا كل أبطالهم ، وأتوا الخندق من كل جانب واستمرت المواجهة من الظهر إلى هوى من الليل وعجزوا أن يزحزحوا المسلمين شبراً عن مواقعهم ، وتشير بعض الروايات إلى ذلك :

وقد حدثنى ابن ذئب ـ وهو أثبت الحديثين عندنا ـ قال : أخبرنى المقبرى عن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى ، عن أبيه قال : جلسنا يوم الخندق حتى كان بعد المغرب بهوى من الليل حتى كفينا وذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا** ﴾ ، فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فأمره ، فأقام صلاة الظهر فصلاها كأحسن ما يصليها فى وقتها ، ثم أقام صلاة العصر .. إلى آخر الحديث) .

و ـ البطولات العظيمة من الرجال الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فيقظة عباد بن بشر رضى الله عنه قائد حرس النبى ﷺ . وقتل الزبير نوفل بن عبد الله المخزومى ، ومصرع عمرو بن عبد ود العامرى ، أنهى كل تفكير لدى العدو فى مغامرات يكسب بها أى جولة ، فاقتحام الفرسان الخندق وهم أبطال قريش ، ومقتل اثنين منهم ، قلب الموازين كلها فى صفوفهم .

لقد أراد خالد بن الوليد مرات أن يعيد قصة أحد ، ويكر على الجيش من خلفه فيأخذه بغتة ، ولكنه فشل فى كل هذه المحاولات .

وحاولت قريظة كذلك أن تنقض على المسلمين من الخلف ، لكن يقظة خيالة المسلمين وعلى رأسها سلمة بن أسلم بن حريش ، والمحاولات الفردية التى قام بها مغامرون يهود ، فاصطدمت بالبطولات الخارقة من المسلمين ، التى مثلها الزبير بن العوام

وهو يصول ويجول فى صفوفهم ، وخوات بن جبير الذى ذبح اليهودى الذى يحمله ، وصفية بنت عبد المطلب التى هشمت رأس المغامر اليهودى الذى طاف بالحصن ، كل هذه البطولات قد هَلَعت قلوب الأقوياء من المشركين واليهود ، ونجد بعض الروايات تشير إلى ذلك :

(أخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ بعلى بن أبى طالب)[1] .

٣ ـ وحين نعدد هذه العناصر لابد أن نربط بينها الربط المنطقى الموضعى .

فثبات المؤمنين ابتداءً كما وصفهم الله عز وجل : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾ .

هذا الوصف الذى نال صفهم العام ، ووصف الصفوة منهم :﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ .

هذا الوصف الربانى لهم يجعلهم أهلاً لنصر الله وعونه وتأييده ، يطعمهم ويسقيهم ويبعث لهم ملائكته وجنده من الريح والرعب ليحقق بهم موعوده ، ويمكن لهم فى الأرض .

فالعناصر الأخرى إذن هى ثمرة سلامة الصف ، وقوة تربيته ، وعظمة إيمانه ، ومدى تجرده . واعتماده على الله عز وجل ، حتى ليثق بموعود الله حين تصل المحنة إلى الذروة ، ويقولون : هذا ماوعد الله ورسوله ، متأولين قول الله عز وجل فى سورة البقرة : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾[2] .

فاستدلوا على اقتراب النصر بالزلزلة وشدة المحنة التى نزلت بهم .

فكانت العناصر الباقية عناصر خارجية ، وأمداد ربانية ، لا يملكونها بقوتهم البشرية .

الريح ، والملائكة ، والرعب ، وتخذيل نعيم بن مسعود ، كلها عناصر مبنية على سلامة العنصر الأول : وهو : أن الصف الإيمانى بلغ من التلاحم ، والقوة والثبات ما يجعله

---

(١) الدر المنثور / ٦/ ٥٩٠ .
(٢) البقرة / ٢١٤ .

مؤهلا لنصر الله وتمكينه فى الأرض .

٤ ـ وفى مقارنة بين أحد والخندق نلحظ الصفين معاً ، وكيف استحق الصف النتائج المترتبة على مستواه .

فالصف المؤمن فى أحد كما وصفه الله تعالى :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ [1] .

هذا الصف ، حيل بينه وبين النصر لكونه بهذه المواصفات .

أما الصف المؤمن فى الخندق :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾ .

فلم ترهبه قوة العدو ، ولم تلن قناته ضغوط الكفار والمشركين ، ولم يثن عزمه أو يوهن إيمانه الجنود الذين جاءوه من فوقه ومن أسفل منه ، وقد بلغ به الخوف مبلغه : **﴿ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾** لكنه رغم هذا كله بقى على التزامه ، وعلى طاعته ، وعلى ولائه ، وعلى ثباته ، فجاءه نصر الله .

٥ ـ وجود المستويات الإيمانية الفائقة فى المعركتين ، وبروز بطولاتها فيها ، قد يخفف من وطأة المحنة ، وقد يخفف من شدة البلاء ، لكنه لايغير قوانين النصر والهزيمة ، فالحكم ابتداءً هو على المستوى العام للصف كله ، ويكفى أن نعلم أن الآية التى تحدثت عن المستويات الإيمانية الفائقة ، هى هى نفسها ، وردت فى أحد ووردت فى الخندق : **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾** .

٦ ـ وكما أن وجود المستويات الإيمانية الفائقة فى الصف المسلم لايؤثر على قوانين النصر والهزيمة ، فكذلك وجود الطابور الخامس من المنافقين لايؤثر على نتيجة المعركة عند سلامة الصف الداخلى وقوته ، فقد تحدث القرآن الكريم عنهم فى الخندق أكثر مما تحدث

---

(١) آل عمران / ١٥٢ .

عنهم فى أحد وفضحهم وعراهم ، ومع ذلك لم يحولوا دون تحقيق نصر الله ؛ لأن تأثيرهم محصور عليهم ، وتعريتهم حتى لاتتجاوز مواقفهم غيرهم ، بل نجد أكثر من ذلك أن بعض هؤلاء عصم فى أحد ، وزل فى الخندق ، لكن هذا كله لم يحل دون نصر الله عز وجل .

لقد كان تأثير المنافقين فى أحد على الصف المؤمن كبيراً فخلخله ، فدفع بعض أفراده إلى الفرار ، وبعضهم إلى إلقاء السلاح ، وبعضهم إلى الارتباك ، وبعضهم إلى أن يهم بالتخاذل مع ابن أبى وحزبه ، لكنه فى الخندق لم يتجاوز أولئك المغموصين فى النفاق ، والذين حوصروا من كل جهة ، ونقلت أخبارهم إلى القيادة النبوية ، وكانت مخططاتهم مكشوفة وكيدهم ضعيف حقير لايقوى على زعزعة الصف المسلم .

٧ ـ ولا شيء أروع من إيضاح ما كفى الله به المؤمنين القتال ، مثل دراسة خسائر المعركة . لقد كان حصار خمسة عشر يوماً من المشركين واليهود للمسلمين ، مقتل ستة أشخاص فقط ، رُموا بحربة أو بسهم وهم :

ـ سعد بن معاذ رضى الله عنه ، ورماه حبان بن العرفة ، فانفجر جرحه ومات متأثراً فيه .

ـ أنس بن أوس الأشهلى ، ورماه خالد بن الوليد بسهم .

ـ عبد الله بن سهل الأشهلى ، ورماه رجل من بنى عويف وقتله .وثلاثتهم أوسيون وأشهليون .

ـ الطفيل بن النعمان ، وقتله وحشى بحربته .

ـ ثعلبة بن غنمة من ثمابى ، وقتله هبيرة بن أبى وهب المخزومى .

ـ كعب بن زيد من بنى دينار ، وقتله ضرار بن الخطاب الفهرى . وكان قد ارتث فى بئر معونة .

والثلاثة هؤلاء خزرجيون .

وأن تنتهى معركة بهذه الضخامة ، والمحنة والمواجهة ، ويحشد لها عشرة آلاف مقاتل وتنتهى بستة قتلى ، ليؤكد فعلاً أن الله تعالى كفى المؤمنين القتال ، وأن الأمر كان بالنسبة لهم محنة وابتلاء ، ثبتوا فيه وصبروا وتحملوا ، فوقاهم الله سيئات مكر الكافرين .

وحين نذكر أن معركة أحد التى لم تتجاوز يوماً واحداً ، قد انتهت بسبعين من

الشهداء المسلمين ، نلاحظ الفرق بين الغزوتين ، وأن الجانب النفسي والبناء التربوى فى أحد هو المقصد الأساسى من العرض الربانى لها .

ولاننسى كذلك أنه قتل من المشركين ثلاثة فقط هم :

ـ عمرو بن ود العامرى ، وقتله على بن أبى طالب .

ـ ونوفل بن عبد الله المخزومى ، وقتله الزبير (أو على رضى الله عنه أو رمى بالحجارة) .

ـ ومن بنى عبد الدار عثمان بن منبه بن عبيد ، ومات بمكة من رمية رميها فى الخندق .

٨ ـ وفى قصة حذيفة رضى الله عنه وخروجه للإتيان بخبر القوم ، لا يفوتنا الحديث عن هذا الالتزام العجيب الذى صبغ الصف المسلم كله ، فأمام الخوف والبرد حين كان الأمر متروكاً لحرية المسلمين لم يتحرك أحد ، مع أن رسول الله ﷺ شرط لهم العودة والرفقة فى الجنة ، وبذلك نلحظ مدى الخوف والبرد الذى عاشه هذا الجيش ، لكن عندما صدر الأمر صراحة لحذيفة ، لم يكن له بد أن يقوم . ونجد روعة الالتزام عنده ، وقد مُكِّن من قتل قائد جيش العدو ، ولايكلفه الأمر إلا سهماً واحداً فقط ، لكنه تذكر أمر رسول الله ﷺ أن لايحدث حدثاً ، فتوقف عن ذلك .

ونجد هذا الالتزام لدى قيادات الأنصار ، فإن كان إعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان هوى لرسول الله ﷺ يحب أن يصنعه فلا نقاش لهم فى ذلك ، وإن كان أمراً يصنعه لهم فلهم رأى آخر .

ونجد هذا الالتزام لدى هذه الآلاف وهى تحفر فى الخندق ، رغم الجوع الشديد والبرد الشديد :

(فقد لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا) .

وهى لا تتحرك إلا بإذن ، ولا تمضى إلى بيوتها إلا بإذن .

ونجد هذا الالتزام المشوب بالحب والفداء والتضحية لدى الأبطال الذين برزوا فى ساح المعركة ، على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، وعباد بن بشر ، ، وأسيد بن حضير وغيرهم وغيرهم كثير من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

٩ ـ وحين نذكر الالتزام ، لابد أن نذكر بالمقابل المخالفة للذين فى قلوبهم مرض ،

والذين ذكرهم القرآن . أنهم يتسللون لواذاً دون أمر رسول الله ﷺ ، والذين يتعللون أن بيوتهم عورة ، ولابد أن نذكر حالة ذكرتها كتب السيرة ، لاتتحدث عن الذين فى قلوبهم مرض إنما تتحدث عن الجيش كله .

(وكره رسول الله ﷺ أن تعلم بنو قريظة رجعتهم إلى منازلهم ، فأمر بردهم ، وبعث من ينادى فى أثرهم فما رجع رجل واحد . فكان ممن يردهم عبد الله بن عمر ، أمره رسول الله ﷺ . قال عبد الله : فجعلت أصيح فى أثرهم فى كل ناحية : إن رسول الله أمركم أن ترجعوا ، فما رجع رجل واحد منهم من القر والجوع ، فكان يقول : كره رسول الله ﷺ يرى سرعتهم ، وكره أن يكون لقريش عيون . قال جابر : أمرنى رسول الله ﷺ أن أردَّهم ، فجعلت أصيح بهم فما يرجع أحد ، فانطلقت فى أثر بنى حارثة ، فوالله ماأدركتهم حتى دخلوا بيوتهم ، ولقد صحت فما يخرج إلىَّ أحد من جهد الجوع والقر ، فرجعت إلى النبى ﷺ فألقاه فى بنى حرام منصرفاً ، فأخبرته ، فضحك ﷺ) (١) .

لقد جاء النداء بعد الأوامر الصريحة بالانصراف ، وبعد أن كفى الله المؤمنين القتال ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وبعد أن تفرق الجميع إلى بيوتهم ، دون تحديد ساعة محددة أو وقت محدد للعودة .

وكان حرص كل رجل على أن يأوى لبيته بعد خمسة عشر يوماً من الجوع والقر ، قد سجل بطئا فى التنفيذ لدى الجميع ، ولا ننسى أن المنادى هو عبد الله بن عمر وهو صبى يجاوز لأول مرة بحضور المعركة ، حيث رُدَّ فى أحد وأجيز فى الخندق ، وجابر الذى لم يجز فى أحد ، وأجيز بعدها ، والظاهر أن الأمر ليس محدداً فى ذلك ، فما رجع أحد .

لكن حتى لاتعتبر ظاهرة عامة لابد أن نذكر أنه عندما صدر النداء فى اليوم نفسه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » لم يتخلف أحد من المسلمين ، ووصل بعضهم قبل فوات العصر ، وبعضهم بعد المغرب ، لكن التنفيذ لتعبئة جيش قوامه ثلاثة آلاف ، وتحركه لحصون بنى قريظة ، ومسافة عدة ساعات ، احتاج هذا التحرك لبضع ساعات ، قد لا تتجاوز الخمسة .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢/ ٤٩١ .

وهذا فى التعبئة العسكرية وضع مثالى لايجارى ، وذلك بعد إذن لم يتجاوز الساعات كذلك فى رؤية الأهل ، وتناول بعض الطعام الخشن يتقوى به المسلم على المواجهة .

١٠ ـ ونذكر الحديث الصحيح الذى أنهى به رسول الله ﷺ مرحلة اختتمت من الجهاد والعناء ، إلى مرحلة جديدة كل الجدة فى معالمها ، وخطوطها ، حيث تم الانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، وجاء نصر الله بعد أن جاءهم مثل الذين خلوا من قبلهم . فقد جاء فى البخارى :

(سمعت أبا إسحاق يقول : سمعت سليمان بن صرر يقول : سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه :

« الآن نغزوهم ولايغزونا ، نحن نسير إليهم »)[1] .

وانتهت بذلك تلك المرحلة الصعبة العنيفة ، التى عاشها المسلمون قرابة ثلاث سنوات ، شديدة الوطأة ، صبر بها المسلمون وصابروا ، وعانوا من الآلام والجراح والتضحيات وثبتوا ، وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وابتدأت مرحلة جديدة ، تنتقل بالمسلمين إلى احتلال المواقع الجديدة بعد أن ثبَّتوا المواقع الأولى ، وهو من جانب آخر تصديق لنبوءة النبى ﷺ الذى لاينطق عن الهوى .

فرغم زعم أبى سفيان أنه سيعيد الكرة ـ كما ذكر فى رسالته إلى رسول الله ﷺ .

(فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد) لكنه كان عاجزاً بعدها عن أن يجيش أى جيش يتحرك به نحو المدينة ، فقد بذل المشركون واليهود قاطبة كل مايملكون ، وحزبوا الأحزاب من الأرض العربية كلها ، وكما يقول عليه الصلاة والسلام :

« رأيت العرب قد كالبوكم ورموكم عن قوس واحدة » .

ومع ذلك ـ وبعد حصار الخمسة عشر يوماً ، كانت النتيجة أن ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله المؤمنين القتال ، ولم تقم لهم بعد قائمة ، أو يتحرك لهم كتيبة .

١١ ـ لقد دعا عليه الصلاة والسلام فقال :

---

(١) البخارى / م٢ / جـ ٥ / ١٤١ .

« اللهـــم منزل الكتاب ، سـريع الحســاب ، اهـزم الأحـزاب ، اللهـم اهـزمهم وزلـزلهم » [1] .

وذلك بعد أن تبرأ المسلمون من قوتهم ، وتضرعوا إلى رسول الله ﷺ أن يدعو لهم ليكشف عنهم فقالوا :

يارسول الله ، مانقول : فقد بلغت القلوب الحناجر .

قال : « قولوا : اللهم آمن روعاتنا . واستر عوراتنا » .

ومن أجل ذلك عندما تم النصر الرباني بالجنود والريح ، قال عليه الصلاة والسلام :

« لاإله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، لاشيء قبله ولاشيء بعده » [2] .

وبقى أثر هذا النصر فى نفس النبى ﷺ عميق الغور ، بحيث بقى مرافقاً له طيلة حياته ، كما يروى عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكبر ثلاث مرار ثم يقول : « لاإله إلا الله وحـده لاشـريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » [3] .

ومضى هذا الدعاء خالداً يردده المسلمون فى أقطار الأرض فى كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يرددونه إذا حجوا أو اعتمروا أو قفلوا من غزو ، وترسخ هذا المعنى التربوى الجهادى فى أذهانهم بأجلى صورة وأوضح بيـان ، وأنصـع تعـبير :

« لاإله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا شيء بعده » .

---

(١) البخارى جـ ٥ / ص ١٤١ ، باب غزوة الأحزاب .

(٢ ، ٣) المصدر نفسه / ص ١٤٢ .

غزوة بني قريظة

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ [1] .

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب . . ﴾ .

ولنقرأ قصة الذين ظاهروهم من أهل الكتاب كيف أنزلهم الله من حصونهم وقذف فى قلوبهم الرعب . . .

(لما انصرف المشركون عن الخندق ، وخافت بنو قريظة خوفاً شديداً ، وقالوا : محمد يزحف إلينا ! وكان رسول الله ﷺ لم يؤمر بقتالهم حتى جاءه جبريل عليه السلام ، وكانت امرأة نباش بن قيس قد رأت ـ والمسلمون فى حصار الخندق ـ قالت : أرى الخندق ليس به أحد ، وأرى الناس تحولوا إلينا ونحن فى حصوننا قد ذبحنا ذبح الغنم ، فذكرت ذلك لزوجها ، فخرج زوجها فذكرها للزبير بن باطا ، فقال الزبير : ما لها لا نامت عينها . تُولى قريش ويحصرنا محمد ! والتوراة . ولما بعد الحصار أشد منه)[2] .

روى الإمام أحمد ، والشيخان ـ مختصراً ـ والبيهقى ، والحاكم فى صحيحه مطولاً ، و . . أبو نعيم ، وابن سعد [3] وابن جرير ، ومحمد بن عمر عن شيوخه :

(لما رجع عن الخندق ، والمسلمون وقد عضهم الحصار ، فرجعوا مجهودين فوضعوا السلاح ، ووضعه رسول الله ﷺ ، ودخل بيت عائشة ، ودعا بماء فأخذ يغسل رأسه قال ابن عقبة : قد رجَّل أحد شِقيه .

قال محمد بن عمر : غسل رأسه واغتسل ، ودعا بالمجمرة ليتبخر ، وقد صلى الظهر . . قالت عائشة : فسلَّم علينا رجل ونحن فى البيت .

---

(١) الأحزاب / ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٩٦ .
(٣) حذفنا أسماء الرواة من الصحابة الذين رووا هذا الحديث أو من التابعين كما وردوا فى السيرة الشامية .

قال محمد بن عمر : وقف موضع الجنائز ، فنادى : عذيرَك من محارب فقام رسول الله ﷺ فزعاً . فوثب وثبة شديدة ، فخرج إليه ، وقمت فى أثره أنظر من خلل الباب ، فإذا هو دحية الكلبى ــ فيما كنت أرى ــ وهو ينفض الغبار عن وجهه وهو معتم .

قال ابن إسحاق : معتجر بعمامة ، وقال الماجشون كما رواه أبو نعيم سوداء من استبرق ، مرخ من عمامته بين كتفيه ، على بغلة شهباء ــ وفى لفظ : فرس ــ عليها رِحالة [1] ، وعليها قطيفة من ديباج ــ قال الماجشون : على ثناياه أثر الغبار ــ وفى رواية : قد عصب رأسه الغبار ــ عليه لأمته ، فاتكأ رسول الله ﷺ على عرف الدابة ، فقال : يارسول الله ، ماأسرعتم ماحللتم ، عذيرك من محارب ! عفا الله عنك ــ وفى لفظ غفر الله لك ــ أو قد وضعتم السلاح قبل أن نضعه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » قال : فوالله ماوضعناه ــ وفى لفظ : « ماوضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو ، ومارجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد ــ يعنى الأحزاب ــ وقد هزمهم الله تعالى ، إن الله تعالى يأمرك بقتال بنى قريظة ، وأنا عامد إليهم بمن معى من الملائكة لأزلزل بهم الحصون ، فاخرج بالناس » .

قال حميد بن هلال : فقال رسول الله ﷺ :

« فإن فى أصحابى جهداً فلو أنظرتهم أياماً » .

قال جبريل : « انهض إليهم فوالله لأدقنهم كدقِّ البيض على الصفا ، لأضعضعنها » .

فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار فى زقاق بنى غنم من الأنصار .

قال أنس رضى الله عنه : ــ فيما رواه البخارى ــ : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم ، موكب جبريل حين سار إلى بنى قريظة . .

قالت عائشة : فرجعت فلما دخل قلت يارسول الله ، من ذاك الرجل الذى كنت تكلمه ؟ قال : « ورأيته » ؟ قلت : نعم . قال : « لمن تشبهت ؟ » [2] قلت : بدحية بن خليفة الكلبى ، قال :

« ذاك جبريل أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة » .

قال قتادة ــ فيما رواه ابن عائذ ــ : إن رسول الله ﷺ بعث يومئذ منادياً ينادى :

---

(١) الرِّحالة : سَرجٌ من جلود ليس فيه خشب .

(٢) لمن تشبهت ؟ : أى لمن تشبهينه من الناس ؟

« ياخيل الله اركبى » وأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذّن فى الناس :

« من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

وروى الشيخان عن ابن عمر ، والبيهقى عن عائشة ، والبيهقى عن الزهرى وعن ابن عقبة ، والطبرانى عن كعب بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

« عزمت عليكم ألا تصلوا صلاة العصر . . » ، ووقع فى رواية مسلم فى حديث ابن عمر : صلاة الظهر ، فأدرك بعضهم صلاة العصر ـ وفى لفظ الظهر ـ فى الطريق . فقال بعضهم : لانصليها حتى نأتى بنى قريظة ، إنا لفى عزيمة رسول الله ﷺ وماعلينا من إثم ، فصلوا العصر فى بنى قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس . وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا أن ندع الصلاة ، فصلوا . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فلم يعنّف واحداً من الفريقين ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، فدفع إليه لواءه ، وكان اللواء على حاله لم يحلّ من مرجعه من الخندق ، فابتدره الناس .

ذكر مسيرة رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة :

قال محمد بن عمر ، وابن سعد ، والبلاذرى ، وابن هشام ، : فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم .

قال محمد بن عمر : خرج رسول الله ﷺ إليهم لسبع بقين من ذى القعدة ، ولبس رسول الله ﷺ السلاح والدرع والمِغفر [١] والبيضة [٢] ، وأخذ قناة بيده ، وتقلّد الترس ، وركب فرسه اللحيف [٣] ، وحفّ به أصحابه ، قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل ، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً ، وسار رسول الله ﷺ فى أصحابه ، والخيل والرجالة حوله .

قال ابن سعد : وكان معه ﷺ ثلاثة آلاف . قلت : كذا ذكر محمد بن عمر : أن رسول الله ﷺ ركب فرساً . وروى الطبرانى فى الأوسط بسندٍ رجاله ثقات عن أبى رافع وابن سعد عن البيهقى وغيره ، والطبرانى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أتى بنى قريظة ركب على حمار عُرْى . يقال له يعفور ، والناس حوله .

وروى الحاكم والبيهقى وأبو نعيم عن عائشة وابن إسحاق .... ومحمد بن عمر عن شيوخه : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من بنى النجار بالصورين ، فيهم حارثة بن النعمان قد

(١) المِغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة . (٢) الحديد الذى يوضع على الرأس .

(٣) اسم الفرس .

صفُّوا ، عليهم السلاح فقال : « هل مر بكم أحد ؟ » قالوا : نعم . دحية الكلبى مرَّ على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من استبرق ، وأمرنا بحمل السلاح سلاحنا ، فأخذنا وصففنا وقال لنا : « هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن » . قال حارثة بن النعمان ، وكنا صفين . فقال رسول الله ﷺ : « ذاك جبريل ، بُعث إلى بنى قريظة ليزلزل بهم حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم » .

وسبق على فى نفرٍ من المهاجرين والأنصار فيهم أبو قتادة إلى بنى قريظة .

روى محمد بن عمر عن أبى قتادة قال : انتهينا إلى بنى قريظة ، فلما رأونا أيقنوا بالشر ، وغرز علىٌّ الراية عند أصل الحصن ، فاستقبلونا فى صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه ، قال أبو قتادة : وسكتنا وقلنا السيف بيننا وبينكم ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة ، فنزل قريباً من حصنهم على بئر أُنَّا (١) بأسفل حرة بنى قريظة ، فلما رآه على رضى الله عنه رجع إلى رسول الله ﷺ وأمرنى أن ألزم اللواء فلزمته ، وكره أن يسمع رسول الله ﷺ أذاهم وشتمهم ، فقال لرسول الله ﷺ : لاعليك أن لاتدنو من هؤلاء الأخابث ، فإن الله تعالى كافيك اليهود ، فقال رسول الله ﷺ : « لم تأمرنى بالرجوع ؟ » فكتمه ماسمع . فقال :

« أظنك سمعت منهم لى أذىً ؟ » . فقال : نعم يارسول الله . قال : « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا » .

فسار رسول الله ﷺ إليهم وتقدمه أسيد بن الحضير فقال :

يا أعداء الله ، لانبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر فقالوا : يا بن الحضير ، نحن مواليك دون الخزرج ، وخاروا ، وقال : لاعهد بينى وبينكم ولا إلاّ ولا ذمة :

ودنا رسول الله ﷺ ، وترّسنا عنه ، ونادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم فقال : « أجيبوا ياإخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ، أتشتموننى ؟ . » . فجعلوا يحلفون مافعلنا ويقولون :

يا أبا القاسم ، ماكنت جهولا ، وفى لفظ : ماكنت فاحشا .

واجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً ، وبعث سعد بن عبادة رضى الله عنه

(١) اسم البئر .

بأحمال تمر لرسول الله ﷺ والمسلمين فكان طعامهم . وقال رسول الله ﷺ يومئذ :

« نعم الطعام التمر » .

ذكر محاصرة المسلمين لبنى قريظة :

(غدا رسول الله ﷺ سحراً ، وقدم الرماة ، وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصون يهود ، ورموهم بالنبل والحجارة ، وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا ، فباتوا حول الحصون ، وجعل المسلمون يعتقبون يعقب بعضهم بعضا ، فما برح رسول الله ﷺ يراميهم حتى أيقنوا بالهلكة ، وتركوا رمى المسلمين ، وقالوا : دعونا نكلمهم . فقال رسول الله ﷺ : « نعم » .

فأنزلوا نباش بن قيس فكلّم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على مانزلت عليه بنو النضير من الأموال والحلقة (١) وتحقن دماءنا ، ونخرج من بلادك بالنساء والذرارى ، ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة .

فأبى رسول الله ﷺ . فقال : نحقن دمائنا وتسلِّم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه ، وعاد نباش إليهم بذلك) (٢) .

١ ـ لقد جهد المسلمون فى الخندق ، ومضوا صباح هذا اليوم إلى أهليهم ، وانصرف المشركون خائبين بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وحرص رسول الله ﷺ على البطء بالانسحاب من الخندق ، حفظاً على الروح المعنوية العالية عند المسلمين ، وحتى لاتشهد بنى قريظة هذا المنظر فترى فيه وهناً فى الصف الإسلامى . ونادى عبد الله بن عمر وجابر ابن عبد الله فى محاولة لإعادة التجمع ، لكنها لم تجد ، فماذا كان ؟

كان أن الملائكة المقربين على رأسهم جبريل عليه الصلاة والسلام قاموا بمهمتين ضخمتين عوضاً عن المسلمين .

المهمة الأولى : ملاحقة قريش وغطفان إلى حمراء الأسد وتعقبهم حتى لايفكروا فى إعادة الكرة ثانية على المدينة ، فقد قام المسلمون بهذه المهمة رغم جراحاتهم بعد أحد بيوم ، وأقاموا بحمراء الأسد لصد أى كرٍّ محتمل عليهم ، أما اليوم فقد أدى ملائكة السماء هذه المهمة عن جنود الرحمن فى الأرض .

---

(١) السلاح .　　(٢) سبل الهدى والرشاد / جـ ٥ / ٧ ـ ١٢ مقتطفات .

المهمة الثانية : غزو بنى قريظة قبل الجيش الإسلامى ، وزلزلة الحصون بهم ، وقذف الرعب فى قلوبهم . لقد حدد جبريل عليه السلام هذه المهمة :

« وأنا عامد إليهم بمن معى من الملائكة ؛ لأزلزل بهم الحصون ، فاخرج بالناس » .

وشهد المسلمون موكب الملائكة الذين حضروا بصورة فرسان مدججين بالسلاح ، على رأسهم دحية بن خليفة الكلبى ، الذى حسبه المسلمون ذلك ولم يكن إلا جبريل أمير الملائكة المقربين فى السماء .

قال أنس رضى الله عنه : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم ـ موكب جبريل حين سار إلى بنى قريظة .

وشهد هذا الموكب كذلك بنو النجار أخوال رسول الله ﷺ ، وكتيبته الفدائية ، وماخرجوا بسلاحهم واصطفوا للمعركة إلا بأمره ، وأكد لهم رسول الله ﷺ مهمة الكتيبة الفدائية الأولى من الملائكة : « ذاك جبريل بعث إلى بنى قريظة ليزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم » .

وأدت ملائكة السماء المهمتين الصعبتين عن الجيش الإسلامى ريثما يأخذ قسطاً قليلاً من الراحة .

وبقيت كتيبة من الجيش الإسلامى تحمل السلاح ولم تلقه ، حين ألقى الجيش الإسلامى سلاحه ، هى كتيبة جبريل عليه الصلاة والسلام .

٢ ـ وساعات فقط هى التى أعطيت للجيش الإسلامى ، بعد المحنة العصيبة التى استمرت خمسة عشر يوماً . فقد كان نداء بلال الناطق الرسمى باسم الرسول ﷺ :

« من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

وتحركت الآلاف الثلاثة تلبى النداء على تعبئتها الكاملة ، حيث مضى بعضهم وصلى العصر بعد غروب الشمس تنفيذاً للنص النبوى ، « لايصلين العصر إلا فى قريظة » .

ومضى البعض الآخر بعد أن صلى العصر على الطريق ، تنفيذاً لروح النص النبوى الذى يدعوهم إلى المبادرة بالالتحاق بالجيش الإسلامى .

وحيث أننا نتحدث عن المواجهة مع اليهود ، لابد من هذه المقارنة .

لقد كتب الله تعالى على اليهود الذل والهوان ، وحرمهم أربعين عاماً من النصر يضربون فى التيه حين قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ .

لكن هذه الأمة نفسها والتى تلقت آلاف العقوبات الربانية . انتبهت لهذه الناحية فى القرن العشرين وعندما وُجِّه نداء النفير لحرب العرب المسلمين عام ١٩٧٣ من الإذاعة ، التحق بجيش اليهود فى اليوم الثانى مائة ألف جندى [١] واستطاعوا بهذه المبادرة . أن يعيدوا الكرة على الجيش العربى . بعد الهزيمة فى بداية المعركة ، وبقيت الأرض العربية كلها تحت وطأتهم .

وأمتنا بالأمس حين توجه النداء لها بلسان المذيع النبوى :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

تحرك الجيش الإسلامى كله خلال ساعات ، وكان على أسوار قريظة وحصونهم ، واستجاب كله لقائده عليه الصلاة والسلام قائلا بلسان الحال : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون » .

فكانت ثمرة هذا الالتزام أن تحقق النصر الضخم : ﴿ **فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم . .** ﴾ .

وأمتنا اليوم ، حين لايرتفع النداء للنفير باسم الإسلام طيلة هذا القرن . وتلجأ إلى النداء باسم كل الجاهليات المعاصرة . ولاتسير إلى المعركة إلا بقوة السلاح والإرهاب من الطغاة ـ لم تتمكن أن تسترد الأرض المقدسة التى كتب الله لها ، بل أعطت أرضاً جديدة لليهود الذين يحاربونها ، وكان الناطقون الرسميون باسم الحكام يمثلون مهمة أكثر ضخامة فى التهيئة للهزيمة النكراء ، هذه المهمة هى قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وإعدامهم وملاحقتهم فى كل أرض . فكانت الثمرة المرة كما قال تعالى :

﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾ [٢] .

---

(١) عن كتاب التقصير . للفيف من الصحفيين اليهود . ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت .

(٢) آل عمران / ٢١ ، ٢٢ .

ولم يأبه العدو لهذه الأمة أو يعترف بها إلا عندما تحركت داخل الأرض الإسلامية المحتلة تحمل شعار التوحيد ، وتعلن انتفاضتها الباسلة ضد اليهود المحتلين ، فيجزع العدو لذلك ، وينتبه العالم كله إلى حقيقة هذه الأمة ، ويعجز العدو بكل طائراته ودباباته وأسلحته أن يخمد ثورة الإسلام فى الأرض المقدسة ، وماكان ذلك إلا ثمرة للجهاد الإسلامى فى أقصى الأرض الإسلامية ، وعلى الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتى . فى أفغانستان ، فراح العالم كله يشهد لهذا الجهاد بالحق ويتعامل معه واقعًا يفرض وجوده فى الساحة الإسلامية .

٣ ـ وتحقق موعود الله عن المرحلة الجديدة خلال ساعات كما أنبأ بذلك عليه الصلاة والسلام :

« الآن نغزوهم ولايغزونا ، نحن نسير إليهم » .

فقبل ساعات كان المسلمون محاصَرون . وقبل ليلة واحدة ماكان يجرؤ أحدٌ منهم أن يغادر رحله من الخوف والبرد ، ورسول الله ﷺ يعده بالسلامة والرفقة والجنة ، وهذه الليلة المسلمون هم المحاصِرون لبنى قريظة ، وتم الانتقال العجيب بهذا القدر الإلهى الحاسم من :

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . . . ﴾ إلى : **﴿ وأنزل الذين كفروا من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . . ﴾**.

فالمؤمنون اليوم هم الذين يهددون الكفار بأن يميتوهم جوعاً .

والمؤمنون اليوم يأتى إليهم وفد اليهود ، ويعرض الجلاء بما حملت الإبل وتحقن لهم الدماء ، وتحفظ الذرارى والنساء فلا يعطون ، ثم يتنازلون أكثر فيعرضون الجلاء صفر اليدين وتحقن لهم الدماء ، وتحفظ الذرارى والنساء ، فلايعطون ، وليس أمامهم إلا النزول على حكم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ وحسب اليهود أن الحماية مضمونة لهم من حلفائهم الأوس ومن أجل ذلك كان موقف أسيد بن حضير رضى الله عنه الرجل الثانى فى الأوس ، قاصمة الظهر بالنسبة لهم ، فالأوس حلفاؤهم ، وحليفهم يقول لهم :

(يا أعداء الله لانبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعا) .

وكان المناسب أن يكون هو المتكلم الأول لهم حتى تنهد عزائمهم ، وتتحطم آمالهم ، كجزء من المعركة المعنوية وقذف الرعب فى قلوبهم .

وإذا باليهود الأرجاس يطالبون الأوس بعهدهم وحلفهم فى الجاهلية ، ويتناسون حلف رسول الله ﷺ لهم أن لايعينوا عليه عدوا ، بل أن يكونوا معه على من دهم يثرب ، ولايجدون عاراً أن يقولوا لأسيد :

(يابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج) .

(وخاروا) قبل أن يسمعوا الجواب ، وجاء الجواب « لاعهد بينى وبينكم ولا إلاً ولا ذمة » ، ويحق لأسيد بن الحضير رضى الله عنه أن يقف هذا الموقف ، فهو علاوة على أنه مسلم ملتزم بدينه هو الذى شهد غدر بنى قريظة بعينه ، ونعيد هنا جزءاً من حواره مع كعب بن أسد سيد بنى قريظة :

(ووقع كعب بسعد بن معاذ يسبه فقال أسيد بن الحضير : تسب سيدك ياعدو الله ؟ ما أنت له بكفء ! أما والله يابن اليهود لتولين قريش إن شاء الله منهزمة وتتركك فى عقر دارك ، فنسير إليك ، فتنزل من جحرك هذا على حكمنا . وإنك لتعلم النضير ، كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة وديتك نصف ديتهم ، وقد رأيت ماصنع الله بهم ، وقبل ذلك بنو قينقاع نزلوا على حكمنا .

كعب : يابن الحضير تخوفنى بالمسير إلى ؟ أما والتوراة لقد رآنى أبوك يوم بعاث ــ لولا نحن لأجلته الخزرج منها ، إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن القتال ولا يعرفه ، نحن والله نحسن قتالكم .

ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام) [1] .

وجاء أسيد بن الحضير رضى الله عنه ليحقق نبوءته ويحقق فراسته وثقته بنصر الله عز وجل ، وولت قريش ، وتركت كعباً فى عقر داره ، وها هو يرجو أسيداً العون والنصر ، وها هو الوفد اليهودى يطالب بالجلاء وحقن الدماء ، ولا شىء إلا ما قاله أسيد رضى الله عنه : (أن ينزلوا على حكم المسلمين) .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٥٨ .

إنها الفرصة المواتية لأسيد أن يشفى الله تعالى صدره ، ويذهب غيظه ، ويكون هو الناطق الأول بلسان رسول الله ﷺ ، ويهددهم بالموت جوعاً حتى ينزلوا على حكم الله ورسوله.

٥ ـ وجاء رسول الله ﷺ بشخصه ليكلمهم ، وذلك بعد أن أبدوا خبثهم ولؤمهم حين رأوا على بن أبى طالب رضى الله عنه ونفراً من المسلمين يضعون الراية حول حصونهم ، وحسبوا أن هذا الجيش الإسلامى كله ، فمضوا ينفثون حقدهم ويسبون رسول الله عليه الصلاة والسلام ويحرص سيد الفدائيين على رضى الله عنه على أن لايسمع رسول الله ﷺ كلمة تؤذيه من هؤلاء الأخباث فيطمئنه عليه الصلاة والسلام أنهم أجبن وأخس من أن يواجهوه ، ويناديهم سيد الخلق قائلاً :

« أجيبوا ياإخوة القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ » .

وماذا يجيب إخوة القردة والخنازير ؟

أين تحديهم ، وسبابهم ، وقذفهم المسلمين ، واستهزاؤهم بالإسلام : أين ذهب هذا كله ، لقد مضى مع الرعب الذى قذفه الله فيهم على يد سيد الملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام.

فيتصنعون الحكمة ، ويتلمسون المداراة ، ولايجرؤون على أن يقولوا أكثر من هذا القول بعد أن يذكرهم رسول الله ﷺ بخستهم ونذالتهم . « أتشتموننى ؟ » .

لم يملكوا أن يقولوا إلا : (يا أبا القاسم ماكنت جهولا) ، ويحلفون الأيمان أنهم مافعلوا ذلك والله يشهد إنهم لكاذبون : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون** ﴾ .

٦ ـ وحين كان أسيد بن الحضير رضى الله عنه سيد الأوس يبلغ اليهود القرار الحاسم فى حربهم ، كان سعد بن عبادة سيد الخزرج يمول الجيش الإسلامى بالطعام ، ويمث بأحمال التمر إلى المسلمين ، وهم يحاصرون بنى قريظة ، وإذا بالتمر الذى كان يتلمظ له عيينة بن حصن سيد غطفان يبقى كله بيد المسلمين ، ولايصل إلى تمرة واحدة منه ، وإذا بأحمال التمر تفد إلى الجيش الإسلامى لتطعمه ، و « نعم الطعام التمر » (١) .

---

(١) فى الحديث : نعم السحور التمر . انظر صحيح الجامع الصغير / ٦ / ٣٠ ، وقد رواه البيهقى وابن حبان .

﴿ .. فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا .. ﴾ :

(فلما عاد نباش إلى قومه وأخبرهم الخبر ، قال كعب بن أسد :

يامعشر بنى قريظة ، والله قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً ، فخذوا ماشئتم منها . قالوا : وماهى ؟ قال :

نتابع هذا الرجل ونصدِّقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم ، والله إنكم لا تعلمون أن محمداً نبى ، ومامنعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبياً من بنى إسرائيل ، فهو حيث جعله الله ، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس ـ يعنى حيى بن أخطب ـ ولقد كان حيى بن أخطب دخل معهم فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ـ أتذكرون ما قال لكم ابن جواس حين قدم عليكم : تركت الخمر والخمير والتمير ، وأُجئت إلى السقاء والتمر والشعير . قالوا : وماذاك ؟ قال : إنه يخرج بهذه القرية نبى ، فإن يخرج وأنا حى أتبعه وأنصره ، وإن خرج بعدى ، فإياكم أن تخدعوا عنه . واتبعوه فكونوا أنصاره وأولياءه ، وقد آمنتم بالكتابين ، كليهما الأول والآخر ، وأقرئوه منى السلام . وأخبروه أنى مصدق به .

قال كعب : فتعالوا فلنتابعه ولنصدقه .

فقالوا : لانفارق حكم التوراة أبداً ، ولانستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتى السيوف ، ولم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدنَّ النساء والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟

قال : فإن أبيتم علىَّ هذه ، فإن الليلة ليلة السبت ، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها . فانزلوا ، لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

قالوا : نفسد سبتنا ونُحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ !

فقال : مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

فقال ثعلبة وأسيد ابنا سعية : وأسيد بن عبيد ابن عمهم ـ وهم نفر من هذيل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير ، نسبهم فوق ذلك وهم بنى عم القوم ـ :

يامعشر بنى قريظة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأن صفته عندنا ، وحدثنا به علماؤنا ، وعلماء بنى النضير ، هذا أولهم ـ يعنى حيى بن أخطب ـ مع جبير بن الهيِّبان أنه أصدق الناس عندنا ، هو خبَّرنا بصفته عند موته .

قالوا : لانفارق التوراة .

فلما رأى هؤلاء النفر إباءهم نزلوا فى تلك الليلة التى فى صبحها نزلت بنو قريظة فأسلموا ، وأمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

وقال عمرو بن سعدى : يامعشر يهود ، إنكم قد حالفتم محمداً على ماحلفتموه عليه ، فنقضتم عهده الذى كان بينكم وبينه ، فلم أدخل فيه . ولم أشرككم فى غَدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه ، فاثبتوا على اليهودية ، وأعطوا الجزية ، فوالله ما أدرى أيقبلها أم لا .

قالوا : فنحن لانقر للعرب بخرج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

قال : فإنى برىء منكم .

وخرج فى تلك الليلة مع ابنى سعية ، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد ابن مسلمة . فقال محمد : من هذا ؟ قال : عمرو بن سُعدى ، قال محمد : مُرَّ ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ، وخلى سبيله ، وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح ، فلما أصبح غدا فلم يدر أنى هو حتى الساعة ، فذُكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال : ذاك رجل نجاه الله بوفائه .

ذكر طلب يهود أبا لبابة وما وقع له ونزول توبته :

قال أهل المغازى :

وجدَّ رسول الله فى حصارهم ، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ ليلة السبت أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر فنستشيره فى أمرنا ، فأرسله إليهم رسول

الله ﷺ . فلما رأوه قام إليه الرجال ، وبهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرَّق لهم . فقال كعب بن أسد :

ياأبا لبابة ، إنا قد اخترناك على غيرك ، إن محمداً قد أبى إلا أن ننزل على حكمه ، أفترى أن ننزل على حكمه ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه (أى أنه الذبح) .

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ، فندمت واسترجعت ، فنزلت ، وإن لحيتى لمبتلة من الدموع ، والناس ينتظرون رجوعى إليهم حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً أخرى ، حتى جئت إلى المسجد ، ولم آت رسول الله ﷺ ، فارتبطت وكان ارتباطى على الاسطوانة المخلقة التى يقال لها اسطوانة التوبة ، وقلت : لا أبرح من مكانى حتى أموت أو يتوب الله علىَّ مما صنعت ، وعاهدت الله تعالى بألا أطأ أرض بنى قريظة أبداً ، ولأُرى فى بلد خنت الله تعالى ورسوله ﷺ فيه أبدا . وبلغ رسول الله ﷺ ذهابى وماصنعت ، فقال : دعوه حتى يحدث الله تعالى فيه ما شاء ، لو كان جاءنى استغفرت له . فإذا لم يأتنى وذهب فدعوه .

وأنزل الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ . قال أبو لبابة : فكنت فى أمر عظيم ، فى حر شديد عدة ليال لا آكل فيهن ولاأشرب . وقلت : لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا ، أو يتوب الله على ، وأذكر رؤيا رأيتها فى النوم ونحن محاصرون بنى قريظة . كأنى فى حمأة آسنة ، فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ، ثم أرى نهراً جارياً ، فأرانى اغتسلت فيه حتى استنقيت ، وأرانى أجد ريحاً طيبة ، فاستعبرتها أبا بكر ، فقال : لتدخلن فى أمر تغتم له ، ثم يفرج عنداذ ، فكنت أذكر قول أبى بكر وأنا مرتبط فأرجو أن ينزل الله تعالى توبتى ، فلم أزل كذلك حتى ماأسمع الصوت من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى .

قال ابن إسحاق : حدثنى يزيد بن عبد الله بن قسيط :

إن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو فى بيت أم سلمة . قالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك . قالت : فقلت : يارسول الله ، مم تضحك ؟ أضحك الله سنك ؟ . قال : « تيب على أبى لبابة » قلت : ألا أبشره يارسول الله ؟ قال « بلى إن شئت » . قال : فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن

يضرب عليهن الحجاب ، فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك ؛ فسار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده ، فلما مرّ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ :

فلما جهدهم الحصار ، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله بأسراهم فكتفوا رباطاً ، وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ، ونحوا ناحية ، وأخرجوا النساء والذرية من الحصون فكانوا ناحية ، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام ، وجُمعت أمتعتهم وما وجد فى حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب ، ووجدوا فيها ألفاً وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع ، وألفى رمح ، وألفاً وخمسمائة ترس وحجفة (1) ، وأثاثاً كثيراً ، وآنية كثيرة ، وخمراً ، وجراراً ، وسكراً ، فهريق ذلك كله ولم يخمسه ، ووجد من الجمال النواضح عدة ، ومن الماشية شيئاً كثيراً ، فجمع هذا كله .

وتنحى رسول الله ﷺ وجلس وتواثبت الأوس إلى رسول الله ﷺ . فقالوا : يا رسول الله ، حلفاؤنا دون الخزرج ، وقد رأيت ما صنعت ببنى قينقاع بالأمس حلفاء ابن أبى ، وهبت له ثلاثمائة حاسر ، وأربعمائة دارع ، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نقضهم للعهد ، فهبهم لنا . ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم حتى أكثروا عليه وألحوا ونطقت الأوس كلها ، فقال رسول الله ﷺ « أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم » ؟ قالوا بلى . قال : « فذلك إلى سعد بن معاذ » .

وقال ابن عقبة : فقال رسول الله ﷺ : « اختاروا من شئتم من أصحابى » .

فاختاروا سعد بن معاذ فرضى بذلك رسول الله ﷺ ، وسعد يومئذ فى المسجد بالمدينة ، ، فى خيمة كمية بنت سعيد الأسلمية . وكانت تداوى الجرحى وتلم الشعث وتقوم على الضائع الذى لا أحد له ، وكان لها خيمة فى المسجد ، وكان رسول الله ﷺ جعل سعد بن معاذ فيها ليعوده من قريب ، فلما جعل رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد خرجت الأوس حتى جاءوه ، فحملوه على حمار بأعرابى بشندة (2) من ليف . وعلى الحمار قطيفة فوق الشندة ، وخطامه من ليف ، وكان رجلاً جسيماً ، فخرجوا حوله يقولون :

---

(1) الحِجفة : الترس من جلود .

(2) بشندة من ليف : تشبه الإكاف ـ الحمار ـ يجعل مقدمته حنو وهو السَرج .

يا أبا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم ، فقد رأيت ابن أبي وماصنع في حلفائه ، وأكثروا من هذا وشبهه ، وهو لايتكلم ، حتى إذا أكثروا عليه قال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . فقال الضحاك بن خليفة الأنصاري: واقوماه ! وقال غيره منهم نحو ذلك ، ثم رجع الضحاك إلى الأوس فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه ، وأقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حول رسول الله ﷺ جلوس ، فلما طلع سعد بن معاذ ـ وفي الصحيحين : فلما دنا من المسجد ـ أي الذي كان فيه رسول الله ﷺ ، أعدَّه ببني قريظة أيام حصارهم للصلاة ـ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » ـ وفي لفظ « خيركم . » ـ فأما المهاجرون من قريش فإنما يقولون : إنما أراد الأنصار . وأما الأنصار فيقولون : قد عم بها رسول الله ﷺ المسلمين ، وعند الإمام أحمد : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . وكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون : قمنا له على أرجلنا صفين ، يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ .

وفي حديث جابر رضي الله عنه عند ابن عائذ : فقال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم ياسعد » . فقال : الله ورسوله أحق بالحكم . قال : « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » .

وقالت الأوس الذين بقوا عند رسول الله ﷺ : ياأبا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قد ولاك الحكم في أمر مواليك فأحسن فيهم ، واذكر بلاءهم عندك .

فقال سعد : أترضون حكمي ؟ ـ لبني قريظة ـ قالوا : نعم قد رضينا بحكمك وأنت غائب عنا اختياراً منّا لك ، ورجاء أن تمنَّ علينا كما فعل غيرك بحلفائه بني قينقاع ، وأثرنا عندك أثرنا وأحوج ماكنا اليوم إلى مجازاتك . فقال سعد : ماآلوكم جهداً .

فقالوا : مايعني بقوله هذا ؟ ثم قال سعد : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ماحكمت ؟

قالوا : نعم . ثم قال سعد للناحية التي فيها رسول الله ﷺ : وعلى من هاهنا مثل ذلك ؟

فقال رسول الله ﷺ ومن معه : نعم .

فقال سعد : فإني أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسى ، وتسبى النساء والذرية ، وتقسم الأموال وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار . فقالت الأنصار :

إخواننا كنا معهم . فقال : أحببت أن يستغنوا عنكم .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سموات » .

وذكر ابن إسحاق فى غير رواية البكائى : أن رسول الله ﷺ قال فى حكم سعد : « بذلك طرقنى الملك سحراً » . وكان سعد بن معاذ فى الليلة التى فى صبيحتها نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا فقال : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها فإنه لاقوم أحب إلى من أن أقاتلهم من قوم كذبوا رسولك وآذوه وأخرجوه ، وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها عنا وعنهم فاجعلها لى شهادة ، ولاتمتنى حتى تقرّ عينى من بنى قريظة .

فأقر الله تعالى عينه منهم .

ذكر قتلهم وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم :

فلما حكم سعد بما حكم ، وانصرف رسول الله ﷺ يوم الخميس لتسع ليال ـ كما ذكر محمد بن عمر وابن سعد وجزم به الدمياطى ، وقيل لخمس ، كما جُزم به فى الإشارة ـ خلون من ذى الحجة ، وأمر بهم فأدخلوا المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بالسبى فسيقوا إلى دار أسامة بن زيد والنساء والذرية إلى دار رملة بنت الحارث ، ويقال : حبسوا جميعاً فى دار رملة ، وأمر لهم رسول الله ﷺ بأحمال تمر فنثرت لهم ، فباتوا يكدمونها كدم الحمر ، وأمر بالسلاح والأثاث والمتاع والثياب فحمل إلى دار ابنة الحارث وبالإبل والغنم ترعى هناك فى الشجر . فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا إلى السوق ، فأمر بأخدود فخدت فى السوق ما بين موضع دار أبى الجهم العدوى إلى أحجار الزيت ، فكان أصحابه هناك يحفرون ، وجلس رسول الله ﷺ ومعه علية أصحابه ، ودعا برجال بنى قريظة ، فكانوا يخرجون أرسالاً تضرب أعناقهم فى تلك الخنادق فقالوا لكعب بن أسد ـ وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً ـ ياكعب ، ماترى محمداً يصنع بنا ؟

قال : مايسوءكم ، ويلكم ! على كل حال لاتعقلون ! ! ألا ترون الداعى لاينزعٍ ، وأنه من ذهب منكم لايرجع ؟ هو والله السيف ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم علىّ . قالوا : ليس هذا بحين عتاب . لولا أنا كرهنا أن نزرى برأيك مادخلنا فى نقض العهد الذى كان بيننا وبين محمد .

قال حيى بن أخطب : اتركوا ماترون من التلاوم فإنه لايرد عنكم شيئاً ، واصبروا للسيف . وكان الذين يلون قتلهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام .

وجاء سعد بن عبادة والحُباب بن المنذر فقالا : يارسول الله ، إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم . فقال سعد بن معاذ : ماكرهه من الأوس أحد فيه خير ، فمن كرهه فلا أرضاه الله . فقام أسيد بن الحضير فقال : يارسول الله ، لاتبقين داراً من دور الأوس إلا فرقتهم فيها ، فمن سخط فلا يرغم الله إلا أنفه ، فابعث إلى دارى أول دورهم .

ففرقهم فى دور الأوس فقتلوهم .

ثم أتى بحيى بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه عليه حلة شقجية ـ وقال ابن إسحاق : فقاجية ـ قد لبسها للقتل ، ثم عمد إليها فشقها أنملة أنملة لئلا يسلبه إياها أحد ، فقال له رسول الله ﷺ حين طلع : « ألم يمكن الله منك ياعدو الله ؟ » .

قال : بلى والله ، أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، وقد التمست العز فى مكانه فأبى الله إلا أن يمكنك ، ولقد قلقلت كل مقلقل ، ولكنه من يخذل الله يُخذل .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، لابأس بأمر الله ، قدر وملحمة وكتاب كتبت على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

وأتى بنباش بن قيس وقد جابذ الذى جاء به حتى قاتله فدقَّ الذى جاء به أنفه فأرعفه ، فقال رسول الله ﷺ للذى جاء به : « لم صنعت هذا به ؟ أما كان فى السيف كفاية ؟ » . فقال : يارسول الله ، جابذنى لأن يهرب . فقال نباش : كذب والتوراة ياأبا القاسم ، لو خلانى ماتأخرت عن موطن قتل فيه قومى حتى أكون كأحدهم . فقال رسول الله ﷺ :

« أحسنوا إسارهم وقَيِّلوهم واسقوهم حتى يبردوا ، فتقتلوا من بقى ، لاتجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح » . وكان يوماً صائفاً . فقيَّلوهم وسقوهم . فلما أبردوا راح رسول الله ﷺ ، فقتل من بقى ، وأُتى رسول الله ﷺ بكعب بن أسد فقال رسول الله ﷺ : « كعب ؟ » قال : نعم ياأبا القاسم . قال :

« ما انتفعتم بنصح ابن جواس لكم ، وكان مصدقاً بى ، أما أمركم باتباعى ؟ وإن رأيتمونى أن تقرونى منه السلام » ؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيرنى يهود بالجزع من السيف لاتبعتك ، ولكنى على دين يهود .

قال رسول الله ﷺ « قدّمه فاضرب عنقه » ، فأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم .

وروى ابن إسحاق ، والإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى فى صحيحه ، والنسائى ، عن عطية القرظى ، قال : كنت غلاماً فوجدونى لم أنبت فخلوا سبيلى .

وروى الطبرانى عن أسلم الأنصارى ، قال : جعلنى رسول الله ﷺ على أسارى قريظة ، فكنت أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيته أنبت ضربت عنقه ، وإن لم أره جعلته فى مغانم المسلمين ، ولم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ فقتلوا إلى أن غاب الشفق ، ثم رُدَّ عليهم التراب فى الخندق . كل ذلك بعين سعد بن معاذ ، فاستجاب الله دعوته وأقر عينه ، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة من بنى النضير يقال لها نباته ؛ قتلت خلاد بن سويد بحجر رحى ألقته عليه فشدخت رأسه فمات)[1] .

﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شئ قديرا ﴾ .

(ولما اجتمعت المغانم أمر رسول الله ﷺ بالمتاع فبيع فيمن يريد ، وبيع السبى وقسمت النخل أسهماً ، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً ، فأسهم للفرس بسهمين ، ولصاحبه سهم وللراجل سهم وقاد رسول الله ﷺ ثلاثة أفراس ، فلم يضرب إلا سهماً واحداً ، وأسهم لخلاد بن سويد وقد قتل تحت الحصن ، وأسهم لأبى سنان بن محصن ، مات ورسول الله ﷺ محاصرهم ، وكان يقاتل مع المسلمين ، وكان المسلمون ثلاثة آلاف وكانت سهمان الخيل والرجال على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً للفرس سهمان ولصاحبه سهم ، وكان السبى ألفاً من النساء والصبيان . فأخرج رسول الله ﷺ خمسة قبل بيع المغنم ، فجزأ السبى خمسة أجزاء . فأخذ سهماً ، فأخذ خمساً ، وكان يعتق منه ويهب منه ويخدم من أراد ، وكذلك النخل عزل خمسه ، وكل ذلك يسهم عليه خمسة أجزاء ، ويكتب فى سهم منها لله ثم يخرج السهم فحيث صار سهمه أخذه ولم يتخير ، وصار الخمس إلى مجمة بن جزء الزبيدى ، ثم فض أربعة أسهم على الناس . وأحذى رسول الله ﷺ النساء اللاتى حضرن القتال ولم يسهم لهن ، وهن صفية بنت عبد المطلب ، وأم عمارة نسيبة ، وأم سليط ، وأم العلاء الأنصارية ، والسميراء بنت قيس ، وأم سعد بن معاذ ، وكبشة بنت رافع .

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد للإمام محمد بن يوسف الصالحى السيرة الشامية / جـ ٥ / ص ١٣ ـ ٢٥ .

ولما بيعت السبايا والذرية ، بعث رسول الله ﷺ بطائفة ـ قال محمد بن عمر ـ إلى الشام مع سعد بن عبادة يبيعهم ويشترى منهم سلاحاً وخيلاً . وقال ابن إسحاق وغيره : بعث سعد بن زيد الأنصارى الأشهلى بسبايا من بنى قريظة إلى نجد ، وابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً ، واشترى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما طائفة فاقتسما ، فسهمه عثمان بمال كثير ، وجعل عثمان على كل من اشتراه من سهمهم شيئاً موفياً ، فكان يوجد عند العجائز المال ولا يوجد عند الشعراب فربح عثمان مالاً كثيراً)[1] .

﴿ . . . وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

(وقال يزيد بن رومان ، وابن زيد ، ومقاتل : يعنى حنينا ولم يكونوا نالوها : فوعدهم الله إياها .

وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والروم . وقال عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ، **﴿ وكان الله على كل شيء قديرا ﴾** فيه وجهان : أحدهما : على ماأراد بعباده من نقمة أو عفو قدير ، قاله محمد بن إسحاق ، الثانى : على ماأراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير ، قاله النقاش)[2] .

١ ـ (لابأس بأمر الله ، قدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل) .

هكذا لخص حيى بن أخطب مقتل بنى قريظة . إننا نشهد مصرع أمة جزاءً بما كسبت نكالاً من عند الله ، ونشهد فناء جيل كامل عصى الله وحاد رسله ، وهى جزء من الأمة التى اصطفاها الله على العالمين ، وليس هذا جديداً على بنى إسرائيل :

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون ﴾[3] .

وقد حاولوا هنا بعد أن أدوا دور التكذيب للرسول الذى جاء بما لا تهوى أنفسهم ، حاولوا القتل والإبادة ، وأن يستأصلوا خضراء هذا النبى ، وأن يفنوه وقومه عن بكرة أبيهم .

قال حيى لكعب : (ويحك إنى جئتك ببحر طام وبعز الدهر . جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وجئتك بكنانة حتى أنزلتهم بردمة ، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بالزغابة ، قد قادوا الخيل . وامتطوا الإبل ، والعدد عشرة آلاف ، والخيل ألف

---

(١) سبل الهدى والرشاد ص / ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / م٦ /جـ١٤ / ١٦١ .

(٣) البقرة من الآية ٨٧.

فرس ، وسلاح كثير ، ومحمد لايفلت فى فورنا هذا ، وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه) .

بهذا التخطيط وبهذا المكر جاء زعيم يهود حيي وعلى هذا الأساس نقض كعب بن أسد العهد :

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾(١).

﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٢) .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ (٣) .

والله تعالى بالمرصاد لأعدائه ، ولكن الجديد الآن فى الأمة الأخيرة ، الأمة الوارثة ، أمة محمد ﷺ ، أن يكتب الله عقاب أعدائها بيدها ، فى حرب مباشرة عوان :

﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ (٤) .

لقد كانت سنة الله تعالى فى الأمم الغابرة أن يهلكها بعذاب من عنده بعد الصراع الفكرى الطويل ، وبعد إصرار الكافرين على كفرهم :

﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٥) .

وبنو إسرائيل قد شهدوا هلاك عدوهم فرعون وقومه وهم فى الجانب الآخر من البحر ، وخاضوا معارك قاتلوا فيها وقُتلوا وانتصروا ، ومن أجل ذلك تترى الأجيال عندهم .

ليكونوا هم المعاقبون لحربهم لأنبيائهم ، ولاعجب فالقتل فيهم أصيل منذ المراحل الأولى لدعوتهم :

﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٦) .

---

(١) إبراهيم / ٤٦ . (٢) آل عمران / ٥٤ . (٣) النمل / ٥١ .
(٤) التوبة / ١٤ ، ١٥ . (٥) العنكبوت / ٤٠ . (٦) البقرة / ٥٤ .

لقد اتخذوا العجل إلهاً من دون الله وموسى عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم ، وفى مناجاة ربه ، فلا غرو أن يأتى جيل من أجيالهم بعد قرون متطاولة فيخطط لقتل النبى الذى كانوا يستفتحون به على أعدائهم ، وأن يجمعوا هؤلاء الأعداء جميعاً ويجيشوا الجيوش للفتك به وبالذين آمنوا معه ، وأن يقولوا لعبدة الأوثان ـ ضريبة تحركهم معهم ـ أنتم أهدى من محمد وأقوم سبيلا :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ (١) .

لاغرابة بعد هذه المواقف جميعاً أن يقتل منهم كل من أنبت ، أو كل من جرت عليه الموسى ، فلا يبقى منهم رجل غادر ، وأن تسبى ذراريهم ونساؤهم :

﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ .

لقد لقوا هذا الجزاء من فرعون الطاغية :

﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ (٢) .

ورفع الله عنهم هذا البلاء باتباعهم لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ، وإذ بفرعون يبرز بين ظهرانيهم بحيى بن أخطب ، فهو أبو جهل اليهود ، فيتبعوه ، فينالوا المصير السابق نفسه ولكن على يد المؤمنين ، وعلى يد الرسول الذى أوصاهم موسى عليه الصلاة والسلام باتباعه .

فهل لنا نحن المؤمنين أن نتعظ بهذه المواقف ؟ حتى ولو كنا الدعاة وأبناء الحركة الإسلامية ؟

هل لنا بأن نتعظ ، فلا نلقى المصير المشؤوم نفسه يوم نحيد عن منهج الله ، ونحاد الله ورسوله .

لقد لقيت أمة محمد اليوم جزاء محاداتها لله ورسوله على يد المشركين واليهود والنصارى ما استباحوا به بيضتهم ، وأخذوا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وقتلوا أبناءهم ، وهذا القرن خير شاهد على ذلك .

---

(١) النساء / ٥١ .　　(٢) البقرة / ٤٩ .

فسنة الله تعالى واحدة لمن أطاعه ولمن عصاه :

﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولايجد له من دون الله ولياً ولانصيرا ﴾ (١) .

٢ - وحين نتحدث عن الهلاك الجماعي للأمة ، لابد أن نتحدث عن دور القيادات فيها ، والتي تقودها إلى الهلاك أو النجاة ، وأى دراسة لمثل هذه العقوبة بعيداً عن دراسة دور القيادات هي دراسة مبتورة ناقصة .

فقد جنَّب كعب بن أسد قومه بني قريظة كل الأزمات السابقة بحكمته ، ووفائه مع محمد ﷺ ، في الوقت الذى ذلت قبله النضير ولقيت مصرعها ، وفى الوقت التى ذلت فيه قينقاع وأجليت عن المدينة .

لكن دخول هذا الأخطبوط اليهودى - حيي - عليه هو الذى صرعه وصرع قومه ، ولقد كان يرى هذا رأى العين فيقول له :

(ويحك جئتنى والله بذل الدهر ، وبسحاب يبرق ويرعد ليس فيه شيء ، وأنا فى بحْرٍ لجى لا أقدر على أن أريم دارى ، ومالى معى والصبيان والنساء) .

وفى مقالة سابقة لحيى : (إنك امرؤ مشئوم قد شأمت قومك حتى أهلكتهم ، فارجع عنا فإنك إنما تريد هلاكى وهلاك قومى . . إنى عاقدت محمداً وعاهدته . فلم نر منه إلا صدقاً ووفاءً ، والله ماأخفر لنا ذمة ، ولاهتك لنا ستراً ، وقد أحسن جوارنا) .

ولو بقى القائد كعب على موقفه ، وأصر على طرد حيي لجنب قومه هذه الكارثة الماحقة .

ولكن شيطان يهود - حيي - مازال به يفتله فى الذروة والغارب حتى صرفه عن رأيه .

واستدعى كعب بن أسد أركان حربه الخمسة ، قيادات بنى قريظة . وهم : الزبير بن باطا ، ونباش بن قيس ، وغزال بن سموأل ، وعقبة بن زيد ، وكعب بن زيد ، وعرض عليهم الأمر . وكان رأيهم جميعاً خطأ هذا الرأى ، خاصة عندما قال الزبير بن باطا أمام إغراء حيى لكعب بمقتله معه :

(وماحاجتك إلى أن تُقتل ويُقتل معك حيى) .

(١) النساء / ١٢٣ .

فأسكت القوم .

لقد وضح للقيادة خطل القرار وخطورته وأنه قد يودى بقومهم جميعاً ، فلم يتخذوا الموقف الحاسم منه ، ويحولوا دون تنفيذه ، ولو أدى ذلك لتزعزع الثقة بقيادة كعب ، لقد كان الحرص على المركز والسمعة والجاه يحول دون تبصر العواقب ، وحرصاً على زعامة كعب وافقوا على الرأى :

(نحن نكره أن نزرى برأيك أو نخالفك وحيى من قد عرفت شؤمه) .

وكان الأخطبوط ـ حيى ـ الذى يربط الخيوط كلها من كل جانب قد أعلن نقض العهد فى صفوف بنى قريظة قبل استشارة هذه القيادات حتى لايدع مجالاً للتراجع :

(فخرج على بنى قريظة وهم حِلَق حول منزل كعب بن أسد فخبرهم الخبر) .

والتراجع الآن يزرى بقيادة كعب بن أسد ، ويضعضع من مكانته ، فقررت قيادة قريظة تبنى هذا الموقف الذى قادهم إلى حتفهم .

ثم كانت فرصة أخرى وأخيرة حين حاصرهم محمد عليه الصلاة والسلام ، وأراد كعب أن يكفر عن خطيئته وجريمته ، فى محاولة لاستنقاذ قومه بعد أن قادهم إلى الهلاك ، فأكد لهم أن لانجاة لهم إلا بالإسلام والإيمان بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون أنه حق ، وبذل جهداً مضنياً لإقناعهم بكل مايملك من علم ومعرفة وختم كلامه بقوله :

(فتعالوا فلنتابعه ولنصدقه ولنؤمن به ، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا فنكون بمنزلة من معه .

لكن الذين أشربوا فى قلوبهم العجل لايسهل عليهم أن يستجيبوا لداعى الهدى :

(قالوا : لانكون تبعاً لغيرنا ، نحن أهل الكتاب والنبوة ، ونكون تبعاً لغيرنا ؟ فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم . قالوا : لانفارق التوراة أبداً ولاندع ماكنا عليه من أمر موسى) .

وبذلك أخفق كعب أيما إخفاق ، فدعا لأن يغسل العار عن أمته ، بأن يموتوا كراما . فيقتلوا أولادهم ونساءهم ، ويجاهدوا محمداً عن آخر رجل منهم ، فأبوا ذلك ، ودعاهم لمحاولة انتحارية بأن يكسروا السبت ويهاجموا المسلمين فتنازعوا التلاوم بينهم وتضاربت الآراء .

وهذا الذى يقع عندما تحين الكارثة ، ويحيق البلاء ، يحاول كل مسئول أن يرمى التبعة على غيره :

(فاختلفوا وسقط فى أيديهم ، وندموا على ماصنعوا ، ورقوا على النساء والصبيان) .

وفى اللحظات الأخيرة حين كانوا يقادون إلى مصارعهم ، حاول كل واحد منهم أن يتنصل من مسئوليته حتى المجرم الأكبر حيى بن أخطب .

كعب يقول : ويلكم ! على كل حال لاتعقلون ، ألا ترون الداعى لاينزع ، وأنه من ذهب منكم لايرجع ، هو والله السيف ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم .

القادة الأربعة يقولون : ليس هذا بحين عتاب ، لولا أن كرهنا أن نزرى برأيك مادخلنا فى نقض العهد الذى كان بيننا وبين محمد .

حيى بن أخطب : اتركوا ماترون من التلاوم ، فإنه لايرد عنكم شيئاً واصبروا للسيف .

ومضى الجميع إلى حتفهم وهم يرون مصرع قومهم .

ولابد أن نذكر أن هذه القيادات بعد أن اتخذت الموقف ، أخذتها العزة بالإثم ، وعندما جاءها وفد رسول الله ﷺ ناصحاً ومحذرا أبرزت كل حقدها ولؤمها .

فنباش بن قيس يشتم سعد بن عبادة ويقول : عضضت ببظر أمك .

وغزال بن سموأل يقول لسعد بن معاذ : أكلت أير أبيك .

فهم فى النتيجة يتحملون جميعاً مسئولية مصرعهم ومصرع قومهم على أيديهم .

وهكذا تفعل القيادة التى تستعبدها العصبية وحب المركز والعزة بالإثم بقومها ، فتوردهم موارد الهلكة .

٣ ـ وفى مقارنة بين أمتين لابد لنا أن نجلى الصور المتقابلة ؛ لندرك جوهر انتصار الأمة ، وجوهر فشلها وهزيمتها .

لقد كانت الأمة المسلمة وعلى رأسها محمد ﷺ تتربى بالقرآن الكريم ، ووجدنا فصيل المنافقين الذى انفضح أمره ، ولم يتجاوز حسب الروايات التى ترفع عدده سبعين

أو ثمانين من ثلاثة آلاف ، واستطاعت التربية النبوية ودور الصحب مع رسول الله ﷺ أن يغزوا هذا التجمع المنافق ، ويرفعوا كثيراً من أفراده إلى مستوى الصف الإيمانى المسلم .

وحين نتحدث عن عظمة هذا البناء وندع النفاق والمنافقين جانباً ، نجد أن المجتمع الإسلامى الفتى المبنى بالقرآن والسنة ، والذى يربيه سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ـ قد ارتفع بكل أفراده ، ولم يبرز فيه إلا نقطة ضعف واحدة ، مثلها فرد واحد هو أبو لبابة رضى الله عنه ، والذى تأثر فى لحظة ضعف بجو اليهود وبكاء نسائهم ، ووضع يده على حلقه مشيراً إلى اليهود أنه الذبح إن نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، وكما عبر رضى الله عنه عن هذا الموقف بقوله :

(فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله) .

وهو موقف مشهود من العدو ، وهى نقطة الضعف الوحيدة التى برزت فى هذا المجتمع النبوى الخالص ومن فرد واحد من المسلمين ، وسرعان ما تراجع عنها ، وأمضى أحلك أيامه حتى تاب الله عليه ، بينما نجد فى الصورة المقابلة أمة استهلكت وتمرغت فى الشر ، ونبتت فى الضلال ، ولم يعد فى صفها داعى هدى ، إلا تلك الأصوات الثلاثة التى استفاقت فى اللحظات الأخيرة ، وكان لها من القوة الداخلية فى أعماقها أن ترفض الغدر بمحمد ﷺ ، وتعلن مفاصلة قومها وتتسلل فى جنح الليل من أسوار بنى قريظة ، وتعلن براءتها من غدرهم ، وتنضم إلى الصف الإسلامى فيما بعد ، وكانت هذه الأصوات الثلاثة هى التى مثلها الأخوان ابنا سعية ثعلبة وأسيد وابن عمهم الثالث أسد بن عبيد ، بعد أن أعلنوا كلمة الحق مدوية فى قلب يهود :

(يا معشر بنى قريظة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأن صفته عندنا ، وحدثنا به علماؤنا وعلماء بنى النضير ، هذا أولهم ـ يعنى حيى بن أخطب مع جبير بن الهيبان : أنه أصدق الناس عندنا هو خيرنا بصفته عند موته ، قالوا : لا نفارق التوراة . فلما رأى أولئك النفر إباءهم نزلوا تلك الليلة التى فى صبحها نزلت بنو قريظة ، فأسلموا ، وأمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم) .

قد يكون فى صف يهود من يحمل مثل هذه القناعات ، ولكنه يؤثر السلامة فى

قومه ، ويدين لقيادته بالولاء قبل أن يدين لقناعاته ، وهو أعجز عن المواجهة ، فكان مصيره مصير قياداته وأتباعهم .

والأمة التي تستحق الهلاك لا ينجو منها إلا الذين ينهون عن السوء :

﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين . وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ [1] .

ولم يكن هذا العذاب الذى استؤصلت به بنو قريظة إلا حلقة من السلسلة التى تمثل عتوهم فى التاريخ ، وجزءاً من العهد الذى قطعه الله تعالى على نفسه **﴿ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾** إذا استمروا على طغيانهم ، والله غفور رحيم لمن اهتدى وأناب ولو كان فرداً واحداً .

ونخلص من هذه المقارنة إلى أن المجتمع الإسلامى هو مجتمع قوى فى إيمانه وبناء أفراده ، لم يشذ فيه إلا فرد واحد ضعف فى لحظة ضعف ، ثم عاد فارتفع إلى مستوى صفه الإيمانى .

والمجتمع اليهودى مجتمع منهار فى عقيدته وبناء أفراده ، لم يشذ فيه إلا أربعة نجاهم الله بوفائهم ، وانضموا إلى حظيرة الإسلام ، هم الأبناء الثلاثة المذكورون ، وعمرو بن سعدى الذى تبرأ من غدر يهود وغادر حصون بنى قريظة ، ولم يدر إلى أين ذهب وقال عنه عليه الصلاة والسلام :

« ذاك رجل نجاه الله بوفائه » .

٤ ـ وبعد هذه الجولة على مستوى الجماعة والأمة ، لابد من الوقوف مليًا على مستوى التحليل النفسى للنماذج البشرية التى برزت فى غزوة بنى قريظة .

ويمكن القول أن لدينا رصيداً يمثل خمسة نماذج أو معادن ، كما استعمل التعبير القرآنى :

---

(١) الأعراف / ١٦٤ ـ ١٦٧ .

أ ـ النموذج الرباني نموذج سعد بن معاذ رضى الله عنه :

ولسنا بصدد استعراض شخصه ، ولكننا ندرس دوره فى غزوة بنى قريظة ، والمستوى الرفيع الذى مثله فيه ، فهو رضى الله عنه : دعا ربه : (ولاتمتنى حتى تشفنى من بنى قريظة) .

إنهم حلفاؤه وهو الذى سمع منهم قذارتهم وتهكمهم برسول الله ﷺ ، وهو الذى تلقى من أحد قادتهم حين أخذهم الزهو والعزة بالإثم تلك الكلمة الخبيثة : أكلت أير أبيك .

وهو الذى حاول أن يحرك كوامن الخير فيهم لعلهم يرعوون فما زادوا إلا صلفاً واستعلاء على الله ورسوله ، وتركهم وقلبه يئن من الدماء لهذا الغدر المبيت الذى أقدموا عليه فى أسوأ الظروف .

لهذه العوامل جميعاً ، وهو سيد قومه ، وسيد الأوس ، ومن أبرز سادات المسلمين ـ ضبط جميع انفعالاته وحدد موقفهم بقوله : (مابيننا وبينهم أربى من المشاتمة) .

هذا القلب الموصول بالله ، هذا القلب الربانى ، استجاب الله تعالى له ، وإذا بسيد الخلق يدعوه ليحكم فى بنى قريظة ، والأوس يختارونه ليحكم بينهم ، واليهود يختارونه ليحكم عليهم .

وكانت فرصة مواتية ، هيأت لسعد أن يبنى عرش ذاته أمام هذا الإجماع الساحق عليه ، وهذا مادعاه إليه قومه وتواثبوا عليه يقولون :

(يا أبا عمرو ، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم ، فأحسن ، فقد رأيت ابن أبى وما صنع فى حلفائه ، وأكثروا من هذا وشبهه) .

ولو فعل ذلك لأرضى قومه الأوس ورسخ قيادته فيهم ، ولأصبح اليهود من بنى قريظة يدينون له بالولاء طيلة حياتهم فقد أنقذهم من الموت ، والمسلمون جميعا يتحدثون من خلال هذه الثقة التى أعطيت له عن أبعاد هذه الزعامة ، ولحقق انتصاراً ساحقاً على منافسه سعد بن عبادة ، إلى آخر هذه الأمجاد التى يتسابق عليها القواد ويتنافس عليها الزعماء .

ولكن هذا الرجل الربانى حسم الموقف بكلمة واحدة ، فليس له ذات منفصلة عن

دينه ، لقد انصهر فى بوتقة هذا الدين وصيغ فى كل جزئية من جزئياته بهذه العقيدة ، ومسح كل ذرة من ذرات الجاهلية ، وخلع ربقة الجاهلية من عنقه ، وأعطى ولاءه لله وحده ولرسوله ، ورمى خلف ظهره كل أمجاد الجاهلية السابقة ، ورسم الأفق الأعلى للمؤمن :

وقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

إن سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام يعرف المعدن النفيس الذى ينتمى إليه سعد ، فلم يتردد لحظة واحدة فى أن يترك حكمه عليه الصلاة والسلام وينزل عنه إلى حكم سعد ابن معاذ ، ويعلن هذا أمام الملأ جميعا أنه يقبل بحكم سعد . إنه يعلم عليه الصلاة والسلام أى طراز من الرجال هو ، وبذلك رمى الأوس بقائدهم ليحكم بحلفائه بنى قريظة .

وحين وقف رضى الله عنه بين الصفين ، بذلت اليهود كل ماتملك من إغراء ورجاء وتذلل وصغار لسعد على أمل أن ينقذهم ، وحركوا فيه كل نوازع الزعامة السابقة ، ولم يدروا أنها قد استؤصلت من نفسه منذ زمن بعيد .

قالوا : نعم قد رضينا بحكمك ، وأنت غائب عنا ، اختياراً منا لك ، ورجاء أن تمن علينا كما فعل غيرك بحلفائه من بنى قينقاع ، وأثرنا عندك أثرنا ، وأحوج ما كنا اليوم إلى مجازاتك .

وخبرة الرسول ﷺ بنفسية سعد الربانية ، لم تجعل الشك يحوم لحظة واحدة فيه بجنديه الذى يعرض اليهود كل إغراءاتهم عليه ، ورضى ولأول مرة في التاريخ أن يحكم جندى من جنوده بينه وبين عدوه ، ويعلن على الملأ قبوله بحكمه ، بقوله :

(وعلى من ها هنا مثل ذلك) .

وعندما أصدر حكمه رضى الله عنه لم يراع أحد إلا الله ورسوله .

لم يراع رغبة قومه ، ولم يراع رغبة اليهود ، ولم يراع الرغبات المدفونة فى نفسه ، والتى حاولت أن ترفع رأسها وتبث سمومها فيه . لقد رمى بذلك كله خلف ظهره وقال :

أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسى ؛ وتسبى النساء والذرية ؛ وتقسم الأموال ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار .

ولم تقبل مراجعة الأنصار حين قالوا : إخواننا كنا معهم .

فأكد حكمه بقوله : أحببت أن يستغنوا عنكم .

وتكفيه شهادة رسول رب العالمين :« لقد حكمت فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سماوات » . وفى رواية : « بذلك طرقنى الملك سحراً » .

هذا هو الموقف الأول ، والموقف الثانى الذى لاحق فيه تنفيذ هذا الحكم عندما قال سعد بن عبادة رضى الله عنه : إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم .

فقال : ماكرهه من الأوس أحد فيه خير ، فمن كرهه فلا أرضاه الله .

وحين نتحدث عن سعد بن معاذ لابد أن نتحدث عن دور القيادات كذلك فى الصف الإسلامى ، فموقف عبد الله بن أبى فى بنى قينقاع كان موقفاً سيئا مزق الصف الإسلامى . وتحمل الصف عقابيله فى لقاء أحد . وأحرج رسول الله ﷺ .

وخلاف السعدين فى الرأى ، سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة يمكن أن يمزق الصف الإسلامى كذلك وينذر بكارثة فيه ، وقد رأينا فى حديث الإفك شيئا من هذا ، تداركه عليه الصلاة والسلام بحكمته ، وإبراز ظاهرة الأوس ، وعدم رضاهم بقتل بنى قريظة - لو تركت تنمو وتستفحل لأوجدت هوة فى الصف الإسلامى يصعب ردمها وقد تجر إلى مواقف أسوأ .

فكان الحسم العظيم من سيد الأوس ، قطعاً للفتنة من دابرها ، ولم يكن موقف أسيد ابن حضير أدنى من موقف أخيه سعد ، بل دعا إلى الحسم العملى للفتنة ، بأن دعا إلى أن يباشر الأوس قتل حلفائهم من بنى قريظة ، لتئد هذه الفكرة فى مهدها ، فتوحد موقف القائدين للأوس ، سعد وأسيد . وقيامهم بالإشراف على تنفيذ الحكم بأيد أوسية ، اقتلع الفتنة من جذورها ، والتحمت القلوب كلها حول قائدها ، وارتفع الصف الإسلامى بهذه التربية الربانية آفاقًا جديدة .

ب - النموذج البشرى الربانى :

ونقصد فى هذا النموذج ذلك النوع الذى تتحرك أحياناً نوازعه البشرية فى داخله ، ولكنه لا يستجيب لهذه النوازع ، ويتجاوزها ملتزما بالموقف الإسلامى الأصيل ، وقد شهدنا نماذج من هذه المعادن الراقية من خلال الأوس أنفسهم أو قسم منهم على الأقل ، فهم قد سيطر عليهم فى لحظة من اللحظات أن يتساووا مع إخوانهم الخزرج ، وحسبوا أن سلامة بنى قينقاع على يد عبد الله بن أبى هو ميزة لابن أبى وللخزرج من ورائه .

وألحوا في مثل هذه الميزة ، ولا ينفرد بها إخوانهم الخزرج . واعتبروا تكليف سعد بالحكم تمثيلاً لهذه الميزة ، وألحوا عليه في ذلك .

لكن عندما أصدر حكمه رضي الله عنه ، سرعان ما استجابوا له ، بل استجابوا كذلك . وهي قمة عالية في التربية ، إلى أن يباشروا قتل حلفائهم بأيديهم تنفيذاً لتوجيه سيديهم سعد وأسيد ، ومثلوا صورة الالتزام الإسلامي الخالص .

جـ ـ النموذج الثالث : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئًا :

ومثّله أبو لبابة رضي الله عنه ، وليس أبو لبابة نكرة في الصف الإسلامي ، بينما لاحظنا أن النموذج الثاني ليس بين أيدينا بأسماء له .

أبو لبابة أحد النقباء الاثني عشر . وأبو لبابة يقع اختيار اليهود عليه لاستشارته ، وثقة رسول الله ﷺ بجندية أبي لبابة ثقة عالية ، وحين نقول : إنه من النقباء الاثني عشر ، فهذا يعني أنه من المستويات القيادية العالية في الصف الإسلامي ، ولهذا الموقع الذي يتبوؤه ولقدرة تأثيره في قومه ، وأهميته في الصف الإسلامي حرص اليهود على استشارته ، وقد نقل لنا الواقدي رحمه الله صورة المباحثات هناك على لسان أبي لبابة نفسه رضي الله عنه :

(عن السائب بن أبي لبابة بن عبد المنذر عن أبيه قال : لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم ، دعاني رسول الله ﷺ فقال : « اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس » قال : فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار ، فبهشوا إلي وقالوا : يا أبا لبابة ، نحن مواليك دون الناس كلهم . فقام كعب بن أسد فقال : أبا بشير ، قد علمت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بعاث ، وكل حرب كنتم فيها ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ، ومحمد يأبى يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ، ولم نطأ له حرأ أبدا ، ولم نكثر عليه جمعًا أبداً ، قال أبو لبابة : أما ما كان هذا معكم فلا يدع هلاككم ، وأشرت إلى حيي بن أخطب . قال كعب : هو والله أوردني ثم لم يصدرني فقال حيي : ما أصنع ؟ كنت أطمع في أمره ، فلما أخطأني آسيتك بنفسي يصيبني ما أصابك . قال كعب : وما حاجتي إلى أن أقتل أنا وأنت وتسبى ذرارينا ؟ قال حيي : ملحمة وبلاء كتب علينا . ثم قال كعب : ما ترى فإنا قد اخترناك على غيرك ؟ إن محمداً قد أبى إلا أن ننزل على حكمه ، أفننزل ؟ قال : نعم فانزلوا ــ وأومأ إلى حلقه ــ هو الذبح . قال : فندمت

فاسترجعت ، فقال لى كعب : مالك يا أبا لبابة ؟ فقلت : خنت الله ورسوله ، فنزلت وإن لحيتي لمبتلة بالدموع ، والناس ينتظرون رجوعى إليهم ، حتى أخذت من وراء الحصن طريقا آخر ، حتى جئت إلى المسجد فارتبطت ..وبلغ رسول الله ﷺ ما صنعت ، فقال : « دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء لو كان جاءنى استغفرت له ، فأما إذا لم يأتنى وذهب فدعوه » . قال أبو لبابة : فكنت فى أمر عظيم خمس عشرة ليلة وأذكر رؤيا رأيتها .. فأرجو أن تنزل توبتى) (١)

هذا النموذج القيادى قد عاش فى جوعاطفى رهيب ، وكما تقول رواية ابن هشام :

(فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرقاً لهم) .

واختياره من بين الأوس جميعاً جعل فى نفسه دافعاً خفياً أن يرد هذا الجميل وينصح لهم ، وفى غمرة هذه المشاعر المتدافعة ، تصرف بلسانه ما يقتضيه دينه ، وأشار بيده إلى حلقه ، تأثراً بهذا الجو العاطفى الشديد ، وكأنه يحذرهم من النزول على حكم الله ورسوله وهو الذبح .

لكن دفقة الإيمان القوية ، كانت كشافاً باهراً له ، أحرقت كل محاولات المواقد الذابلة فى نفسه ، والتى تريد أن تحيا من جديد مواقد الزعامة والشهرة والتكتل والتجمع الذى يمثله ، فلم تنزل يده عن حلقه إلا عرف أنه خان الله ورسوله وأعلن ذلك على الملأ .

لقد بدا الخطأ أمامه من الجسامة والضخامة ، وهو من هو بين المسلمين ، بحيث لم يجرؤ على الوقوف بين يدى سيده عليه الصلاة والسلام ، ومضى حالاً إلى قاعة المحكمة ، بحيث يراه جميع المسلمين ويعرفون زلته ورأى أن يقدم حياته مقابل خطيئته رجاء أن يتوب الله عليه .

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (٢) .

لقد جاءه برهان ربه فانتشله من تلك الوهاد السحيقة ، وأتى ليرتبط بسارية المسجد ، يتحدث بحديثه الغادى والرائح ، ولتكن العقوبة من جنس الذنب ، فإذا كانت ذاته قد

(١) المغازى للواقدى / ٢/ ٥٠٦ .
(٢) يوسف / ٢٤ .

تحركت لحظة ورقت للكفار ، فليحرق هذه النفس على مذبح الإيمان ، وليحطم شهرته وسمعته وموقعه وزعامته ، حتى تنزل توبة الله عليه .

إنه نموذج من أرفع المستويات الإيمانية لكنه زل ، وسرعان ما نجا من زلته ، واحتمل خمسة عشر يوما من العذاب النفسي والجسدى حتى كادت أن تزهق روحه ، إلى أن جاءته البشرى بأن تيب على أبى لبابة .

إننا نرى أن صورة اليهود الأربعة الذين أعلنوا إسلامهم فى اللحظة الحاسمة ، تقترب فى المستوى الإيمانى من أبى لبابة مع الفارق فى الدرجة لا فى النوع .

فقد كان أبو لبابة فى القمة ، حيث زل لحظة ، وارتفع فوق زلته .

وكان اليهود الأربعة قد صحوا فى اللحظة المناسبة ، فاستجابوا ليقظة ضميرهم ، وأعلنوا ولاءهم لله ورسوله ، حين أعلنوا براءتهم من غدر يهود ، وتعنت يهود فى الإصرار على الباطل .

د ـ النموذج الرابع : غلب هواه بقية الخير عنده :

ويمثله كعب بن أسد الذى استيقظ ضميره عدة مرات ، لكن نفسه كانت أكبر من ضميره ، فاستقر أخيراً على غيه . إنه يمثل ذلك الطراز من الرجال الذين تتحرك فى نفوسهم بوادر الخير ، لكن عندما تتعارض هذه البوادر مع الزعامة والذات فهم ينحازون إلى جانب الزعامة والذات .

إن قيصر الروم ومقوقس مصر وكعب بن أسد يهود وأبا طالب قريشى نماذج واحدة . لا يزال فى نفسها بقايا خير . ولو توافقت هذه البقايا مع المحافظة على مركزها وزعامتها . فهى تستجيب لها ، بل تسعى لها ، لكن عندما تتعارض ، فالمقتل الذات . والمنحر الزعامة . وهو ينتهى أخيراً خارج الصف الإسلامى .

لقد دعا قيصر قومه إلى الإسلام بعد أن تبين له أنه الحق ، وعندما نخر بطارقته ، ورأى أن زعامته أصبحت فى مهب الريح ، تدارك الأمر وقال : أحببت أن أختبر صلابتكم فى دينكم .

وسيد يهود كعب ، يدعو قومه بحرارة إلى الإسلام فلا يستجيبون ، وتتصارع زعامته وقناعاته ، فيمضى وراء زعامته ، وأتيحت له فى اللحظة الأخيرة أن يسلم ، وجاشت فى نفسه الرغبة ، ونشهدها من خلال هذه المحادثة :

(رسول الله : كعب ؟ ـ قال : نعم يا أبا القاسم .

رسول الله : ما انتفعتم بنصح ابن جواس لكم كان مصدقاً بى ، أما أمركم باتباعى وإن رأيتمونى أن تقرونى منه السلام ؟ ؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم .

ولولا أن تعيرنى يهود بالجزع من السيف لا تبعتك) .

لقد قال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب : « قلها أشهد لك بها يوم القيامة » فقال : لولا أن تعيرنى قريش بأنى قلتها خوفا من الموت ، لقلتها أسرك بها ، ولكن على ملة عبد المطلب . والموقف نفسه مع كعب : ولولا أن تعيرنى يهود بالجزع من السيف لاتبعتك ، ولكنى على دين يهود .

وصدر الحكم بعد الفرصة الأخيرة وقبل الموت :« قدمه فاضرب عنقه » .

هذه المعادن التى تحمل فى ثناياها جوانب كثيرة من الخير ، بحاجة إلى رعاية وعناية ، فمن خلالها يمكن أن تستفيد الدعوة الكثير انطلاقاً من مواقعها ومواقع الخير عندها ، ومع ذلك قد تغلبها ذاتها فلا تدخل الحظيرة الإسلامية ، وقد تنتقل من طور إلى طور ومن موقع إلى موقع ، مع مصلحة زعامتها فتقترب من النموذج المنافق .

لقد نخرت بطارقة قيصر فتراجع .

ونخرت بطارقة النجاشى للحبشة . لكن كان إيمانه أقوى . فقال : وإن نخرتم . والله مازاد عيسى على ماقالوا ولا هذه القشة .

هـ ـ النموذج الخامس : النموذج الشيطانى :

ويمثله أبو جهل يهود ، حيى بن أخطب ، فذاك يقتل دوافع الخير فى نفسه كلما حاولت الظهور ؛ لأنه حليف كبير لجند إبليس .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولوشاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾ . [1]

فهو الذى أعلن موقفه منذ اللحظة الأولى للقائه ، من خلال محادثاته مع أخيه أبى ياسر بن أخطب ، ونقلتها لنا السيدة أم المؤمنين صفية ابنته :

---

(١) الأنعام / ١١٢ ، ١١٣ .

أبو ياسر : أهو هو ؟

حيى : نعم والله .

أبو ياسر : أتعرفه وتثبته ؟

حيى : نعم .

أبو ياسر : فما فى نفسك منه ؟

حيى : عداوته والله مابقيت .

إنه مجبول من الشر وبالشر ، لقد قالها أبو جهل قبله :

(تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وصرنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبى ، لا والله لا يكون هذا أبدا) .

ويعرض كبير المجرمين على الموت .

فيقول ابن مسعود لأبى جهل : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟ فلا يتنازل عن عبودية ذاته وتأليه نفسه ويقول :

أعمد من رجل قتلتموه ؟

أى : هل فعلتم أكثر من أنكم قتلتم عميد قومه .

وتكرر الصورة نفسها ، فيسأل رسول الله ﷺ الشيطان الأكبر حيى ويقول له : « ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟ » .

حيى : بلى والله ، أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك .

إنه مصر على كفره وعناده وهو مقدم على الموت ، ويعلم أنه يعادى الله ، وهل يفوز من يعادى الله ؟ (وقد التمست العز فى مكانه ، فأبى الله إلا أن يمكنك ، لقد قلقلت كل مقلقل ولكنه من يخذل الله يخذل) .

ويعلن تحيره وهو يلقى مصرعه : (لا بأس قدر وكتاب وملحمة كتبت على بنى إسرائيل) .

وهذا أخبث النماذج . وهو فى الطرف النقيض من النموذج الربانى ، فهو العدو اللدود للأنبياء والرسل .

وسعد رضى الله عنه . الذى اهتز عرش الرحمن لوفاته ، يمثل في المقابل :

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (١) .

إن معركة الحق والباطل قائمة . وإن كان الربانيون يمثلون دعاة الحق فى هذا الوجود ، والشياطين من الإنس والجن يمثلون قادة الضلال . والباطل ـ قد بقى النماذج الثلاثة رمزاً للفريقين ، فالنموذج الثانى والثالث يمثلا جماهير دعوة الحق ، ويمثل النموذج الرابع جمهور دعوة الباطل ، والتربية الجهادية تعنى أكثر ماتعنى بالسمو بالنموذجين الثانى والثالث ؛ ليقترب من النموذج الربانى . وحين تنتصر دعوة الحق يمكن للنموذج الرابع أن يكون هدفاً فى التربية ، وينضم إلى الجماهير المؤمنة . وحتى يرتفع إلى المستوى الثالث أمامه آماد وآفاق ، قد يزل ويسقط ، وقد يتذبذب بين الإيمان والكفر ، فيمثل النموذج المنافق ، وقد يعادى الدعوة حينا بكل ما لديه من خبث ، وقد يهادنها ببقية الخير عنده .

وتبقى المهمة الأولى دائما وهى الدعوة إلى الله وراء الجهاد الذى يفسح الطريق أمامها لتغزو قلوب الناس **﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾** (٢) .

---

(١) آل عمران / ١٤٦ ـ ١٤٨ .

(٢) البقرة / ٢٥١ .

سورة الفتح

الفتح المبين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا . ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما . وينصرك الله نصراً عزيزا ﴾ .

في أى أجواء تنزلت هذه السورة العظيمة ؟ وما هو الوضع النفسي الصعب الذى جاءت السورة لتعالجه ؟

مكان النزول : فى الطريق بين مكة والمدينة .

(أخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن المِسْور بن مخرمة ومروان قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها) (١).

وأخرج أحمد ، والبخارى والترمذى والنسائى وابن حبان ، وابن مردويه ، عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يردَّ علي . فقلت فى نفسى : ثكلتك أمك يابن الخطاب نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يردَّ عليك ، فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن . فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فرجعت ، وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء . فقال النبى ﷺ : « لقد أُنزل عليَّ الليلة سورة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها : **﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر .. ﴾**) . (٢)

(وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن مجمع بن جارية الأنصارى قال :

شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إلى كراع الغميم إذا الناس يوجفون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا أوحى إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته على كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ،

(١ ، ٢) الدر المنثور / ٧ / ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

فقرأ عليهم : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ فقال رجل : يارسول الله ، أوفتح هو ؟ قال : « والذى نفسى بيده إنه لفتح »)[1] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

(لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكآبة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما** ﴾ أو كما شاء الله ، فقال نبى الله ﷺ : لقد أنزلت علىّ آية أحب إلى من الدنيا جميعا »)[2] .

وفى رواية أخرى عن أنس بن مالك فى قوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا** ﴾ قال : (نزلت على النبى ﷺ مرجعه من الحديبية ، وقد حيل بينهم وبين نسكهم ، فنحر الهدى بالحديبية وأصحابه فخالطوا الكآبة والحزن فقال : « لقد أنزلت على آية أحب إلى من الدنيا جميعا » فقرأ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عزيزا** ﴾ فقال أصحابه : هنيئا لك يا رسول الله ....)[3] .

من خلال الروايات المذكورة لاحظنا أن السورة نزلت والمسلمون تغشاهم الكآبة ، ويخالطهم الحزن ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يراجع رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، ولا يرد عليه الرسول ﷺ ولا خيار لنا من الوقوف عند حدوث صلح الحديبية الذى تم بكل تفصيلاته ، ونشهد من خلاله الأوضاع النفسية التى نزلت بالمسلمين على أثره ، وكيف جاء القرآن الكريم ليغسل هذا الأسى ويمحو هذه الكآبة ، ويسعد رسوله ﷺ بأحب آية إليه .

روى ابن إسحاق ، وأبوعبيد ، وعبد الرزاق ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، ومحمد بن عمر ، عن المسْور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم ، والشيخان ، عن سهل بن حنيف : (أن عثمان لما قدم مكة هو ومن معه ، رجع سهيل بن عمرو وحويطب ومكرز إلى قريش فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب النبى ﷺ إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب ـ اشتد رعبهم ، فقال أهل الرأى منهم : ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ، ولا

---

(١) الدر المنثور/ ٧ / ٥٠٨ .

(٢، ٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / م ١١ / جـ ٢٦ / ٤٣ ، ٤٤ .

يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه ، ويرجع قابلاً فيقيم ثلاثا وينحر هديه وينصرف ، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على ذلك ، فلما أجمعت قريش على الصلح والموادعة بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب ومكرز وقالوا لسهيل :

إيت محمداً فصالحه ، وليكن في صلحك ألايدخل عامه هذا ، فوالله لاتحدثُ العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً . فأتى سهيل رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال :

« قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا » وفي لفظ : فقال رسول الله ﷺ : « سهل أمركم » . وجلس رسول الله ﷺ متربعاً ، وكان عبَّاد بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش على رأسه ، وهما مقنعان بالحديد ـ فبرك سهيل على ركبتيه ، فكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام وتراجعا ، وارتفعت الأصوات وانخفضت . وقال عباد بن بشر لسهيل : اخفض من صوتك عند رسول الله ﷺ . والمسلمون حول رسول الله ﷺ جلوس ، فجرى بين رسول الله ﷺ وبين سهيل القول حتى وقع الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا ، وأن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا ، فإذا كان العام المقبل قدمها فدخل مكة ، فأقام فيها ثلاثا ، فلايدخلها إلا بسلاح الراكب ، والسيوف في القُرب لايدخلها بغيره . وأنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ـ وإن كان على دين محمد ـ ردّه إلى وليه ، وأنه من أتى قريشاً ممن اتبع محمدا لم يردوه عليه ، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة [1] مكفوفة ، وأنه لا إسلال [2] ولا إغلال [3] ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فكره المسلمون هذه الشروط وامتعضوا منها ، وأبى سهيل إلا ذلك ، فلما اصطلحوا ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، ألست نبي الله حقاً ؟ قال : « بلى » قال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : « بلى » قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ . قال : « بلى » قال : علام نعط الدنية في ديننا ؟ ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟

---

(١) عيبة مكفوفة : أي تكف عنا ونكف عنك . (٢) الإسلال : السرقة .

(٣) الإغلال : الخيانة .

فقال رسول الله ﷺ : « إنى عبد الله ورسوله ، ولستُ أعصيه ولن يضيعنى ، وهو ناصرى » . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف حقاً ؟ قال :« بلى ، أفأخبرتـك أنك تأتيـه العام ؟ قال : لا : قال :« فإنك آتية ومطـوف به » فذهب عمـر إلى أبى بكـر متغيظاً ولـم يصبر ، فقال : يا أبا بكـر ، أليـس هذا نبى اللــه حقـاً ؟ قال : بلى . قال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنـة وقتلاهـم فى النار ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعط الدنية فى ديننا ، ونرجع ولـم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسـك بغرزه [1] حتى تموت .. فوالله إنه لعلى الحق ــ وفى لفظ : فإنه رسول الله ــ فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، قال :

أوليس كان يحدثنـا أنه سـنأتى البيت ونطـوّف به ؟ قال بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به . فلقى عمر من هذه الشروط أمراً عظيمًا وقال كما فى الصحيح : والله ما شككـت منذ أسلمت إلا يومئذ ، وجعل يرد على رسول الله ﷺ الكلام . فقال أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ، تعوّذ بالله من الشيطان واتهم رأيك . قال عمر : فجعلت أتعوّذ بالله من الشـيطان حياءً ، فما أصابنى شىء قط مثل ذلك اليـوم ، وعملـت بذلك أعمالاً ــ أى صالحة ــ لتكفر عنى مامضى من التوقف فى امتثال الأمر ابتداءً ـ كما عند ابن إسحاق وابن عمر الأسلمى . قال عمر : فمازلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا .

وروى البزار عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اتهموا الرأى على الدين ، فلقد رأيتنى أرد أمر رسول الله ﷺ برأيى ، وما ألوت على الحق . قال : فرضى رسول الله ﷺ وأبَيْتُ حتى قال : « ياعمر ، ترانى رضيت وتأبى ؟ » .

فقال سهيل : هات ، اكتب بيننا وبينك كتاباً ، فدعا رسول الله ﷺ عليًا ، كما فى حديث البراء عند البخارى فى كتاب الصلح وكتاب الجزية ، ورواه إسحاق بن راهويه من حديث المسور ، ومروان ، وأحمـد ، والنسائى ، والبيهـقى ، والحاكـم وصححـه ، عـن عبد الله بن مغفل المزنى ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل ـ وأسلم بعد ذلك : ـ أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدرى ما هو ، ولكن اكتب

---

(١) الغرز : بمنزلة الركاب للسرج والمراد : الزم أمره .

باسمك اللهم كما كنت تكتب . اكتب فى قضيتنا مانعرف . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبى ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ﷺ » ، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قاتلناك ، اكتب فى قضيتنا مانعرف ، اكتب : محمد بن عبد الله . فقال رسول الله ﷺ لعلى : « امحه » فقال على : ما أنا بالذى أمحاه - وفى لفظ : أمحاك ، وفى حديث محمد بن كعب القرظى : فجعل على يتلكأ . وأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله - ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد [1] » انتهى .

وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة أخذ بيد على ومنعاه أن يكتب إلا (محمد رسول الله) وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، فارتفعت الأصوات ، فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ويومىء بيده إليهم : اسكتوا . فقال : « أرنيه » فأراه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال : « اكتب :محمد بن عبد الله » .

قال الزهرى : وذلك لقوله ﷺ :

« لا يسألونى خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

فقال رسول الله ﷺ « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف » فقال سهيل : لا والله لا تحدث العرب أنا أخذنا ضُغطة [2] ، ولكن لك من العام المقبل . فكتب . فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه ، وإن كان على دينك إلا سددته إلينا .

فقال المسلمون : سبحان الله ، أيكتب هذا ؟ كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟! فقال رسول الله ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم ، فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

وروى الإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، عن سلمة بن الأكوع قال : فبينما الناس على ذلك إذ أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين ، وكان أبوه سهيل قد أوثقه فى الحديد وسجنه ،

(١) يشير إلى ما وقع لعلى رضى الله عنه يوم الحكمين ، فإنه لما كتب الكاتب هذا ما صالح عليه على أمير المؤمنين أرسل معاوية يقول : لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين بايعته ، امحها واكتب على بن أبى طالب . فقال على : الله أكبر مثل بمثل ، امحها .

(٢) ضُغطة : قهراً .

فخرج من السجن ، واجتنب الطريق ، وركب الجبال حتى أتى الحديبية ، فقام إليه المسلمون يرحبون به ويهنئونه فلما رآه أبو سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بتلبيبه ثم قال : يامحمد ، ، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده. فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذن لا أصالحك على شيء أبدا. قال « فأجزه لي (١) » قال : ماأنا بمجيزه لك . قال : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفاعل . فقال مكرز وحويطب : بلى قد أجزناه لك . فأخذاه فأدخلاه فسطاطاً فأجازاه وكف عنه أبوه . فقال أبو جندل : أي معاشر المسلمين ، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ماقد لقيت ؟ وكان قد عُذّب عذاباً شديداً ، فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال :« يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً ، وإنا لا نغدر » . ومشى عمر بن الخطاب إلى جنب أبي جندل وقال له : اصبر واحتسب فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . وجعل عمر يدني قائم السيف منه . قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه . قال : فضن الرجل بأبيه .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ ، قد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فزادهم أمر أبي جندل على مابهم ، ونفدت القضية وشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين ، أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، وعلى بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، ومكرز بن حفص وهو مشرك .

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » ، فوالله ما قام رجل منهم ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فاشتد ذلك عليه ، فدخل على أم سلمه فقال : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا » ــ وفي رواية : « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » ــ .

فقالت : يا رسول الله ، لا تلمهم ، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ورجوعهم بغير فتح . يانبي الله ، اخرج ، ولا تكلم

---

(١) أجزه لي : امضى لي فعلي ولا أرده عليك واستثنه من القضية .

أحداً كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

فجلى الله تعالى عن الناس بأم سلمة .

فقام رسول الله ﷺ فاضطبع [1] بثوبه ، فخرج فأخذ الحربة ، ويمم هديه ، وأهوى بالحربة إلى البدن رافعاً صوته : « بسم الله والله أكبر » ونحر ، فتواثب المسلمون إلى الهدى وازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض .

وروى ابن سعد ، عن جابر : فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر البدن ، دخل قبة له من أدم حمراء ، ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الكعبى ، فحلق رأسه . ورمى شعره على شجرة كانت إلى جنبه من سمرة خضراء ، فجعل الناس يأخذون الشعر من فوق الشجرة فيتماصونه ، وأخذت أم عمارة طاقات من شعره ، فكانت تغسلها للمريض ، وتسقيه فيبرأ ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، وحلق بعض المسلمين وقصرّ بعض . فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبته وهو يقول : « رحم الله المحلقين » قيل : يا رسول الله والمقصرين قال : « رحم الله المحلقين » ثلاثا ثم قال : « والمقصرين » . وروى ابن أبى شيبة عن ابن عباس أنهم قالوا : يا رسول الله ما بال المحلقين ظاهرت عليهم الترحيم ؟ قال « لأنهم لم يشكوا » رواه البيهقى مرفوعاً) [2] .

١ ـ لعل هذا العرض المسهب كله ، يستطيع أن يقدم صورة صادقة عن الوضع النفسى ، والأزمة العنيفة التى كان يعيشها المسلمون عند تنزل الآيات ، وبعد عقد الحديبية ، وبالوقوف عند العوامل الرئيسية التى صعدت الأوضاع النفسية لديهم نجد ما يلى :

أ ـ لقد خرجوا من المدينة وهم لا يشكون فى الفتح ، وهم يعلمون أن رؤيا رسول الله ﷺ حق . وحين يرى الرؤيا تأتى كفلق الصبح .

(والسبب فى ذلك ما رواه الفريابى ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ، والبيهقى عن مجاهد ، ومحمد بن عمر ، عن شيوخه قالوا : أرى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت ، وأخذ مفتاحه ، وعرَّف مع المعرّفين [3]) . [4]

(١) اضطبع بثوبه : أدخله تحت إبطه اليمنى وألقاه على عاتقه الأيسر .
(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى : / ٥/ مقتطفات من ص ٨٥ ـ ٩٤ .
(٣) عرَّف مع المعرفين : وقف بعرفات .
(٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٥٥ .

ولم يخطر بذهن معظمهم أن هذا الأمر إلا واقع هذا العام ، خاصة وقد تحركوا على ضوء هذه الرؤيا .

ب ـ تصاعد الأحداث النفسية ، وأخذ البيعة على الموت ، أو على أن لا يفروا فقد عبّأت هذه البيعة النفوس وشحنتها إلى أعلى حدود التعبئة ، وأصبحت جاهزة للمواجهة ، وزادهم ثقة بنصر الله عز وجل وبين يديهم رؤيا رسول الله ﷺ التي تأتي كفلق الصبح .

جـ ـ الانتقال المفاجيء من هذا الجو المتوتر العالي إلى عملية المصالحة ، وليس فيها دخول مكة . وفيها بعض الشروط المجحفة بحق المسلمين ـ كما يبدو للوهلة الأولى ـ جعل الصف كله في شبه حالة انهيار كامل ، وعواطف مكظومة ، ومشاعر مكبوتة .

د ـ وجاء قدوم أبي جندل بن سهيل رضي الله عنه ، ليرفع الجو إلى درجة الانفجار ، فهذه أول ثمرة مرة من ثمار هذه الشروط المجحفة ، فأبو جندل يصرخ ويستغيث بالمسلمين :

يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟

وهذا الموقف يعني أنه موقف كل مسلم يفتن ويعذب في سبيل الله ، والمسلمون لا يحركون ساكنا نحوه ، وهم غير مضطرين إلى ذلك .

هـ ـ إضافة إلى تمادي سهيل بن عمرو الذي بلغ به التحدي لمشاعر المسلمين تحدياً سافرًا ، فهو يقول لحبيبهم ورسولهم عليه الصلاة والسلام : اكتب : اسمك واسم أبيك ، وهو لا يعترف بالرحمن أبداً . فلم يقبلون هذا الضيم ، وهم قد بايعوا جميعاً على الموت ؟

٢ ـ وقد دفع هذا التوتر النفسي إلى موقف عام اشترك به الجيش كله ، وهو تلكؤهم عن النحر والحلق ، حين وجّه رسول الله ﷺ أمره إليهم بذلك ، فلعل طارئاً يطرأ ، ويعيد المواجهة ، وتنتكس القضية ، ويلغى الصلح . فكان كل مسلم ينتظر أخاه الآخر ليحلق وينحر ، ومعنى النحر والحلق أنهم عادوا إلى المدينة خائبين ، فلم العجلة في ذلك ، وهو الموقف الذي أغم رسول الله ﷺ حتى ليقول لزوجه أم سلمة رضي الله عنها : « ألا ترين إلى الناس ، آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي ؟ » فتجيبه بحكمتها وحصافتها رضي الله عنها :

(يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم ، مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ورجوعهم بغير فتح ..) .

لقد لخصت أم سلمة رضى الله عنها الموقف تلخيصاً شاملاً حياً ، استوعب الصورة كاملة . فهذا هو الوضع النفسى للجيش ، وهذا هو الذى دفعه إلى هذا التصرف ، وهو موقف يظهر لأول مرة فى التاريخ الإسلامى كله ، ولا نستطيع أن نعتبر الموقف يوم الخندق من هذا المستوى ، حين دعا عليه الصلاة والسلام المسلمين ليأتى أحدهم بخبر القوم ، فرغم التلكؤ فى ذلك الوقت . إلا أن الأمر يقوم على الطلب والحث والتحضيض ، وليس على التعيين ، ومن أجل ذلك عندما جاء على التحديد والتعيين لحذيفة رضى الله عنه قال : (فلم يكن لى بد أن أقوم) .

أما الأمر هنا فهو أمر يخص كل جندى فى الجيش الإسلامى ، ويطالب بأمر محدد وهو أن يقوم فينحر بدنة ، ويحلق رأسه ، ولا مجال للتأويل ، ولهذا الأمر قلنا : إنها صورة لم تظهر قبل الآن ، ولم تتكرر بعد ذلك ، ومن هنا يمكن القول : إن المسلمين كانوا يعانون أعظم حالة من حالات التوتر النفسى . والانهيار المعنوى مع بنود الصلح ، مرت بهم فى تاريخهم كله .

لقد كان تاريخهم العام كله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وقد يشوب هذه الحالة العامة بعض الحالات الاستثنائية الشاذة . لدى بعض النوعيات المدخولة أو المشبوهة أو الضعيفة ، لكنها لا تبلغ أبداً حالة مايسمى : (الاستعصاء العام) إلا فى هذه الحالة .

وأكدتُ أن الدافع لهذا الموقف ليس أبداً فكرة معصية رسول الله ﷺ ـ وإن برزت بهذه الصورة ـ ، والدليل على ذلك سرعة الاستجابة بعد الموقف العملى من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، إنما كانت هى آمال تراودهم ، لعل الصلح ينتكس ، ويدخل المسلمون مكة ، فإذا تم النحر والحلق ، فهذا يعنى أن الأمل قد انتهى وتحطم .

٣ ـ وإذا كان الجيش الإسلامى كله ينظر إلى هذه البنود هذه النظرة ، ويعانى من حالة الإحباط المعنوى مايعانى ، ولا يفقه الحكمة وراء الموقف النبوى الحاسم ، فلا غرو أن تأتى هذه الآيات فى الموقف المناسب واللحظة المناسبة ، لتنصر رسول الله ﷺ فى موقفه ، ويأتى الوحى ليؤكد للمسلمين . أن الأمر ليس صلحاً يعقد له مبرراته ، وتقدم وسائل الدفاع عنه .

إنما هو فتح مبين يتم ، ونصر عزيز يقع ، وأعلى مستوى تكريم ربانى للنبى عليه الصلاة والسلام يتلقاه بعد هذا الموقف :

﴿ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك وينصرك الله نصراً عزيزا ﴾ .

كانت هذه الآيات هي الجواب الحاسم لهذه النفوس المعبأة ، وهى العلاج التربوى لهذا القلق المعنوى العنيف .

(ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة ، فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الربانى عليه وعلى المؤمنين معه ، فرح بالفتح المبين ، وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة التامة ، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم ، وفرح بالنصر العزيز الكريم ، وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال فى رواية : « نزل علّى البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها » وفى رواية : « لقد أنزلت علىّ الليلة سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ») .[1]

وشعر المسلمون بعظمة هذه المنة على قائدهم عليه الصلاة والسلام ، فبادروا يهنئونه على ما أنعم الله عليه من الفتح والمغفرة والنصر .

(وروى عبد الرزاق ، والإمام أحمد ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، والشيخان ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ، عن أنس رضى الله عنه قال : لما رجعنا من الحديبية قال رسول الله ﷺ : « أنزلت علىّ ضحى آية هى أحب إلى من الدنيا جميعاً » ثلاثا - قلنا - وفى لفظ : قالوا - هنيئاً مريئا لك يارسول الله ، قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت - وفى لفظ : فنزلت عليه : **﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾** حتى بلغ **﴿ فوزاً عظيما ﴾**)[2] .

٤ ــ وحين نقف لتحليل الموقف العام ، لابد أن يستوقفنا كثيراً بعض المواقف الخاصة التى برزت أثناء الصلح من أعظم الشخصيات الإسلامية ، وعلى رأسهم الرجل الثانى فى الأمة بعد رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وهذه النماذج الأربعة هى : عمر وعلى رضى الله عنهما من سادة المهاجرين ، وأسيد بن الحضير سيد الأوس (بعد وفاة سعد بن معاذ رضى الله عنه) ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج .

أ ــ أما على رضوان الله عليه : (فقال رسول الله ﷺ لعلى : « امحه » . فقال : على : ما أنا بالذى أمحاه - وفى لفظ : أمحاك . وفى حديث محمد بن كعب القرظى .

(١) فى ظلال القرآن / ٦/ ٣٣١٧ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى /٥/ ٩٧ .

فجعل على يتلكأ ، وأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله - فقال رسول الله ﷺ : « اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » .

ب - سيد الأنصار : وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن الحضير ، وسعد بن عبادة أخذا بيد على ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله ، وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، وارتفعت الأصوات ، فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ، ويومىء بيده إليهم : اسكتوا .

جـ - وموقف عمر رضى الله عنه : والذى استفاضت الروايات فيه .

فهذا المستوى العالى ، قد ندَّ منه بعض الكلمات أو بعض التصرفات ، وهى تصرفات من طراز معين ، لا يبرز إلا عند هذا المعدن النفيس من الرجال ، الذين اعتادوا على تقديم حياتهم ثمناً دون دينهم وكرامتهم ، ويأبون الهوان - كما بدا فى ظاهر الأمر - فقد كانوا على رأس المبايعين على الموت ، وكانوا من أشد الناس عندما أحسوا أن شيئا ما يتم على حساب دينهم وعقيدتهم ، وهم غير مضطرين إلى ذلك .

وقد مثَّل عمر رضى الله عنه هذه الثورة المكبوتة فى نفسه ، وخرج عن طوره كما عبر فيما بعد رضى الله عنه ، كما روى البزار عن عمر :

(اتهموا الرأى على الدين . فلقد رأيتنى أرد أمر رسول الله ﷺ برأيى ، وما ألوت على الحق . قال : فرضى رسول الله ﷺ وأبيت حتى قال :

« ياعمر ، تُرانى رضيت وتأبى » .

وقد تلقى جواب قائده عليه الصلاة والسلام من قبل :

« إنى عبد الله ولست أعصيه ، ولن يضيعنى وهو ناصرى » .

وتلقى جواب الصديق رضى الله عنه :

(أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه حتى تموت) .

وتلقى جواب أمين الأمة أبى عبيدة رضى الله عنه :

(ألا تسمع يابن الخطاب ؟ ! رسول الله ﷺ يقول مايقول ، تعوَّذ بالله من الشيطان ، واتهم رأيك) لقد فقد عمر رضى الله عنه صوابه مرتين فى تاريخه الإسلامى :

مرة عند صلح الحديبية ، ومرة عند وفاة قائده عليه الصلاة والسلام .

ونستطيع بذلك أن ندرك مدى ضغط هذا الصلح على أعصابه ، الذى بلغ به مبلغ غياب رسول الله ﷺ عن الوجود عنده .

ومن أجل هذا ومن معرفة رسول الله ﷺ بنفس صاحبه الفاروق عمر ، وهو الذى أعز الله به دينه، وفرّق به بين الحق والباطل ، من أجل ذلك ، كان أن استدعاه عليه الصلاة والسلام ليكون أول من يسمع وحى الله تعالى فى الحديبية ، وأن رب العزة جل جلاله هو الذى أوحى إلى رسوله ﷺ بهذا الموقف ، وهو الذى سماه الفتح المبين ، والنصر العزيز ، وكافأ رسوله بأعظم مكافأة له فى دنياه فى مغفرة ذنبه ما تقدم منه وما تأخر .

٥ ـ وبعد تحليل الموقف النفسى العام والخاص ، نقف لنؤكد عظمة التربية فى هذه الأمة ، فأقصى ما بلغته المواجهة للموقف ، هو كلمة تندّ أو تلكؤ يقع ، دون أن يحول هذا من تنفيذ بنود الصلح كاملة .

وقد أذهل هذا الالتزام وفد قريش .

(وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون ، ويقبل على مكرز بن حفص ويقول : ما رأيت أحوط لدينهم من هؤلاء) . [١]

ويعلقان على موقف المسلمين من أبى جندل بن سهيل رضى الله عنه :

(وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل . قال : يقول حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد ، وبعضهم لبعض ! أما إنى أقول لك : لا تأخذ من محمد نصَفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . فقال مكرز : أنا أرى ذلك) . [٢]

ويبرز الالتزام كذلك لدى قائد الثورة عمر رضى الله عنه وهو يقول لأبى جندل :

(اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف ، فرجوت أن يأخذ السيف ويضرب أباه فضن الرجل بأبيه . فقال عمر : يا أبا جندل ، إن الرجل يقتل أباه فى الله ، والله لو أدركنا أباءنا لقتلناهم فى الله . فرجل برجل ، قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال : مالكَ لا تقتله أنت ؟ قال

---

(١) المغازى للواقدى / ٢/ ٦١١ .

(٢) المصدر نفسه / ٢ / ٦٠٨ .

عمر : نهانى رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره . قال أبو جندل : ما أنت بأحق بطاعة رسول الله منى) [١] .

فكلا الرجلين عمليا لا يمكن أن يخرجا عن الالتزام التام . بموقف قيادتهم النبوية .

وحين ننظر إلى شهود القضية ، نجد على رأس الشهود عمر رضى الله عنه فى موقعه نفسه بعد أبى بكر رضى الله عنه .

٦ ـ وإذا كانت الأمة الفتية ، الأمة الربانية ، يبرز بعض الخلل فى رجالاتها فى ضبط انفعالاتهم عن مواجهة العدو ، كما رأينا من موقف سادة المسلمين الأربعة ـ فالأمة المتحللة يبرز الخلل فى صفها من مواجهة العدو نفسه : ﴿ **قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ [٢] .

وفى الأمة الفتية ، الأمة الربانية ، يكون رفع اليد عن السلاح أثقل وأشد كثيراً عليها من حمل السلاح ، وضبط النفس فى تأخير المواجهة مع العدو ، أشق بكثير من دفعها إلى المواجهه ، والالتزام يبدو فى قمته يوم تصدر الأوامر بتحمل أذى العدو أكثر مما يبدو منه فى مواجهته .

٧ ـ ولا نستطيع أن ننسى القمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ، الذى تكلم بكلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

(فأجابه بمثل جوابه له ﷺ سواءً ، فدلَّ أنه أكمل الصحابة ، وأعرفهم بأحوال المصطفى ، وأعلمهم بأمور الدين ، وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى ، ولجلالة قدر أبى بكر وسعة علمه عند عمر لم يراجع أحداً فى ذلك بعده ﷺ غير الصدّيق ، وإنما سأله بعد المصطفى وجوابه له لشدة ما حصل له من الغيظ ، وقوته فى نصر الدين وإذلال الكافرين ، كما أفصح عن ذلك سهل بن حنيف الصحابى بقوله : فرجع متغيظاً ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر كما مر عن الصحيح ..

---

(١) المصدر نفسه / ٦٠٩ .   (٢) المائدة / ٢٢ ـ ٢٦ .

وأما جواب أبي بكر لعمر رضى الله عنهما بمثل جواب النبى ﷺ حرفا بحرف ، فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله ، وبارع علمه ، وزيادة عرفانه بأحوال المصطفى ، ورسوخه وزيادته فى كل ذلك على غيره . ألا ترى أنه صرّح فى الحديث أن المسلمين استنكروا الصلح المذكور ، وكانوا على رأى عمر فلم يوافقهم أبو بكر ، بل كان قلبه على قلب رسول الله ﷺ . ومرَّ فى الهجرة أن ابن الدغنة وصفه بما وصفت به خديجة النبى ﷺ سواءً من كونه يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويعين على نوائب الحق ، وغير ذلك ، فلما تشابهت صفاتهما من الابتداء استمر ذلك إلى الانتهاء . وفى البخارى : فقال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . وعند ابن إسحاق : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا . وعند الواقدى عن ابن عباس : لقد أعتقت بسبب ذلك رقابًا وصمت دهراً . وإنما عمل ذلك ، وإن كان معذوراً فى جميع ما صدر منه بل مأجور ؛ لأنه مجتهد لتوقفه عن المبادرة فى امتثال الأمر حتى قال : ما شككت منذ أسلمت إلا هذه الساعة . قال السهيلى : هذا الشك هو ما لا يصرّ صاحبه عليه وإنما هو من باب الوسوسة التى قال فيها صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » ففيه أن المؤمن قد يشك ثم يجدد النظر فى دلائل الحق فيذهب شكه . قال الحافظ : لكن الذى يظهر أنه توقف منه ؛ ليقف على الحكمة فى القضية ، وتنكشف عنه الشُبه) (1) .

ولا يغيب عن البال أن الموقفين اللذين فقد بهما الفاروق صوابه ، كان صمام الأمان فيهما الصدّيق رضى الله عنه ، فهو فى الحديبية يقول لعمر : إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه .

ويقول يوم الوفاة : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

فقد كان الصديق رضى الله عنه أسبق إلى فقه حكمة الصلح من عمر رضى الله عنه ، ومن المسلمين جميعاً وهو أفضلهم ، بينما احتاج المسلمون إلى القرآن الكريم حتى تستقرّ قلوبهم بحكمة هذا الصلح وتطمئن به .

٨ ـ وندع الحديث عن الفتح المبين لرسول الله ﷺ والصحابة والتابعين وعلماء الأمة بعد هم :

---

١) شرح المواهب للزرقانى ٢/٢٠٤ ، ٢٠٥

أ ـ روى موسى بن عقبة فى حديثه عن الزهرى ، وأخرجه البيهقي عن عروة قال : (أقبل النبى ﷺ راجعا ، فقال رجل من أصحابه : ما هذا بفتح ، لقد صُدِدنا عن البيت ، وصُدَّ هدينا وردَّ رسول الله ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه ، فبلغه ذلك ﷺ فقال :

« بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتوح ، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية ، ويرغبون إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح ، أنسيتم يوم أحد إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟ » !

فقال المسلمون صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح ، والله يانبى الله ما فكرنا فى ما فكَّرت فيه ولا أنت أعلم بالله وبأمره منا) . (١)

ب ـ فى الصحيح عن البراء رضى الله عنه قال : (تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع النبى ﷺ أربع عشرة مائة ..) . (٢)

جـ ـ روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبى فى قوله :﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينـا** ﴾ الآية قال : (صلح الحديبية الذى قال فيه الزهرى : لم يكن فى الإسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضع الحرب ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، والتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، لم يكلِّم أحد بالإسلام بعقل شيئا فى تلك المدة إلا دخل فيه ، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر) (٣) .

د ـ قال ابن هشام : (ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة فى عشرة آلاف) (٤) .

هـ ـ ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ الفتح : الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ٢١٠ ، ٢١١ . (٢) البخارى / كتاب المغازى / جـ ٥ /١٥٦ .

(٣ ، ٤) شرح المواهب للزرقانى / ٢ / ٢١١ .

بغيره ؛ لأنه ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به فقد فتح . وقد اختلف فيه ، قال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب : الفتح هنا فتح الحديبية ووقوع الصلح . قال الحافظ : فإن الفتح فى اللغة فتح المغلق ، والصلح كان مغلقاً حتى فتحه الله لهم ، فإن الناس للأمن الذى وقع فيهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير ، وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين ، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية ، فظهر من كان يخفى إسلامه ، فذلَّ المشركون من حيث أرادوا العزة ، وقُهروا من حيث أرادوا الغلبة ، بعد أن كان المنافقون يظنون ﴿ **أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا** ﴾ كما أخبر الله ، أى حسبوا أنهم لا يرجعون بل يقتلون كلهم .

وقيل : هو فتح مكة ، فنزلت مرجعه من الحديبية عِزةً له بفتحها ، أو أتى ماضياً لتحقق وقوعه ، وفيه من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبَر به ما لا يخفى . وقيل : المعنى : قضينا لك قضاء بيِّنًا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك قابلاً من الفتاحة – وهى الحكومة)[1] .

و – (القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزا** ﴾ يعنى بقوله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا** ﴾ يقول : إنا حكمنا لك يا محمد حكمًا يبين لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك . وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر لتشكر ربك وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم وفتحه ما فتح لك ، ولتسبحه وتستغفره فيغفر لك بفعالك ذلك ربك ﴿ **ما تقدم من ذنبك** ﴾ قبل فتحه لك ما فتح ، ﴿ **وما تأخر** ﴾ بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته .

وإنما اخترنا هذا القول فى تأويل هذه الآية ؛ لدلالة قول الله عز وجل : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ على صحته ، إذ أمره الله تعالى أن يسبح بحمد ربه إذا جاءه نصر الله وفتح مكة ، وأن يستغفره ، وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك .

ففى ذلك بيان واضح أن قوله تعالى ذِكرُه : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ إنما هو خبر من الله جل ثناؤه نبيه عليه الصلاة والسلام عن جزائه له على شكره على النعمة التى أنعم الله بها عليه من إظهاره له ما فتح ؛ لأن جزاء الله تعالى عباده على

(١) المصدر نفسه / ٢١٠ .

أعمالهم دون غيرها .

وبعد : ففى صحة الخبر عنه ﷺ أنه كان يقوم حتى ترم قدماه ـ الدلالة الواضحة على أن الذى قلنا من ذلك هو الصحيح من القول . وأن الله تعالى إنما وعد نبيه محمداً ﷺ غفران ذنوبه المتقدمة ، فتح ما فتح الله عليه ، وبعده على شكره له على نعمة التى أنعمها عليه ، وكذلك كان ﷺ يقول :

« إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرة » ، ولو كان القول فى ذلك أنه من خبر الله تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذى ذكرنا ، لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية ، ولا لاستغفار نبى الله ﷺ ربه جل جلاله من ذنوبه بعدها معنى يُعقل ؛ إذ الاستغفار معناه : طلب العبد من ربه عز وجل غفران ذنوبه ، فإذا لم يكن ذنوب تغفر لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى ؛ لأنه من المحال أن يقال : رب اغفرلى ذنبًا لم أعمله . وقد تأول ذلك بعضهم بمعنى : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة وما تأخر إلى الوقت الذى قال : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ .

وأما الفتح الذى وعد الله جل ثناؤه نبيه ﷺ هذه العدة على شكره إياه عليه ، فإنه فيما ذكر الهدنة التى جرت بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش بالحديبية ، وذكر أن هذه السورة أنزلت على رسول الله ﷺ منصرفه من الحديبية بعد الهدنة التى جرت بينه وبين قومه) [(١)] .

٩ ـ عندما يضرع النبى إلى ربه بقوله : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق إنك أنت الفتاح العليم** ﴾ ، أو ﴿ **ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ ـ يتضح جليًا أن الضراعة منصبة على طلب النصر على العدو ، من الله عز وجل ، وقد جاء هذا الفتح الربانى بين محمد وحزبه عليه الصلاة والسلام ، وبين قومه من مشركى مكة ، إيذانًا عالميًا بتحول المرحلة إلى مرحلة الفتح والغزو والنصر ، والتمكين والغلبة للمؤمنين .

وكان مفتاح ذلك صلح الحديبية .

لقد كان منطق الكافرين : ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ [(٢)] .

---

(١) جامع بيان القرآن للإمام الطبرى /م ١١ / جـ ٢٦ / ٤٢ ، ٤٣ . (٢) إبراهيم/ ١٣ .

وقد أُخرج المؤمنون من ديارهم ، فلم يكتف الكفار بذلك ، بل كان منطقهم :

(لقد سرتُ إليك فى جمعنا ، وإنا نريد ألا نعود إليك حتى نستأصلك ..) كما كتب أبو سفيان لرسول الله ﷺ . أو بالتعبير القرآنى : ﴿ **سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ (١) .

وانتهت هذه المرحلة كما حدد ذلك عليه الصلاة والسلام : « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، الآن نسير إليهم » ، وكما قال لأبى سفيان : « وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح » .

وجاء هذا اليوم بعد أقل من عام ، ووقفت قريش تدافع رسول الله ﷺ بالراح لا بالسلاح ، وتفاوضه وترجوه أن لايدخلها هذا العام عليهم عنوة ، وأن يدخل مكة فى العام القادم .

وبدأ النصر يعقب بعضه بعضًا منذ ابتداء فتح مغاليق النصر من خلال هذا الصلح ، وبدأ الناس يقدمون إلى الإسلام ، وينضون تحت لوائه مختارين ، وكان هذا هو النصر العزيز الذى ابتدأ بالصلح لعشر سنين . يأمن الناس بعضهم بعضا ، وأصبح الإسلام شريكاً فى كل شىء على الساحة العربية :

فمن أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه .

ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه .

وكان هذا توطئة لليوم القادم : « وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك » .

وأعطى عليه الصلاة والسلام مع النصر العزيز والفتح المبين المغفرة لما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ويتم نعمته عليه فى النصر والتمكين في الدنيا له ولحزبه ودعوته ، وبالمغفرة لذنبه . وفى رواية ابن سعد عن مجمِّع بن جارية :

(لما كنا بضحبنان راجعين من الحديبية رأيت الناس يركضون ، فإذا هم يقولون : أُنزل على رسول الله ﷺ قرآن فركضت مع الناس حتى توافينا عند رسول الله ﷺ ، فإذا هو يقرأ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا** ﴾ ، فلما نزل بها جبريل عليه السلام : قال : يهنيك يا رسول الله !

---

(١) الأعراف / ١٢٧ .

فلما هنأه جبريل هنأه المسلمون) [1] .

﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزًا عظيما . ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزًا حكيما** ﴾ [2] .

لا يعرف أحد طبيعة هذه السكينة وبردها على قلبه ، مثل الذى يموج قلبه بالاضطراب النفسى والانفعال القلبى ، حيث تأتى السكينة فتستل منه هذا الانفعال ، وتطفىء هذا الاضطراب .

وعلى سبيل المقابلة :

فما عرف المسلمون قيمة الأمن فى أحد ، إلا بعد ذلك الغم والكرب : ﴿ **فأثابكم غمًا بغم** ﴾ [3] .

ومن بعد هذا الكرب العظيم الخانق كان : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ..** ﴾ [4] بينما بقى الآخرون يفرقون فيه : ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ..** ﴾ [5] .

ونجد الصورة الآن كذلك فى أكبر مكانها ، فبعد أن كادوا ينحرون بعضهم من غمهم لعودتهم عن مكة دون أن يدخلوها ، وبعد أن بلغت حميتهم لدينهم ذلك الحد الأعلى ، وهم يرون هذه الشروط المجحفة القاهرة فى إعادة من أسلم منهم إلى المشركين ، وفى رفض الرحمن الرحيم ومحوهم لرسول الله) ، وغير ذلك .

جاء القرآن الكريم فسكب السكينة فى قلوبهم ، فأصبحوا خلقًا آخر ، مطمئنين لخيرة رسول الله ﷺ لهم ، والله تعالى زكى هذا الاختيار وقال لهم إنه الفتح المبين .

لقد استُل ذلك القلق والاضطراب والأنفعال ، وسكبت فيهم السكينة ، فراحوا يسارعون لتهنئة رسول الله ﷺ بعد أن هنأه جبريل بذلك .

---

(١) التفسير بالمأثور /٧/٥١٢ . (٢) الفتح / ٤ ـ ٧ .
(٣) آل عمران /١٥٣ . (٤ ، ٥) آل عمران / ١٥٤ .

ويحدثنا سيد قطب رحمه الله عن هذا المعنى فيقول :

(والسكينة لفظ معبّر مصور ذو ظلال ، والسكينة حين ينزلها الله فى قلبٍ تكون طمأنينة وراحة ويقيناً وثقة ، ووقاراً وثباتًا ، واستسلامًا ورضى .

ولقد كانت قلوب المؤمنين فى هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام ، ثم مواجهة موقف قريش ، وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت فى هذا العام ، بعد الإحرام وبعد إشعار الهدى وتقليده كان هذا أمراً شاقا على نفوسهم ما فى ذلك من ريب ، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له ـ غير ما أثبتناه فى صلب رواية الحادث ـ : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال أبو بكر ـ الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ ، الذى ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ ـ :

بلى ، أفأخبرك أنا نأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . فتركه عمر رضى الله عنه إلى النبى ﷺ ، فقال له فيما قال : أو لست تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » قال : لا . قال : « فإنك آتيه ومطوّف به » .

فهذه صورة مما كان يجيش فى القلوب .

وكان المؤمنون ضيقى الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتى محمداً بغير إذن وليه ، ومن حميتهم الجاهلية فى رد اسم الرحمن الرحيم ، وفى رد صفة رسول الله ﷺ . وقد روى أن عليًا رضى الله عنه أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله ﷺ بنفسه وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أنى رسولك » .

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة . يبدو هذا فى بيعتهم الإجماعية ، ثم انتهى الأمر إلى مصالحة والمهادنة والرجوع ، فلم يكن هينًا على نفوسهم أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا فى تباطئهم بالنحر والحلق ، حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثًا ، وهم من هم طاعةً لأمر رسول الله وامتثالا ، كالذى حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفى ، ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصّروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ

يفعل هذا بنفسه ، فهزتّهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذى كان فى دهشة المأخوذ !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لاينوون قتالاً ، ولم يستعدوا له نفسيًا ولا عمليًا ، ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وبإرسال النفر الذين رموا فى عسكر المسلمين بالنبل والحجارة ، فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم ، ولكن هذا لا ينفى موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له ، وهو بعض ما كان يجيش فى قلوبهم من انفعالات وتأثرات وهم ألف وأربعمائة وقريش فى دارها ومن خلفهم الأعراب والمشركون .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ويحس برد السكينة وسلامها فى تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ، ولا لجاهلية فيهم ، فقد تفضّل عليهم بهذه السكينة : ﴿ **ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم** ﴾ ، والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة ، فيها الثقة التى لا تقلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين .

ومن ثم يلوّح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيدًا ، بل كان هيّنًا ويسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنوداً لا تُحصى ولا تُغلب ، تدرك النصر ، وتحقق الغلب وقتما يشاء : ﴿ **ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيما** ﴾ ، فهى حكمته وهو علمه ، تُسّير الأمور ، فقهما تريد) (١) .

ونذوق مع ابن عباس رضى الله عنه طعمًا آخر للسكينة ، وزيادة الإيمان ، ونتحول إلى أفق آخر يمعن فى هذا الأفق فيربط الآية بالإسلام كله ، بعيداً عن السبب الذى تنزلت فيه الآيات ، ومن دون أن يخرجه من هذا الأفق :

(أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والطبرانى ، وابن مردوية ، والبيهقى فى الدلائل ،

---

(١) فى ظلال القرآن / ٦ / ٣٣١٨ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ قال : السكينة هى الرحمة فى قوله : ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ قال :

إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدَّق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم فقال :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (١) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لاإله إلا الله) (٢) .

فقد ربط رضى الله عنه السكينة بتدرج الأحكام ، وتناسبها مع النفس البشرية ، ومواءمتها للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وإن كانت تنطلق ابتداءً من شهادة أن لا إله إلا الله ، فهى أساس الإيمان ، وزيادة هذا الإيمان ، وزيادة هذا الصدق ، متناسقة مع كل عبادة جديدة .

فالإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية .

﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً** ﴾ .

(أخرج عبد الرزاق ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن مردوية ، وأبو نعيم فى المعرفة ، عن أنس رضى الله عنه قال :

أنزلت على النبى ﷺ : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ مرجعه من الحديبية فقال : « لقد أنزلت علىَّ آية هى أحبُّ إلىَّ مما على الأرض » ، ثم قرأها عليهم فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بيَّن الله لك ما ذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **فوزاً عظيماً** ﴾) (٣) .

---

(١) المائدة / ٣ . (٢) الدر المنثور /٧/ ٥١٤ . (٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى /٥/ ٩٧ .

بلغ القلق عند عمر رضى الله عنه أن مضى بعيداً ، وتقدم أمام الناس وقال : (وخشيت أن ينزِّل فِيَّ القرآن) ، وكانت أصعب الظروف عنده يوم أن ناداه رسول الله ﷺ ، (فرجعت وأنا أظن أنه نزل فِيَّ شيء) ، وقد راودت هذه الأفكار المسلمين جميعاً ، حين تحرجوا فى نفوسهم من الصلح ، وخالطهم الحزن والكآبة ، كما ورد فى النصوص الآخرى . وعندما تنزلت هذه الآيات الكريمة على قلب رسول الله ﷺ بتعزيز موقفه ، ونصر نبيه فيما أبرم من صلح ، وتسميته بالفتح المبين وعدته بالنصر العزيز والمغفرة لذنبه .

أمام هذا كله ، وبعد تهنئة المسلمين لنبيهم عليه الصلاة والسلام على ما أعطاه ، بقى الخوف والفزع يراودهم أن ينزِّل القرآن فيهم على الموقف النفسى الذى يحملونه ، وعلى التلكؤ الذى بدر منهم بعد الأمر النبوى بالحلق والنحر ، فسارعوا للقول يبحثون عن مصيرهم المخيف ، هل هم معاقبون أم قد نالهم العفو الربانى ، وبادروا بالسؤال : (هنيئاً مريئًا يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يُفعل بنا ؟) .

إنه سؤال الفزع الخائف الوجل ، الذى ينتظر عقوبة عدلاً أو عفواً فضلا :

(وماذا يُفعل بنا ؟) .

وجاء الجواب الشافى لما فى الصدور :

﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا ﴾ .

إنهم يعلمون ذنب التحرج النفسى من أمر الله ورسوله :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (1) .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسلما ﴾ (2) .

فجاء الشفاء الربانى : **﴿ يكفر عنهم سيئاتهم ﴾** ويسبقها : **﴿ وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾** .

---

(1) الأحزاب / ٣٦ . (2) النساء / ٦٥ .

ومن هنا جاءت السكينة ، بعد أن اطمأنوا على أنفسهم ، واطمأنوا على دعوتهم ، واطمأنوا على خطأ موقفهم ـ وقد غفر ـ وعظمة موقف نبيهم الذى هو الفتح المبين وقالوا :

وصدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح والله يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا) .

ويشير ترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما ، الذى فقهه الله فى الدين وعلمه التأويل ، إلى معنى لطيف فى الآيات : أن هذا الفتح المبين جاء ليغفر الله تعالى لنبيه ، ولينصره ، وليهديه الصراط المستقيم . وجاء كذلك ليدخل المؤمنين ، والمؤمنات جنات :

(عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ..** ﴾ إلى قوله : ﴿ **.. ويكفر عنهم سيئاتهم ..** ﴾ فأعلم الله سبحانه نبيه عليه السلام قوله : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات** ﴾ على اللام من قوله : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ...** ﴾ بتأويل تكرير الكلام :

﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينا . ليغفر لك الله** ﴾ .

﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا ...... ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ ؛ ولذلك لم تدخل الواو التى تدخل فى الكلام للعطف فلم يقل ﴿ وليدخل المؤمنين ﴾)(١) .

ويمكن القول بعد هذا الافتتاح للسورة أن القرآن جاء ليعالج واقعًا نفسيًا يعانونه ، وليجيب على تساؤلات عنيفة تمور فى صدورهم ، وما أن أتت هذه الإجابات ، حتى غدوا خلقًا آخر ، تنزلت عليهم السكينة ، لما فعل الله تعالى بنبيه ، بنصره ومغفرة ذنبه وهدايته الصراط المستقيم .

ولما فعل الله تعالى بهم من عدتهم وإدخالهم الجنات خالدين فيها ، وتكفير السيئات .

﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزًا حكيما** ﴾ .

---

(١) جامع البيان فى أحكام القرآن للإمام الطبرى .م / ١١ / جـ ٢٦ /٤٦ .

أما أولئك الفريق الآخر فلهم شأن آخر ، ذلك الفريق هو المنافقون والمنافقات ، والأصل أنهم اليوم عاجزون حتى عن إبداء آرائهم ، بله أن يتخذوا موقفًا محددًا يواجه المؤمنين ، لكنهم الآن يلاحقون على ما تكن نفوسهم وما تخفى من خبث ، فقد أعلنت الآية انضمامهم النفسى الكامل لمعسكر المشركين ، ووحدة القاعدة التى ينطلقون منها :

﴿ **الظانين بالله ظن السوء ...** ﴾

وسيأتى تفصيل هذا الموقف فيما بعد ، لكنه يذكر الآن بالحجم الذى يناسب الإعداد التربوى والنفسى المطلوب ، ومصيرهم واحد طالما كانت نفوسهم واحدة ، هذا المصير يمثله المخازى الأربع :

﴿ **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾ .

ويربط الإمام الطبرى رحمه الله هذه الآيات جميعًا فى خيط واحد ، يقول :

(يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينا ليغفر لك الله** ﴾ وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار وليعذب المنافقين والمنافقات بفتح الله لك يا محمد ما فتح لك من نصرك على مشركى قريش فيكبتوا لذلك ، ويحزنوا ، ويخيب رجاؤهم الذى كانوا يرجون من رؤيتهم فى أهل الإيمان بك ، من الضعف والوهن ، والمتولى عنك فى عاجل الدنيا ، وصلىّ النار والخلود فيها فى آجل الآخرة .

﴿ **والمشركين والمشركات** ﴾ : يقول : وليعذب المشركين والمشركات الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به .

وذلك كان السوء فى ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع) (١) .

(وقيل : لما جرى صلح الحديبية . قال ابن أبى : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ؟ ! فبيّن الله عز وجل أن جنود السماوات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : ولله جنود السماوات : الملائكة . وجنود الأرض : المؤمنون . وأعاد « ذكر جنود الله عز وجل » ؛ لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى ١١/٢٦/٤٦ .

المشركين ، والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد ، فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى)[1] .

(وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين وفى أنهم جميعاً ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ ، فهم محصورون فيها ، وهى تدور عليهم وتقع بهم ، وفى غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير . ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً ، بل إنها أحط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات وإن اختلف هذا الأذى وذاك فى مصدره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هى ظن السوء بالله ، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائمًا ، يتوقع منه الخير فى السراء والضراء ، ويؤمن بأن الله يريد به الخير فى الحالين ، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله ، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدا ، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة ، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق ، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله ، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ، ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله وتتلعق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا ، على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتدبيره الخفى اللطيف .

وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده وما أعدَّه لهم فى النهاية ، ثم عقَّب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :

﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾)[2] .

﴿ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيما ﴾[3] .

---

(١) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبى / ٨ / ١٦ / ٢٦٦ .

(٢) فى ظلال القرآن /٦/٣٣١٩ .

(٣) الفتح /٨ – ١٠ .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة رضى الله عنه : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً** .. ﴾ قال : شاهداً على أمته وشاهداً على الأنبياء أنهم قد بلغوا ، ﴿ **ومبشرًا** ﴾ يبشر بالجنة من أطاع الله ، ﴿ **ونذيرا** ﴾ ينذر النار من عصاه ، ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ قال : بوعده بالحساب وبالبعث بعد الموت ، ﴿ **وتعزروه** ﴾ قال : تنصروه ، ﴿ **وتوقروه** ﴾ قال : أمر بتسويده وتفخيمه وتشريفه وتعظيمه . قال وكان فى بعض القراءة « ويسبحوا الله بكرة وأصيلا ») [(١)] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ **وتعزروه** ﴾ يعنى الإجلال ، ﴿ **وتوقروه** ﴾ يعنى التعظيم يعنى محمداً ﷺ) [(٢)] .

(وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم ، وابن مردوية ، والضياء فى المختارة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ **وتعزروه** ﴾ قال : تضربوا بين يديه بالسيف) [(٣)] .

(وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه ﴿ **وتوقروه** ﴾ أى تسوّدوه ؛ قاله السدى . وقيل : تعظموه ، والتوقير : التعظيم والترزين أيضاً ، والهاء فيهما للنبى ﷺ ، وهنا وقف تام ، ثم تبتدىء ﴿ **وتسبحوه** ﴾ أى تسبحوا الله ، ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ أى عشيا . وقيل الضمائر كلها لله تعالى ، فعلى هذا يكون تأويل : ﴿ **تعزروه وتوقروه** ﴾ أى تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك ، واختار هذا القول القشيرى .

والأول قول الضحاك ، وعليه يكون بعض الكلام راجعًا إلى الله سبحانه وتعالى وهو : ﴿ **وتسبحوه** ﴾ من غير خلاف ، وبعضه راجعًا إلى رسوله ﷺ وهو : ﴿ **وتعزروه وتوقروه** ﴾ أى تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية . وفى ﴿ **تسبحوه** ﴾ وجهان : أحدهما : تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثانى : هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح ، ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ أى غدوة وعشيا ، وقد مضى القول فيه ، وقال الشاعر :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله ... وأجلس فى أفيائه والأصائل [(٤)] .

وبين يدى رسول الله ﷺ أمته الذين عاشوا معه ، قد شهد الصادقين منهم وشهد

(١ ، ٢ ، ٣) الدر المنثور /٧/٥١٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى /٨/١٦/٢٦٦ .

المنافقين ، والذين جاؤوا من بعدهم يشهد لكل من صدق بدينه فيشفع له الشفاعة التى تحوطه من النار ، وقد رأينا صورة من البشارة الندية فى الآيات السابقة :

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيما ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزًا عظيما ﴾ .

ورأينا صورة من النذارة الرهيبة الماحقة :

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ .

ومن الخطاب لرسوله ليصل إلى الخطاب للمؤمنين فيذكرهم بمسئوليتهم بعد أن أدى مسئوليته ويحملهم رسالتهم بعد أن أدى رسالته :

﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

فللإيمان مقتضياته بنصر رسوله وتصديقه وتعظيمه وتفخيمه ، وهو نصر لله تعالى . وهذا النصر مرتبط دائمًا بالعبودية الخالصة والطاعة التامة لله بالتسبيح فى الغداة والعشى .

ونقف عند التوقير وهو التعظيم والتفخيم والتسويد ، ونشهد من خلال صلح الحديبية جزءًا حياً من هذه الصورة التى تمثل بها المؤمنون ، بحيث يلتحم التعزير والتوقير ، أى يختلط الفداء والتضحية والقتال بين يديه بالسيف مع التعظيم والتفخيم الذى لم تشهد أم الأرض مثيلاً له .

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية ، جاءه بديل بن ورقاء ــ وأسلم بعد ذلك ــ فى رجال من خزاعة منهم عمرو بن سالم وخراش بن أمية وخارجة بن كرز ويزيد بن أمية ، وكانوا عيبة [1] نصح لرسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم الموادع ، لا يخفون عنه بتهامة شيئا ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ سلموا ، فقال بديل بن ورقاء :

جئناك من عند قومك ، كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، قد استنفروا لك الأحابيش [2]

---

(١) عيبة الرجل : خاصته وأصحاب سره .

(٢) الأحابيش : الأعراب حول مكة من غير قريش .

ومن أطاعهم قد نزلوا أعداد[1] مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[2] . والنساء والصبيان ، يقسمون بالله لا يخلُّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراءهم [3] .

فقال رسول الله ﷺ :

« إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه . إن قريشاً قد أضرَّت بهم الحرب ونهكتهم [4] . فإن شاءوا ماددتهم [5] مدة يأمنون فيها ، ويخلُّون فيما بيننا وبين الناس ـ من كفار العرب وغيرهم) ، والناس أكثر منهم ـ فإن أصابوني فذلك الذي أرادوا وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جمُّوا [6] ، وإن هم أبوا فوالله لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[7] ، ولينفذَّن الله تعالى أمره » .

فوعى بديل مقالة رسول الله وقال : سأبلغهم ما تقول ، وعاد وركبه إلى قريش . فقال ناس منهم : هذا بديل وأصحابه ، وإنما يريدون أن يستخبروكم فلا تسألوهم عن حرف واحد ، فلما رأى بديل أنهم لا يستخبرونه قال : إنا جئنا من عند محمد ، أتحبون أن نخبركم عنه ؟ فقال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص ـ وأسلما بعد ذلك ـ : ما لنا حاجة بأن تخبرونا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبدا حتى لا يبقى منا رجل .

فأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفي ـ وأسلم بعد ذلك ـ بأن يسمعوا كلام بديل ، فإن أعجبهم قبلوه ، وإلا تركوه ، فقال صفوان بن أمية والحارث بن هشام ـ وأسلما بعد ذلك ـ : أخبرونا بالذي رأيتم وسمعتم . فقال بديل لهم : إنكم تعجلون على محمد ﷺ . إنه لم يأت لقتال ، وإنما جاء معتمراً ، وأخبرهم بمقالة النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال عروة :

يامعشر قريش ، أتتهمونني ؟ قالوا : لا قال : ألستم بالوالد : قالوا : بلى [قال : ألست بالولد] ؟ قالوا : بلى] وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس القرشية . قال :

---

(١) أعداد : جمع عد وهو الماء الذي لا انقطاع له ويطلق على الكثرة من الشيء .
(٢) العوذ المطافيل : الأمهات اللاتي معهن أولادهن .
(٣) تبيد خضراءهم : نقضي عليهم عن آخرهم .
(٤) نهكتهم : أضعفت قواهم .
(٥) ماددتهم : جعلت بيني وبينهم مدة فيترك الحرب بيني وبينهم .
(٦) جموا : قووا واستراحوا .
(٧) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت .

ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ لنصركم فلما تبلحوا [(١)] عليَّ ، نفرت إليكم بنفسي وولدى ومن أطاعني ؟ قالوا : قد فعلت ما أنت عندنا بمتهم . قال :

إني لكم ناصح وعليكم شفيق ، لا أدخر عنكم نصحًا ، فإن بديلاً قد جاءكم خطة رشد لا يردها أحد أبداً إلا أحد شرٌ منها ، فاقبلوها منه ، وابعثوني حتى آتيكم بمصداقها من عنده وأكون لكم عيناً آتيكم بخبره .

فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا محمد ، تركتُ كعب بن لؤى وعامر بن لؤى على أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، قد لبسوا جلود النمور ، وهم يقسمون بالله لا يخلُّون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم ، وإنما أنت ومن قاتلهم بين أحد أمرين : أن تجتاح قومك ، ولم يُسمع برجل اجتاح قومه وأهله قبلك . أو بين أن يخذلك من ترى معك ، وإني والله لا أرى معك وجوهًا ، ولكني لا أرى معك إلا أوباشًا ــ وفي رواية : فإني لأرى أشوابًا [(٢)] ــ من الناس لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم ، وخليقًا أن يفروا ويدعوك ــ وفي رواية : وكأني بهم وقد لقيت قريشاً أسلموك فتؤخذ أسيراً ــ فأى شىء أشد عليك من هذا ؟ .

فغضب أبو بكر ــ وكان قاعداً خلف رسول الله ﷺ ــ فقال : أمصص بظْر اللات [(٣)] ، أنحن نخذله أو نفر عنه ؟ ! فقال عروة : من ذا ؟ قالوا : أبا بكر . فقال عروة : أما والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجيبنك ــ وكان عروة قد استعان في حمل دية فأعانه الرجل بالفريضتين [(٤)] والثلاث ، وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، فكانت هذه يد أبي بكر عند عروة ــ .

وطفق عروة كلما كلَّم رسول الله ﷺ مس لحية رسول الله . والمغيرة بن شعبة قائم على رأس رسول الله ﷺ بالسيف على وجهه المِغفَر ــ لما قدم عروة لبسها ــ فطفق

---

(١) أى لم يستجيبوا لى .

(٢) الأوشاب : الأخلاط من أنواع شتى ، والأوباش : الأخلاط من السفلة ، فالأوباش أخص من الأوشاب .

(٣) امصص بظر اللات : البظر قطعة تبقى بعد الختان فى فرج المرأة ، واللات : اسم أحد الأصنام التى كانت قريش وثقيف يعبدونها ، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأمر ، فأراد أبو بكر المبالغة فى سب عروة بإقامة من يعبد مقام أمه ، وحمله على ذلك ما أغضبه من نسبة المسلمين إلى الفرار .

(٤) الفريضة : الحقة من الإبل .

المغيرة كلما أهوى عروة بيده ليمسّ لحية رسول الله ﷺ يقرع يده بنعل السيف ويقول : اكفف يديك عن مس لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك ، فإنه لا ينبغى لمشرك أن يمسّه ، فلما أكثر عليه غضب عروة وقال :

ويحك !! ما أفظك وأغلظك ! وقال : ليت شعرى من هذا الذى آذانى من بين أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشر منزلة . فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

« هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » .

فقال عروة : وأنت بذلك ياغُدر ، لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر ..

وجعل عروة يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينه ، فوالله ما يتنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإن توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، ولا يسقط شئ من شعره إلا أخذوه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له .

فلما فرغ عروة من كلام رسول الله ﷺ ، وردّ عليه رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل ابن ورقاء ، وكما عرض عليهم من المدة . فأتى عروة قريشاً فقال :

يا قوم ، إنى وفدت على الملوك كسرى وقيصر والنجاشى ، وإنى والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه ، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، وليس بملك ، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر منه بشئ ، ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن ، فإن هو أذن له تكلم . وإن لم يأذن له سكت ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

قد حرزت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعتم صاحبهم ، والله لقد رأيت معه نساء ـ وفى مغازى الواقدى : نسيات ـ ماكنّ ليسلمنه أبداً على حال ، فروا رأيكم ، فأتوه يا قوم ، واقبلوا ما عرض عليكم ، فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف أن لا تنصروا على رجل جاء زائراً لهذا البيت معظماً له ، معه الهدى ينحره وينصرف .

فقالت قريش : لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور لو غيرك تكلَّم بهذا ؟ ولكن نرده عامنا هذا ، ويرجع إلى قابل ، فقال : ما أراكم تصيبكم قارعة (إلا ستصيبكم ..) فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف .

فقام الحليس بن علقمة الكنانى وكان من رءوس الأحابيش ـ لا أعلم له إسلامًا ـ فقال : دعونى آتيه . فقالوا ائته فلما أشرف على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « هذا فلان من قوم يعظمون البُدنَ ـ وفى لفظ : الهدى ـ ويتألهون ، فابعثوها له » فبعثت له ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى عليها قلائدها ، قد أكلت أوبارها من طول الحبس ، تُرْجع الحنين ، واستقبله الناس يلبون قد أقاموا نصف شهر ، وقد نُفلوا وشقيوا صاح وقال :

ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أبى الله أن تحج لخم وجذام وكنانة وحمير ، ويمنع ابن عبد المطلب ما ينبغى لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عُماراً ، فقال رسول الله ﷺ : « أجل يا أخا بنى كنانة » .

وذكر ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر ، وابن سعد : أنه لم يصل إلى رسول الله ﷺ لما رأى ذلك ؛ إعظامًا لما رأى ، فيحتمل أن رسول الله ﷺ خاطبه من بعد فرجع إلى قريش . فقال : إنى رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى فى قلائده قد أكل أوباره معكوفًا عن محله ، والرجال قد نفلوا وقملوا أن يطوفوا بهذا البيت ، والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم ، على أن تصدوا عن هذا البيت من جاء معظماً له لحرمته مؤديًا لحقّه ، وساق الهدى معكوفًا أن يبلغ محلَّه ، والذى نفسى بيده لتخلُنَّ بينه وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ـ وفى لفظ : اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك ، كل ما رأيت من محمد مكيدة .

فقام مكرز بن حفص فقال : دعونى آته . فلما طلع رآه رسول الله ﷺ قال : « هذا رجل غادر » ، وفى لفظ : « فاجر » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ أخبرهم بما ردَّ عليه رسول الله ﷺ .

١ ـ الملاحظ أن بديل بن ورقاء حليف غير معلن لرسول الله ﷺ ، وقد جاء ليضعه فى الصورة التى يعيشها أهل مكة ، والغليان الشعورى الذى يعانونه ، والفكرة الرئيسية

---

(١) الأحابيش : الأعراب من القبائل المحيطة بمكة .

التى طرحها هى إصرار أهل مكة جميعاً على منع الرسول ﷺ من دخول مكة ، وقد كلّفه الرسول ﷺ بصورة غير رسمية بإبلاغ رسالته لأهل مكة ، وأهم مافى الرسالة طرح فكرة الصلح عليهم لمدة معينة . وهذا الكلام قد فوجىء به المسلمون ، ويعنى نوعاً من التبطئة لفتح مكة ، حيث يدور فى خلدهم الآن أنهم سيدخلون مكة ويطوفون ، ويعرفون ، ونصر الله تعالى قادم لنبيه .

والملاحظ كذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام ، قد توقف عن استشارة المسلمين منذ تلكأت الناقة عن متابعة مسيرتها إلى مكة ، وقال المسلمون : خلأت الناقة . فقال عليه الصلاة والسلام :

« ماخلأت [1] القصواء وما ذلك لنا بعادة ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة » ثم قال :

« والذى نفس محمد بيده لايسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » ، ثم زجرها فقامت ، فولى راجعاً عوده على بدئه) . [2]

وكان قد استشارهم ابتداءً قبل بروك الناقة . فقال :

(« أما بعد : يامعشر المسلمين ، أشيروا علىَّ : أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين محروبين [3] ، وإن يأتونا تكن عُنقا قطعها الله ، أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ » . فقال أبو بكر رضى الله عنه : الله ورسوله أعلم . يارسول الله ، إنما جئنا معتمرين ولم نجىء لقتال أحد ، ونرى أن نمضى لوجهنا ، فمن صدّنا عن البيت قاتلناه .

ووافقه على ذلك أسيد بن الحضير) . [4]

فالرأى لدى قيادة المهاجرين والأنصار هو مواجهة من يصدهم عن بيت الله ، بينما الرأى الجديد الذى يطرحه عليه الصلاة والسلام بعد بروك الناقة هو استعداده للمفاوضات وإيقاف الحرب مع قريش ، وهو رأى جديد التزم به المسلمون دون استشارة .

٢ ــ كان عروة بن مسعود سيد ثقيف عريقاً فى الزعامة ، فهو أحد الرجلين اللذين أنزل الله تعالى فيهما :

---

(١) خلأت : بركت ، والخلأ من الإبل بمنزلة الحران من الدواب .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٦٦ .
(٣) محروبين : مسلوبين مهزومين .
(٤) المصدر السابق ٥ / ٦٢ .

﴿ وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [1] .

وقد أكرمه الله تعالى فيما بعد بالإسلام والشهادة ، وقد بذل مافى وسعه لنصرة قريش ، استجابة لرَحِمه فيهم ، إذ إن أمه من قريش ، وقد استعمل كل دهائه وذكائه فى المهمة التى مضى بها إلى محمد حيث حدد هدفه بنقاط أربع :

أ ـ صرف رسول الله ﷺ عن مكة بأى ثمن كان .

ب ـ التوهين للصف الإسلامى بذكر قوة قريش وإجماعها على حرب الرسول ﷺ .

جـ ـ الحرب النفسية لأعصاب المسلمين بأنهم تجمع غير مهيأ للقتال ، وسينفض مع أول مواجهة ، فهم أخلاط من الناس والعرب لاتجمعهم عصبة واحدة .

د ـ وإن كان لا تخفى عليه حقيقة المسلمين وقوتهم فمن جهة أخرى راح يحذر بشدة من فتح مكة عنوة .

فسيكون الأمر سبة على محمد بين العرب ، أن جمع أوشاب الناس ليغزو بهم بلده وأهله .

فكيف استطاع الوعى الإسلامى فى الصف المسلم أن يفوت أهداف عروة ؟ بل استطاع أن يحطِّم نفسيته ، ويحوِّل الجو بمكة لصالح المسلمين .

٣ ـ نجد الإجابة على هذا السؤال ابتداء بحرب نفسية على المستوى نفسه الذى مضى به عروة ، فحين راح يهوِّن من شأن المسلمين وتخاذلهم عن رسول الله ﷺ ، أبدى المسلمون من ضروب القوة ماجعله ينهار أمامها . فهذا أبو بكر رضى الله عنه الحليم الكريم يسمعه ذلك الكلام المهين :

(امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟) .

ولم يسمع بهذا العنف فى حياته قط . ولكنَّ الذى لجمه عن الرد هو فضل أبو بكر عليه .

وكان الموقف الثانى أشد عليه وأعنف ، حين كان يقرع المغيرة بقائم السيف على يده قائلاً له :

---

(١) الزخرف / ٣١ .

(ارفع يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترتد إليك) .

وكان الذى يهدده ابن أخيه المغيرة بن شعبة .

لقد علم أنه فى خطر على حياته ، إن فكر بالمساس بشخص رسول الله ﷺ مادياً أو معنوياً ، وأن المسلمين ليسوا مسلميه بحال .

٤ ـ غير أن عروة لم يكن مجرد رسول قادم ، إنه داهية ثقيف ، وثقيف قوم مناكير ، وكأنهم دهاة العرب . فقد كان يرمق الجو كله وهو يتحدث ، ويراقب كل أفراد الصف الإسلامى . فرأى من مظاهر التعظيم والتفخيم لرسول الله ﷺ ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ، وهو نزيل الملوك . وضيف الحاكمين ، ولاشك أن رسول الله ﷺ قد أدرك مرماه ، وقيادات المسلمين قد أدركت ذلك ، فأبدوا من ضروب الحب ، والوفاء والتعظيم لقائدهم ما لامثيل له فى الوجود .

لايرتفع صوت فى مجلسه ، ولايرتفع بصر نحوه هيبة له ، يتقاتلون على وضوئه ونخامته وشعره أيهم يفوز بها ، وأمثال هؤلاء يستحيل عليهم أن يبقى أحد منهم حياً وأن يمس قائدهم بشوكة تؤذيه ، لقد كان يجول ببصره فى المعسكر فيرى الموقف كله على حقيقته ، وأنه يروم الثريا فى تخاذلهم عنه .

٥ ـ وحيث كان موقف عمير بن وهب يوم بدر يقول للمشركين :

(والله لقد رأيت البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لايتكلمون كأنهم الحصا تحت الجحف ، يتلمظون تلمظ الأفاعى ، والله ما أرى أن يقتل أحد منهم إلا قتل منا أعدادهم ، فما خيرة العيش بعدهم ، فروا رأيكم) .

ويأتى تحذير عروة على المستوى نفسه :

(ياقوم إنى وفدت إلى الملوك ، كسرى وقيصر والنجاشى ، وإنى والله مارأيت ملكاً قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه ، والله إن رأيت ملكاً يُعَظِّمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً وليس بملك ، والله ماتنخم نخامة إلا وقعت فى يد أحدهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر منه بشىء ، ولايسقط شىء من شعره إلا أخذوه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ومايحدون النظر إليه تعظيماً له . ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن ، فإن هو أذن له تكلم ، وإن لم يأذن له سكت) .

هذا فى تعظيمه وحبه وتوقيره ، أما فى الدفاع والزود عنه :

(قد حزرت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لايبالون مايُصنع بهم إذا منعتم صاحبهم ، والله لقد رأيت معه نسيات ماكنٍ ليسلمنه بحال فروا رأيكم) .

واستطاع عروة بن مسعود أن يغير موقف مكة كله ؛ أن يهيئهم للمراوضة والصلح ، وهو أكبر نجاح حققته الدبلوماسية الإسلامية فى ذلك الوقت ، والذى سماه القرآن الكريم « الفتح المبين » .

وقد كان انسحابه من مكة إلى الطائف دافعاً أكبر للمضى فى هذا الطريق .

٦ ـ إن سبب انسحاب عروة بن مسعود هو إصرار قريش على منع رسول الله ﷺ من دخوله مكة ، وقد كان هذا الموقف الإيجابى حاثاً لقيادات مكة أن يسارعوا فى بعث وفد المفاوضة .

لقد سبق وفد المفاوضة ذهاب رجلين إلى رسول الله ﷺ قبله ، أما الأول : فالحليس ابن علقمة سيد الأحابيش ، وأما الثانى : فمكرز بن حفص . وذهاب الحليس كان تطوعاً شخصياً أكثر منه تكليفاً رسمياً ، وعرف عليه الصلاة والسلام شخصية الحليس ، وأدرك أغواره فقال للمسلمين :

« هذا فلان من قوم يعظمون البدن ويتألهون فابعثوها له » .

وكانت مهمة الصف الإسلامى الملتزم الآن تختلف عن مهمته بين يدى عروة بن مسعود . مهمته الآن أن يوجه الهدى فى وجه الحليس ، وتحققت العملية بنجاح باهر . دفع الحليس إلى العودة قبل لقاء النبى ﷺ ، أو لقيه وناداه عن بعد ، ومضى الحليس وهو فى قمة حماسه واندفاعه للسماح للنبى ﷺ أن يعتمر .

لقد وصف الرواة تنفيذ الأمر النبوى فقالوا :

(فبعثت له ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرض الوادى عليها قلائدها ، قد أكلت أوبارها من طول الحبس ترجع الحنين ، واستقبله الناس يلبون ، قد أقاموا نصف شهر وقد تفلوا وشعثوا .

أما موقفه أمام هذه الظاهرة العبادية فكان .

(سبحان الله ، ماينبغى لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، أبى الله أن تحج لخم وجذام وكندة وحمير ، ويمنع ابن عبد المطلب ، ماينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عماراً) .

ففى الوقت الذى حرص الصف الإسلامى بتوجيه قائده أن يبدى القوة والسيف والالتزام والتفانى فى الحب أمام عروة ، فحبط مخططاته ، ويغزى نفسياً ويهزم قبل أن يحقق شيئاً من حربه النفسية للمسلمين بكل ماأوتى من ذكاء ودهاء ـ فى الوقت نفسه أخفى المسلمون قوتهم وسيوفهم ، وأبرزوا تبذلهم وشعثهم ، وبعثوا الهدى فى وجه الحليس ، فمضى صارخاً فى أهل مكة يطالب بدخول المسلمين مكة ، وكما ذكر ابن إسحاق فى السيرة : (فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس ، إنما أنت أعرابى لاعلم لك) .

قال ابن إسحاق : (فحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أن الحليس غضب عند ذلك وقال : يامعشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ! والذى نفس الحليس بيده لتخلُنَّ بين محمد وبين ماجاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له :

مه ، كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به)[1] .

وبذلك تأكد موضوع المراوضة والمفاوضة أكثر ، وأن استعمال القوة فى منع محمد ﷺ من دخول مكة . قد يفتت الصف الداخلى فيها ، ويمزق حلف الأحابيش مع قريش ، وينضمون إلى محمد عليه الصلاة والسلام .

أما الرجل الذى بعثته قريش ممثلاً رسمياً لها ليدرس الموقف ، فهو مكرز بن حفص ، وقد وصفه عليه الصلاة والسلام بأنه رجل غادر ، وعندما رجع بالنتيجة نفسها التى رجع بها عروة والحليس استقر أمر قريش نهائياً على المفاوضة .

وكيف تفاعل الصف المسلم مع توجيه النبى ﷺ عن مكرز أنه رجل غادر ؟ .

تفاعل هذا الصف الملتحم العجيب بأعلى حدود اليقظة ، وبالتعبير العسكرى المعاصر : بالاستنفار وهو أعلى حدود الاستنفار .

فماذا فعل مكرز وقريش ؟ .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٣١٢ .

لقد جاء مكرز رسولاً ابتداء ، ودرس وضع الصف المسلم ، وتعرَّف على مواقعه وأشخاصه ، وكُلِّف بمهمة عسكرية جديدة من قريش ، هى غزو المسلمين فى خمسين من رجالات مكة . .

(وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحراسة بالليل ، فكان ثلاثة يتناوبون الحراسة :

أوس بن خولى ، وعباد بن بشر ، ومحمد بن مسلمة رضى الله عنهم ، وكان محمد ابن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ ليلة من الليالى وعثمان بن عفان بمكة ، وقد كانت قريش بعثت ليلاً خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ، وأمروهم أن يطوفوا بالنبى ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يصيبوا منهم غرة) (١) .

إن المهمة هى أسر أو قتل بعض القيادات الإسلامية ، ومكرز على رأس هذه المجموعة الفدائية .

وبعد أن تعرَّف على مواقع المسلمين فماذا كانت النتيجة ؟

(فأخذهم محمد بن مسلمة فجاء بهم رسول الله ﷺ ، وأفلت مكرز بن حفص . فخبر أصحابه وظهر قول النبى ﷺ كما تقدم أنه رجل غادر) (٢) .

ولا نزال بين يدى قول الله عز وجل :

﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

٧ ــ وها نحن نجد التوقير والتعظيم والنصرة من وجه آخر ، من قبل موندى الرسول ﷺ إلى مكة ، خراش بن أمية الخزاعى ، وعثمان بن عفان الأموى ، وهى مهمة خطيرة ، تصدى لها هذان الماجدان .

أما خراش فقد تعرَّض للقتل ، والذى حال بينه وبين القتل الأحابيش فى مكة ، الذى مضى سيدهم إلى الحديبية ورأى تعظيم المسلمين للبيت .

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما : (بعث رسول الله ﷺ إلى خراش بن أمية على جمل لرسول الله ﷺ يقال له الثعلب ، ليبلِّغ عنه أشرافهم بما جاء له ، فعقر عكرمة بن أبى جهل الجمل ، وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٧٩ ، ٨٠ .

رسول الله ﷺ ـ ولم يكد ـ فأخبر رسول الله بما لقى)[1] .

وأمام هذه المهمة ، وأمام هذا الخطر ، شعر عليه الصلاة والسلام أن الرسالة التى يريد إبلاغها قريش لم تتم بعد ، وكان التزام خراش وجنديته فى المستوى الأعلى ، لكن عدم وجود حماية له داخل مكة ، حالت دون ذلك ، وأقصى ماأمكن بالنسبة له هو الحيلولة دون قتله .

٨ ـ فكانت الدبلوماسية الجديدة لعثمان بن عفان رضى الله عنه .

(روى البيهقى عن عروة قال : لما نزل رسول الله ﷺ الحديبية فزعت قريش لنزوله إليهم ، فأحب أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى قريش ، فقال : يارسول الله ، إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وقد عرفت قريش عداوتى لها ، وليس بها من بنى عدى من يمنعنى ، وإن أحببت يارسول الله دخلت عليهم ، فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئاً)[2] .

وما مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسد قريش يشك فى رجولته أو شجاعته ، لكن الهدف الآن هو هدف سياسى وليس هدفاً عسكرياً ، وليس لعمر عشيرة تمنعه ، وبالتالى لن يتمكن من تحقيق الهدف ، وهو تبليغ الرسالة . وحقد قريش عليه قد تدفعه إلى القتل ، فيمضى دمه رخيصاً دون ثمن . وبعد أن أوضح رأيه عاد فوضع نفسه بين يدى قائده : (وإن أحببت يارسول الله دخلت إليهم) .

ولما لم يعد الكرة عليه الصلاة والسلام على عمر بالمضى ـ فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئاً ـ كانت الفرصة مواتية لإيضاح رأيه ، فقال عمر :

(يارسول الله ، ولكنى أدلك على رجل أعز بمكة منى ، وأكثر عشيرة وأمنع ، وأنه يبلغ لك ماأردت ، عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان فقال :

« اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا عُمَّاراً ، وادعهم إلى الإسلام » ، وأمره أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكاً أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان)[3].

---

(١) ابن هشام / م٢ / ٣١٤ . وابن عمر الواقدى / ٢ / ٦٠٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / م٥ / ٧٧ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٧٨ . وهى عند البيهقى فى الدلائل .

لقد كانت الرسالة مزدوجة وشاقة وخطيرة ، فعليه أن يأتى أشراف قريش جميعاً ، ويخبرهم برسالة النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان عليه أن يتصل بالمستضعفين المؤمنين فى مكة يبشرهم بالفتح ويدعوهم إلى الصبر والثبات على دينهم . إنه اتصال مباشر بحزب محمد فى مكة ، ولاندرى إن كانت هذه المهمة سرية أو علنية ، وعلى الأرجح أنها علنية .

فماذا فعل عثمان بها رضى الله عنه بهاتين الرسالتين ؟

(فانطلق عثمان إلى قريش فمرّ عليهم ببلدح فقالوا : أين تريد ؟ . فقال : بعثنى رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جل ثناؤه ، وتدخلون فى الدين كافة ، فإن الله تعالى مظهر دينه ، ومعز نبيه ، وأخرى تكفون ويكون الذى يلى هذا الأمر منه غيركم ، فإن ظُفر برسول الله ﷺ فذلك ما أردتم ، وإن ظَفِرَ كنتم بالخيار بين أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون . إن الحرب قد نهكتكم وأذهبت الأماثل منكم . وأخرى إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمراً ، معه الهدى ، عليه القلائد ينحره وينصرف)[1] .

لقد كانت بلدح هى مكان تجمع قريش ، كما ذكر عروة وبديل أنهم خرجوا معهم العوذ المطافيل يعاهدون الله لاتدخلوها عليهم أبدا . وبلغ الرسالة تبليغاً عاماً بأفصح بيان وأنصع خطاب ، ووضع قريش بين الخيارات الثلاثة المعروضة :

١ ــ الدخول فى الإسلام كافه ، فالله تعالى مظهر نبيه ومعزّ دينه .

والمسلم داعية إلى الله عز وجل قبل كل شىء .

٢ ــ الوقوف على الحياد فى الحرب بين رسول الله ﷺ والعرب ، فإن كفته العرب فهو ماتريد قريش ، وإلا فبإمكانها حربه بعد أن تستجمع قوتها وتستكمل تعبئتها .

وكان عرض عثمان رضى الله عنه مغريًا فى هذه الفقرة ، فلم يفته أن يشير إلى مقتل القيادات الضخمة فى مكة ، كما لم يفته أن يدعو إلى الإسلام من جديد ، لو تم نصره وتمكينه ويسبر أغوار قريش فى حرصها على الثأر لدينها فتقاتل جامّة وافرة .

٣ ــ السماح لمحمد وصحبه بالاعتمار ونحر الهدى والعودة إلى المدينة ، فالقوم جاءوا عماراً ولم يجيئوا مقاتلين .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٧٨ . وهى عند البيهقى فى الدلائل .

إنه مهما بلّغ الرسالة النبوية أى مشرك ، فلن تصل بهذه النصاعة وهذا الوضوح ، وهذه البلاغة والدقة فى العرض مابلغت عند عثمان رضى الله عنه .

غير أن الحمية الجاهلية قد زكمت أنوفهم .

(فقالوا : قد سمعنا ماتقول ، ولا كان هذا أبدا ، ولادخلها علينا عنوة ، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لايصل إلينا) .

وهنا تتحقق فراسة الفاروق رضى الله عنه ، فالذى يقتسم النفوذ فى مكة فرعان : ؟

فرع بنى عبد مناف ، بنو أمية ، وبنو مخزوم ، وإليهم انتهت مقاليد القيادة فى مكة ، فالقائد العام فيها هو أبو سفيان بن حرب بن أمية .

والمعروف أن أبا سفيان لم يكن آنذاك فى مكة ، فتنوعت القيادات والأسماء ، وبرز الرجل الثانى فى بنى أمية أبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعثمان هو ابن عفان بن العاص بن أمية ، فالقبيلة واحدة وهو أقرب أقربائه . برز أبان وتصدى لإتمام مهمة عثمان ـ عصبية قبلية ـ :

(ولقيه أبان بن سعيد ، فرحّب به أبان وأجاره ، وقال : لانقصر عن حاجتك ، ثم نزل عن فرس : كان عليه فحمل عثمان على السرج ، وردف وراءه وقال :

أقبل وأدبر لا تخف أحدا بنو سعيد أعزت الحرم

فدخل به مكة ، فأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلاً ، فجعلوا يردون عليه : إن محمداً لايدخلها علينا أبدا) [1] .

وبهذا تم تبليغ الرسالة كاملة إلى قريش ، ثم مضى عثمان رضى الله عنه إلى المهمة الثانية :

(ودخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين بمكة فقال : إن رسول الله ﷺ يقول : « قد أظلّكم حتى لا يُستخفى بمكة اليوم بالإيمان » ، ففرحوا بذلك وقالوا : اقرأ على رسول الله ﷺ السلام) [2] .

وما أعظمها من ظاهرة ، أن يدخل عثمان متحدياً بيوت المؤمنين فى مكة ، وهو فى جوار قائد من قادة الشرك أبان بن سعيد ، وتعجز مكة أن تفعل شيئاً أمام ذلك . إن الوجود

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٧٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٧٨ ، ٧٩ .

الإسلامى فى مكة . والاتصال به وتثبيته من محمد ﷺ هو أكبر تحدٍّ سافرٍ تواجهه مكة ، وعضت أناملها من الغيظ ، ولعلها تنتظر ساعة انتقام ، لكنها عاجزة الآن عن أن تفعل شيئاً أمام الرسالة النبوية .

وأُديت الرسالة الثانية على أفضل وأكفأ مايكون الأداء ، ثم كان بعدها الامتحان العسير لالتزام عثمان رضى الله عنه فى قضية الطواف فى البيت ، وكان على مستوى هذا الامتحان :

(ولما فرغ عثمان من رسالة رسول الله ﷺ إلى قريش : قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف)(١) .

إنه إذْنٌ شخصى خاص لعثمان وبإجارة ابن عمه أبان ، وليس إذناً عاماً لقائده عليه الصلاة والسلام وإخوانه معه :

(فقال : ماكنت لأطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ)(٢) .

هذا البيت الذى كان الطواف به أمانىَّ وأحلاماً ترفرف ، وعلى ضوء هذا الحُلُم تحرك الركب من المدينة ، وها قد تحوَّل الحلم إلى حقيقة ، والإذن قائم . . والمشاعر فى أعلى توهجها أن يمس هذا البيت ويستلم الركن ، ويلتزم الباب ، ولكن هذه العواطف كلها يضعها عثمان رضى الله عنه خلف ظهره ، ويبقى التزامه بدينه وتعظيمه وتوقيره لنبيه هو الذى يحكمه ، فيرفض الطواف فى الوقت الذى ليس بين يديه نهى عن ذلك . توقع المسلمون أن يكون قد ارتوى من الطواف فيه ، والطواف عبادة وقربى من الله تعالى ، ولكن الحس الإسلامى الصادق الذى تربى عليه عثمان رضى الله عنه رفض مناقشة الأمر ابتداءً :

(وقال المسلمون وهم بالحديبية قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان من بيننا إلى البيت فطاف به ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » وقالوا : ومايمنعه يارسول الله وقد خلص إليه ؟ . قال : « ذلك ظنى به أن لايطوف بالكعبة حتى نطوف » . وعند ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً : « لو مكث كذا وكذا سنة ماطاف حتى أطوف »)(٣) .

(فلما رجع عثمان إلى رسول الله ﷺ قال المسلمون له : اشتفيت من البيت يا أبا

(١ ، ٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٧٨ ، ٧٩ .

عبد الله ! ! . فقال عثمان : بئس ماظننتم بى ! فوالذى نفسى بيده لو مكثت مقيماً بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ماطفت حتى يطوف رسول الله ﷺ ، ولقد دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ؟ فقالوا : كان رسول الله ﷺ أعلمنا وأحسننا ظناً) .

وعاد عثمان رضى الله عنه ، يمثل الذروة من الدبلوماسية الرفيعة مع العدو ، ضمن إطار الالتزام الإسلامى الخالص ، وقد بعث القوة والحيوية فى نفوس المؤمنين بمكة ، وفوَّت فرصة مكة فى أن يغروه بالطواف فيوقعوا بينه وبين قائده عليه الصلاة والسلام ، وهو الممثل الشخصى والرسمى له .

﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ [(١)] .

وسنبقى مع عثمان رضى الله عنه ؛ لأن إشاعة حبسه هى التى فجرت الجو ، ودعت إلى البيعة .

قال محمد بن عمر : (وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ على أهليهم فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى البيعة ، وبلغ قريشاً حبس أصحابهم [(٢)] . فجاء جمع من قريش إلى النبى ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة ، وأسروا أيضاً من المشركين حينئذ أسرى .

ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ، فأقبل رسول الله ﷺ يومئذ منازل بنى مازن بن النجار ، وقد نزلت فى ناحية من الحديبية جميعاً . قالت أم عمارة : والرسل تختلف بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فمر بنا رسول الله ﷺ يوماً فى منزلنا . قالت : فظننت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان قد قُتل ، فجلس فى رحالنا ثم قال : « إن الله أمرنى بالبيعة » .

قالت : فأقبل الناس يبايعونه فى رحالنا حتى تدارك الناس ، فما بقى لنا متاع إلا وطىء ! وزوجها غزية بن عمرو . قالت فبايع رسول الله ﷺ الناس يومئذ ، فكأنى أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل ، إنما خرجنا عماراً ، فأنا أنظر إلى غزية ابن عمرو وقد توشح السيف ، فقمت إلى عمود كنا نستظل به ، فأخذته فى يدى ، ومعى سكين قد شددته فى وسطى ، فقلت : إن دنا منى أحد رجوت أن أقتله ، فكان

---

(١) الفتح / ١٠ . (٢) هم الخمسون الذين أسروا من المسلمين عندما حاولوا غرة منهم .

رسول الله ﷺ يومئذ يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه آخذ بيده ، فبايعهم على أن لا يفروا . وقال قائل : بايعهم على الموت . ويقال : أول الناس بايع سنان بن أبى سنان بن محصن فقال : يا رسول الله ، أبايعك على ما فى نفسك ، فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان بن أبى سنان ، وكان المسلمون الذين دخلوا على أهليهم عشرة من المهاجرين ، كُرز بن جابر الفهرى ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ، وحاطب بن أبى بلتعة ، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وعبد الله بن حذافة ، وأبو الروم بن عمير ، وعمير بن وهب الجمحى ، وعبد الله بن أبى أمية بن وهب حليف سهيل فى بنى أسد بن عبد العزى) [1] .

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن سلمة بن الأكوع ، والبيهقى عن عروة ، وابن إسحاق عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، قال سلمة : (بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ :

« أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله » .

فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سَمُرَةٍ فبايعناه .

وفى صحيح مسلم عنه قال : فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسطٍ من الناس قال : « بايع ياسلمة » . قلت : قد بايعتك يارسول الله فى أول الناس . قال : « وأيضاً » قال : ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال : « ألا تبايعنى يا سلمة ؟ قال : » قلت : يارسول الله ، قد بايعتك فى أول الناس وفى وسط الناس . قال : « وأيضاً » فبايعته الثالثة . ثم قال لى : « يا سلمة ، أين حَجَفَتُك ـ أو درقتك ـ التى أعطيتك ؟ » . قال : قلت : يا رسول الله ، لقينى عمى عامر عزلاً فأعطيته إياها . قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : « إنك كالذى قال الأول : اللهم ابغنى حبيباً هو أحب إلىَّ من نفسى » .

وفى صحيح البخارى عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قيل : على أى شىء كنتم تبايعون ؟ قال : على الموت . وفى صحيح البخارى عن نافع قال : إن ابن عمر أسلم قبل أبيه وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرسٍ له عند

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٠٢ ، ٦٠٣.

رجل من الأنصار يأتى به ليقاتل عليه ، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة وعمر لا يدرى بذلك ، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ، وعمر يستلئم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة . قال : فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ ، فهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر)(1) .

وفيه أيضاً عن نافع عن ابن عمر ، أن الناس كانوا مع النبى ﷺ يوم الحديبية تفرقوا فى ظلال الشجر ، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ . فقال عمر : ياعبد الله ، انظر ماشأن الناس أحدقوا برسول الله ﷺ ؟ . . فذهب فوجدهم يبايعون فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع .

وروى الطبرانى عن عطاء بن أبى رباح قال : قلت لابن عمر : أشهدت بيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قلت : فما كان عليه ؟ قال : قميص من قطن ، وجبة محشوة ، ورداء وسيف ، ورأيت النعمان بن مقرّن المازنى قائم على رأسه ، قد رفع أغصان الشجرة عن رأسه يبايعونه .

وفى صحيح مسلم عن جابر قال : بايعنا رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بيده تحت شجرة وهى سُمرة ، فبايعناه غير الجد بن قيس الأنصارى اختفى تحت بطن بعيره . وعند ابن إسحاق عن جابر بن عبد الله : فكأنى أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته ، قد خبأ إليها يستتر بها من الناس . بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت .

وروى الطبرانى عن ابن عمر ، والبيهقى عن الشعبى ، وابن منده عن زر بن حبيش ، قالوا : لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدى ، فقال : ابسط يدك أبايعك . فقال رسول الله ﷺ : « علام تبايعنى ؟ » . قال : على مافى نفسك . زاد ابن عمر : فقال النبى « وما فى نفسى ؟ » . قال : أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل ، فبايعه ، وبايعه الناس على بيعة أبى سنان .

وروى البيهقى عن أنس ، وابن إسحاق عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان ، كان بعث عثمان رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فبايع الناس ، فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم إن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك » .

---

(1) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٨١ .

فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خير لهم من أيديهم لأنفسهم . . فلما نظر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ومن كان معهم من عيون قريش من سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب ، اشتد رعبهم وخوفهم ، وأسرعوا إلى القضية ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل)[1] .

١ ـ لقد كانت البيعة بتوجيه ربانى ، وإن كان سببها كما يبدو من تتابع الأحداث إشاعة مقتل عثمان رضى الله عنه وأصحابه . وكما مر معنا فى بعض الروايات عن سلمة رضى الله عنه أن منادى رسول الله ﷺ نادى :

« أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله » .

ومعنى هذا بصريح العبارة أن البيعة كانت بوحى من الله تعالى ، نزل بها روح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، والله جل جلاله يعلم أن أمر عثمان وإشاعة مقتله باطلة ، ويعلم جل جلاله ـ وهو علام الغيوب ـ أن الحرب لن تقع بين المسلمين والمشركين : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** . . ﴾[2].

ويتساءل المسلم أمام هذه الظاهرة : لم كانت البيعة إذن ؟ ولم نزل بها الوحى ؟ والله يعلم أن لاحرب مع قريش ، والله تعالى يعلم أن إشاعة مقتل عثمان باطلة ؟ ! !

لا شك أن الإدراك البشرى أعجز عن أن يحيط بشىء من علم الله إلا ما أعلمنا الله تعالى به .

وروح الآيات تؤكد أن القضية كلها امتحان ربانى لهذا الصف المؤمن ، وتربية له فى قلب المعركة . امتحان لهذا الصف المؤمن ، ومدى استعداده للتضحية فى سبيل الله إن جد الجد ، ودعا داعى الجهاد ، والصف لم يخرج ابتداء لمعركة . إنما خرج معتمراً .

وامتحان أعسر لهذا الصف فى التزامه بكف اليد عن السلاح ، بعد أن أصبح موجهاً للقتال فى أعلى حدود الجاهزية . إنها معركة نفوس ، وتربية قلوب ، وتمحيص المؤمنين من المنافقين .

إن هذا الصف لو تخلف عن الجهاد ساعة طلب البيعة ، وتعلل بأنه خرج معتمراً ،

---

(١) المصدر السابق / ٥ / ٨٥ .　　(٢) الفتح / ٢٤ .

لسقط الصف فى الامتحان ، وقد يفوته النصر أربعين عاماً أخرى ، كما فات بنى إسرائيل حين تعللوا بأن فى الأرض المقدسة قوماً جبارين ، وقالوا لموسى عليه الصلاة والسلام . ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ .

ولو أن هذا الصف قاتل ساعة طلب منه أن يكف عن القتال لهلك الصف كله ، ورأينا مقالة رسول الله ﷺ فى أدنى من ذلك حين تلكؤوا فى النحر والحلق . ولم يضربوا بسيف ، ولم يسجل تاريخهم كله ، ولا رمية سهم بعد الصلح وأثناءه ، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام لأم سلمة رضى الله عنها « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا » .

وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين يوم بايعوا ، وسجّل واقع هذا الصف مخالفة واحدة للجد بن قيس الذى اختفى هارباً من البيعة ، ومختبئاً فى ظل بطن ناقته .

٢ ـ لقد كانت المسيرة كلها تدريباً تربوياً عنيفاً شاقاً . . وكان عليه الصلاة والسلام يحدثهم أحياناً مباشرة عن آثار ونتائج هذه التربية ، وأحياناً يؤخرها إلى الوقت المناسب ، وهذه صورة من صور التربية :

روى الواقدى عن شيوخه قال :

(صلى رسول الله ﷺ أول صلاة الخوف فى غزوة ذات الرقاع ، ثم صلاها بعد بعسفان ، بينهما أربع سنين ؛ وهذا أثبت عندنا .

قالوا : فلما أمسى قال رسول الله ﷺ : « تيامنوا فى هذا العَصَل [1] ، فإن عيون قريش بمر الظهران أو بضجنان ، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل ؟ » فقال بريدة بن الحصيب الأسلمى : أنا يارسول الله عالم بها . قال رسول الله ﷺ : « اسلك أمامنا » . فأخذ به بريدة فى العصل قِبلَ جبال سراوع قبل المغرب . فسار قليلاً تنكَّبُهُ الحجارة ، وتعلّقه الشجر ، وحار حتى كأنه لم يعرفها قط . قال : فواللّه إن كنت لأسلكها فى الجمعة مراراً . فلما رأه رسول اللّه ﷺ لا يتوجه قال : اركب ! فركبت فقال ﷺ : « من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل [2] ؟ » فنزل حمزة بن عمرو الأسلمى ، فقال : أنا يا رسول اللّه أدلك . فسار قليلاً ثم سقط فى خَمَر [3] الشجر . فلا يدرى أين يتوجه. فقال رسول

(١) العصل : الاعوجاج ومعناه هنا الرمل المعوج الملتوى . (٢) ذات الحنظل : طريق بين جبلين .

(٣) خَمَر الشجر : كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره .

اللّه ﷺ : اركب ، ثم قال : من يدلنا على طريق ذات الحنظل ؟ فنزل عمرو بن عبد نُهم الأسلمى فقال : يارسول اللّه أنا أدلك . فقال : انطلق أمامنا فانطلق عمرو أمامهم حتى نظر رسول اللّه ﷺ إلى الثنية . فقال : « هذه ثنية ذات الحنظل ؟ » فقال عمرو : نعم يارسول اللّه فلما وقف على رأسها تحدّر به . قال عمرو : واللّه إن كان ليهمنى نفسى وجدى ، إنما كانت مثل الشراك [1] ، فاتسعت لى حتى برزت فكانت محجة لا حبه [2] .

ولقد كان النفر يسيرون تلك الليلة جميعاً معطفين من سعتها يتحدثون ، وأضاءت تلك الليلة حتى كأنا فى قمر ، فقال رسول اللّه ﷺ :

« والذى نفسى بيده ، ما مثل هذه الثنية الليلة إلا مثل الباب الذى قال اللّه لبنى إسرائيل : ﴿ **وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة** ﴾ .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ « الكلمة التى عرضت على بنى إسرائيل : (لا إله إلا اللّه ، وادخلوا الباب سجداً) ـ قال : باب بيت المقدس ـ فدخلوا من قبل استاههم وقالوا : حبة فى شعيرة » . وعن عبد اللّه بن أبى بكر بن حزم قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« الكلمة التى عرضت على بنى إسرائيل أن يقولوا : نستغفر اللّه ونتوب إليه » .

فكلا هذين الحديثين قد روى .

قالوا : ثم قال رسول اللّه ﷺ : « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر اللّه له » . قال أبو سعيد الخدرى : وكان أخى لأمى قتادة بن النعمان فى آخر الناس . قال : فوقفت على الثنية فجعلت أقول للناس : إن رسول اللّه ﷺ قال : « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر له » ، فجعل الناس يسرعون حتى جاز أخى فى آخر الناس ») [3] .

إنها دورة تربوية لهذه الأمة نجحت فيها من حيث سقط بنو إسرائيل :

﴿ **وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾ [4] .

---

(١) الشراك : سير النعل . (٢) لاحَبة : الطريق الواسع .
(٣) المغازى للواقدى / ٢ / ٥٨٣ وما بعدها . (٤) البقرة / ٥٨ ، ٥٩ .

أما المؤمنون ، فكما روى ابن إسحاق :

(إن المسلمين لما أن خرجوا من الأرض الصعبة وأفضوا إلى أرض سهلة قال رسول الله ﷺ قولوا : « نستغفر الله ونتوب إليه » ، فقالوا ذلك ، فقال :

« والله إنها للحطة التي عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها »)[١] .

وجازوا الثنية ، وتحقق موعود الله لهم ، وغفر لهم .

فقد روى مسلم عن جابر مختصراً ، وأبو نعيم عن أبى سعيد وابن إسحاق عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه : (.. وقال جابر : قال رسول الله ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » .

قال أبو سعيد : فطلب فى العسكر فإذا هو عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، والرجل من بنى ضمرة من أهل سيف البحر ، يظن أنه من أصحاب رسول الله ﷺ . فقيل لسعيد : إن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا . فقال له سعيد : ويحك ، اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك . وقال جابر : فقلنا له : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله لئن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم .

فانطلق يطلب بعيره بعد أن استبرأ العسكر وطلبه فيهم ، فبينما هو فى جبال سراوع إذ زلفت به نعله فمات . فما علم به حتى أكلته السباع) .

٣ ـ والموقع الذى اختاره الرسول ﷺ ليأخذ به البيعة هو فى ديار بنى النجار . وبنو النجار أخوال رسول الله ﷺ من الأنصار ، وهم الفدائيون العظام فى الجيش الإسلامى ، فقد جعلهم عليه الصلاة والسلام خير الأنصار بلا منازع .

(« خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير » . فقال سعد : ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد فضل علينا ، فقيل : قد فضلكم على كثير)[٢] .

لقد كان بنو النجار فى الأنصار بمثابة قريش فى المهاجرين ، فهم الرهط الخاص للنبى ﷺ . وهو نقيبهم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٣٠٩ .

(٢) مسلم / كتاب فضائل الصحابة ٤٤ / باب خير دور الأنصار ٤٤ / حديث ٢٥١١ جـ٤/ص١٩٤٩ .

فعن أنس رضى الله عنه قال :

(قدم النبى ﷺ المدينة ، فنزل أعلى المدينة فى حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، فأقام النبى ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بنى النجار ، فجاءوا متقلدى السيوف ، كأنى أنظر إلى النبى ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه ، وملأ النجار حوله)[1] .

وتصف لنا أم عمارة رضى الله عنها البيعة فى رحالها ورحال قبيلتها فتقول : (فمر بنا رسول الله ﷺ يوما فى منزلنا ، فظننت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان قد قتل ، فجلس فى رحالنا ثم قال : « إن الله أمرنى بالبيعة » ، فأقبل الناس يبايعونه فى رحالنا حتى تدارك الناس ، فما بقى لنا متاع إلا وطىء ..) .

وحين يتقدم ركب البيعة فرسان بنى النجار ، ويسارعون فيها ، يسارع الناس بعدهم إليها ، منهم الذين كانت فتاتهم أم عمارة تفدى رسول الله ﷺ بروحها وزوجها وابنها وتذود عنه بالسيف ، وتسقط جريحة وبها اثنا عشر جرحا ، فداء لحبيبها عليه الصلاة والسلام ، وهاهى اليوم تختصر بخنجرها ، وتأخذ عمود الحجرة عوضاً عن السيف تستعد به للمواجهة ، ومنظرها مع صويحباتها هو الذى أذهل عروة بن مسعود حتى ليرى أن النسوة وحدهن لن يسلمنه بحال قبل أن يسقطن حوله صريعات .

(والله لقد رأيت نسيات معه ـ تصغير نسوة ـ إن كن ليسلمنه أبداً على حال) .

٤ ـ وحين نذكر أن سبب البيعة هو إشاعة مقتل عثمان رضى الله عنه وحبس الذين مضوا يزرون أهلهم ، نعلم مدى قيمة الجندى المسلم عند قيادته ، فرسول الله ﷺ يشعل حربا لمقتل جندى واحد ويتأهب الجيش كله للموت ثأراً لهذا الجندى ، وحين يرى الجندى هذا الاهتمام من قيادته سوف يقدم على الموت والفداء ولا يتلكأ لحظة واحدة .

ولم ينس رسول الله ﷺ عثمان حتى عند البيعة ، فقال :

« إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبايع له » فضرب يمينه على شماله .

٥ ـ وتضافرت الروايات على نوع البيعة ، على أن لا يفر المسلمون ، أو على الموت ، أو على مافى نفس رسول الله ﷺ ، أو على بيعة سنان بن أبى سنان ، وهذا

---

(١) متفق عليه ، البخارى / ١/٤٣٨ ، ٤٣٩ المساجد ، ومسلم (٥٢٤) فى المساجد .

التعدد فى الروايات يعنى أن المسلمين استجابوا للبيعة دون تلعثم أو تردد ، وكانوا جميعا طوع أمر رسول الله ﷺ حتى دون أن يعرفوا بالضبط البيعة على أى شيء ، إلا أنها بالتأكيد فى ذهن كل واحد منهم هو مواجهة العدو وحربه ، خاصة أن القوم قادمون للعمرة . فلم يكن الأمر موضع جدل أو تفكير أو حوار ، بل كان التنفيذ للتوّ ، ولم يشذ عنه إلا منافق واحد هو الجد بن قيس .

٦ ـ ومن النماذج الفردية التي برزت في البيعة أبو سنان الأسدى رضى الله عنه الذى كان أول من بايع رسول الله ﷺ .

(قال : ابسط يدك أبايعك . قال : « علام تبايعنى ؟ » . قال : على مافى نفسك ـ وزاد ابن عمر ـ قال : « وما فى نفسى ؟ » قال : أضرب بسيفى بين يدك حتى يظهرك الله أو أقتل .

وبايع الناس على بيعة أبى سنان .

إن هذا الإحساس هو الإحساس الطبيعى للجندى المسلم ، فلا داعى للحوار وفلسفة الأمور ، وتشقيق الكلام . لقد كانت البيعة ابتداء مع الله ورسوله ، وليس طرحها الآن إلا تجديدا لها ، ومافى نفس رسول الله ﷺ قد قاله فى الحديبية نفسها :

« فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله تعالى به ، حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفة » [1] .

وعظمة القائد أن يتحدث عن منهجه واستعداده للجهاد ، حتى يلقى الله تعالى أو يظهر الله أمره والجندى حين يسمع قائده يقول هذا الكلام يعلم أنه هو الهدف المقصود بالتضحية مع قائده فلن يترك قائده وحده فى الساحة يمضى شهيداً وهو ينظر إليه ، إنما هو وكل إخوانه يسقطون شهداء ، قبل أن يمس قائدهم بشوكة تؤذيه .

وهو المعنى نفسه الذى أكده المقداد بن الأسود فى الحديبية كما أبرزه فى بدر .

(فقد روى ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن أبيه ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، أن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال بعد كلام أبى بكر : (إنا والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون) [2] .

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / جـ٥/ص٦١ ، ٦٢ .

ونشهد من النماذج الفردية كذلك سلمة بن الأكوع رضى الله عنه الذى بايع ثلاث مرات بأمر رسول الله ﷺ ، كما فى صحيح مسلم :

(.. قال : فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال : « بايع يا سلمة » . قال : قلت : قد بايعتك يارسول الله فى أول الناس . قال : « وأيضاً » . قال : ورآنى رسول الله ﷺ عَزِلا فأعطانى حجفة أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال : « ألا تبايعنى يا سلمة ؟ » . قال قلت : يا رسول الله قد بايعتك فى أول الناس ووسط الناس . قال : « وأيضاً » فبايعته الثالثة ، ثم قال لى : « يا سلمة ، أين حجفتك ـ أو درقتك ـ التى أعطيتك ؟ » . قلت : يا رسول الله ، لقينى عمى عامر عَزِلا فأعطيته إياها . قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : « إنك كالذى قال : الأول : اللهم ابغنى حبيباً هو أحب إلى من نفسى » . وفى صحيح البخارى عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شيء كنتم تبايعون قال : على الموت) .

لقد كان سلمة بن الأكوع رضى الله عنه الذى بايع على الموت ثلاث مرات وهو لا يملك شيئا يقاتل به ، حتى ليغطيه رسول الله ﷺ درقة ، فيؤثر بها عمه الأعزل .

لقد كان لبيعته معنىً عميقاً فى نفوس المسلمين ، فهو بطل غزوة الغابة التى سبقت غزوة الحديبية .

ولابد أن نشهده هناك لنعرف البطولة الفذة التى أبرزها ، فنفقه هنا سبب بيعته ثلاث مرات فى أول الناس ووسطهم وآخرهم .

فغزوة الغابة ـ أو ذى قرد ـ كانت محاولة مضحكة لإعادة اعتبار غطفان بعد عودتها مدحورة مع قريش بعد الخندق ، وذلك بعد بضعة أشهر منها ، وكان على رأس هذه المحاولة عيينة بن حصن ، وهى أشبه ما تكون بغزو أبى سفيان لأطراف المدينة بعد بدر .

روى الشيخان ، والبيهقى ، ومسلم وابن سعد ، والبيهقى ، عن إياس بن سلمة بن الأكوع ، كلاهما عن سلمة رضى الله عنه ، وابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن عمرو عن شيوخه ، وابن سعد عن رجاله ، أن لقاح رسول الله ﷺ كانت عشرين لِقحة [1] . وكانت ترعى البيضاء [2] ودون البيضاء إلى الجبل وهو طريق خيبر ،

(١) اللقحة : بكسر اللام والجمع لقاح . وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة بشهر واثنين وثلاثة .

(٢) البيضاء : اسم موضع عند الجبل .

فأجدب ما هنالك ، فقربوها إلى الغابة (١) تصيب من أثلها (٢) وطرفائها (٣) وتغدو فى الشجر ، وكان الراعى يؤوب بلبنها كل يوم عند المغرب .

قال محمد بن عمر عن شيوخه : وقال سلمة بن الأكوع : خرجت قبل أن يؤذن بالأولى ، وكانت لقاح رسول الله ﷺ بذى قرد ، فبعث رسول الله ﷺ بظهره (٤) مع رباح - غلام رسول الله - وأنا معه ، وخرجت بفرس طلحة أندّيه (٥) مع الظهر ، فلقيت غلاماً لعبد الرحمن بن عوف كان فى إبل لعبد الرحمن بن عوف فأخطؤوا مكانها ، واهتدوا للقاح رسول الله ﷺ ، فأخبرنى أن لِقاح رسول الله ﷺ قد أغار عليها عيينة ابن حصن فى أربعين فارساً غطفان . قال محمد بن عمرو بن سعد : ليلة الأربعاء .

قال سلمة : فقلت : يارباح ، اقعد على هذا الفرس فألحق بطلحة ، وأخبر رسول الله أن قد أغير على سرحه . وقمت على تل بناحية سلع ، فجعلت وجهى من قبل المدينة ، ثم ناديت ثلاث مرات : ياصباحاه ، أسمع مابين لابتيها (٦) . ثم انبعث القوم ومعى سيفى ونبلى ، فجعلت أُردّيهم (٧) ، وفى لفظ أرميهم وأعقر بهم (٨)، وذلك حين يكثر الشجر . فإذا رجع إلىّ فارس جلست له فى أصل شجرة ، ثم رميت ، فلا يقبل علىّ فارس إلا عقرت به . فجعلت أرميهم وأنا أقول :

أنا ابن الأكوع والـيوم يـوم الرُضّع (٩) .

فألحق رجلا فأرميه وهو على رحله ، فيقع سهمى فى الرجل حتى انتظمت كتفه . فقلت : خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُضّع . فإذا كنت بالشجر أحرقتهم بالنبل وإذا تضايقت الثنايا علوت الجبل فرميتهم بالحجارة ، فمازال ذلك شأنى وشأنهم أتبعهم وارتجز حتى ما خلق الله تعالى شيئا من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته من وراء ظهرى واستنفذته من أيديهم . قال : ثم لم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً وأكثر من ثلاثين بردة يستخفون منها ولا يلقون من ذلك شيئا إلا جعلت عليه الحجارة وجمعته على طريق رسول الله ﷺ ، حتى إذا اشتد الضحى أتاهم عيينة بن بدر الفزارى ممداً لهم فى وهم ثنية ضيقة ، ثم علوت الجبل فأنا فوقهم . فقال عيينة : ما هذا الذى أرى ؟

(١) الغابة : مال من أموال عوالي المدينة . (٢) الأثل : شجر عظيم لا ثمر له .
(٣) الطرفاء : شجر من شجر البادية . (٤) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر .
(٥) أُندّيه : أن يورده الماء ساعة . (٦) لابتيها : تثنية لابة ، وهى الحرة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود .
(٧) أُردّيهم : أرميهم . (٨) أعقربهم : أقتل دوابهم .
(٩) اليوم يوم الرضّع : اليوم يوم قتل اللئام . قال السهيلى : يقال فى اللؤم رضع بالفتح وبالكسر رضع الثدى .

قالوا : لقينا من هذا البرحْ ، ما فارقنا بسحر حتى الآن ، وأخذ كل شيء بأيدينا ، وجعله وراء ظهره . فقال عيينة : لولا أن يرى هذا وراءه طلباً لقد ترككم ، وقال :

ليقم إليه نفر منكم .

فقام إلى أربعة منهم فصعدوا في الجبل ، فلما أسمعتهم الصوت قلت لهم : أتعرفونني ؟ . فقالوا : ومن أنت ؟ . قلت أنا ابن الأكوع ، والذى أكرم وجه محمد ﷺ ، لايطلبنى رجل منكم فيدركني ولا أطلبه فيفوتني ، فقال رجل منهم إنى أظن فارجعوا .

وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع يصرخ بالمدينة : الفزع الفزع ، فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ ، فكان أول من انتهى إليه المقداد بن الأسود ، فنودى : ياخيل الله اركبى ، وكان أول مانودى بها ..) . (١)

وروى ابن إسحاق ،ومحمد بن عمر وابن سعد ، عن سلمة قال :

(.. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجّالتنا سلمة » . ثم أعطانى رسول الله ﷺ سهم الفارس والراجل فجمعهما لى جميعا ، ثم أردفنى وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة) .

هذا هو ابن الأكوع الذى استنقذ وحده لقاح رسول الله ﷺ كلها من العدو الذى كان أربعين فارسا وغنم ثلاثين رمحا وثلاثين بردة ، ورد الفرسان الأربعة ، ولما يأت المدد بعد من المدينة ، ولما تبدأ المعركة . وذلك فى مبادرة فردية ، اكتفى بإعلان النفير فى المدينة بعد أن صرخ من جبل سلع ومضى لمهمته العظيمة ، وأكرمه عليه الصلاة والسلام فأثنى عليه فى نهاية المعركة أنه خير الرجالة ، وأردفه خلفه ، وأعطاه سهم الراجل والفارس ، والمسلمون جميعا يرون بطولة ابن الأكوع ، فلا غرو أن يطلب منه رسول الله ﷺ البيعة ثلاثا فى الحديبية .

٧ ـ ونقف أخيراً مع الآية نفسها بعد أن شهدنا البيعة :

﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ١٤٩/٥ وما بعدها . هذا وقد أورد الصالحى الغزوة بعد الحديبية . وذهب الذهبى وابن إسحاق إلى أنها قبل الحديبية بأشهر ، إذ هى فى ربيع الآخر سنة ست والحديبية فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة من السنة نفسها .

على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ .

فنفقه بعداً أعمق منها بعد هذا العرض .

لقد نزلت الآية الكريمة بعد صلح الحديبية ، وبعد منصرف الناس منها ، فما الضرورة إلى الحديث فيها عن الوفاء والنكث وقد انتهت بيعة الحديبية دون قتال ؟ وهل بقى فى عنق المؤمنين بيعة وقد عادوا إلى مكة وصالح رسول الله ﷺ بالمؤمنين ؟ ؟

لقد امتدت البيعة آمادا أبعد وآفاقاً أعظم ، فالبيعة ليست للحظة ولا لساعة ولا لمعركة إن البيعة خط صاعد ، ومنهج قائم ، كما قال أبو سنان :

(أبايعك على مافى نفسك ، أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل) .

وبايع الناس على بيعة أبى سنان .

وفقه أبطال الحديبية جميعاً ، أن هذه البيعة ليست خاصة بزمن ، أو مرتبطة بمعركة آتية في الحديبية أجلت المعركة فألغيت البيعة ، إنها منهج حياة وتحديد مصير ، إلى أن يلقوا ربهم يوم القيامة ، أن يقاتلوا المشركين فى كل معركة ، وفى كل زمان ، حتى يظهر الله دينه ، أو يقتلوا دون ذلك .

ومن أجل هذا جاءت الآية تتحدث عن الوفاء والنكث حين تختل هذه البيعة ، ولو بعد سنين ، ولو بعد وفاة قائدهم عليه الصلاة والسلام ، فالبيعة مع الله تعالى وله ، وشخص رسول الله ﷺ يزول والله تعالى باق لا يزول ، وبما أن البيعة مع الله تعالى وله ، فلا بد من الوفاء بها حتى آخر رمق ولابد من تأدية التزاماتها فداءً وجهاداً وتضحية ، مازال فى المؤمنين عين تطرف ، وإلا فقد نكثوا بهذه البيعة ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

وبقى رجال الحديبية على العهد ، ولم ينكث منهم أحد ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، كما نشهد فى جولة أخرى فيما بعد .

وبربط البيعة مع الله عز وجل تجاوزت هذه البيعة الجيل الأول ، ومضت مع المؤمنين إلى قيام الساعة ، فى كل بيعة يعقدها المؤمنون مع إمامهم على السمع والطاعة فى المنشط والمكره .

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ .

ومن هذه القمم السامقة لأهل الحديبية ، ينطلق الحديث من جديد عن العناصر الجديدة الدخيلة فى الإسلام ، فى عملية جديدة للهدم والبناء ، لهدم قيم ومفاهيم الجاهلية وإعادة الصياغة من جديد على ضوء الإسلام وقيمه ومفاهيمه .

جولة مع المخلصين .

﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيرا. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [1] .

الجو الذى تنزلت فيه الآيات اختلفت الصورة فيه تماماً عن جو المسير إلى الحديبية ، فعندما انطلق المسلمون عماراً إلى مكة ولما يمض عام على غزوة الخندق ، كان هذا مثار الاستخفاف من القبائل العربية وكانت النظرة إلى مسيرتهم أنهم يسيرون إلى حتفهم .. والذين دخلوا فى الإسلام من القبائل العربية المجاورة للمدينة كانوا يرون فى هذا الخروج نهاية الإسلام والمسلمين .

قال مجاهد وابن عباس : قوله تعالى : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب** ﴾ يعنى أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والديل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه ، حذراً من قريش ، وأحرم بعمرة وساق معه الهدى ، ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً ، فتثاقلوا عنه ، واعتلوا بالشغل . فنزلت . وإنما قال : ﴿ **المخلفون** ﴾ ، لأن الله خلفهم عن صحبة نبيه ، المخلَّف المتروك .

وقد مضى فى « براءة » ﴿ **شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما ﴿ **فاستغفر لنا** ﴾ جاءوا يطلبون الاستنفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ، ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ **يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم** ﴾ وهذا هو النفاق المحض . ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى

---

(١) الفتح / ١١ ـ ١٤ .

« ضُراً » بضم الضاد أى أمراً يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة . والباقون بالفتح ﴿ .. **أو أراد بكم نفعاً** ﴾ أى نصراً أو غنيمة وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ، ويعجل لهم النفع) (١) .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل ، عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب** ﴾ قال : أعراب المدينة جهينة ومزينة استنفرهم لخروجه إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم جاءوا فقتلوا أصحابه فنقاتلهم فى ديارهم فاعتلوا له بالشغل) (٢) .

﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً** ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمداً وأصحابه أكلة رأس لا يرجعون ، ﴿ **وزين ذلك فى قلوبكم** ﴾ وهذا التزيين من الشيطان ، أو يخلق الله ذلك فى قلوبهم ، ﴿ **وظننتم ظن السوء** ﴾ أن الله لا ينصر رسوله ، ﴿ **وكنتم قوماً بورا** ﴾ أى هلكى . قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لايصلحون لشىء من الخير) (٣) .

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المعتذرين إلى رسول الله ﷺ ، عند منصرفه من سفره إليهم بقولهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا : ما تخلفتم خلاف رسول الله ﷺ حين شخص عنكم وقعدتم عن صحبته من أجل انشغالكم بأموالكم وأهليكم ، بل تخلفتم بعده فى منازلكم ظناً منكم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه سيهلكون فلا يرجعون إليكم أبداً ، باستئصال العدو إياهم ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وحسّن الشيطان ذلك فى قلوبكم وصححه عندكم حتى حسن عندكم التخلف عنه فقعدتم عن صحبته ﴿ **وظننتم ظن السوء** ﴾ يقول : وظننتم أن الله لن ينصر محمداً ﷺ وأصحابه المؤمنين على أعدائهم وأن العدو سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم) . (٤)

وفى المغازى للواقدى :

فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم ، فيتشاغلون له بأموالهم وأبنائهم وذراريهم ، وهم بنو بكر ومزينة وجهينة ، فيقولون فيما بينهم :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٨ / ٢٦٨ .
(٢) الدر المنثور /٧/ ٥١٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / ٨ / ٢٦٩ .
(٤) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ١١ / ٢٧ / ٢٩ .

(أيريد محمد يغزو بنا إلى قوم معدين مؤيدين فى الكراع والسلاح ؟ وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور ! ، لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبدا ! قوم لا سلاح معهم ولا عدد ، وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أصيب منهم ببدر)[1] .

(والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها ، ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب ـ وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم من حول المدينة ـ سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : ﴿ **شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ .. وليس هذا بعذر ، فللناس دائما أهل وأموال ، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها ، وسيقولون : ﴿ **فاستغفر لنا** ﴾ وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار كما ينبىء الله رسوله ﷺ : ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ .

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يدفعه تخلف ولا يغيره إقدام ، وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء ، وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرّف الله قدره على وفقه :

﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيرا** ﴾ .

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ، والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ ، فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضرراً ، ولا يؤخر نفعًا ، وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله ، ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوى فى وقته ، وفى جوه وفى مناسبته على طريقة القرآن .

﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا** ﴾

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية ، وما ستروا من

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٥٧٤ .

تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء ، وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ! - يشيرون إلى أحد والأحزاب - ولم يحسبوا حسابا لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده ، كما أنهم بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة - لم يقدروا أن الواجب هو الواجب بغض النظر عن تكاليفه كائنة ماكانت ، وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية ، فهي واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه .

لقد ظنوا ظنهم وزُين هذا الظن في قلوبهم حتى لم يروا غيره ولم يفكروا في سواه ، وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشيء من أن قلوبهم بور ، وهو تعبير عجيب موح ، فالأرض البُور ميتة جرداء ، وكذلك قلوبهم ، وكذلك هم بكل كيانهم بور ، لا حياة ولا خصب ولا إثمار ، وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟ يكون بوراً . ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار .

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة ، الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله ، البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة ، هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة ، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال ، وأن المؤمنين قلة في العدد ، أو قلة في العدة ، أو قلة إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة . ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة ، ويتوقعون في كل لحظة أن يُستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم الأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك ! ولكن الله يخيّب ظن السوء هذا ، ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو ، وبتدبيره هو ، حسب ميزان القوى الحقيقية ، الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية ، فيخفض به قوماً ويرفع به آخرين من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين .

إن الميزان هو ميزان الإيمان ، ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة ، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة والتمتع بمغفرة الله ورحمته .

﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السموات

والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم ، فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين ، فإن الله الذى يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السموات والأرض وحده ، فهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذى يملك العذاب لمن يشاء . والله يجزى الناس بأعمالهم ، ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هنا هذه الحقيقة لتستقر في القلوب غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل ، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة ، ومغفرة الله ورحمته أقرب ، فليغتنمها من يريد ، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين) . (١)

وترد ملاحظتان عقب هذه الآيات التي تتحدث عن المخلفين :

الملاحظة الأولى : أن الحديث لأول مرة ليس عن المنافقين داخل المدينة وداخل الصف المسلم ، إنما الحديث عن الأعراب المقيمين خارج المدينة ، وهذا انتقال واضح فى التربية من داخل الصف إلى خارجه ، وأن التربية امتدت إلى الأفواج والعناصر الجديدة التى دخلت حديثا إلى الصف المسلم ، ولم يكن الأعراب من قبل يدعون إلى الجهاد ، أما الآن فهم يستنفرون ويبطئون ويتخاذلون ، فتبدأ معهم الجولة الجديدة فى التربية وهذا يشمل الحديث كله عن المخلفين ، بينما لا نجد ذكراً للمنافقين والحديث عنهم إلا بشكل عرضى وهذا يوحى من جهة ثانية أن الصف الإسلامي فى المدينة قد نضج وانصهر والتحم كتلة واحدة ، وأن المنافقين بصفتهم أفراد غدوا عاجزين عن التأثير فيه ، وغير قادرين على الخروج عليه بشكل سافر حتى أننا نجد عبد الله بن أبى زعيم النفاق يشارك مع المؤمنين فى عمرة الحديبية ، ولا يجرؤ على التخلف .

الملاحظة الثانية : أن الخطاب للمخلفين ، قد اتخذ مراحل عدة فى السورة ، فبعد أن يدينهم ويفضح خبيئة نفوسهم ، ينتقل في المرحلة الثانية ليحدد لهم عقوبة هذا التخلف فى فوات المغانم العظيمة التى وعدها الله المؤمنين ، وينتقل بهم فى المرحلة الثالثة إلى إفساح المجال أمامهم من جديد للجهاد وخوض غمرات الحرب ، فإن أدوا الأمانة وصدقوا جهادهم وبدلوا صفحة بصفحة ، فالله تعالى يغير ما بهم بعد هذا التغيير .

---

(١) في ظلال القرآن م ٦ / ٣٣٢١ وما بعدها .

﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا** ﴾ . [(١)]

(قوله تعالى : ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها** ﴾ يعنى مغانم خيبر ، لأن الله عز وجل وعد أهل الحديبية فتح خيبر ، وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر ، ولم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد عبد الله ، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولى للقسمة بخيبر جبار بن صخر الأنصارى من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى النجار كانا حاسبين قاسمين . ﴿ **ذرونا نتبعكم** ﴾ أى دعونا . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة فلما خرج النبى ﷺ وأخذ قوماً ووجه بهم قالوا : ذرونا نتبعكم فنقاتل معكم . ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ أى يغيروا ... وقيل : المعنى يريدون أن يغيرو وعد الله الذى وعد لأهل الحديبية ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة إذا رجعوا من الحديبية على صلح ، قال مجاهد وقتادة واختاره الطبرى وعليه عامة أهل التأويل ... ﴿ **كذلكم قال الله من قبل** ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة . ﴿ **فسيقولون بل تحسدوننا** ﴾ أن نصيب معكم من الغنائم . وقيل : قال رسول الله ﷺ : « إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لاسهم لكم » . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى : ﴿ **بل تحسدوننا** ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ **بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا** ﴾ وهوترك القتال) [(٢)] .

والأعراب الذين لا يفقهون الأمر إلا غنيمة تؤخذ ، عندما وجدوا صدق موعود الله فى نصر الحديبية وكيف عاد المسلمون آمنين لم يمسسهم سوء ، وسمعوا بموعود الله في الغنائم الكثيرة . فما أن حانت خيبر حتى تغير الوضع ونشطوا للخروج ، وسارعوا لينضموا للجيش الإسلامى ، لكن الله تعالى حال بينهم وبين ذلك فالجزاء من جنس العقوبة ، والذين قدموا التضحيات فى الحديبية هم أهل الفوز بالغنائم ، أما المشككون المتخاذلون فلا نصيب لهم فيها ، مهما كبرت دعواهم وتضخم زعمهم ، فلاحق لهم فى ذلك .

وهى تربية ذات مغزى لهؤلاء الأنواع من الناس الذين لايتحركون إلا لمصلحة وراء جاه أو غنيمة ، كى يلقوا أثر هذا الحرمان على نفوسهم حين تخلوا عن الجهاد فى سبيل الله :

---

(١) الفتح / ١٥ .　　(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / م ٨ / جـ ١٦ / ٢٧٠ .

﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما . ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليما ﴾(1) .

(فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب** ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية : ﴿ **ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد** ﴾ (2) قال ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى: هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبى ليلى : الروم وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال ابن جبير هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة ، وقال رافع بن خديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى : ﴿ **ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد** ﴾ فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعد ، وظاهر الآية يرده .

الثانية : فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم ، وأما قول عكرمة وقتادة : إن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال : ﴿ **لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا** ﴾ ، فدل على أن المراد بالداعى غير النبى ﷺ (3) ، ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى ﷺ إلا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . الزمخشرى : فإن صح ذلك عن قتادة ـ قتال هوازن وغطفان ـ فالمعنى : لن تخرجوا معى أبداً مادمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب فى الدين ، أو على قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون الرسول ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم من المغنم .

---

(1) الفتح / 16 ، 17 . (2) الفتح / 11 ـ 14 .

(3) الملاحظ أن هذه الآية : ﴿ **لن تخرجوا معى أبدا ولم تقاتلوا معى عدوا** ﴾ إنما نزلت فى تبوك ، وفى غير هؤلاء المخلفين ، فلا أرى داعيا للتأويل لما روى عن قتادة في كونهم هوازن وغطفان والله أعلم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهو معطوف على ﴿ **تقاتلونهم** ﴾ أى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة وإما الإسلام لا ثالث لهما ...

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا** ﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا والجنة فى الآخرة ، ﴿ **وإن تتولوا كما توليتم من قبل** ﴾ عام الحديبية ﴿ **يعذبكم عذاباً أليما** ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج ..** ﴾ :

قال ابن عباس : لما نزلت : ﴿ **وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما** ﴾ قال أهل الزماتة : كيف بنا يارسول اللّه ؟ فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ أى لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد لعماهم وزماتتهم وضعفهم . والعرج : آفة تعرض لرجل واحدة ، وإذا كان ذلك مؤثراً فخلل الرجلين أولى أن يؤثر . وقال مقاتل : هم الزماتة الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم ، أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل ، ﴿ **ومن يطع اللّه ورسوله** ﴾ فيما أمره ﴿ **يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً** ﴾) [1] .

(وأخرج الطبرانى بسند حسن عن زيد بن ثابت رضى اللّه عنه قال : كنت أكتب لرسول اللّه ﷺ ، وإنى لواضع القلم على أذنى إذ أمر بالقتال ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾ الآية . قال : هذا فى الجهاد وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا) [2] .

والملاحظة الأخيرة بصدد الحديث عن المخلفين ، هى أن هذا الحديث جاء بين آيتى البيعة :

الآية الأولى : ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه يد اللّه فوق أيديهم ...** ﴾ .

الآية الثانية : ﴿ **لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...** ﴾ .

ـ ولا غرابة فى الحديث عن المخلفين بعد الآية الأولى ؛ لأنها تتحدث عن البيعة بشكل عام ، قد يصدق بعضهم فيها وقد ينكث ، أما الآية الثانية فتحدد صدق المبايعين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى / م ١١ / جـ ١٦ / ٢٧٢ .
(٢) الدر المنثور / م ٧ / ٥٢١ .

ورضى اللّه تعالى عنهم ، فلا بد من إخراج المخلفين من الساحة ، الذين عرف اللّه الغل فى قلوبهم ، والغش للإسلام والمسلمين فى نفوسهم ، فثبطهم ، ولم يكونوا فى الصف الإسلامى عند البيعة . والحديث طالما أنه حديث عن القلوب ، فقد تم فضح نفوس المخلفين الذين ادعوا الانشغال بأهليهم وأموالهم ، وكشف خبيئة نفوسهم وخبث طويتهم بأن الذى حال بينهم وبين الخروج هو تصورهم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك فى قلوبهم حتى غدا حقيقة واقعة .

وبعد هذا العرض النفسى للمخلفين وطلاب الغنيمة والدنيا ، جاء الدور الجديد لعرض قلوب خيرة أهل الأرض ، بعد أهل بدر ، وهم الذين بايعوا تحت الشجرة .

﴿ لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان اللّه عزيزاً حكيماً ﴾ .

على الرغم من حديثنا عن البيعة فى الآية السابقة إلا أننا هنا نعود لنعرض جوانب أخرى من خلال الآية الكريمة :

١ ـ ماذا فعلت البيعة :

(.. فبلغ رسول اللّه ﷺ أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى البيعة وبلغ قريشاً حبس أصحابهم ، فجاء جمع من قريش إلى النبى ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة ، وأسروا أيضاً من المشركين حينئذ أسرى ، ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ، فأقبل رسول اللّه ﷺ يومئذ يؤم منازل بنى مازن بن النجار ، وقد نزلت فى ناحية من الحديبية جميعاً . قالت أم عمارة : والرسل تختلف بين رسول اللّه ﷺ وبين قريش ، فمر بنا رسول اللّه ﷺ يوماً فى منزلنا . قالت : فظننت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه قد قتل ، فجلس فى رحالنا ثم قال : « إن اللّه أمرنى بالبيعة ، فما بقى لنا متاع إلا وطىء ! وزوجها غزية بن عمرو . وقالت : فبايع رسول اللّه ﷺ الناس يومئذ . قالت : فكأنى أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل ، إنما خرجنا عماراً ، فأنا أنظر إلى غزية بن عمرو وقد توشح بالسيف ، فقمت إلى عمود كنا نستظل به ، فأخذته فى يدى ومعى سكين قد شددته فى وسطى ، فقلت : إن دنا منى أحد رجوت أن أقتله ، فكان رسول اللّه ﷺ يومئذ يبايع الناس وعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه آخذ بيده ، فبايعهم على أن لا

يفروا . وقال قائل : بايعهم على الموت ، ويقال : أول الناس بايع سنان بن أبى سنان بن محصن [1] . فقال : يارسول الله ، أبايعك على ما فى نفسك . فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان بن أبى سنان ..

فلما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ : « سهل أمرهم » . قال :

من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ولا ذوى الأحلام منا ، بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ! فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة . والذين أسرت آخر مرة !

فقال رسول الله ﷺ : « إنى غير مرسلهم حتى ترسل أصحابى » .

قال سهيل : أنصفتنا ! فبعث سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص إلى قريش الشتيم بن عبد مناف التيمى : إنكم حبستم رجالاً من أصحاب محمد بينكم وبينهم أرحام ، لم تقتلوهم وقد كنا كذلك كارهين ! وقد أبى محمد أن يرسل من أسر من أصحابكم حتى ترسلوا أصحابه ، وقد أنصفنا ، وقد عرفتم أن محمداً يطلق لكم أصحابكم ، فبعثوا إليه بمن كان عندهم ، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أسروا أول مرة وآخر مرة ، فكان فيمن أسر أول مرة عمرو بن أبى سفيان ، وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس يومئذ تحت شجرة خضراء ...

فلما نظرت قريش سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ومن كان معه وعيون قريش إلى مارأت من سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم للحرب ، اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية .

فلما رجع عثمان رضى الله عنه أتى به رسول الله ﷺ إلى الشجرة فبايعه ، وقد كان قبل ذلك حين بايع الناس قال : « إن عثمان ذهب فى حاجة الله ورسوله فأنا أبايع له » . فضرب بيمينه على شماله .

قال الواقدى : (حدثنى جابر بن سليم ، عن صفوان بن عثمان ، قال : فكانت قريش قد أرسلت إلى عبد الله بن أبى : إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل ، وابنه جالس عنده ، فقال له ابنه : ياأبت أذكرك الله أن تفضحنا فى كل موطن ، تطوف بالبيت ولم يطف رسول الله ؟ فأبى ابن أبى وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ، فبلغ رسول

(١) وعند غير الواقدى هو أبو سنان الأسدى نفسه وليس ولده .

اللّه ﷺ كلامه ذلك فسر به ، ورجع حويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو ومكرز بن حفص إلى قريش ، فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب رسول اللّه ﷺ إلى البيعة وما جعلوا له . فقال أهل الرأى منهم : ليس خيراً من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ، ويرجع قابل فيقيم ثلاثاً ، وينحر هديه وينصرف ، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على ذلك ..) [1] .

فالبيعة إذن هى السبب المباشر الذى فت فى أعضاد مكة ، ودعاها إلى الصلح ، ولا ننكر أثر مواقف عروة بن مسعود والحليس بن علقمة قبلها فيما رأوا من الصف الملتزم الملتحم المتحد المتراص الفدائى .

وندع للشهيد سيد رحمه اللّهّ وصف هذا الصف ، والأجواء التى تنزلت فيها سورة الفتح .

(ومن سياق السورة وجوها ، وبالموازنة بينها وبين إيحاءات سورة محمد التى قبلها فى ترتيب المصحف ، يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة من موقفها كله من تغيرات عميقة ، فى مدى السنوات الثلاث ، التى نرجح أنها تفرق بين السورتين فى زمن النزول ، ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التى سعدت بالنشوء والنمو فى ظلال القرآن ، وفى رعاية النبوة ، فكانت ما كانت فى تاريخ البشرية الطويلة .

واضح فى جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ، ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كى تنهض بهذه التكاليف فى النفس والمال ، بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها ، وينهنه حدتها ، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء والمهادنة بعض الوقت وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون واللّه معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم** ﴾ [2] ... ولا بمثل قوله تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل اللّه فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه واللّه الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[3] .

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٠٢ وما بعدها . (٢) محمد / ٣٥ . (٣) محمد / ٣٨ .

ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء ، وما أعد الله لهم من الكرامة ، ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد ، إذ يقول اللّه تعالى : ﴿ **ذلك ولو يشاء اللّه لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾[1] .

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها اللّه في قلوب المؤمنين ، أو أنزلها عليهم ، والمقصود بها تهدئة فورتهم ، وتخفيض حميتهم ، واطمئنان قلوبهم لحكم اللّه وحكمة رسوله ﷺ في المهادنة والملاينة وعن رضى اللّه عن المبايعين تحت الشجرة . وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها .. فالإيحاء فيها أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة ، والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين ، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات ، فهي إشارة عابرة تدل على ضعف موقف هذه الطائفة . وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها ، وعلى كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئاً مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد ، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود ، وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل .

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها ، والإشارات إلى الفتوح المقبلة ، وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة ، واعتزازهم ، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله .. كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين .

ففي حقيقة النفوس ، وفي حال الجماعة . وفي الظروف المحيطة بها ، حدث تطور واضح ، يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر التربية القرآنية ، والتربية المحمدية . لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحاؤه للقائمين على الجماعات البشرية ، فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ، ورواسب الماضي ومخلفاته . وآثار البيئة والوسط ، وجواذب الأرض ، وثقلة اللحم والدم .. وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة ، ولكنها مع

---

(١) محمد / ٤ ـ ٦ .

المثابرة والحكمة والصبر على العلاج ، تأخذ فى التحسن والتطور والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور ، حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه ، وشيئاً فشيئًا تخف ثقلة الطين ، وتشف كثافة اللحم والدم ، وتتوارى آثار البيئة ، وتصفو رواسب الماضى ، وتستشرق القلوب . آفاقا أعلى فأعلى حتى ترى النور هناك على الأفق المضيئ البعيد ، ولنا فى رسول اللّه أسوة حسنة . ولنا فى المنهج القرآنى صراط مستقيم) (١) .

٢ ـ وتأتى شهادة اللّه تعالى لهذا الجيل ولهذا الصف بالرضا عنه :

﴿ لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

وأى طمأنينة فى هذا الوجود تعدل هذه الطمأنينة ، فليس الحكم على المظاهر ، فقد يبايع الرجل وينكث ، وقد يبايع ويغدر ، لكن الحكم على القلوب ، وبمعرفة اللّه تعالى بهذه الصفوة من الخلق ، وبمستوى قلوبهم رضى عنهم ، وأنزل السكينة عليهم .

فالبيعة مظهر خارجى له حكمته ودلالته ، ومن أهم حكمه إرهاب العدو وإجباره على الصلح . لكن القلوب التى وراء البيعة والتى هى مناط الصلاح . قد رضى اللّه عنها ، وأعطاها هذا الحكم .

ويعجزنى التعبير عن هذا المعنى ، فألجأ إلى الظلال وإلى سيد رحمه اللّه ليسعفنى فى هذا التعبير ، فيقول :

(وإننى لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام ، أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من اللّه العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين ، أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة ، وضميره المكنون ، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود .. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بأذانهم ، أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول اللّه عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه . والهيئة التى كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : **﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾** يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق ، على لسان ربه العظيم الجليل . ياللّه ! كيف تلقوا أولئك السعداء تلك اللحظة القدسية

(١) فى ظلال القرآن / م ٦ / ٣٣١٤ وما بعدها .

وذلك التبليغ الإلهى ؟ التبليغ الذى يشير إلى كل أحد فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت ، أنت بذاتك يبلغك الله لقد رضى عنك ، وأنت تبايع تحت الشجرة . وعلم ما فى نفسك ، فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا** ﴾ فيسعد ، يقول فى نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلاً فى هذا العموم ؟ ويقرأ أو يسمع : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ فيطمئن ، يقول فى نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون واحداً واحداً أن الله يقصده بعينه وبذاته ويبلغهُ : لقد رضى عنه : وعلم ما فى نفسه . ورضى عما فى نفسه يا لله ! إنه أمر مهول) (١) .

وتأتى شهادة رسول الله ﷺ لهذا الصف المؤمن الملتحم المبايع :

فقد روى الإمام أحمد ، والترمذى ، وأبو داود ، عن جابر ومسلم عن أم المبشر قول رسول الله ﷺ :

« لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » (٢) .

(وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى ، ومسلم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن جابر رضى الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « أنتم خير أهل الأرض ») (٣) .

(وروى الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما كان يوم الحديبية . قال لنا رسول الله ﷺ : « لا توقدوا ناراً بالليل » . فلما كان بعد ذلك قال : « أوقدوا واصطنعوا فإنه لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم ») (٤) .

(وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه سيأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » فقيل : يارسول الله ، قريش ؟ ! قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، فإنهم أرق أفئدة ، وألين قلوباً » . قلنا : يارسول الله ، هم خير منا ؟ . فقال بيده هكذا ـ ويصف هشام فى الصفة كأنه يقول سواء . « إلا أن فضل ما بيننا وبين الناس : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح** ﴾) (٥) .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٦ / ٣٣٢٥ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٦ / ٢٢٨ ، وعند مسلم كتاب ٤٤ / باب ٣٧ / جـ٥ / ص ١٩٤٢ / ح ٢٤٩٦ .

(٣) الدر المنثور / ٧ / ٥٢٢ . (٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٨٤ . (٥) المغازى للواقدى / ٢ / ٥٨٦ .

(وعن جبير بن مطعم أنه سمع رسول اللهّ ﷺ يقول يومئذ : « أتاكم أهل اليمن كأنهم قطع السحاب ، هم خير من على الأرض » . قال رجل من الأنصار : ولا نحن يارسول اللّه ؟ فسكت رسول اللّه ﷺ ثلاثاً ، ثم الرابعة قال قولاً ضعيفاً : « إلا أنتم ») [1] .

٣ ـ ونشهد هنا طريقة التربية القرآنية بين تسلسل آيتى البيعة :

فالآية الأولى تتحدث عن البيعة وضخامتها ومسؤوليتها وخطر النكث فيها ، وتجعل قلوب المبايعين معلقة بين الرجاء والخوف ، ترتجف هذه القلوب رعباً أن تنكث فيما بايعت عليه ، فقد بايعت رسول رب العالمين ، وأكد القرآن الكريم أن البيعة لرسول رب العالمين هى بيعة لرب العالمين ، فيد اللّه تعالى فوق أيديهم ، والنكث إنما يعود على المبايع فيسقط وينكث على نفسه ، وهو الذى يذكر ابتداء ، ومع الوفاء بالبيعة يكون الأجر العظيم .

بينما نجد الآية الثانية تطلق حكماً ثابتاً على المبايعين ، بأنهم قد حازوا على رضى اللّه ، واللّه يعلم ما فى قلوبهم ، ولعله بما فيها ولصلاحها وتقواها حازت على رضا اللّه ، وتمت المكافأة بأن أنزل السكينة على هذه القلوب ، وأثابها الفتح العظيم والغنائم الكثيرة .

الأصل فى الدنيا أنها دار عمل ، والآخرة هى دار الجزاء ، وإنما تصدر النتائج فى الآخرة ، ولكن اللّه تعالى اختار من خلقه هذه الحفنة ، وهذه العصابة المؤمنة ، فأعطاها الجزاء فى الدنيا ، وتلقت خبر الفوز فى الدارين على لسان رسول رب العالمين وهى لا تزال تعيش على ظهر هذه الأرض .

فأى سكينة وأى طمأنينة فى الوجود تعدل شعور المسلم وهو يمشى على ظهر الأرض أنه من أهل الجنة ، وأنه لن يدخل النار ، وأنه حاز على رضا اللّه ؟!!

إننا نجد هذه الصورة قد برزت فى بدر كذلك .

فبعد الحساب الطويل والعتاب على ما بدر من أهل بدر حول الغنائم ، والتى ختمت بالآيات :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [2] .

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٥٨٦ .

(٢) الأنفال / ٢ ـ ٤ .

وبعد هذا التعليق بين الرجاء والخوف فى بداية السورة ، جاء التأكيد الربانى فى نهايتها:

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ (١) .

وجاء التأكيد النبوى بعد التأكيد الربانى .

« وما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر . فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) .

وهكذا برزت فى الصفحات الإسلامية أعظم طبقتين وهما :

طبقة أهل بدر ، وطبقة أصحاب بيعة الرضوان .

وسميت البيعة بيعة الرضوان ، انطلاقاً من هذه الآية : **﴿ لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك .. ﴾** .

٤ ـ ونعود إلى الفتح القريب والمغانم التى جاءت ثمرة رضوان اللّه عز وجل للمبايعين :

(قال قتادة وابن أبى ليلى : فتح خيبر . وقيل : فتح مكة . وقرئ **﴿ وآتاهم ﴾ ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾** يعنى أموال خيبر . وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة و « مغانم » على هذا بدل من « فتحاً قريباً » والواو مقحمة . وقيل : « ومغانم » فارس والروم)(٣) .

(وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : انصرف رسول اللّه ﷺ من الحديبية إلى المدينة ، حتى إذا كان بين المدينة ومكة نزلت عليه سورة الفتح فقال : **﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ﴾** إلى قوله : **﴿ عزيزا ﴾** ، ثم ذكر اللّه الأعراب ومخالفتهم للنبى ﷺ فقال : **﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾** إلى قوله **﴿ خبيرا ﴾** ، ثم قال للأعراب : **﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون ﴾** إلى قوله : **﴿ سعيرا ﴾** ، ثم ذكر البيعة فقال : **﴿ لقد رضى اللّه عن المؤمنين ﴾** إلى قوله : **﴿ وأثابهم فتحاً قريبا ﴾** لفتح الحديبية)(٤) .

(وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد ، وهو أن الذى أثابهم اللّه من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر ، وذلك أن المسلمين لم

(١) الأنفال : ٧٤ .
(٢) مسلم كتاب ٤٤ / جـ ب ٣٦ / جـ٥ / جـ ٢٤٩٤ / ص ١٩٤١ .
(٣) القرطبى / ٨ / ١٦ / ٢٧٨ .
(٤) الدر المنثور / ٧ / ٥٢٤ .

يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول اللّه ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها) [1] .

وعلى هذا ، فكانت الثمرة من الفتح القريب هى فتح الحديبية نفسه ، بما فتح اللّه به من القلوب لشريعة اللّه ، وما أذن به من نصر بعد ذلك . أو فتح خيبر الذى دك قلاع اليهود جميعها ، أو فتح مكة القريب الذى تم بعد الحديبية بسنتين . وأرجح الأقوال على أن هذا الفتح القريب هو خيبر .

قال الحافظ [2] رحمه اللّه : (يعنى قوله تعالى : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم : والتحقيق : أنه يختلف باختلاف المراد من الآيات فقوله تعالى : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ المراد بالفتح هنا الحديبية ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين لما ترتب على الصلح الذى وقع من الأمن ورفع الحرب ؛ وتمكن من كان يخشى الدخول فى الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك ، كما وقع لخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وغيرهم ، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح ... وأما قوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ **وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ فالمراد به فتح خيبر على الصحيح ، لأنها وقعت فيها المغانم الكثيرة ، وقسمت خيبر على أهل الحديبية ، وأما قوله تعالى : ﴿ **فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا** ﴾ فالمراد به الحديبية ، وأما قوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر اللّه والفتح** ﴾ وقوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » فالمراد به فتح مكة باتفاق ، فبهذا يرتفع الإشكال وتجتمع الأقوال) [3] . بعون اللّه .

فأثابهم فتحاً قريباً ـ فتح خيبر

١ ـ وقت الغزوة :

قال ابن عقبة وابن إسحاق : (ولما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة من الحديبية ـ زاد ابن إسحاق فى ذى الحجة ـ مكث بها عشرين ليلة أو قريباً منها ، ثم خرج غادياً إلى خيبر ـ زاد ابن إسحاق فى المحرم ـ وكان اللّه عز وجل وعده إياها وهو بالحديبية ، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة . فأعطاه اللّه تعالى فيها خيبر : ﴿ **وعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه** ﴾ خيبر .

(١) الطبرى / ١١ / ٢٦ / ٥٦ . (٢) الحافظ هو ابن حجر العسقلانى رحمه اللّه .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ١٠٤ .

قال محمد بن عمر : أمر رسول اللّه ﷺ أصحابه بالخروج فجدوا فى ذلك ، واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه . وجاءه المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقال : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا)[1] .

٢ ـ قوة اليهود فى خيبر :

(روى محمد بن عمر عن شيوخه ، وأحمد ، والطبرانى عن ابن أبى حدرد بسند صحيح ، أنه كان لأبى الشحم اليهودى خمسة دراهم ـ ولفظ الطبرانى : أربعة دراهم فى شعير أخذه لأهله ـ فلزمه فقال : أخلّنى ، فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء اللّه قد وعد اللّه تعالى نبيه أن يغنمه خيبر .

فقال أبو الشحم (حسداً وبغياً) : أتحسبون أن قتال خيابر مثل ما تلقون من الأعراب ، فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل .

وترافعا إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال : « أعطه حقه » . قال عبد اللّه : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها . قال : « أعطه حقه » . قال : وكان رسول اللّه ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يراجع . قال عبد اللّه : فخرجت فبعت أحد ثوبى بثلاثة دراهم . وطلبت بقية حقى ، وليست ثوبى الآخر ، وأعطانى ابن أسلم ابن حريش ثوباً آخر .

ولفظ الطبرانى : فخرج به ابن حدرد إلى السوق ، وعلى رأسه عصابة وهو يأتزر بمئزر ، فنزع العمامة عن رأسه فأتزر بها ، ونزع البردة فقال : اشتر منى هذه ، فباعها منه بالدراهم ، فمرت عجوز فقالت : مالك ياصاحب رسول اللّه ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البرد ، فطرحته عليه ، فخرجتُ فى ثوبين مع المسلمين ، ونفلنى اللّه تعالى من خيبر ، وغنمتُ امرأة بينها وبين أبى الشحم قرابة فبعتها منه)[2] .

٣ ـ وصول رسول اللّه ﷺ إلى خيبر :

(وبعث رسول اللّه ﷺ عباد بن بشر فى فوارس طليعة ، فأخذ عيناً لليهود من أشجع . فقال له : من أنت ؟ . قال : باغ أبتغى ابعرة ضلت لى . أنا على أثرها . قال له عباد : ألك علم بخيبر ؟ . قال عهدى بها حديث ، فبم تسألنى عنه ؟ قال : عن اليهود . قال : نعم ، كان كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس ساروا فى حلفائهم من غطفان . وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فجاءوا معدين مؤيّدين بالكراع والسلاح يقودهم عتيبة بن

(١) المصدر نفسه / ١٨٠ .　　(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ١٨٢ .

بدر ، ودخلوا معهم فى حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل . وهم أهل الحصون التى لا ترام ، وسلاح وطعام كثير لو حوصروا سنين لكفاهم ، وماء واتن [1] يشربون فى حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة .

فرفع عبّاد بن بشر السوط ، فضربه ضربات وقال : ما أنت إلا عين لهم ، اصدقنى وإلا ضربت عنقك ! فقال الأعرابى : أفتؤمننى على أن أصدقك ؟ . قال : نعم . فقال الأعرابى :

القوم مرعوبون منكم خائفون ، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عم لى وجدوه بالمدينة . قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق يخبرونه بقلتكم ، وقلة خيلكم وسلاحكم ويقولون له : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه لم يلق قوماً يحسنون القتال ! وقريش والعرب قد سرّوا بمسيرهم إليكم لما يعلمون من موادّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ! وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى هوى محمد ، تقول قريش . إن خيبر تظهر ، ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر ! قال الأعرابى : وأنا أسمع كل هذا ، فقال لى كنانة : اذهب معترضاً الطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا ، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجل الرجفة إلينا بخبرهم . فأتى به عباد إلى النبى ﷺ ، فأخبره الخبر فقال عمر : اضرب عنقه . قال عباد : جعلت له الأمان . فقال رسول اللّه ﷺ : « أمسكه معك يا عباد فأوثق رباطاً » فلما دخل رسول اللّه خيبر عرض عليه الإسلام وقال : « إنى داعيك ثلاثاً ، فإن لم تسلم لم يخرج الحبل عن عنقك إلا صعداً » ! فأسلم الأعرابى) [2] .

وروى الإمام الشافعى ، وابن إسحاق ، والشيخان ، عن طريق أنس رضى اللّه عنه قال : (سار رسول الله ﷺ إلى خيبر ، فانتهى إليها ليلاً ، وكان رسول الله إذا طرق قوماً بليل لم يُغر عليهم حتى يصبح . فإذا سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم حتى يصبح ، فصلينا الصبح عند خيبر بخلس ، فلم نسمع أذاناً ، فلما أصبح ركب رسول الله ﷺ ، وركب معه المسلمون ، وأنا رديف أبى طلحة ، فأجرى نبى الله ﷺ . فانحسر عن فخذ رسول الله ﷺ ، فإنى لأرى بياض فخذه ، وإن قدمى لتمس قدمه .

وخرج أهل القرية إلى مزارعهم بمكاتلهم ومساحيهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ

(٣) أى دائم .   (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٤٠ .

قالوا : محمد والخميس ، فأدبروا هرباً . فقال رسول الله ﷺ ـ ورفع يديه ـ :
« الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »)[1] .

٤ ـ المنزل الأول للجيش :

قال محمد بن عمر : (وجاء الحُباب فقال :

يارسول اللّه ، إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان من أمر أُمرتَ به فلا نتكلم . وإن كان الرأى تكلمنا ، فقال رسول اللّه ﷺ « هو الرأى » . فقال :

يارسول اللّه ، دنوت من الحصون ، ونزلت بين ظهرى النخل ، والنز[2] . مع أن أهل النطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، ينالنا نبلهم ، ولا نأمن من بياتهم ، يدخلون فى خَمَرِ النخل ، فتحول يا رسول اللّه إلى موضع برىء من النز ومن الوباء . نجعل الحرة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم ، ونأمن من بياتهم ، ونرتفع من النز . فقال رسول اللّه ﷺ : « أشرت بالرأى ، ولكن نقاتلهم هذا اليوم » .

ودعا رسول اللّه ﷺ محمد بن مسلمة رضى اللّه عنه فقال : « انظر لنا منزلاً بعيداً من حصونهم ، بريئاً من الوباء ، نأمن فيه من بياتهم » . فطاف محمد حتى أتى الرجيع[3] . ثم رجع إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، وجدت لك منزلاً . فقال رسول اللّه ﷺ : « على بركة اللّه »)[4] .

٥ ـ ذكر ابتدائه ﷺ بأهل النطاة :

(صف رسول اللّه ﷺ أصحابه ووعظهم ، وأنهاهم عن القتال حتى يأذن لهم ، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودى ، وحمل عليه اليهودى فقتله . فقال الناس : استشهد فلان ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أبعد ما نهيت عن القتال ؟ ». قالوا : نعم . فأمر رسول اللّه ﷺ منادياً فنادى فى الناس « لا تحل الجنة لعاص » .

وروى الطبرانى فى الصغير عن جابر رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال يومئذ : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا اللّه تعالى العافية ، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ، ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ١٨٥ . (٢) النز : ما يتحلب من الأرض من الماء.
(٣) الرجيع : وادٍ قرب خيبر . (٤) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٤٣ .

ثم الزموا الأرض جلوساً ، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا » .

قال ابن إسحاق ، ومحمدبن عمر ، وابن سعد : وفرّق رسول اللّه ﷺ الرايات ، ولم تكن الرايات إلا يوم خيبر ، وإنما كانت الألوية .

وكانت راية رسول اللّه ﷺ سوداء من برد لعائشة رضى اللّه عنها تدعى العُقاب ، ولواؤه أبيض ، دفعه إلى على بن أبى طالب . رضى اللّه عنه . ودفع راية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سعد بن عبادة ، وكان شعارهم : يامنصور أمت .

وأذِن رسول اللّه ﷺ بالقتال ، وحثّهم على الصبر ، وأول حصن حاصره حصن ناعم ، وقاتل ﷺ يومه ذلك أشد القتال ، وقاتله أهل النطاة أشد القتال ، وترّس جماعة من أصحاب رسول اللّه ﷺ ، وعليه ـ كما قال محمد بن عمر ـ درعان وبيضة ومغفر ، وهو على فرس : يقال له الظرب ، وفى يده قناة وترس)[1] .

٦ ـ ذكر فتحه ﷺ حصن الصعب بن معاذ :

روى ابن إسحاق عن بَعْضٍ مِنْ مَنْ أسلم ، ومحمد بن عمر رحمه اللّه عن معتّب الأسلمى رضى اللّه عنه قال : أصابتنا معشر أسلم[2] مجاعة حين قدمنا خيبر . وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة لا نفتح شيئاً فيه طعام ، فأجمعت أسلم أى أرسلوا أسماء بن حارثة فقالوا : ائت رسول اللّه ﷺ فقل له : إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون : إنا جهدنا من الجوع والضعف ، فقال بريدة بن الحصيب الأسلمى : واللّه إن[3] رأيت كاليوم قط من بين العرب من يصنعون هذا . فقال زيد بن حارثة أخو أسماء : واللّه إنى لأرجو أن يكون هذا البعث إلى رسول اللّه ﷺ مفتاح الخير ، فجاء أسماء فقال : يارسول اللّه ، إن أسلم تقرأ عليك السلام وتقول : إنا جهدنا من الجوع والضعف ، فادع اللّه لنا ، فدعا لهم رسول اللّه ﷺ ثم قال : « واللّه ما بيدى ما أقويهم به ، قد علمتُ حالهم ، وأنهم ليست لهم قوة » ثم قال : « اللهم فافتح عليهم أعظم حصن فيها ، أكثرهم طعاماً . وأكثرها ودكاً »[4] . ودفع اللواء إلى الحباب بن المنذر رضى اللّه عنه وندب الناس ، فما رجعنا حتى فتح اللّه علينا حصن الصعب بن معاذ .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ١٨٧ .

(٢) أسلم : قبيلة من القبائل المجاورة للمدينة ، وهى التى قال فيها رسول اللّه ﷺ : « أسلم سالمها اللّه » . وهم كانوا ثمن المسلمين فى خيبر وفى الحديبية .

(٣) إن : بمعنى ما هنا .　　(٤) الودك : دسم اللحم ودهنه .

قالت أم مطاع الأسلمية رضى الله عنها : لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ماشكوا من شدة الحال ، فندب رسول الله ﷺ الناس فنهضوا ، فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ ، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتح الله تعالى ، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً وودكاً منه ، وكان عليه قتال شديد ، وبرز رجل من يهود يقال له يوشع ، يدعو إلى البراز . فبرز له الحباب بن المنذر ، فاختلفا ضربات ، فقتله الحباب . وبرز له آخر يقال له الزَّيال ، فبرز له عمارة بن عقبة الغِفارى ، فبادره الغِفارى فضربه ضربة على هامته وهو يقول : خذها وأنا الغلام الغفارى . فقال الناس : بطل جهاده فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بأس به ، يؤجر ويحمد » ..

وروى محمد بن عمر عن جابر رضى الله عنه : أنهم وجدوا فى حصن الصعب من الطعام ما لم يكونوا يظنون أنه هناك من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والوَدَك .

ونادى منادى رسول الله ﷺ : « كلوا واعلفوا ولا تحملوا » يقول : لا تخرجوا به إلى بلادكم .

٧ ـ ذكر محاصرته ﷺ حصن الزبير بن العوام (الذى صار فى سهمه فيما بعد) :

روى البيهقى عن محمد بن عمر قال : لما تحولت يهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ ، فأقام محاصرهم ثلاثة أيام . فجاء يهودى يدعى غزال . فقال : يا أبا القاسم ، تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة . وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك ؟ .

فأمَّنه رسول الله ﷺ على أهله وماله فقال اليهودى :

إنك لو أقمت شهراً ما بالَوْا ؛ لهم دبول (١) تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت عنهم شربهم أصحروا لك ، فسار رسول الله ﷺ إلى دُبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربهم ، خرجوا وقاتلوا أشد قتال . وقُتل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود فى ذلك اليوم عشرة ، وافتتحه رسول الله ﷺ ، وكان هذا آخر حصون النطاة ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من النطاة تحول إلى الشق .

---

(١) الدُبول : جمع دَبْل ، نهيرات وقنوات وجداول .

٨ ـ ذكر انتقاله ﷺ إلى محاصرة حصون الشق وفتحها :

روى البيهقي عن محمد بن عمر رحمه الله عن شيوخه رحمهم الله قالوا :

لما تحوّل رسول الله ﷺ إلى الشق ، وبه حصون ذوات عدد ، فكان أول حصن بدأ به حصن أبي ، فقال رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سموان ، فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً ، وخرج رجل من يهود يقال له غزول ، فدعا إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر فاقتتلا فاختلفا ضربات ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع . فوقع السيف من يد غزول فبادر راجعاً منهزماً إلى الحصن فتبعه الحباب ، فقطع عرقوبه ، فوقع فذفف [1] عليه . فخرج آخر ، فصاح من يبارز ، فبرز له رجل من المسلمين من آل جحش . فقتل الجحشي ، وقام مكانه يدعو إلى البراز . فبرز له أبو دجانة ، وقد عصب رأسه بعصابته الحمراء ، فوق المِغْفَر ، يختال في مشيته ، فبدره أبو دجانة رضي الله عنه فضربه فقطع رجله ثم ذفَّف عليه ، وأخذ سلبه ، درعه وسيفه ، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فنفله رسول الله ذلك ، وأحجم اليهودُ عن البراز ، فكبّر المسلمون ، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه ، يقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً ، وهرب من كان فيه من المقاتلة ، وتقحموا الجدُر كأنهم الظباء حتى صاروا إلى حصن النزّال بالشّق وجعل يأتي من بقي من فلّ النطاة إلى حصن النّزال . فغلقوه ، وامتنعوا فيه أشد الامتناع ، وزحف رسول الله ﷺ إليهم في أصحابه فقاتلهم فكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ، ورسول الله ﷺ معهم حتى أصابت النبل ثياب رسول الله ﷺ وعَلِقت به فأخذ رسول الله ﷺ النبل فجمعها ، ثم أخذ لهم كفاً من حصى ، فحصب به حصنهم . فرجف الحصن بهم . ثم ساخ في الأرض ، حتى جاء المسلمون فأخذوا أهله أخذاً .

٩ ـ ذكر انتقاله ﷺ إلى حصون الكتيبة وبعثه السرايا :

لما فتح رسول الله ﷺ حصون النطاة ، والشق ، انهزم من سلم منهم إلى حصون الكتيبة . وأعظم حصونها القموص ، وكان حصناً منيعاً .

ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ حاصره قريباً من عشرين ليلة ، وكانت أرضاً وخمة .

وروى الشيخان ، والبخاري ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، عن عدد من الصحابة . والإمام أحمد ، وأبو يعلى والبيهقي عن عليٍ رضي الله عنهم ، قال بريدة رضي الله عنه :

(١) ذفف عليه : أجهز عليه وحزّ رقبته .

كان رسول اللّه ﷺ تأخذه الشقيقة [1] فيمكث اليوم واليومين لا يخرج ، فلما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس . فأرسل أبا بكر رضى اللّه عنه فأخذ راية رسول اللّه ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ، ثم رجع ، ولم يكن فتح ، وقد جهد ، ثم أرسل عمر رضى اللّه عنه فأخذ راية رسول اللّه ﷺ فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول . ثم رجع ولم يكن فتح ، وفى حديث على عند البيهقى : أن الغلبة كانت لليهود فى اليومين .

فأخبر رسول اللّه ﷺ بذلك فقال : « لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح اللّه عليه ليس بفرار يحب اللّه ورسوله ، يأخذها عنوة ، وفى لفظ : « يفتح اللّه على يديه » . قال بريدة : فبتنا طيبة نفوسنا أن يفتح غداً . وبات الناس يدوكون [2] ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول اللّه ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها . قال أبو هريرة . قال عمر : فما أحببت الإمارة قط حتى كان يومئذٍ . قال بريدة : فما منا رجل له من رسول اللّه ﷺ منزلة إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل ، حتى تطاولت أنالها ، ورفعت رأسى لمنزلة كانت لى منه ، وليس مِنَّةً .

وفى حديث سلمة وجابر : وكان على تخلّف عن رسول اللّه لرمد شديد كان به لا يبصر ، فلما سار رسول اللّه ﷺ قال : لا ، أنا أتخلف عن رسول اللّه !! فخرج فلحق برسول اللّه ﷺ . قال بريدة : وجاء على رضى اللّه عنه حتى أناخ قريباً ، وهو رمد ، قد عصب عينيه بشقّ برّ وقطرى ، فلما أصبح رسول اللّه ﷺ صلى الغداة ، ثم دعا باللواء ، وقام قائماً . قال ابن شهاب : فوعظ الناس ثم قال : « أين علىٍ ؟ » . قالوا : يشتكى عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » . قال سلمة ، فجئت به أقوده ، قالوا كلهم : فأتى به رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه : « مالك ؟ » قال : رمدت حتى لا أبصر ما قدامى . قال : « ادن منى » وفى حديث علىٍ عند الحاكم : فوضع رأسى عند حجره ، ثم بزق فى إلية [3] يده فدلك بها عينى ، قالوا : فبرأ كأن لم يكن به وجع قط ، فما وجعهما علىٍ حتى مضى لسبيله ، ودعا له وأعطاه الراية . قال سهل فقال علىٍ : يارسول اللّه ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقال : « انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه تعالى وحق رسوله . فواللّه لأن يهدى اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم » . وقال أبو هريرة : إن رسول اللّه ﷺ قال لعلىٍ : « اذهب فقاتلهم حتى يفتح اللّه عليك ولا تلتفت » . قال : علام أقاتل الناس ؟ قال :

---

(١) الشقيقة : وجع يأخذ نصف الرأس والوجه . (٢) يدوكون : باتوا فى اختلاط واختلاف .
(٣) إلية يديه : فى بطن يديه والإلية : اللحمة التى تحت الإبهام أو باطن الكف .

« قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله ، فإن فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه » .فخرجوا فخرج بهم واللّه يأيح [1] يهرول هرولة حتى ركزها تحت الحصن ، فاطّلع يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ . قال : علي . فقال اليهودى : غلبتهم والذى أنزل التوراة على موسى . فما رجع حتى فتح اللّه على يديه .

قال أبو نعيم : فيه دلالة على أن فتح عليٍ لحصنهم مقدم فى كتبهم بتوجيه من اللّه وجهه إليهم ، ويكون فتح اللّه تعالى على يديه .

١٠ ـ ذكر قتل على رضى اللّه عنه الحارث وأخاه مرحباً وعامراً وياسراً فرسان يهود وسبعانها :

روى محمد بن عمر عن جابر رضى اللّه عنه قال : أول من خرج من حصون خيبر مبارزاً الحارث أخو مرحب فى عاديته [2] فقتله عليٍ رضى اللّه عنه ، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن ، وبرز عامر وكان رجلاً جسيماً طويلاً . فقال رسول اللّه ﷺ حين برز وطلع عامر : « أترونه خمسة أذرع ؟ » .

وهو يدعو إلى البراز ، فخرج إليه عليٍ بن أبى طالب رضى اللّه عنه فضربه ضربات ، كل ذلك لا يصنع شيئاً ، حتى ضرب ساقيه فبرك ، ثم ذفف عليه وأخذ سلاحه .

قال ابن إسحاق : ثم برز ياسر وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى ياسر   شاكى السلاح بطل مغامر
إذ الليوث أقبلت تبادر   وأحجمت عن صولة المساور [3]
إن حسامى فيه موت حاضر

قال محمد بن عمر : وكان من أشدائهم . وكان معه حربة يحوس [4] الناس بها حوساً فبرز له عليٍ بن أبى طالب ، فقال له الزبير بن العوام : أقسمت إلا خليت بينى وبينه ففعل . فقالت صفية لما خرج إليه الزبير رضى اللّه عنه : يارسول اللّه ، يقتلُ ابنى ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « بل ابنك يقتله إن شاء اللّه » ، فخرج إليه الزبير وهو يقول :

---

(١) يأنح أو يأيح : أى به نَفَس شديد من الإعياء والهرولة .
(٢) عاديته : الذين يعدون على أرجلهم ، والعادية : الحدة والغضب .
(٣) المساور : المعاجل خصمه .   (٤) يحوس الناس : يجهضهم عن أثقالهم .

قد علمت خيبر أنّى زبار [1] قرم لقرم غير نكس [2] فرار

ابنُ حماة المجد ابنُ الأخيار ياسرُ لا يغررك جمع الكفار

فجمعهم مثل السراب الختار

ثم التقيا فقتله الزبير . قال ابن إسحاق : وذُكر أن علياً هو الذى قتل ياسراً .

قال محمد بن عمر : وقال رسول اللّه ﷺ للزبير لما قتل ياسراً :

« فداك عم وخال ثم قال : « لكل نبى حوارى [3] ، وحوارى الزبير بن عمتى » .

قتل مرحب :

حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم والبيهقى أن مرَحباً خرج وهو يخطر بسيفه ، وفى حديث ابن بريدة عن أبيه : خرج مرحب وعليه مِغْفَر معصفر يمانى ، وحجر قد ثقبه مثل البيض على رأسه وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى مَر حَبُ شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الليوث أقبلت تلهب

قال سلمة : فبرز له عامر [4] وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى عامر شاكى السلاح بطل مغامر

قال : فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى ترس عامر ، فذهب عامر يسفّل [5] له وكان سيفه فيه قصر ، فرجع سيفه على نفسه ، فقطع أكحلة [6] ، وفى رواية عين [7] ركبته . وكانت فيها نفسه .

وفى رواية مسلم : فلما قفلوا قال سلمة وهو آخذ بيدى ، قال : فلما رأنى رسول اللّه ﷺ ساكتاً قال : « مالك ؟» قلت له : فداك أبى وأمى زعموا أن عامراً حبط عمله . قال : « من قاله » ؟ قلت : فلان وفلان وأسيد بن حضير الأنصارى . فقال : « كذب من قال . إن له لأجران » ، وجمع بين أصبعيه : « إنه لجاهد مجاهد ، قل عربى مشى بها مثله » .

قال بريدة فبرز مرحب وهو يقول :

---

(١) زبار : زُبَير . (٢) نكس : جبان ضعيف . (٣) الحوارى الناصر والمعين .

(٤) هو عامر بن الأكوع رضى اللّه عنه عم سلمة بن الأكوع ، وقد يكون أخاه من الرضاعة كذلك .

(٥) يسفل له : يضربه من أسافله . (٦) أكحلة : عرق . (٧) عين الركبة : طرفها من الأعلى .

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تلهب وأحجمت عن صولة المغلب

فبرز له على بن أبى طالب رضى الله عنه وعليه جبه أرجوان [1] حمراء قد أخرج خملها ، وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة [2] كليث غابات كريه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة [3]

فضرب مرحب ففلق رأسه ، وكان الفتح [4] .

١١ ـ ذكر إسلام العبد الأسود وما وقع فى ذلك من الآيات :

روى البيهقى عن جابر ، وعن أنس ، وعن عروة ، وعن موسى بن عقبة : أن عبداً حبشياً لرجل من أهل خيبر كان يرعى غنما لهم ، لما رآهم قد أخذوا السلاح واستعدوا لقتال رسول الله ﷺ ، سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد قتال هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى . فوقع فى نفسه ذكر النبى ﷺ فخرج بغنمه ليرعاها فأخذه المسلمون ، فجاءوا به لرسول الله ﷺ ، وفى لفظ ابن عقبة : أنه عمد بغنمه إلى رسول الله ﷺ ، فكلمه رسول الله ما شاء الله أن يكلمه ، فقال الرجل : ماذا تقول ؟ وماذا تدعو إليه قال : « أدعوك إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وأن لا يعبد إلا الله » .

قال العبد : وماذا يكون لى إن شهدت بذلك ، وآمنت بالله تعالى ؟ قال رسول الله ﷺ « لك الجنة على ذلك » فأسلم العبد ، وقال : يارسول الله ، إنى رجل أسود اللون قبيح الوجه ، منتن الريح ، لا مال لى ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة ؟ قال : « نعم » . قال : يارسول الله ، إن هذه الغنم عندى أمانة فكيف بها ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أخرجها من العسكر ، وارمها بالحصباء ، فإن الله عز وجل سيؤدى عنك أمانتك »

---

(١) الأرجوان : الأحمر . (٢) حيدرة : اسم من أسماء الأسد.

(٣) السندرة : شجرة يصنع منها مكاييل عظيمة .

(٤) انظر : سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ١٩٠ وما بعدها ، وقال : جزم جماعة من أصحاب المغازى بأن محمد ابن مسلمة هو الذى قتل مرحباً ، ولكن ثبت فى صحيح مسلم ما تقدم عن سلمة بن الأكوع أن علياً هو الذى قتل مرحباً . وعلى تقدير صحة ما ذكره جابر عن محمد بن مسلمة فما فى صحيح مسلم مقدم من وجهين : أحدهما : أنه أصح إسناداً ، الثانى : أن جابر لم يشهد خيبر كما ذكره ابن إسحاق ومحمد بن عمر ، وقد شهدها سلمة وبريدة وأبو رافع ، وهم أعلم ممن لم يشهدها .

ففعل ، وأعجب رسول اللّه ﷺ كلمته ، فخرجت الغنم تشتد مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت كل شاة إلى أهلها ، فعرف اليهودى أن غلامه قد أسلم . ثم تقدم العبد الأسود إلى الصف . فقاتل فأصابه سهم فقتله ، ولم يُصلِّ لله تعالى سجدة قط . فاحتمله المسلمون إلى عسكرهم ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أدخلوه الفسطاط » وفى لفظ : « الخباء » فأدخلوه حتى إذا فرغ رسول اللّه ﷺ دخل عليه ثم خرج فقال : « لقد حسن إسلام صاحبكم ، لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين له من الحور العين » .

وفى حديث أنس : فأتى عليه رسول اللّه ﷺ وهو مقتول فقال :

لقد حسّن اللّه وجهك ، وطيّب ريحك ، وكثّر مالك ، لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ينزعان جبته ، يدخلان فيما بين جلده وجبته . » . وعند ابن إسحاق : « ينفضان التراب عن وجهه ويقولان : ترب اللّه وجه من تربك ، وقتل من قتلك » .

١٢ ـ ذكر نهيه ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأنسية :

روى الشيخان عن عبد اللّه بن أبى أوفى رضى اللّه عنه قال : أصابتنا مجاعة ليالى خيبر . فلما كان يوم خيبر وقفنا فى الحمر الأنسية فانتحرناها ، فلما غلت القدور ، نادى منادى رسول اللّه ﷺ أن اكفئوا القدور ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً .

وعن أنس رضى اللّه عنه قال : لما كان يوم خيبر جاء فقال : يارسول اللّه ، فنيت الحمر ، فأمر أبو طلحة فنادى إن اللّه ورسوله ينهاكم عن لحوم الحمر. رواه الدارمى بسند صحيح .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : نهى رسول اللّه ﷺ يوم خيبر عن بيع الغنائم حتى تقسم ، وعن الحبالى أن توطأ حتى يضعن ما فى بطونهن . قال : « لا تشق زرع غيرك » وعن لحوم الحمر الأهلية ، وعن كل ذى ناب من السباع . رواه الدار قطنى .

وعن أبى ثعلبة الخشنى رضى اللّه عنه قال : غزوت مع رسول اللّه ﷺ خيبر . والناس جياع ، فأصبنا بها حمراً إنسية فذبحناها ، فأخبر النبى ﷺ ، فأمر عبد الرحمن بن عوف فنادى فى الناس : « إن لحوم الحمر الإنسية لا تحل لمن يشهد أنى رسول اللّه » . رواه الإمام أحمد والشيخان .

وعن سلمة رضى اللّه عنه . قال : أتينا خيبر فحاصرناها حتى أصابتنا مخمصة شديدة ـ يعنى الجوع الشديد ـ ثم إن اللّه فتحها علينا . فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى

فتحت عليهم ، أوقدوا نيراناً كثيرة ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ما هذه النيران ؟ على أى شيء توقدون ؟ . قالوا : على لحم . قال : « على أى لحم ؟ » . قالوا : لحم حمر إنسية . فقال رسول اللّه ﷺ : « أهرقوها واكسروا الدنان » . فقال رجل : أو نهريقوها ونغسلها ؟ قال : « أو ذاك » . رواه الشيخان .

وروى ابن عمر رحمه اللّه تعالى عن شيوخه : أن عدة الحمر التى ذبحوها كانت عشرين أو ثلاثين ، كذا رواه على الشك .

١٣ ـ ذكر فتحه ﷺ الوطيح والسلالم ، وكانا آخر حصون خيبر فتحاً :

(قال ابن إسحاق : وتدنى رسول اللّه ﷺ بالأموال يأخذها مالاً مالاً ، ويفتحها حصنا حصنا ، حتى انتهوا إلى ذينك الحصنين ، وجعلوا لا يطلعون من حصنهم ، حتى هم رسول اللّه ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق لما رأى من تغليقهم ، وأن لا يبرز منهم أحد . فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول اللّه ﷺ أربعة عشر يوماً ، سألوا رسول اللّه ﷺ الصلح ، فأرسل كنانة بن الحقيق إلى رسول اللّه ﷺ رجلاً من يهود يقال له شماخ يقول : أنزِلُ أُكلمك ؟ فقال له رسول اللّه ﷺ : « نعم » فنزل كنانة بن الحقيق . فصالح رسول اللّه ﷺ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة . وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم . ويخلون بين رسول اللّه ﷺ وبين ما كان لهم من مال أو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول اللّه ﷺ : « وبرئت منكم ذمة اللّه وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئاً » فصالحوه على ذلك)[1] .

١ ـ فأثابهم فتحاً قريباً : لم يكن بين الحديبية والمسير إلى خيبر إلا عشرون ليلة ، وبعد أن تمت الهدنة بين المسلمين وقريش ، وأمن رسول اللّه ﷺ جانبها ، كان لابد من التوجه نحو خيبر . فقد تجمع اليهود هناك . وقد عبئوا أنفسهم للمواجهة ، وإذا صح زعمهم أن لديهم عشرة آلاف مقاتل منهم ومن حلفائهم ، فهذا يعنى أن الخطر جاثم على المدينة فى كل لحظة ، والمسافة بين خيبر والمدينة هى نصف المسافة أو أقل بين المدينة ومكة ، والتخطيط العسكرى العظيم أن رسول اللّه ﷺ لم يفتح جبهتين فى وقت واحد ، وما مضى لخيبر إلا بعد هدنة أهل مكة وبذلك ضمن ألا يأتوه من ظهره ، وهم الذين وصفهم القرآن بأنهم أشد عداوة للذين آمنوا . ووصف القرآن كيدهم وحقدهم بما فيه غناء .

(١) انظر : سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٢٠١ وما بعدها .

٢ ـ والجديد فى أمر خيبر وما يختلف عن الحرب السابقة ، هى حصونهم وقلاعهم التى أقاموا بها ، فمحاولة الهجوم عليهم تتطلب جهداً ضخماً وتعبئة مناسبة ومؤونة كافية للجيش لفترة طويلة ، والمسلمون لا يملكون هذه الطاقات فى مقابل اليهود الذين قيل عنهم : (وهم أهل الحصون التى لا ترام ، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم وماء واتن يشربون فى حصونهم ، ما أرى لأحد بهم من طاقة) .

والمسلمون لم يسبق لهم من قبل خبرة فى قتال أهل الحصون إلا ما كان من بنى قريظة يوم حربهم . ولئن كان المنافقون قبل الحديبية والمخلفون من الأعراب ظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبهم ، فهم أولى فى هذا المسير أن يقولوا ذلك ، غير أن السمعة الدعائية الضخمة للحديبية ، والنصر المؤزر فيها قد فشا فى الأرض العربية ، فأصبح المخلفون من الأعراب يحرصون على المسير من الجيش ، بعد أن وُعد الجيش بالمغانم الكثيرة . وهم الآن يصدقون موعود اللّه تعالى لهم بذلك ، وكانت الدعاية اليهودية تأخذ كذلك مجراها وأثرها ، وكانوا لا يتوانون عن عرض العضلات أمام القبائل العربية المجاورة ، (وكان يهود خيبر لا يظنون أن رسول اللّه ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم : كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ ! هيهات هيهات : وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبى ﷺ إلى خيبر : ما أمنع واللّه خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها واتن . إن بخيبر لألف دارع ، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر ؟ فيقول أصحاب النبى ﷺ : قد وعد اللّه نبيه أن يغنمه إياها)[1] .

وكان العرب جميعاً يترقبون بحذر نتائج هذا المسير ، حتى ليتراهن القرشيون على نصر أى من الفريقين ، وكان على رأس المراهنين حويطب بن عبد العزى الذى كان عضو الوفد المفاوض عن قريش فى الحديبية . يقول :

(انصرفت من صلح الحديبية . وأنا مستيقن أن محمداً ﷺ سيظهر على الخلق ، وتأبى حمية الشيطان إلا لزوم دينى ، فقدم علينا عباس بن مرداس السلمى ، يخبرنا أن محمداً ﷺ قد سار إلى خيابر ، وأن خيابر قد جمعت لرسول اللّه ﷺ ، فمحمد لا يفلت .

---

(١) انظر : المغازى للواقدى / ٢ / ٦٣٧ .

إلى أن قال عباس بن مرداس : من شاء بايعته أن محمداً لايفلت . قلت : أنا أخاطرك ، فقال صفوان بن أمية : أنا معك ياعباس ، وقال نوفل بن معاوية الديلمى أنا معك ياعباس ، وضوى إلىّ نفر من قريش ، فتخا طرنا مائة بعير أخماساً إلى مائة بعير ، أقول أنا وحزبى : يظهر محمد ﷺ ، ويقول عباس وحزبه : تظهر غطفان . وجاء الخبر بظهور رسول الله ﷺ فأخذ حويطب وحزبه الرهن)[1] .

٣ ـ فى هذه الأجواء المعبأة تحرك الجيش الإسلامى يرعاه الله تعالى ورسوله ، وهم نفسهم أهل الحديبية ، خيرة أهل الأرض ، وهم لا يشبعون التمر ، ولايجدون مايأكلون .

وكانت الظاهرة الأولى من ظواهر النصر أن الاستعراضات العسكرية التى سبقت مقدم النبى ﷺ قد انقطعت يوم وصوله إلى خيبر .

(فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة . ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس . فأصبحوا وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم غادين معهم المساحى والكرازين والمكاتل ، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ ولوا هاربين إلى حصونهم) .

وفى رواية : (فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا : محمد والخميس ، فأدبروا هرباً فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

ورؤية اليهود للجيش الإسلامى ، قذفت الرعب فى قلوبهم وأعداد مقاتليهم أضعاف المقاتلين المسلمين ، وولوا هاربين ، فكانت هذه الظاهرة الثانية ، هى البشرى التى أعلنها عليه الصلاة والسلام .

« الله أكبر ، خربت خيبر » .

وساء صباح المنذرين حين نزل بساحتهم رسول الله صلوات الله عليه .

ولأن الحرب حرب عقيدة ، وحرب توحيد وشرك ، فكان الأدب النبوى فى الحرب : أن لا يغير عليه الصلاة والسلام حتى يصبح ، فإذا سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم حتى يصبح . والأذان هو الميزان الفاصل بين الإيمان والكفر .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٢١٦ . وقد رواه عن البيهقى عن عروة وعن موسى بن عقبة ، ورواه محمد بن عمر .

وعلى ضوئه تقوم الحرب ، ومن أجله تتم المواجهة ، ومهمة القتال فى الإسلام ليست الغلبة ، وليست كسر شوكة العدو بهدف كسر شوكته فقط . فقد جلاها لنا على رضى اللّه عنه عندما استلم الراية بأجلى بيان ، حين سأل قائده عن الهدف من قتاله .

(فقال عليٍ : يارسول اللّه ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال :

« انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام . وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه تعالى وحق رسوله ، فواللّه لأن يهدى اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » .

وفى رواية : « اذهب فقاتلهم حتى يفتح اللّه عليك و لا تلتفت » قال : علام أقاتل الناس ؟ . قال : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه تعالى »)(١) .

وتبقى الهداية هى الهدف الأعلى والأسمى من المعركة ، وهداية رجل واحد خير من حمر النعم للذى كتب اللّه الهداية على يديه . ومضى عليٍ رضى اللّه عنه ، وقد توضح له وللأمة من بعده علام يقاتلُ الناس .

٤ ـ وحين يكون القتال منطلقاً من شهوة القتال ، بعيداً عن الهدف ، فسيكون وبالاً على صاحبه . وما أحوج أبناء الدعوة والحركة أن يفقهوا هذه المعانى ، وأن يفقهوا أن حمل السلاح وإلقاءه . ليس اندفاعاً ذاتياً . ليس حمله تهوراً وشجاعة فائقة . وليس إلقاؤه جبنًا أو ضعفاً أو تخاذلا . إن حمل السلاح وإلقاءه مهمة شرعية تنفذ بقرار الأمير لا بالقناعة الشخصية : (وكان رسول اللّه ﷺ حين انتهى إلى حصن ناعم فى النطاة وصفّ أصحابه نهى عن القتال حتى يأذن لهم ، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودى ، وحمل عليه مرحب فقتله فقال الناس : يارسول اللّه ، استشهد فلان ! فقال رسول اللّه ﷺ : « أبعد ما نهيت عن القتال ؟ » فقالوا : نعم . فأمر رسول اللّه ﷺ منادياً ينادى : « لا تحل الجنة لعاص » . ثم أذن رسول اللّه ﷺ فى القتال وحث عليه)(٢) .

فهذا قاتل فى ظاهر الأمر وقتله اليهودى ، لكنه قاتل بعد النهى عن القتال فحرمت الجنة عليه . وهو مسلم عريق فى الإسلام .

إن التزام أمر القائد المسلم دين يلقى اللّه تعالى الجندى المسلم عليه :

---

(١) سبل الهدى والرشاد /٥ / ١٩٥ .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ /٦٤٨ .

« من أطاعنى فقد أطاع اللّه ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى اللّه ، ومن عصى الأمير فقد عصانى »[1] .

والتزام الأمر فى كل شىء وليس فى القتال فقط أو الكف عنه :

روى الحارث بن أبى أسامة عن أبى أمامة والبيهقى عن ثوبان رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال فى غزوة خيبر : « من كان مضعّفاً أو مصعّباً فليرجع » ، وأمر بلالاً فنادى بذلك . فرجع أناس وفى القوم رجل على صعب فمر من الليل على سواد فنفر به فصرعه . فلما جاءوا به رسول اللّه ﷺ قال : « ما شأن صاحبكم ؟ » فأخبروه . فقال : « يابلال ، ما كنت أذنت فى الناس من كان مضعفاً أو مصعباً فليرجع » قال : نعم . فأبى أن يصلى عليه . زاد البيهقى : وأمر بلالاً فنادى فى الناس : « الجنة لا تحل لعاص » ثلاثاً .

فالأمر يطاع فى الكف عن القتال أو فى استعمال آلته . أو فى الإذن فيه ، أو فى مواجهة العدو ، وأى مخالفة شخصية هى معصية قد تحول بين الجنة وبين المجاهد .

٥ ـ واستجاب المسلمون لنداء رسول اللّه ﷺ رغم ما بهم من الجوع والفاقة ، فهم لا يجدون ما يأكلونه ، وعليهم أن يمضوا لحرب ضروس ، لا يعلم إلا اللّه مداها . وهم ماضون إلى موعود اللّه فى أن يعطيهم غنائم خيبر ، لكن متى ؟ وكيف ؟ فعلمها عند اللّه . وهاهم يحاصرون ، ويشتد جوعهم ، ويشتد تعبهم وإرهاقهم حتى ليضطروا إلى إعلام رسول اللّه ﷺ ، وكان الإعلام من أسلم . وأسلم من الجيش الإسلامى ، وما يملك لهم رسول اللّه ﷺ إلا الدعاء :

« واللّه ما بيدى ما أقويهم به ، قد علمت حالهم وأنهم ليست لهم قوة » ثم قال : « اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيها ، أكثرها طعاماً ، وأكثرها ودكا » .

وكانت المحاولة الأولى على الطريق فى جمع الأزواد :

قال سويد بن النعمان رضى اللّه عنه : إن رسول اللّه ﷺ لما وصل الصهباء ـ وهى أدنى خيبر ـ صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد . فلم يؤت إلا بالسويق[2] ، فأمر به فثُرى ، فأكل رسول اللّه ﷺ وأكلنا معه ، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صلى ولم يتوضأ . البخارى .

وحين ابتدأوا القتال لم يكن لديهم ما يأكلونه :

---

(١) أحمد والنسائى وابن ماجة ، وهو صحيح . (٢) السويق : قمح أو شعير يغلى ثم يطحن .

(*وكان الناس قد أقاموا أياماً يقاتلون ليس عندهم طعاماً إلا العلق* [1] .

وكانت المحاولة الأولى قبل الفتح لإطعام الجيش بتوجيه النبى ﷺ حين أقبلت غنم لرجل من يهود ترتع وراء حصنهم ، فقال رسول اللّه ﷺ : « من رجل يطعمنا من هذه الغنم » .

فخرجت أعدو مثل الظليم ، فلما نظر إلىَّ رسول اللّه ﷺ مولياً قال : « اللهم متعنا به » . فأدركت الغنم ، وقد دخل أولها الحصن فأخذت شاتين من آخرها فاحتضنتهما تحت يدى ثم أقبلت أعدو كأن ليس معى شىء حتى انتهيت إلى رسول اللّه ﷺ ، فأمر بهما فذبحا ، ثم قسمهما ، فما بقى أحد فى المعسكر الذين معه محاصرين الحصن إلا أكل منهما ، فقيل لأبى اليسر : كم كانوا ؟ قال : كانوا عدداً كبيراً) [2] .

كانت هذه المعجزة الأولى فى الطعام ، ليتقوى القوم على الجهاد والقتال ، وكانت أسلم على رأس المقاتلين ، (وكانوا أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ ، فما غابت الشمس منذ ذلك اليوم حتى فتح اللّه تعالى ، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً وودكاً منه . ونادى منادى رسول اللّه ﷺ : كلوا واعلفوا ولا تحملوا . يقول : لا تُخرجوا من بلادكم) [3] .

وحين قدموا على الأكل تناولوا التمر وهو أخضر . فأهمدتهم الحمى ، (فشكوا ذلك إلى رسول اللّه ﷺ فقال : « قرسّوا الماء فى الشنان ، فإذا كان بين الأذانين فأحدروا الماء عليكم حدراً واذكروا اسم اللّه تعالى » ففعلوا فكأنما نشطوا من عقال) [4] .

وكانت هذه المعجزة الثالثة بعد الفتح :

ثم تتالت الحصون تفتح . والخيرات تغمر المقاتلين ، واشتاقوا إلى اللحم بعد التمر ، وكان أن وجدوا فى بعض الحصون حميراً ، فاختاروا عشرين منها . ونحروها ، وسلخوها ، ووضعوها فى القدور ، وأوقدوا تحتها النار ، وراحت القدور تغلى ، وبطونهم تغلى معها من الجوع . وحين نضج اللحم وأصبح جاهزاً للأكل ، جاء الامتحان الربانى على لسان رسول اللّه ﷺ :

(فأمر أبا طلحة فنادى : « إن اللّه ورسوله ينهاكم عن لحوم الحمر » .

---

(١) العلق : القليل من الشىء ، أو ما يتعلل به قبل الغداء.
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ١٨٩ .
(٣، ٤) المصدر نفسه / ٥ / ١٨٨ وما بعدها .

وقال أبو ثعلبة رضى الله عنه : غزوت مع رسول الله ﷺ خيبر ، والناس جياع فأصبنا بها حمراً إنسية فذبحناها ، فأخبر النبى ﷺ . فأمر عبد الرحمن بن عوف فنادى فى الناس : « إن لحوم الحمر لا تحل لمن يشهد أنى رسول الله » الإمام أحمد والشيخان .

وفى رواية أخرى . جاء الأمر « أن اكفئوا القدور ولاتأكلوا من لحوم الحمر شيئاً)[1] ولم يأت الأمر قبل النحر أو قبل الذبح أو قبل السلخ أو قبل الطهى ، إنما جاء الأمر الربانى بعد كل هذه الأمور فى أعسر امتحان للنفس البشرية ، والقدور تفور باللحم ، والجوع قد عضهم بنابه ، فما تردد منهم أحد ، ولم تبدر منهم مخالفة ، فاكفؤوا القدور ، ونفذوا الأمر بدون تردد .

ولعل هذا الامتحان كان ضرورياً لكشف من بقى فى الصف منافقاً خالصاً ، وثبت نقاء الصف من هذه النماذج .

إنها تجربة عسيرة لايحس بها إلا من يعانى أمثالها ، وقد اتجه الجميع للطعام ، ولا يعى أحد على أحد ، فكيف تكفأ قدور اللحم . ولم يتناول مسلم ولو نهشة واحدةً . ولكنه التنفيذ كاملاً من الجميع .

وإذا كانت عاطفة الجوع قوية ، فشهوة الفرج لا تقل قوة عن شهوة البطن ، وكما صدر الأمر النبوى بالامتناع عن أكل لحوم الحمر الأهلية ، صدر الأمر النبوى كذلك ، والمسلمون فى جوع جنسى كبير بعد غياب عن أهلهم ، تجاوز الشهر واقترب من الشهرين ، وها هى النساء بين أيديهن من السبايا .

وكان نكاح المتعة حلالاً . وما أن جاءوا ليمارسوا الشهوة بعد هذا الغياب الطويل ، إلا وجاء تحريم المتعة ، وجاء النهى عن أن يسقى أحد زرع غيره ، فكانت المحنة أشد وأقسى . وكان الالتزام كاملاً كذلك .

إنه جيل الحديبية ، خير أهل الأرض ، وإنه الثمرة العظيمة لـلتربية القرآنية المتتالية والتربية النبوية العظيمة .

وخيبر كلها وحصار حصونها تربية ، وغلى القدور باللحم وتحريمه والأمر بإهراقه تربية ، والنهى عن نكاح المتعة تربية ، والنهى عن إتيان الحبالى من النساء تربية ، والجوع والفاقة تربية ، وليس فى هذا كله قتال أو نزال ، إنما هو لجم لهذه النفس أن تمضى مع

---

(١) المصدر نفسه / ٥ / ١٨٨ وما بعدها .

أهوائها ، وأن تتحمل مشاق الجهاد وتكاليفه ، والصبر على الجوع والعطش والجنس من أجل هدف أعلى وأرقى هو مرضاة اللّه سبحانه ، وطاعته فيما أمر ونهى .

٦ - وحين نتعرض لليهود لا بد من التعرف على طبيعتهم وسجيتهم من خلال هذه المعركة الفاصلة ، التى حشدوا فيها أعظم قواتهم ، وخاضوا معارك ضارية طاحنة للحفاظ على وجودهم . وقد تسيطر علينا ـ ما لم نتعمق فى فهمهم ـ صورتان متناقضتان :

الصورة الأولى : تمثل قوتهم ودقة تنظيمهم ، وإخلاصهم لبلدهم وأمتهم ، بحيث تتضخم هذه الصورة فلا نرى حركة ولا سكنة فى العالم إلا وهم مسيطرون عليها ، وأنهم فوق خلافاتهم وأهوائهم ، وبذلك يصيبنا الشلل والعجز والخوف من مواجهتهم ، بحيث يظهرون أمامنا قدراً لا يرد .

الصورة الثانية : وتمثل النظرة العجلى لهم ، فهم جبناء رعاديد لا يقاتلون إلامن وراء جدر بأسهم بينهم شديد ، تستعبدهم شهوة الفرج وشهوة الحكم ، ضربت عليهم الذلة والمسكنة . مشردى الأرض ، حثالة البشر ، ونستمرىء هذه الصورة ونستهين بهم ، ونحسب أن الأمر لا يكلف إلا أن يكون دفة الحكم بيد الحركة الإسلامية ، فإذا بهم ينهارون فى الضربة القاضية . وكلا الصورتين متناقضتان وخاطئتان .

فاليهود منظمون ومخططون نعم .

وقد برز ذلك فى حرب خيبر بشكل واضح ، حيث صمدوا للحصار النبوى قرابة شهرين حتى انهارت آخر حصونهم ، وقد رتبوا أمورهم أن يستمروا سنين لوحوصروا دون تراجع . فالماء الجارى فى أنهارهم ، والطعام والمؤونة ، والسلاح الوافر والعدة الثقيلة والتحالف القوى . والمدد العربى ، قد ظهر هذا كله فى خيبر ، ويكفى أن نعلم أن هذه المعركة التى خاضها الرسول ﷺ هى أضخم المعارك قاطبة ، وأطولها وأشدها .

فلا معنى للاستهانة باليهود . وتخطيطهم وتنظيمهم ، ودقتهم وتعبئتهم ، وتحالفاتهم وحلفائهم ، كما نراهم اليوم فى هذا العصر .

وحتى فى القتال ، فقد برز رجالهم وصناديدهم ، وقتلوا من صناديد المسلمين وقتلوا ، ولم يكن قتلهم بالأمر السهل . ولا تغلب عليهم إلا أبطال صناديد يفوقونهم قوة وبطولة . فمرحب وياسر وعامر والحارث هم قادة كبار فى تاريخ يهود ، وكذا يوشع وغزول وكان تحديهم ورجزهم فى الحرب لا يقل قوة عن الرد الإسلامى :

قد علمت خيبر أني ياسر شاكي السلاح بطل مغاور

إذا الليوث أقبلت تبادر وأحجمت عن صولة المساور

إن حسامي فيه موت حاضر

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الليوث أقبلت تلهب وأحجمت عن صولة المغلب

أطعن أحياناً وحيناً أضرب إن حماىِ للحمى لا يقرب

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

وبرز لهؤلاء الأبطال من يهود أبطال المهاجرين والأنصار . حتى أردوهم قتلى .

لكننا ومن خلال غزوة خيبر ، لا ندع هذه الصورة تتضخم أكثر .

فهم على قوتهم حين يأتي جند العقيدة الحقة ، هم أضعف منهم وأقل .

وحين تأتي القيادة الحقة التي تخطط وتنظم ، فهي قادرة على ضرب مخططاتهم ، وتهديم تنظيمهم ، وإتيان بنيانهم من القواعد .

ففي خيبر التي برز فيها مرحب وعامر وياسر والحارث ، برز فيها — كذلك — ذلك اليهودي الذي نزل من الحصن ، وأخذ الأمان من رسول الله ﷺ ، ودل على أنهارهم فقطعت مياهها ، ووجد من اليهود أنفسهم من يتخلى عن يهوديته ، ويبيعها طمعاً في أمانٍ لنفسه أو زوجه . ووجد من اليهود أنفسهم من يستجيب لداعي الإسلام فيسلم ، وينضم للصف الإسلامي ، وإن كانوا أفراداً قلة .

ووجد من اليهود من أخذه الرعب ، فسقط عنده الحصن دون قتال .

ووجد من يقاتل أشد قتال ، ويستعمل الرمي بالنبل والحجارة .

إنهم أمة كادت تستعصي على الهزيمة في خيبر ، لولا الثبات العظيم والصبر الفائق الذي صبره المسلمون في الحرب .

﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ [1] .

---

(١) النساء / ١٠٤ .

الأوسمة الخمسة :

٧ ـ وتبرز البطولات الإسلامية من الجيل الإسلامى الرائد ، فعلىّ ابن التاسعة يوم دخل الإسلام ، والزبير ابن الثانية عشرة يوم دخل الإسلام ، ها هما الآن يبرزان لمواجهة عتاة اليهود وأبطالهم ويردون على تحديهم كلاماً :

قد علمت خيبر أنى زبار قرم لقرم غير نكس فرار
ابن حماة المجد ابن الأخيار ياسر لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل السراب الختار

ويفوز بأعلى قلادة نبوية ، بعد أن يقتل خصمه القرم العنيد ياسر

« لكل نبى حوارى وحوارى الزبير » .

بينما يبرز علىٍ رضى اللّه عنه الذى يُعطى القلادة قبل خوض المعركة :

رجل يحب اللّه ورسوله ، ويحبه اللّه ورسوله ، يفتح اللّه على يديه » .

يعطاها ، ولو كان أرمد ساعتئذ ، فليست بطولة على رضى اللّه عنه آنية . إنها بطولة متغلغلة فى أعماقه وتركيبه ، تدخلت البركة النبوية لإبرازها وإجلائها يوم مسح على عينه ، فعاد صحيحا معافى .

ولم تشأ إرادة اللّه أن يسقط مرحب فى دعوة من بركة النبى ﷺ ، إنما شاءت إرادة اللّه أن يبرز القرم للقرم ، والجهد البشرى للجهد البشرى ، والبطولة للبطولة . فيقول علىٍ رضى اللّه عنه :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة كليث أجام كريه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

ويواجه مرحب بضربة تقد الحجر والمغفر ورأسه . وحين تتجمع قوى اليهود على ابن عم رسول اللّه ﷺ تريد أن تثأر بشخصه من رسول اللّه عليه الصلاة والسلام ويطير الترس من يده ، فيتترس بباب خيبر .

(فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فتناول علىٍ باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل ،

حتى فتح اللّه عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ . فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه)[١] .

ولا غرو فى ذلك ، فقد يعجز عليٍ رضى اللّه عنه عن حمله بعد المعركة ، ولعل حمله كان كرامة من كراماته رضى اللّه عنه حين أصبح بين يدى سيوف العدو ، وهو حبيب اللّه ورسوله ، فهل عجب أن يعطيه اللّه قوة حمل الباب يذود عن نفسه به ، ويتحقق موعود اللّه به فى فتح الحصن على يديه .

وكما شاءت إرادة اللّه أن تفتح الحصون كلها بالجهد البشرى إلا حصناً واحدا قاوم اليهود فيه وهو حصن النزال بالشق ، وتجمعت القوة اليهودية المحادة للّه ورسوله فيه (فأغلقوه وامتنعوا فيه أشد الامتناع وزحف رسول اللّه ﷺ إليهم فى أصحابه ، فقاتلهم فكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ورسول اللّه ﷺ معهم حتى أصابت النبل ثياب رسول اللّه ﷺ وعلقت به)[٢] .

أقول : شاءت إرادة اللّه تعالى أن يكون فتح هذا الحصن بغير القوة البشرية ، فالمسلمون فى العراء يتلقون النبل والحجارة ، والمسلمون صابرون صامدون ، يزحفون بما يملكون من جهد بشرى ، ويقاومون بما يملكون من جهد بشرى ، وعندئذ يتدخل الأمر الربانى الذى تدخل فى بدر :

﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى** ﴾ .

(فأخذ رسول اللّه ﷺ النبل فجمعها ، ثم أخذ لهم كفاً من حصباء فحصب به حصنهم فرجف الحصن بهم ، ثم ساخ فى الأرض ، حتى جاء المسلمون فأخذوا أهله أخذا)[٣] .

وهنا التقت الكرامة بالمعجزة بالجهد البشرى ، وإرادة اللّه تعالى من فوق الجميع ترعى هذين الخصمين ، فتنتصر لجندها ورسولها والمؤمنين ، وتهزم اليهود الذين حادوا اللّه ورسوله .

٨ ـ ولئن راعنا بطولتا عليٍ والزبير فلا بد أن نقف عند استشهاد قرمين مؤمنين : عامر بن الأكوع والعبد الأسود .

أما عامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع وأخوه من الرضاعة ، فبطولاته لا تضارع ،

(١ ، ٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ١٩٢ ، ١٩٣ .

تلك التي برزت في غزوة الغابة ، وهو الذي أعطاه سلمة درقته ، وهو الذي قال عنه رسول اللّه ﷺ بلسان سلمة : « رب ابغنى حبيبًا أحب إلىّ من نفسى » .

وهو الذى عبر عن مشاعر الجيل كله يوم مضوا إلى خيبر . وبحنين الإبل يوم راح يحدو لها .

قال سلمة : (خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر ابن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك ـ وكان عامر رجلاً شاعراً ـ فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدّقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اتقينا   وألقين سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا   إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عوّلوا علينا

فقال رسول اللّه ﷺ : « من هذا السائق ؟ » قالوا : عامر بن الأكوع . قال : « يرحمه اللّه » ، وفى رواية : « غفر لك ربك » . قال : وما استغفر رسول اللّه لإنسان يخصه إلا استشهد . فقال عمر : وهو على جمل : وجبت يارسول اللّه ، لولا أمتعتنا بعامر .

لقد كان يعد نفسه للشهادة فى أى لحظة ، فقد لقبه قومه بها ، وشاءت إرادة اللّه تعالى أن تكون شهادته بيده ، حيث يرتد السيف على ركبته وهو يبارز مرحب ، فتقطع أكحله ويستشهد .

وانتشرت قالة فى الجيش ، أن عامر بن الأكوع قد قتل نفسه وقد حبط عمله ، وحزن الناس ، وكان على رأس المفجوعين حبيبه سلمة ، وجاء إلى رسول اللّه ﷺ ، ليتلقى عن ابن عمه وأخيه وحبيبه عامر القلادة الثالثة الخالدة :

« إن له لأجران » . وجمع بين أصبعيه ثم قال :

« إنه لجاهد مجاهد ، قل أن مشى بها عربى مثله » .

وأى شهادة تكريم وتعظيم تفوق هذه الشهادة .

ولم تكن لتبلغنا هذه الشهادة ، ولو لم يكن ليتلقى هذه القلادة من نبيه لولا حزن

ـ « ينفضان التراب عن وجهه ويقولان : تّرب اللّه وجه من ترّبك . وقتل من قتلك » .

٩ ـ وكانت القلادة الخامسة للمرأة الغفارية ، نستمع لها دون أى تعليق :

(أتيت رسول اللّه ﷺ فى نسوة من بنى غفار ، فقلنا : يا رسول اللّه ، أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـ وهو يسير إلى خيبر ـ فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا فقال : « على بركة اللّه » . قالت : فخرجنا معه ، وكنت جارية حدثة ، فأردفنى رسول اللّه ﷺ على حقيبة رحله ، فواللّه لنزل رسول اللّه ﷺ إلى الصبح وأناخ ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا بها دم منى ، وكانت أول حيضة حضتها . قالت : فتقبضت إلى الناقة واستحييت ، فلما رأى رسول اللّه ﷺ ما بى ورأى الدم . قال : « مالك ؟ لعلك نفست ؟ » قالت : قلت : نعم ! قال : « فأصلحى من نفسك ، ثم خذى إناءً من ماء فاطرحى فيه ملحاً ، ثم اغسلى به ما أصاب الحقيبة من الدم ، ثم عودى لمركبك » .

قالت : فلما فتح رسول اللّه ﷺ خيبر ، رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها ، وعلقها بيده فى عنقى ، فواللّه لا تفارقنى أبداً .

قالت : فكانت فى عنقها حتى ماتت ، ثم أوصت أن تدفن معها ، وكانت لا تطهر من حيضة إلا جعلت فى طهورها ملحاً . وأوصت به أن يجعل فى غسلها حين ماتت)(١) .

١٠ ـ ووصل إلى خيبر ـ بعد فتح الحديبية ـ أربعة وفود :

الوفد الأول : وفد مهاجرة الحبشة ، وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه ، وذلك بأمر رسول اللّه ﷺ ، حيث تم التمكين بعد الحديبية ولم تعد المدينة عاصمة الإسلام على خطر ، فصار هذا الموقع الاحتياطى فى الحبشة قليل الأهمية . ومن أجل ذلك استدعى عليه الصلاة والسلام جعفراً وأصحابه ، وبقى النجاشى رضى اللّه عنه نفسه هو المسئول عن هذا الموقع .

قال ابن إسحاق : (بعث ﷺ عمرو بن أمية الضميرى إلى النجاشى فجعلهم فى سفينتين ، وكان لوقع قدوم جعفر على النبى ﷺ من الفرح ما عادل فتح خيبر .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م ٢ / ٣٤١ .

سلمة وقالت الناس أنه حبط عمله لما قتل نفسه بسيفه ، وفرق كبير بين قزمان الذى قتل نفسه يوم اشتدت جراحه فأخذ أسوأ شهادة : « إنه فى النار » ، وبين من هوى سيفه عليه بدل أن يهوى على مرحب فقُتل به ، فكان له أجران ، وقل أن مشى عربى ببطولاته الفذة .

أما القلادة : الرابعة فكانت لشهيدنا الثانى : العبد الأسود .

لقد عرف فى التاريخ باسم العبد الأسود . وعرف عنه أنه راعى غنم . فجاء الإسلام ليرفعه من أن يكون نكرة بين ملايين الرعاة ، ليحتل أشرف الصفحات فى التاريخ الإسلامى ، ولم يمض من عمره فى الإسلام إلا ساعات أو سويعات لا تحتمل صلاة وقت من الأوقات . أسلم من هنا ويحمل مع إسلامه كما يقول :

يا رسول اللّه ، إنى رجل أسود اللون قبيح الوجه ، منتن الريح . لا مال لى .

وأراد بهذه المواصفات كلها أن يدخل الجنة . وأراد أن يفتتح حياته بهذا الدين برد الأمانات إلى أهلها : (يارسول اللّه ، إن هذه الغنم عندى أمانة فكيف بها ؟) .

فقال رسول اللّه ﷺ : « أخرجها من العسكر ، وارمها بالحصباء ، فإن اللّه عز وجل سيؤدى عنك أمانتك » . ففعل . فخرجت الغنم تشتد مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت كل شاة إلى أهلها . وكانت أول كراماته بعد لحظات من دخول هذا الدين .

واستعد ليبدأ صفحة جديدة من حياته سجل فيها هذه الكرامة ، ولم تمهله الشهادة ، فتقدم إلى الصف ، فقاتل ، فأصابه سهم فقتله .

ولم يُصلّ للّه تعالى سجدة قط .

وهل يدخل الجنة رجل لم يصل للّه تعالى سجدة قط ؟ . نعم . العبد الأسود ، منتن الريح ، قبيح الوجه ، الفقير الأدقع .

وكانت القلادة العظيمة التى نالها رضى اللّه عنه . من أعظم وأنفس القلائد :

ـ « لقد حسن إسلام صاحبكم . لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين من الحور العين » .

ـ « لقد حسّن اللّه وجهك ، وطيب ريحك ، وكثّر مالك ، لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ينزعان جبته يدخلان فيما بين جلده وجبته » .

روى البيهقى عن جابر رضى اللّه عنه قال : لما قدم رسول اللّه ﷺ من خيبر وقدم جعفر من الحبشة تلقاه رسول اللّه ﷺ ، فقبَّل جبهته ثم قال :

« واللّه ما أدرى بأيهما أنا أفرح : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر » (١) .

الوفد الثاني : وفد الأشعريين ، الذى جاء ضمن وفد جعفر ، وهم أبو موسى الأشعرى وأخواه ، وقد قدموا من اليمن .

(روى الشيخان ، والإسماعيلى ، وابن سعد ، وابن حبان ، وابن منده ، عن أبى موسى الأشعرى رضى اللّه عنه قال : لما بلغنا مخرج النبى ﷺ ، ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى .. فى ثلاثة أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى ـ فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده . فقال جعفر : إن رسول اللّه ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا . فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا رسول اللّه ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا) (٢) .

الوفد الثالث : وفد الداريين : وإذا كان وفد الأشعريين من اليمن فإن وفد الداريين من الشام ، (وهم بنو الدار بن هانىء بن حبيب بن نمارة بن لخم ، الذين ساروا إلى رسول اللّه ﷺ من الشام . تميم بن أوس ، ونعيم بن أوس أخوه ، ويزيد بن قيس ، وعرفة بن مالك ، وأخوه مروان بن مالك ، وفاكه بن نعمان ، وجبلة بن مالك ، وأبو هند بن بر ، وأخوه الطيّب بن بر ، فسماه رسول اللّه ﷺ عبد اللّه ، وقد أوصى لهم رسول اللّه ﷺ من خيبر) (٣) .

الوفد الرابع : وهو أضخم الوفود .

(روى الإمام أحمد ، والبخارى فى التاريخ ، وفى مجمع الزوائد للهيثمى ، والطحاوى ، والحاكم ، والبيهقى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه . قال : قدمنا المدينة . ونحن ثمانون بيتاً من دوس ، فصلينا الصبح خلف سباع ابن عُرفطة الغفارى ، فقرأ فى الركعة الأولى بسورة مريم وفى الآخرة : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ . فلما قرأ : ﴿ **إذا اكتالوا على الناس يستوفون** ﴾ قلت : تركت عمى بالسراة له مكيالان ، إذا اكتال اكتال بالأوفى . وإذا كال كال بالناقص . فلما فرغنا من صلاتنا قال قائل : رسول اللّه ﷺ

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٢ .
(٢) المصدر نفسه ٥ / ٢١٠ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام / م ٢ / ٣٥٤ .

بخيبر ، وهو قادم عليكم . فقلت : لا أسمع به في مكان إلا جئته ، فزودنا سباع بن عُرفُطة ، وحملنا حتى جئنا خيبر ، فنجد رسول الله ﷺ قد فتح النطاة ، وهو محاصر الكتيبة ، فأقمنا حتى فتح الله علينا) [١] .

وقد مثلت هذه الوفود أرجاء الجزيرة العربية ، وكانت توطئة ومقدمة لبقية الوفود ، غير أن وفداً خامساً جاء إلى خيبر ، كان قد حركته المصلحة ولم يحركه الإسلام . يحدثنا عنه أبو شيبة المزنى ، كما روى البيهقى عن شيوخه عنه . وكان قد أسلم وحسن إسلامه قال :

(لما نفرنا مع أهلنا إلى عيينة بن حصن ، فرجع بنا عيينة ، فلما كان دون خيبر أعرسنا [٢] من الليل ، ففزعنا . فقال عيينة : أبشروا ، إنى رأيت الليلة فى النوم أنى أعطيت ذو الرقيبة ـ جبلاً بخيبر ـ قد والله أخذت برقبة محمد ﷺ . فلما أن قدمنا خيبر ، قدم عيينة فوجدنا رسول الله ﷺ قد فتح خيبر ، فقال عيينة : يا محمد ، أعطنى مما غنمت من حلفائى ، فإنى قد خرجت عنك وعن قتالك . فقال له رسول الله ﷺ : « كذبت ولكنه الصياح الذى سمعت أنفرك إلى أهلك » . قال : أحذنى [٣] يا محمد ؟ قال : « لك ذو الرقيبة » . قال عيينة : وما ذو الرقيبة : قال : « الجبل الذى رأيت فى منامك أنك أخذته » .

فلما رجع إلى أهله جاء . الحارث بن عوف قال : ألم أقل لك إنك توضع فى غير شيء ؟ والله ليظهرن محمد على من بقى بين المشرق والمغرب . اليهود كانوا يخبروننا بذلك . أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول : إنا نحسد محمداً على النبوة ، حيث خرجت من بنى هارون ، وهو نبى مرسل ، واليهود لا تطاوعنى على هذا . ولنا منه ذبحان ، واحد بيثرب وآخر بخيبر . قال الحارث . قلت لسلام : يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم ، والتوراة التى أنزلت على موسى ، وما أحب أن نعلم اليهود قولى فيه) [٤] .

وكان عيينة زعيم غطفان وحليف اليهود يطمع ويهدد بالغزو ، وقد أراده عليه الصلاة والسلام ابتداءً على أن (لا يعينوهم وسألهم أن يخرجوا عنهم ولكم من خيبر كذا وكذا فأبوا عليه ، فلما أن فتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بنى فزارة . فقالوا : حظنا الذى وعدتنا . فقال رسول الله ﷺ : « لكم ذو الرقيبة » جبل من جبال خيبر . فقالوا :

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٢ .
(٢) أعرسنا : أقمنا ليلاً .
(٣) أحذاه : أعطاه .
(٤) المغازى للواقدى / ٢ / دلائل النبوة للبيهقى / ٤ / ٢٥٠ .

إذن نقاتلك . فقال : « موعدكم جَنْفًا »[1] . فلما أن سمعوا ذلك من رسول اللّه ﷺ خرجوا هاربين) .

لقد كانت غطفان حليفة قريش فى الخندق ، وحليفة اليهود فى خيبر ، وطمح زعيمها عيينة مرتين ، مرة فى تمر المدينة ، ولم يعطه السعدان والمسلمون إلا السيف ، ومرة تمر خيبر بعد خسارة حلفائه ، وعاد خالى الوفاض ، أما شريكه فى الزعامة . الحارث بن عوف فكان أبعد نظراً منه ، وقال له بعد الخندق كما قال له بعد خيبر :

واللّه لقد كانت أحبار يهود ، وإنهم يحدثون أنهم يجدون فى كتبهم أنه يبعث نبى من الحرم هذه صفته .

وأدرك كما أدرك قادة قريش ذو النظر النافذ أن أمر محمد يعلو ، حتى ليغادر عمرو ابن العاص إلى الحبشة بعد الخندق ، ويراهن حويطب بن عبد العزى على نصر محمد فى خيبر . أما القادة الذين أكلتهم المغانم والمطامح فقد بقوا على موقفهم كما رأينا من عيينة ، وعندما هدد بالمعركة ، وتحدد الموعد ولى هارباً مع قومه .

١١ ـ آثار الفتح القريب :

أ ـ رأينا من آثار الفتح القريب انهيار حلفاء يهود من غطفان .

ب ـ ومن الآثار كذلك : مصالحة أهل فدك ، وهم يهود كذلك ولهم تجمعهم وقوتهم وشكيمتهم .

(لما أقبل رسول اللّه ﷺ إلى خيبر فدنا منها ، بعث محيصة بن مسعود الحارثى إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام . ويخوفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر ، ويحل بساحتهم . قال محيصة : فجئتهم فأقمت عندهم يومين ، فجعلوا يتربصون ويقولون بالنطاة : عامر وياسر والحارث ، وسيد اليهود مرحب ، ما نرى محمداً يقرب حراهم[2] ، إن بها عشرة آلاف مقاتل . قال محيصة : فلما رأيت خبثهم أردت أن أرجع . فقالوا نحن نرسل معك رجالاً منا يأخذون لنا الصلح ، ويظنون أن يهود تمتنع ، فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم . وأهل النجدة منهم ، ففتّ ذلك أعضادهم فقدم رجل من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع فى نفر من يهود ، فصالحوا رسول اللّه ﷺ على أن يحقن دماءهم ويجليهم ، ويخلوا بينه وبين الأموال ... وقال لهم محيصة : ما لكم منعة ولا حصون

(١) جنفا : ماء من مياه بنى فزارة بين خيبر وفدك . (٢) حراهم : أرض ذات حجارة ، وحراهم : جمع حرّة .

ولا رجال ، ولو بعث إليكم رسول الله ﷺ مائة رجل لساقوكم إليه ، فوقع الصلح بينهم بأن لهم نصف الأرضين بتربتها ، ولرسول الله ﷺ نصف الأرض وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك ولم يأتهم) [1] .

جـ ـ وتمت ملاحقة التجمع اليهودى فى جزيرة العرب إلى أقصاه ، وذلك فى التوجه نحو وادىِ القرى .

قال محمد بن عمر : (لما انصرف رسول الله ﷺ عن خيبر ، وأتى الصهباء سلك على بِرمة [2] حتى انتهى إلى وادى القرى يريد من بها من يهود ... وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفَّهم ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عبَّاد بن بشر ، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله تعالى .

فبرز رجل منهم ، فبرز له الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز له الزبير فقتله ، ثم برز آخر ، فبرز له على بن أبى طالب فقتله ، ثم برز آخر ، فبرز له أبو دجانة فقتله ، حتى قتل منهم رسول الله ﷺ أحد عشر رجلاً كلما قُتل رجل دعا من بقى إلى الإسلام . ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها رسول الله ﷺ عنوة ، وغنمة الله تعالى أموالهم ، وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كبيرًا) [3] .

د ـ قريش والفتح : وخير ما يقدم لنا الوضع النفسى عندهم وأثر الخبر عليهم رواية الحجاج بن علاط :

(روى الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه ، والبيهقى عن ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : كان الحجاج بن علاط السلمى خرج يغير فى بعض غاراته ، فذكر له رسول الله ﷺ بخيبر فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ ، وكانت أم شيبة ابنة عمير بن هاشم أخت مصعب بن عمير العبدرى امرأته . وكان الحجاج مكثراً له مال

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٤ وما بعدها .

(٢) برمة : بين خيبر ووادىِ القرى .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٢٩ .

كثير ، وله معادن الذهب التى بأرض بنى سُليم . فقال : يا رسول اللّه ، ائذن لى فأذهب فآخذ مالى عند امرأتى ، فإن علمت بإسلامى لم آخذ منه شيئاً . ومالٌ لى متفرق فى تجار أهل مكة ، فأذن له رسول اللّه ﷺ . فقال : يا رسول اللّه ، إنه لابد أن أقول قال : « قل » .

قال الحجاج . فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم ، هبطت فوجدتهم بالثنية البيضاء ،(١) وإذا بها رجال من قريش يتسمعون الأخبار ، قد بلغهم أن رسول اللّه ﷺ قد سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز أَنَفَةً ومنعة وريفاً ورجالاً وسلاحاً ، فهم يتحسبون الأخبار ، مع ما كان بينهم من الرهان . فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط عنده واللّه الخبر ـ ولم يكونوا علموا بإسلامى ـ يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع (٢) قد سار إلى بلد يهود ، وريف الحجاز . فقلت : بلغنى أنه قد سار إليها وعندى من الخبر ما يسركم ، فالتبطوا (٣) بجانبى راحلتى يقولون : إيه يا حجاج ؟! فقلت : لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتال غير أهل خيابر ، كانوا قد ساروا فى العرب يجمعون له الجموع ، وجمعوا له عشرة آلاف فهُزم هزيمة لم يسمع بمثلها قط ، وأسر محمداً أسرا ، فقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بمن قتل منا ومنهم ، ولهذا فإنهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان من عشائرهم ، ويرجعون إلى ما كانوا عليه ، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم ما صنعوا . قال : فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . وقلت : أعينونى على جمع مالى على غرمائى فإنى أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن تسبقنى التجار إلى ما هناك ، فقاموا فجمعوا إلى مالى كأحثّ جمع سمعت به ، وجئت صاحبتى فقلت لها : مالى ، لعَلّى ألحق بخيبر فأصيب من البيع قبل أن يسبقنى التجار .

وفشا ذلك بمكة ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب ، فقعد لا يستطيع أن يقوم فأشفق أن يدخل داره فيؤذى ، وعلم أنه يؤذى عند ذلك ، فأمر بباب داره أن يفتح وهو مستلق .. فأخذ ابنا له يقال له قثم ، واستلقى ووضعه على صدره وهو يقول :

---

(١) الثنية البيضاء : عقبة تهبطك إلى فخ أسفل مكة .

(٢) القاطع : يعنون به النبى ﷺ أى قاطع رحمه .

(٣) التبطوا : مشوا إلى حينها كمشى العرجاء لازدحامهم حولها .

حبى قثم شبه ذى الأنف الأشم نبى ذى النعم برغم من زعم

فجعل يرتجز ويرفع صوته لئلا يشمت به الأعداء ، وحضر باب العباس بين مغيظ ومحزون . وبين شامت . وبين مسلم ومسلمة مقهورين بظهور الكفر والبغي ، فلما رأى المسلمون العباس طيِّبةً نفسه طابت أنفسهم ، واشتدت منتهم [1] ، فدعا غلاماً يقال له أبو زبيبة .. فقال : اذهب إلى الحجاج فقل له : يقول لك العباس : اللّه أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا . فقال له الحجاج : اقرأ على أبى الفضل السلام وقل له : ليخل لى بعض بيوته : لآتيه بالخبر على ما يسره ، واكتم عنى ، وأقبل أبو زبيبة يبشر العباس . فقال : أبشر أبا الفضل ، فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شىء ، ودخل عليه أبو زبيبة ، واعتنقه العباس وأعتقه ، وأخبره بالذى قاله .

فقال العباس : للّه علىّ عتق عشر رقاب ، فلما كان ظهراً ، جاءه الحجاج ، فناشده اللّه لتكتمن على ثلاثة أيام ـ ويقال يوماً وليلة ـ فوافقه العباس على ذلك . فقال : إنى أسلمت . ولى مال عند امرأتى ، ودين على الناس ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إلىَّ ، وتركت رسول اللّه ﷺ . وقد فتح خيبر . وجرت سهام اللّه تعالى ورسوله ﷺ فيها . وانتثل [2] ما فيها ، وتركته عروساً بابنة مليكهم حيى بن أخطب وقتل ابن أبى الحقيق . فلما أمسى الحجاج من يومه خرج ، وطالت على العباس تلك الليالى ، فلما كان بعد ثلاث ، والناس يموجون فى شأن ما تبايعوا عليه ، عمد العباس إلى حلة فلبسها ، وتخلّق [3] بخلوق . وأخذ بيده قضيباً ، ثم أقبل يخطُر [4] حتى وقف على باب الحجاج بن علاط فقرعه ، فقالت زوجته : ألا تدخل يا أبا الفضل ؟ قال : فأين زوجك ؟ قالت : ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت : لا يحزنك اللّه يا أبا الفضل ، لقد شقّ علينا الذى بلغك . قال : أجل لا يحزننى اللّه ، لم يكن بحمد اللّه إلا ما أحببنا فتح اللّه على رسوله خيبر ، وجرت فيها سهام اللّه ورسوله ، واصطفى رسول اللّه ﷺ صفية لنفسه ، فإن كان لك حاجة بزوجك فالحقى به ، قالت : أظنك واللّه صادقاً ، ثم ذهب حتى أتى مجلس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم : لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل !! هذا واللّه التجلد لحر المصيبة ، قال : كلا واللّه الذى حلفتم به . لم يصبنى إلا خير بحمد اللّه ، أخبرنى الحجاج بن علاط أن خيبر فتحها اللّه على رسوله ، وجرى فيها سهام اللّه وسهام رسوله . فرد اللّه الكآبة التى كانت

(١) منتهم : قوتهم (٢) انتثل : استخرج .
(٣) الخلوق : الطيب . (٤) يخطر : أقبل وأدبر كثيراً .

بالمسلمين على المشركين ، وخرج المسلمون من كان دخل فى بيته مكتئباً حتى أتوا العباس فأخبرهم الخبر ، فسُرَّ المسلمون . وقال المشركـون : يا لعباد اللّه ، انفلت عدو اللّه ــ يعنى الحجاج ــ أما واللّه لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك) (١) .

هـ ــ هـذا وقع خيبـر على مكة كـما شاهدنـاه ، وقد امتد هذا الـفتح عبـر القرون ، وأنهى الوجود الـيهودى فى الأرض ، حتى كان جيلـنا المنكود ، الذى لعب بـه كما لعب بقـريش بعـد حرب حزيـران ، وقال له الحـكام والطغـاة ابتداء : لـقد سقـطت إسرائـيل ، وأسقطـت وسائل الإعلام العـربية أكثر مـن سلاح الطيران الـيهودى ، وزعموا أنـهم رموا باليهود إلى البحر ، وانكشف الغطاء بعد ستة أيام ، أن الحرب انتهت بعد ست ساعات من ابتدائها ، وأصبحت فلسطين محررة كلـها بيد اليهود ، وهددوا القاهرة ودمشق وعمان . وقال مرحب اليهود ــ موشى ديان ــ (هذه بخيبر) . عادوا وثأروا من جديد ، حين كان الإعلام العربى يتحدى اللّه ورسوله فيقول راجزهم :

ميراج طيارك هرب   والميغ تتحدى القدر .

وحاولوا إطـفاء نور اللّه بـأفواههم فأطـفأهم اللّه عـلى يد اليهـود ، الذين عانـوا الذلة أربعة عشر قرناً ، لم يقم له قائمة فـى أرض الإسلام ، حتى هذا القرن ، حيث عادت خيبر من جديد والعرب يحادون اللّه ورسوله ، فأظهر اللّه عـليهم من كتب عليهم الذلة . حتى تبدأ الجولة الجـديدة ، ويعود جند محمد إلى الـساحة ليثأروا فى خيبـر جديدة ، وقد بدت ملامح هذا الجيل على الأفق .

وأول الغيث قطر ثم ينهمر .

١٢ ــ ابنتا زعيمى يهود .

أما الحارث فكان أول زعمائهم قتلا ، حيث خرج يبارز فقتله على رضى اللّه عنه فى ساحة المعركة ، أما الزعـيم الثانى فكان حيى بن أخطب الذى قتل صبراً لغدره ونكثه فى بنى قريظة .

روى ابن سعد والبيهقى عن ابن عبـاس رضى اللّه عنهمـا أن رسول اللّه ﷺ لما ظهر عـلى أهل خيبر صالـحهم علـى أن يخرجـوا بأنفـسهم وأهـليهـم ، وللنبـى ﷺ البيـضاء والصفراء والحلقة والسلاح ويخرجهم . وشرطوا للنبى ﷺ أن لا يكتموه شيئاً فإن فعلوا

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٦ .

فلا ذمه لهم . قال ابن عباس : فأتى بكنانة والربيع ، وكان كنانة زوج صفية والربيع أخوه أو ابن عمه فقال لهم رسول الله ﷺ : « أين آنيتكما التى كنتم تعيرونها أهل مكة ؟ » فقالا : هربنا فلم تزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى فذهب فى نفقتنا كل شىء . فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بموضع الكنز فقال لكنانة : « إنك لمغتر بأمر السماء » . قال ابن عباس : فدعا رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار فقال : « اذهب إلى قراح كذا وكذا ، ثم ائت النخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك مرفوعة . فأتنى بما فيها » ، فجاءه بالآنية والأموال فقومت بعشرة آلاف دينار ، فضرب أعناقهما وسبى أهليهما بالنكث الذى نكثاه .

وكانت صفية بنت حيى وزوج كنانة بن الحقيق ، قد اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه .

قال ابن إسحاق : (ولما أعرس رسول الله ﷺ بخيبر أو ببعض الطريق . وكانت التى جملتها لرسول الله ﷺ ومشّطتها . وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس ابن مالك فبات بها رسول الله ﷺ فى قبة له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بنى النجار متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله ﷺ ، فلما رأى مكانه . قال : « مالك يا أبا أيوب ؟ » . قال : يارسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر . فخفتها عليك ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى ») (١) .

وننتقل من أبى أيوب رضى الله عنه إلى صفية ، تحدثنا عن نفسها وزواجها من رسول الله صلوات الله عليه :

(عن أبى حرملة عن أخته أم عبد الله ابنة أبى القين المزنى قالت :

كنت آلف صفية من بين أزواج النبى ﷺ ، وكانت تحدثنى عن قومها وما كانت تسمع منهم . قالت : خرجنا من المدينة حيث أجلانا رسول الله ﷺ فأقمنا بخيبر ، فتزوجنى كنانة بن أبى الحقيق . فأعرس بى قبل قدوم رسول الله ﷺ بأيام ، وذبح جزُرًا ودعا باليهود وحولنى فى حصنه بسلالم ، فرأيت فى النوم كأن قمراً أقبل من يثرب يسير

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٣٤٠ .

حتى وقع في حجرى ، فذكرت ذلك لكنانة زوجى فلطم عينى فاخضرّت ، فنظر إليها رسول اللّه ﷺ حين دخلت عليه فسألنى فأخبرته ، قالت : وجعلت اليهود ذراريها بالكتيبة . وجردوا حصن النطاة للمقاتلة ، فلما نزل رسول اللّه ﷺ خيبر وافتتح حصون النطاة ، ودخل عليّ كنانة فقال : قد فرغ محمد من النطاة . وليس ها هنا أحد يقاتل ، قد قتلت يهود حيث قُتل أهل النطاة ، وكذبتنا العرب .

فحولنى إلى حصن النزار بالشق . قال : وهو أحصن مما عندنا ، فخرج حتى أدخلنى وابنة عمي ونسيات معنا ، فسار رسول اللّه ﷺ إلينا قِبَل الكتيبة فسُبيتُ فى النزار قبل أن ينتهى النبى ﷺ إلى الكتيبة ، فأرسل بى إلى رحله ، ثم جاءنى حين أمسى فدعانى ، فجئت وأنا مقنعة حيية ، فجلست بين يديه فقال : « إن أقمت على دينك لم أكرهك . وإن اخترت اللّه ورسوله فهو خير لك » .

قالت : أختار اللّه ورسوله والإسلام ، فأعتقنى رسول اللّه ﷺ وتزوجنى . وجعل عتقى مهرى ، فلما أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابه : اليوم نعلم أزوجة أم سُرّية ، فإن كانت امرأته فسيحجبها ، وإلا فهى سُرِّية ، فلما خرج أمر بستر فَسُتِرتُ به فعُرف أنى زوجة ، ثم قدّم إلىّ البعير ، وقدّم فخذه لأضع رجلى عليها . فأعظمت ذلك ، ووضعت فخذى على فخذه ثم ركبت ، وكنت ألقى من أزواجه يفخرن علىّ ويقلن : يابنت اليهودى ، وكنت أرى رسول اللّه ﷺ يلطف بى ويكرمنى ، فدخل علىّ يوماً وأنا أبكى فقال : « مالك ؟» فقلت : أزواجك يفخرن علىّ ويقلن يابنت اليهودى . قالت : فرأيت رسول اللّه ﷺ قد غضب ثم قال : « إذا قالوا لك أو فاخروك فقولى : أبى هارون وعمى موسى »)[1] .

هذه الابنة الأولى التى انتهت أماً للمؤمنين فى الأرض ، واختارت اللّه والدار الآخرة ، واختارت رسول اللّه ﷺ ، رغم أنه قتل أباها وزوجها وعمها .

أما الابنة الثانية فهى زينب بنت الحارث التى قتل أبوها وزوجها وأعمامها ، فكان لها شأن آخر أرادت أن تنتقم من رسول اللّه ﷺ وتثأر لقتلاها : الحارث وياسر وعامر ومرحب وسلام بن مكشم .

روى الشيخان ، وأحمد ، وابن سعد ، والدارمى ، والبيهقى ، والطبرانى ، والحاكم ،

---

(١) المغازى للواقدى ٦٤٧/٢ .

(أن رسول الله ﷺ لما افتتح خيبر ، وقتل من قتل ، واطمأن الناس ، أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مكشم ـ وهى ابنة أخى مرحب ـ لصفية امرأته شاة مصليَّة . وقد سألت أى عضو الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع . فأكثرت فيها من السم ، ثم سممت سائر الشاة ، فدخل رسول الله ﷺ على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور ، فقدمت إليه الشاه المصلية ، فتناول رسول الله ﷺ الكتف ، وفى لفظ : الذراع ، وانتهش منها فلاكها رسول الله ﷺ ، وتناول بشر بن البراء عظما . فانتهش منه .

قال ابن إسحاق : فأما بشر فأساغها . وأما رسول الله ﷺ فلفظها . وقال ابن شهاب : فلما استرط [1] رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر بن البراء لقمته . فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا ما فى أيديكم ، فإن كتف هذه الشاة تخبرنى أنى نعيت فيها » .

قال ابن شهاب : فقال بشر بن البراء : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت فما منعنى أن ألفظها إلا أنى أعظمت أن أنغصك طعامك . فلما سغت ما فى فيك . لم أكن لأرغب بنفسى عن نفسك ورجوت ألا تكون استرطتها وفيها نعيى ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا أن حُوِّل . قال الزهرى قال جابر : واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله يومئذ ، حجمه أبو هند مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة وبقى رسول الله بعد ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى فيه .

فقال : « مازلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عواداً حتى كان هذا وانقطع أبهرى » فتوفى رسول الله ﷺ شهيداً (بلفظ ابن شهاب) .

وقال الصحابة السابق ذكرهم ـ رضى الله عنهم ـ : إن رسول الله ﷺ أرسل إلى اليهودية فقال : « أسممت هذه الشاة ؟ » فقالت : من أخبرك ؟ قال : « أخبرتنى هذه التى هى فى يدى » وهى الذراع . قالت : نعم . قال : « ماحملك على ماصنعت ؟ » قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحنا منه ، وإن كان نبيا فسيخبر . فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته التى أكل ولم يعاقبها .

وعن أبى سلمة ، عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ لما مات بشر بن البراء أمر باليهودية فقتلت . رواه أبو داود) [2] .

---

(١) استرط : ازدرد .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٢٠٨ وما بعدها .

وانتهت الابنة الثانية مقتولة بعد أن قتلت أحد الصحابة بالسم .

ولا شك أن هذه المحاولة من زينب بنت الحارث ، تنضم إلى المحاولات الأخرى التى يخطط فيها العدو للقضاء على رسول الله ﷺ ، وهى درس عام على أبناء الحركة الإسلامية أن يعوه ، ويأخذوا حذرهم دائماً ، فليس لديهم العصمة التى أعطاها الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ .

وهكذا شهدنا الفتح القريب بكل أبعاده النفسية والتربوية ، والدور الفاصل الذى مثله فى إنهاء الوجود اليهودى فى جزيرة العرب . ونقول بعد هذا كله : إنه ثمرة من ثمار الفتح المبين فى الحديبية ، الذى حيّد قريش . وهيأ المجال ليتفرغ رسول الله ﷺ للقضاء على اليهود وإنهائهم من الساحة العربية كوجود عسكرى ، وتحولهم إلى مزارعين لدى المسلمين .

يقول جل ثناؤه :

﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكفّ أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاًمستقيماً ﴾ [1] .

أما هذه المغانم بعد خيبر فكانت كما ذكر الشاهد الجديد من دوس أبو هريرة رضى الله عنه ، وهو الذى سيحضر معنا بشكل دائم بعد الآن ، فقد كان رأس وفد الدوسيين الذين جاءوا فى ثمانين بيتاً إلى المدينة ثم إلى خيبر .

(عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر ، فلم يغنم ذهباً ولا فضة إلا الإبل والبقر والمتاع والحوائط . وفى رواية : إلا الأموال والثياب والمتاع . رواه مالك والشيخان . وأبو داود والنسائى) [2] .

(وقال ابن إسحاق : وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة ، وكانت الشق ونطاة فى سهمان المسلمين . وكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبى ﷺ . وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وطعم أزواج النبى ﷺ ، وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح منهم محيصة بن مسعود ، أعطاه رسول الله ﷺ

(١) الفتح / ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٢٠ وما بعدها .

ثلاثين وسْقاً (١) من شعير . وثلاثين وسقاً من تمر . وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما فقسم له رسول اللّه ﷺ كسهم من حضرها وكان واديـاها . وادى السريرة ، ووادى خاص هما اللذان قسمت عليهما خيبر .

وكانت نطاة والشق ثمانية عشر سهماً ، نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهماً ، وقسمت الشق والنطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم ، وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول اللّه ﷺ ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم ، للرجال أربع عشرة مائة والخيل مائتا فرس ، فكان لكل فرس سهمان ولفارسه سهم ، وكان لكل راجل سهم ، وكان لكل سهم رأس جمع إليه مائة رجل ، فكان ثمانية عشر سهماً جمع) (٢) .

(ما ذكره ابن إسحاق من أن المقاسم كانت على الشق والنطاة والكتيبة أشبه ، فإن هذه المواضع الثلاثة مفتوحة بالسيف عنوة من غير صلح ، وأما الوطيح والسلالم فقد يكون هو الذى اصطفاه رسول اللّه ﷺ لما ينوب المسلمين ، ويترجح حينئذ قول موسى بن عُقبة ومن قال بقوله : إن بعض خيبر كان صلحاً ، ويكون أخذ الأشعريين ومن ذكر معهم من ذلك ، ويكون مشاورة رسول اللّه ﷺ أهل الحديبية فى إعطائهم ليس استنزالاً لهم عن شىء من حقوقهم ، وإنما هى المشورة العامة ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾) (٣) .

(قال ابن إسحاق : وشهد خيبر مع رسول اللّه ﷺ من نساء المسلمين ، فرضخ لهن من الفيئ ولم يضرب لهن بسهم) (٤) .

(وخرج مع رسول اللّه ﷺ من المدينة عشرون امرأة ، أم سلمة زوجته ، وصفية بنت عبد المطلب . وأم أيمن ، وسلمى امرأة أبى رافع مولاة النبى ﷺ ، وامرأة عاصم بن عدى ولدت سهلة بنت عاصم بخيبر ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع وهى أم شبات ، وكعيبة بنت سعد الأسلمية ، وأم متاع الأسلمية . وأم سُليم بنت ملحان . وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية ، وهند بنت عمرو بن حزام ، وأم العلاء الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية . وأم عطية الأنصارية . وأم سليط)(٥) .

---

(١) الوَسْق : ستون صاعاً أو حمل بعير .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / م٢ / ٣٤٩ وما بعدها .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٢٢٢ .
(٤) السيرة لابن هشام / م٢ / ٣٤١ .
(٥) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٨٥ .

ومن هذه المغانم الضخمة ، وبعد هذا التحول الكبير فى الوضع المادى للمسلمين ، أمكن إعادة أموال الأنصار إليهم وهى التى شاركهم المهاجرون فيها خلال هذه السنوات الست :

روى الشيخان ، والحافظ ، ويعقوب بن سفيان عن أنس رضى الله عنه قال :

(لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهل أرض وعقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمؤونة . وكانت أم أنس أعطت رسول الله ﷺ أعذاقاً لها ، فأعطاهن رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر ، وانصرف إلى المدينة ، ردالمهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا قد منحوهم من ثمارهم ، ورد رسول الله ﷺ إلى أمى أعذاقها) (١) .

ولاننسى أن هذه المحاولة فى رد المنائح كانت عقب بنى النضير ، لكن الأنصار رفضوا ذلك رغم توزيع الغنائم على المهاجرين ، غير أنها كانت لا تذكر أمام مغانم خيبر .

﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ .

يقول ابن جرير رحمه الله : (وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد ، وهو أن الذى أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر ، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها .

وأما قوله : **﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾** فهى سائر المغانم التى غنمهموها الله بعد خيبر كغنائم هوازن وغطفان وفارس والروم . وإنما قلنا ذلك كذلك دون غنائم خيبر ، لأن الله أخبر أنه عجّل لهم هذه التى أثابهم من مسيرهم الذى ساروه مع رسول الله ﷺ إلى مكة .

ولما علم من صحة نيتهم فى قتال أهلها إذ بايعوا رسول الله ﷺ على أن لا يفروا عنه ولا شك أن التى عجلت لهم غير التى لم تعجل لهم) (٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٢٢ .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى / ١١ / ٢٧ / ٥٦ .

(وقال ابن زيد فى قوله ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ قال : يوم خيبر . قال : كان أبى يقول ذلك . وقوله ﴿ **فعجّل لكم هذه** ﴾ اختلف أهل التأويل فى التى عجلت لهم ، فقال جماعة : غنائم خيبر ، والمؤخرة : سائر فتوح المسلمين بعد ذلك إلى قيام الساعة) (1) .

﴿ وكفّ أيدى الناس عنكم ﴾ :

(أخرج ابن مردويه عن ابن عباس .. ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ يعنى أهل مكة ، أن يستحلوا ما حرم الله أو يُستحل بكم وأنتم حرم) (2) .

(وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة : ﴿ **فعّجل لكم هذه** ﴾ قال : خيبر ، ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ قال : عن بيضتهم وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا عن المدينة إلى خيبر) (3) .

(وأخرج ابن المنذر عن جريج فى قوله : ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ قال : الحليفان أسد وغطفان عليهم عيينة بن حصن ، معه مالك بن عوف النصرى أبو النضر ، وأهل خيبر على بئر معونة ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب فانهزموا ولم يلقوا النبى ﷺ) (4) .

﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ :

وكانت آية للمؤمنين .

فحال صلح الحديبية بين إمداد قريش لخيبر فى حربها ضد رسول الله ﷺ .

وحال الرعب دون مشاركة غطفان وعلى رأسها عيينة بن حصن وأسد وعلى رأسها مالك بن عوف النصرى .

وحال الله بين قلوب العرب المجاورة وغزو المدينة بذراريها ، وقد أقام الجيش الإسلامى فى خيبر قرابة الشهرين ، وفى بعض الروايات أن الإقامة بلغت ستة أشهر .

(والثانى عشر : اختلف فى مدة إقامته ﷺ بأرض خيبر ، فروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أقام بخيبر ستة أشهر يجمع بين الصلاتين ، وروى البيهقى أربعين يوماً وسنده ضعيف) (5) .

---

(1) المصدر نفسه / ٥٦ .　　(٢ ، ٣ ، ٤) الدر المنثور / ٧ / ٥٢٤ وما بعدها .

(5) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٢٤٠ .

ويذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ أقام الربيعين بعد عودته من خيبر ، فهذا يعنى أن خيبر استغرقت محرم وصفر وبعضاً من ذى الحجة .

﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ :

(أى يزيدكم هدى ، أو يثبتكم على هدايته) [(١)] .

ويقول : ويسددكم أيها المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه فيبينه لكم ، وهو أن تثقوا فى أموركم كلها بربكم فتتوكلوا عليه فى جميعها ليحوطكم حياطته إياكم فى مسيركم إلى مكة مع رسول الله ﷺ فى أنفسكم وأهليكم وأموالكم ، فقد رأيتم أثر فعل الله بكم إذ وثقتم فى مسيركم هذا) [(٢)] .

يقول جل ثناؤه :

﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما ﴾ [(٣)] .

﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ :

(قوله تعالى : **﴿ وأخرى ﴾** معطوفة على **﴿ هذه ﴾** أى فعجَّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى **﴿ لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ﴾** قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم . وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها ،

---

(١) القرطبى / ٨ / ١٦ / ٢٧٩ . (٢) الطبرى / ١١ / ٢٧ / ٥٧ . (٣) الفتح / ٢١ ـ ٢٦ .

وعن الحسن أيضاً وقتادة : هو فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ؛ لأنه قال : ﴿ **لم تقدروا عليها** ﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات إدراك المطلوب في الحال كما كان في مكة ، قاله القشيرى . وقال مجاهد : هى ما يكون إلى يوم القيامة)[1] .

(وهذا القول الذى قاله قتادة أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل ، وذلك أن اللّه أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول اللّه ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم يقدروا على هذه المدينة إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم . فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم فلا يقال أنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول اللّه ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر لحرب ولا وَجّه إليها لقتال أهلها جيشاً ولاسرية . علم أن المعنىّ بقوله : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ وأنها هى التى عالجها ورامها فتعذرت فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر اللّه ــ تعالى ذكره ــ نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أحاط بها وبأهلها وأنه فاتحها عليهم وكان اللّه على كل ما يشاء من الأشياء ذا قُدرة لا يتعذر عليه شيء شاءه)[2] .

(تختلف الروايات فى هذه الأخرى ، أهى فتح مكة ؟ أم فتح خيبر ؟ أم هى فتوح مملكتى كسرى وقيصر ؟ أم هى فتوح المسلمين التى تلت هذه الوقعة جميعاً ؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هى فتح مكة بعد صلح الحديبية . وبسبب من هذا الصلح الذى لم يدم سوى عامين . ثم نقضه المشركون . ففتح اللّه مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً ، وهى التى استعصت عليهم من قبل وهاجمتهم فى عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط اللّه بها . وسلمها بلا قتال ﴿ **وكان اللّه على كل شيء قديرا** ﴾ ، فهذه بشرى ملفوفة فى هذا الموضع لم يحددها ؛ لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب اللّه . أشار إليها هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة ، والغنيمة التى أحاط اللّه بها ، وهم فى انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون . وأن الصلح فى هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف ، أو لأن المشركين أقوياء ، ولكنه تم لحكمة يريدها ، ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا ، فتلك سنة اللّه حيثما التقى المؤمنون والكافرون فى موقعة فاصلة :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / م ٨ / جـ ١٦ / ٢٧٩ .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى / ١١ / ٢٦ / ٥٨ .

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا . سنة اللّه التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا ﴾ .

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسننه الكونية الثابتة التى لا تتبدل ، فأية سكينة ؟ وأية ثقة ؟ وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم ، وهم يسمعون من اللّه أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سنن اللّه الجارية فى هذا الوجود .

وهى سنة دائمة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر إلى أجل ، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم . واستقامتهم الاستقامة التى يعرّفها اللّه لهم ، أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره . أو لغير هذا أو ذلك مما يعلمه اللّه ، ولكن السنة لا تتخلف : ﴿ ولن تجد لسنة اللّه تبديلا ﴾) [1] .

وعلى طريقة المنهج القرآنى فى التربية . وحيث أن الهدف من تنزل هذه الآيات هو معالجة النفوس والقلوب ، عاد القرآن ثانية ليتحدث عن سبب تأخر فتح مكة . ويتحدث عن الصلح الذى تم .

فإن كان اللّه قد وعدهم المغانم الكثيرة يأخذونها ، وهم عائدون من الحديبية . ووعدهم فتحاً قريباً غير فتح مكة ، فلم حيل بينهم وبين فتح مكة . وقد أريها رسول اللّه ﷺ ، وهم قد بايعوا بيعة الرضوان ، وكان بالإمكان تحقيق نصر حاسم ؟؟

هذه التساؤلات لا تزال تدور فى خلد هذا الجيل الخالد .. ولا تزال القلوب معلقة بمكة التى يحنون إليها حنين الإبل إلى أولادها ، ولا تزال آثار الصلح وندوبه قائمة على تقاسيم وجوههم . لقد اقتنعوا بدون شك أن صلح الحديبية فتح مبين ، لكنهم اقتنعوا اقتناع الإذعان والتسليم للّه دون أن يدركوا باليقين والأمر المشاهد حكمة تأخر هذا الفتح ، تماماً كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ .

وجاءت الآيات الأولى من السورة . تتحدث عن الفتح المبين بالحديبية ، ثم انتقلت لتقريع المخلفين من الأعراب ، ثم عادت لتثنى على المبايعين تحت الشجرة ، وتعطيهم وسام الرضوان من اللّه تعالى ، ثم تقدم لهم البشائر عن المغانم الكثيرة والفتح القريب ، لكن ماذا عن فتح مكة ؟ .

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب ٦ / ٣٣٢٧ .

إنه تساؤل بقى يتردد فى النفس . ويحول الأدب الذى أدبهم عليه نبيهم ﷺ أن يسألوا عنه ، ولكن عالم خفايا القلوب ، وخفقات النفوس جل ثناؤه يريد أن يسكب فى قلوبهم الأمن والطمأنينة ، فعاد بهم إلى الحديث المستفيض عن فتح مكة ليقول لهم : إن هذه التى لم تقدروا عليها قد أحاط الله تعالى بها فهى مفتوحة ، وهى لابد منتهية ؛ لأن سنة الله تعالى فى النصر لا تتخلف إلا لحكمة .

ويثور التساؤل من جديد فى النفس : وما هى الحكمة ؟

لقد ذكر لهم فى أحد أن فوات النصر كان لخلل فى بنائهم الداخلى ، فالله تعالى هو الذى صرفهم عن المشركين بعد أن حققوا النصر ابتداء وأحرزوه .

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (1) .

وقال لهم : **﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير ﴾** (2) .

ترى هل كان الحيلولة دون النصر فى هذا الجيل عقوبة كتلك التى فى أحد ؟ وهل فات الفتح لخلل فى البناء الداخلى كما كان فى أحد ؟ فهم لا يزالون بحاجة وتطلع شديدين يتوقون إلى معرفة السبب فى تأخر الفتح ، فجاء القرآن بلسماً لقلوبهم ليؤكد لهم أن تأخر الفتح لم يكن لعوامل داخلية . ولا لخلل فى البناء الداخلى ، إنما كان لعوامل خارجية تماماً عنهم . والتأخر لصالحهم ، ولم تكن الإرادة الربانية فى قبول الهدنة والصلح دنية فى الدين ، ولا ذلة للمشركين كما توهموا ، إنما كان لحكمة قصرت عنها عقول البشر ، وأحاط الله تعالى بها علماً .

جاء الجواب :

﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن

---

(1) آل عمران : ١٥٣ . (2) آل عمران : ١٦٥ .

تطؤوهم . فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا عذاباً أليما ﴾ .

وإذا كانت الآيات السابقة تحتمل التأويل عن مكة أو خيبر أو حنين أو بقية الفتوح إلى يوم القيامة فإن الحديث هنا عن كف اليد فى بطن مكة ، ولا مجال للخلاف فى ذلك . وتأتى هذه الشهادة للمسلمين أنهم كانوا ظافرين ، مع أنهم لم يخوضوا معركة : ﴿ **من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ ، فهل كان الظفر ياترى بتلك البيعة الخالدة التى علم الله من قلوب أصحابها صدقهم . وأن هذه المجموعة المؤمنة الصادقة قادرة يقينا على فتح مكة ، فكأن الظفر قد وقع وتم ؟ أيمكن أن يكون ذلك ، أو فى القبض على تلك المجموعات الفدائية التى أرسلت لتبث الرعب فى الجو الإسلامى ، وتثير القلاقل فيه فسقطت كلها أسرى بيد المسلمين ؟! يمكن أن يكون ذلك .

(أخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال :

لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة فى السلاح من قبل جبل التنعيم ، يريدون عرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم . فأخذوا ، فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ (١) .

(وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة** ﴾ قال : بطن مكة الحديبية ، ذُكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له زنيم اطلع الثنية زمان الحديبية ، فرماه المشركون فقتلوه ، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فأتوا باثنى عشر فارساً ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « هل لكم عهد أو ذمة ؟ » . قالوا : لا ، فأرسلهم ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وهو الذى كفّ أيديهم عنكم** ﴾ الآية) (٢) .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن سلمة بن الأكوع قال :

(قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ، ثم إن المشركين من أهل

(١ ، ٢) الدر المنثور / ٧ / ٥٢٦ .

مكة راسلونا فى الصلح ، فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فاضطجعت فى ظلها ، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة ، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأمعضتهم[(١)] . وتحولت إلى شجرة أخرى . فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادى : ياللمهاجرين ، قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفى . فاشتددت على أولئك الأربعة وهم رقود . فأخذت سلاحهم وجعلته فى يدى ، ثم قلت : والذى أكرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه ، ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاء عمى برجل من العبلات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال : دعوهم يكون له بدء الفجور ومنتهاه . فعفا عنهم رسول الله . وأنزل الله : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾[(٢)] .

وأخرج أحمد والنسائى والحاكم وصححه وابن جرير وأبو نعيم فى الدلائل وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن . وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبى طالب وسهيل بن عمرو بين يديه . فقال رسول الله ﷺ لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فأخذ سهيل بيده قال : ما نعرف الرحمن ولا الرحيم اكتب فى قضيتنا ما نعرف . قال : اكتب باسمك اللهم . وكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة فأمسك سهيل بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله . اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، فقال : اكتب : هذا ما صالح محمد بن عبد الله . فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا . فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بسمعهم . ولفظ الحاكم : بأبصارهم . فقمنا إليهم فأخذناهم . فقال لهم رسول الله ﷺ : هل جئتم فى عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أماناً . فقالوا : لا . فخلى سبيلهم فأنزل الله .

﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم** ﴾)[(٣)] .

ولا شك أن كف أيدى المشركين عن المسلمين ، منذ أن أطلقوا سراح عثمان بن عفان والاثنى عشر من المسلمين الذين راحوا يزورون أهليهم ، وكما قال محمد بن عمر :

---

(١) فأمعضتهم : أى فعلت ما يشق عليهم ويغضبهم .

(٢ ، ٣) الدر المنثور / ٧ / ٥٣٢ وما بعدها .

(فلما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ : « سهل أمرهم » . فقال :

من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ولا ذوى الأحلام منا ، بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا ! . فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة ، فقال رسول اللّه ﷺ :

« إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى . قال سهيل : أنصفتنا . فبعث سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص إلى قريش الشتيم بن عبد مناف التيمى : إنكم حبستم رجالاً من أصحاب محمد بينكم وبينهم أرحام ، لم تقتلوهم وقد كنا لذلك كارهين ! وقد أبى محمد أن يرسل من أسر من أصحابكم حتى ترسلوا أصحابه ، وقد أنصفنا ، وقد عرفتم أن محمداً يطلق لكم أصحابكم ، فبعثوا إليه بمن كان عندهم ، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وأرسل رسول اللّه ﷺ أصحابهم الذين أسروا أول مرة وآخر مرة [1] .

﴿ وكان اللّه بما تعملون بصيرا ﴾ :

يقول ـ تعالى ذكره ـ وكان اللّه بأعمالكم وأعمالهم بصيراً لا يخفى عليه منها شىء .

﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل اللّه فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما ﴾ :

أما الصد فقد سبق أن تعرضنا لطرف منه ، وسنعرضه هنا بالتفصيل .

(أخرج عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا :

خرج رسول اللّه ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه ، حتى إذا كانوا بذى الحليفة قلد رسول اللّه ﷺ الهدى ، وأشعره ، وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، وسار رسول اللّه ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريباً من عسّفان أتاه عينه الخزاعى فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلوك وصادوك عن المسجد الحرام ، فقال النبى ﷺ : « أشيروا على : أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٠٤ .

قعدوا قعدوا موتورين محزونين ، وإن لحوا تكن عنقاً قطعها الله . أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ » فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم . يارسول الله ، إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبى ﷺ : «فروحوا إذن » فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة [1] الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش وسار النبى ﷺ . حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته . فقال النبى ﷺ : « جل جل » . فألحت . فقالوا : خلأت القصواء . فقال النبى ﷺ : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » . ثم زجرها فوثبت فعدل بهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد [2] . قليل الماء إنما يتبرضه [3] الناس تبرضاً ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فنزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه . قال : فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه ، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة . وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة . فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل . وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا [4] ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره » . فقال بديل : سأبلغهم ما تقول ...) [5] .

وتعرض الرواية بعدها للشخصيات التى وفدت تسبر غور رسول الله ﷺ والمؤمنين وكانت مهمة سهيل كما حددتها رواية محمد بن عمر :

(ائت محمداً فصالحه ، وليكن فى صلحه لا يدخل فى عامة هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنك دخلت علينا عنوة) [6] .

---

(١) قترة : غبار .

(٢) الثمد : الماء القليل .

(٣) يتبرضه : يستخرجونه بصعوبة .

(٤) جموا : استراحوا .

(٥) الدر المنثور / ٧ / ٥٢٧ وما بعدها .

(٦) المغازى للواقدى ، ٢/ ٦٠٥ .

﴿ ... **والهدى معكوفاً أن يبلغ محله** ... ﴾ :

وفى الرواية السابقة نفسها حين يعرض الحديث عن الهدى من خلال مقابلة الحليس ابن علقمة :

(فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا ائته . فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال رسول اللّه ﷺ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البُدن فابعثوها له ، فبعثت له واستقبله القوم يلبون ..) [(١)] .

وفى وصف لهذه البدن فى رواية أخرى :

(فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرض الوادى عليها قلائدها ، قد أكلت أوبارها من طول الحبس تُرجع الحنين ، واستقبله الناس يلبون ، قد أقاموا نصف شهر وقد تفلوا وشعثوا صاح وقال : سبحان اللّه . ما ينبغى لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، أبى اللّه أن تحج لخم وجذام وكِندة وحمير ويمنع ابن عبد المطلب ، ما ينبغى لهؤلاء أن يُصدُوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عماراً . فقال رسول اللّه ﷺ : « أجل ياأخا بنى كنانة » ... فرجع إلى قريش فقال : إنى رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى فى قلائده قد أكل أوباره معكوفاً عن محلّه ، والرجال قد تفلوا وقملوا أن يطوفوا بهذا البيت . واللّه ما على هذا حالفناكم . ولا عاقدناكم على أن تصدّوا عن البيت من جاء معظمًا لحرمته مؤدياً لحقه ، وساق الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه ، والذى نفسى بيده لتخلنّ بينه وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ، وفى لفظ : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك ، وكل ما رأيت من محمد مكيدة) [(٢)] .

هكذا قال الحليس بالفطرة البشرية الصادقة ، واستعظم أن يُصدّ عن البيت من جاء معظما له ، وهدّد أن ينفر بالأحابيش جنوده نفرة رجل واحد ، ويحارب قريشاً على موقفها .

ولكن القوم هددوا الرجل ، وصدوا عن البيت من كان معظماً له وصدوا الهدى معكوفاً أن يبلغ محله . وتجاوزوا كل الأعراف والتقاليد ، وتجاوزوا القيم التى جعلت منهم

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٧٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥ / ٧٥ .

سدنة للبيت الحرام ، فلم يأخذوا هذا الموقع ليصدوا الناس عن البيت . إنما أخذوه لاستقبال الحجيج . وأخذوه لخدمة الحجاج ، وتقديم السقاية والرفادة لهم ، وقد تأكد لهم بما لا يقبل الشك . أن محمداً ﷺ إنما جاء معتمراً والمسلمون معه ، وجاءوا معظمين لهذا البيت ، ولم يأتوا محاربين ولا مقاتلين .

الحق أبلج ، والله ينصر الحق ، والقوم تمادوا فى باطلهم ، فكيف يخضع المسلمون لضغوط الباطل ؟ وكيف يعطون الدنية فى دينهم ؟ وكيف ينحرون بدنهم ، ويعودون إلى المدينة دون نسك ؟ ألقوّة الكفار ؟ أبداً . فقد عاهدوا رسول الله ﷺ على الموت ، وعلى الثبات معه حتى آخر قطرة من دمهم ، وعاهدوه عن آخرهم ، فلم الصُلْح ؟ ولم التنازلات لهؤلاء المبطلين ؟ .

كل هذه التساؤلات تحيك فى النفس ، وتجيش فى الصدر ، ويبحث المسلمون عن جواب ، فلا يجدون . لقد قال لهم القرآن أنها فتح ، فآمنوا وصدقوا .

وها هو القرآن يكشف لهم الآن سراً آن أوان كشفه ، لقد كان الهدف من ذلك هم أنفسهم وليس الخضوع للباطل ، وليس الدنية فى الدين :

﴿ ... ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ..﴾ .

إن مكة لتعج بالمؤمنين المستضعفين المفتونين ، ولا يعرفهم أحد . فإذا جد الجد فهم وقود المعركة ، وهم الذين لا حول لهم ولا قوة ولا صولة . إنهم أول المقتولين ، لأن ذوى الشوكة والملأ وأهل الرأى والمشورة سيبقون فى الخلف يديرون المعركة .

فإذا كانت البيعة ثأراً لمقتل عثمان بن عفان وهو رجل واحد ، فقد يقتل العشرات والمئات من أجله .

أفلا تتأجل المعركة لحماية مئات من المؤمنين والمؤمنات . ؟ بلى .

وآن الأوان أن نتعرف على هذه القوة الضاربة الخفية من المؤمنين المستضعفين فى مكة ، وكيف كانت هدنة الحديبية طريقاً لتمييز المؤمنين وإخراجهم من مكة .

﴿ لو تزيلوا ... ﴾ وقد تزيلوا على يد أبى بصير وأبى جندل بن سهيل رضى الله عنهما ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين بعدها : **﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما ﴾** .

روى عبد الرزاق ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، وابن جرير ، وأبو داود ، والنسائى ، عن المِسْوَر بن مخرمة ، والبيهقى عن ابن شهاب الزهرى :

(أن رسول اللّه ﷺ لما قدم من الحديبية أتاه أبو بصير ـ عُتبةُ بن أسيد بن جارية الثقفى حليف بنى زهرة ـ مسلماً قد أفلت من قومه ، فسار على قدميه سعياً ، فكتب الأخنس بن شريق ، وأزهر بن عوف الزهرى إلى رسول اللّه ﷺ كتاباً . وبعثا خُنيس بن جابر من بنى عامر بن لؤى ـ استأجراه ببكر بن لبون وحملاه على بعير ، وكتبا يذكران الصلح الذى بينهم ، وأن يردوا إليهم أبا بصير ، فخرج العامرى ومعه مولىً له يقال له كوثر دليلاً فقدما بعد أبى بصير بثلاثة أيام ، فقرأ أبىّ بن كعب الكتاب على رسول اللّه ﷺ فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه ، وأشهدنا بينك وبيننا من ردّ من قدم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصاحبنا . فأمر رسول اللّه ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم . ودفعه إليهما فقال : يارسول اللّه ، تردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ . فقال :

« ياأبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً » فقال : يارسول اللّه ، تردنى إلى المشركين ؟ !! قال : « انطلق يا أبا بصير ، فإن اللّه سيجعل لك فرجاً ومخرجاً » .

فخرجَ معهما ، وجعل المسلمون يُسرُّون إلى أبى بصير : ياأبا بصير ، أبشر فإن اللّه جاعل لك فرجاً ومخرجاً ، والرجل يكون خيراً من ألف رجل ... فانتهيا عند صلاة الظهر بذى الحليفة ، فصلى أبو بصير فى مسجدها ركعتين صلاة المسافر ، ومعه زاد له من تمر يحمله ، يأكل منه ، ودعا العامرى وصاحبه ليأكلا معه فقدّما سُفرة فيها كسَر فأكلوا جميعاً . وقد علَّق العامرى سيفه فى الجدار وتحادثا . ـ ولفظ عروة ـ : فسلّ العامرى سيفه ثم هزَّه فقال : لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل . فقال له أبو بصير : أصارم سيفك هذا ؟ قال : نعم . قال : ناولنيه أنظر إليه إن شئت فناوه إياه . فلما قبض عليه . ضربه به حتى برد . ـ قال ابن عُقبة ـ : ويقال : بل تناول السيف بفيه وصاحبه نائم . فقطع إساره ثم ضربه به حتى برد . وطلب الآخر فجمز [1] . مذعوراً مستخفياً ـ وفى لفظ ـ وخرج كوثر هارباً يعدو نحو المدينة وهو عاضٌ على أسفل ثوبه قد بدا طرف ذكره . والحصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه ، وأبو بصير فى أثَره ، فأعجزه . وأتى رسول اللّه ﷺ وهو جالس فى أصحابه بعد العصر . فقال رسول اللّه ﷺ حين

(١) جمز : قفز .

رآه : « لقد رأى ذعرًا » ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال : « ويحك مالك ؟ » قال : قتل والله صاحبكم صاحبى ، وأفلتُ منه ولم آكد ، وإنى لمقتول واستغاث برسول الله ﷺ . فأمّنه . وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامرى ودخل متوشحًا سيفه فقال: يا رسول الله، قد وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن فقال رسول الله ﷺ :

« ويل أمه مسعّرُ حرب » وفى لفظ « مجش حرب ، لو كان معه رجال » .

قال عروة ومحمد بن عمر : وقدّم سلب العامرى لرسول اللّه ﷺ ليخمسه ، فقال : « إنى إذا خمّسته رأونى لم أوف لهم بالذى عاهدتهم عليه . ولكن شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت » .

وفى الصحيح : أن أبا بصير لما سمع قول رسول اللّه ﷺ : « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد » عرف أنه سيرده ، فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قدموا معه مسلمين من مكة حين قدم على رسول اللّه ﷺ فلم يكن طلبهم أحد حتى قدموا سيف البحر ، ولما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبى بصير العامرى اشتد عليه وقال : ما صالحنا محمداً على هذا . فقالت قريش : قد برىء محمداً منا وقد أمكن صاحبكم منه فقتله بالطريق . فما على محمد فى هذا ؟ . فأسند سهيل ظهره إلى الكعبة وقال : لا أؤخر ظهرى حتى يودى هذا الرجل . قال أبو سفيان : إن هذا لهو السفه . واللّه لا يودى ثلاثاً ، وأنى قريش تديه وإنما بعثه بنو زهرة ؟ فقال الأخنس بن شريق : واللّه ما نديه ، ما قتلناه ولا أمرنا بقتله ، قتله رجل مخالف ، فأرسلوا إلى محمد يديه . فقال أبو سفيان بن حرب : لا ، ما على محمد دية ولا غُرم ، قد برىء محمد ، ما كان على محمد أكثر مما صنع ، فلم تخرج له دية .

فأقام أبو بصير وأصحابه بسيف البحر . وقال ابن شهاب : بين العيص وذى المروة من أرض جهينة على طريق عيرات قريش .

قال محمد بن عمر : لما خرج أبو بصير لم يكن معه إلا كف تمر فأكله ثلاثة أيام ، وأصاب حيتانا قد ألقاها البحر بالساحل فأكلها ، وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبر أبى بصير فتسللوا إليه .

قال محمد بن عمر : كان عمر بن الخطاب هو الذى كتب إليهم بقول رسول اللّه ﷺ لأبى بصير : « ويل أمة محش [1] حرب لو كان معه رجال » وأخبرهم أنه بالساحل .

(١) محش حرب : مشعل حرب وهو العود الذى تحرك به النار .

وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذى ردّه رسول اللّه ﷺ إلى المشركين بالحديبية ، فخرج هو وسبعون راكباً ممن أسلموا فلحقوا بأبى بصير . وكرهوا أن يقدموا على رسول اللّه ﷺ فى هدنة المشركين ، وكرهوا الثواء بين ظهرانى قومهم ، فنزلوا مع أبى بصير ، ولما قدم أبو جندل على أبى بصير سلّم له الأمر . لكونه قرشيًا فكان أبو جندل يؤمهم ، واجتمع إلى أبى جندل ـ حين سمع بقدومه ـ ناس من بنى غفار وأسلم وجهينة . ، وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل ـ كما عند البيهقى عن ابن شهاب ـ لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها ، وضيقوا على قريش ، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه .

ومما قال أبو جندل بن سهيل فى تلك الأيام :

أبلغ قريشاً عن أبى جندلٍ ... أنا بذى المروة فى الساحل

فى معشر تخفق راياتهم ... بالبيض [1] فيها والقنا الذابل [2]

يأبون أن تبقى لهم رُفقة ... من بعد إسلامهم الواصل

أو يجعل اللّه لهم مخرجاً ... والحق لا يُغلب بالباطل

فيسلم المرء بإسلامه ... ويُقتل المرء ولم يأتل [3]

فأرسلت قريش إلى رسول اللّه ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير وأبى جندل ومن معهم ، وقالوا : من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه . وقال : فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لايصلح إقراره . فكتب رسول اللّه ﷺ إلى أبى بصير وأبى جندل يأمرهما أن يقدما عليه . ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مرّ بهم من قريش وعيراتها . فقدم كتاب رسول اللّه ﷺ . على أبى بصير وهو يموت فجعل يقرؤه ومات وهو فى يديه ، فدفنه أبو جندل مكانه وقدم أبو جندل على رسول اللّه ﷺ ومعه ناس من أصحابه ، ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت بعد ذلك عيرات قريش .

قال عروة : فلما كان ذلك من أمرهم علِمَ الذين كانوا أشاروا على رسول اللّه ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة رسول اللّه ﷺ خير لهم فيما أحبوا وفيما

(١) البيض : السيوف . (٢) القنا الذابل : الرماح الرقاق .

(٣) لم يأتل : لم يحلف .

كرهوا من رأى من ظن أن له قوة هي أفضل مم خص الله تعالى به رسوله من الفوز والكرامة ﷺ . ولما دخل رسول الله ﷺ عام القضية وحلق رأسه : قال : « هذا ما وعدتكم به » .

ولما كان في حجة الوداع وقف بعرفة وقال : « أى عمر هذا الذى قلت لكم أنى رسول الله ﷺ ، والله ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية » . وكان الناس قصر رأيهم عما كان . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : ما كان فتح في الإسلام أعظم من الحديبية ، وكان الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله ﷺ وبين ربه ، والعباد يعجلون ، والله تعالى لا يعجل لعجلة العبد حتى يبلغ الأمور ما أراد .لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع . قائماً عند المنحر يقرّب لرسول الله ﷺ بدنة ، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده . ودعا الحلاق فحلق رأسه ، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره . وأراه يضعه على عينيه ، وأذكر امتناعه يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فحمدت الله تعالى الذى هداه للإسلام .) [1] .

١ ـ لقد وُجد القائد الذى يقود هذه الجماهير المؤمنة المستضعفة في مكة ، وأفرزه الميدان وساحة العمل كما يقال . لقد أثبت كفاءة في تخطيه للحواجز وهربه من مكة إلى المدينة ، وأثبت التزاماً فائقاً يوم كُلّف بأشق شيء على نفسه ، وهو العودة إلى مكة يفتن في دينه ، وأدرك أن التزامه بهذا الدين وبأوامر قائده عليه الصلاة والسلام أكبر من حظ نفسه . وأكبر من رفع الأذى عن جسده . وأكبر من تخلصه من المحنة التى هدته . إن الوفاء بالعهد في المنهج الإسلامى ، وإبراز هذه القيم ، أعظم من استغلال مؤقت لرفع فتنة عن فرد أو أفراد أو عشرات أو مئات من المستضعفين . وعليه أن يعود إلى مكة ، والله جاعل له فرجاً ومخرجا ، وها هو يثبت كفاءة أضخم ، وقدرة باهرة ، وهو المغلول اليدين كما في بعض الروايات . والأعزل من السلاح في الروايات نفسها . وهو ينتزع السلاح من عدوه ويقتله به ، ويعود إلى الساحة من جديد .

يقول لقائده عليه الصلاة والسلام : يارسول الله ، قد وفت ذمتك . وأدى الله عنك . وقد أسلمتنى بيد العدو . وقد امتنعت بدينى من أن أفتن .

ولم يكن يدور بخلد أبى بصير أن يكون هو المقصود في أن يجعل الله الفرج والمخرج على يديه لإخوانه ، لقد كانت انطلاقته ذاتية فردية ، لكن قائده عليه الصلاة

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ مقتطفات من ٩٩ ـ ١٠٤ .

والسلام قد عثر على ضالته فيه ، فهو المؤهل لإشعال حرب داخلية فى مكة ، تنقذ هؤلاء المستضعفين ، وأعلنها صريحة له :

« ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال » .

وهو تكليف بمهمة رسمية قيادية ، أن يقود هؤلاء الرجال . ويواجه بهم الطواغيت فى مكة . أما رسول اللّه ﷺ فعنده التزاماته وعهوده ومواثيقه ، ولا يحل فى دين اللّه الغدر .

ومضى أبو بصير يتابع الصلة فى الداخل . ويراسل المستضعفين عن طريق عمر رضى اللّه عنه ، ليختاروا الموقع المناسب للثورة ، والوقت المناسب . وتسلل المؤمنون من مكة إليه وانضم إليهم إخوانهم من أسلم وغفار وجهينة ، ليشكلوا قوة أقضت مضجع العدو وأهلكته . ما تدع قافلة لقريش إلا وقتلت أفرادها وأخذت أثقالها غنيمة خالصة ، وفى أهم الطرق الاستراتيجية لقريش على الساحل بذى المروة . وعندما وصل أبو جندل ابن سهيل رضى اللّه عنه سلمه قيادة الثورة مباشرة ، فهو ثقفى حليف ، وأبو جندل من صلب قريش ، ومن عرين مكة ، فهو الذى تخضع له الأعناق . وبقى على رأس القيادة العسكرية حتى جاءه كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام بالانضمام إلى المدينة مع جيشه .

وهو فى الرمق الأخير . فنفذ المهمة بعده أبا جندل رضى اللّه عنه ، وعاد بالمستضعفين إلى المدينة بعد رجاء قريش لذلك . لقد كانت التربية تتم خلال ساعات ، ويسبر المعدن بأدنى المهمات ، فإذا تميز المعدن الطيب ، وبرزت الجندية الخالصة ، أوكلت المهمة القيادية . ولا يرشح للقيادة إلا من أثبت الجندية الخالصة .

٢ ـ كان سهيل بن عمرو فى قمة التمزق النفسى بعد مقتل العامرى قريبه .

فهو مهاض الجناح بولديه ، أبى جندل بن سهيل الذى مالأعدوه عليه ، وأسلم مع رسول اللّه ﷺ ، وأعيد بعد فضيحة سهيل فى مكة بإسلام ابنه ، وعبد اللّه بن سهيل الذى كان أحد الأسرى المسلمين فى مكة ، وعاد رغم أنف أبيه إلى المدينة ، مقابل الإفراج عن الرهائن المكيين عند المسلمين .

وأراد أن يستعيد اعتباره فى آخر سهم ضد محمد ﷺ ، وتحميله دية القتيل العامرى ـ من بنى عامر بن لؤى . وسهيل بن عمرو هو زعيم بنى عامر بن لؤى ـ ولكن القيادات من قومه خذلته ، فلم يقتله محمد ﷺ ، إنما قتله أحد رعايا مكة نفسها ، وهو الذى اعتصم بذى المروة ، فليأخذ ديته من هناك من أبى بصير ، وعجز من تحقيق نصر سياسى على

رسول الله ﷺ بتسجيل موقف عليه من النكث فى العهد ، بل سجل اعترافاً رسمياً من قيادات العدو بوفاء محمد فى عهوده ومواثيقه كلها . وإزاء هذا التمزق النفسى والمعاناة الداخلية ، وعظمة التعامل النبوى ، أشرق النور فى قلبه ، ودخل فى دين الله عز وجل ، فإذا هو الذى كان يعتد بانتصاره على رسول الله ﷺ حين نحر بدنه خارج الحرم وصدَّ عن البيت ، هو هو نفسه الذى يقُدم البدن لرسول الله ﷺ كى ينحرها بيده ، وحوله مائة ألف من صحابته .

وإذا سهيل بن عمرو الذى كان يزهو بأنه صد محمداً عن البيت فحلق رأسه دون حرم الله ، إذا هو نفسه يتسابق مع المسلمين على شعيرات رسول الله ﷺ يضعها على عينيه يتبرك بهما ويقتنيها بأغلى ما يقتنى به الجوهر الثمين ، والماس الغالى .

وكان حقاً هو الفتح المبين .

﴿ ليدخل الله فى رحمته من يشاء .. ﴾ :

٣ ـ ولم يكن سهيل بدعاً فى ذلك ، فلنشهد كل القيادات التى صدت رسول الله ﷺ عن البيت .

سهيل بن عمرو، حويطب بن عبد العزى ، مكرز بن حفص ، عروة بن مسعود ، خالد بن الوليد ، الأخنس بن شريق ، أبو سفيان بن حرب ، والقيادات التى كانت رديفة يوم الحديبية ، عكرمة بن أبى جهل ، عثمان بن طلحة ، صفوان بن أمية .

هؤلاء العشرة الكبار الذين انتهت إليهم مقاليد الأمر فى مكة ، هم جميعاً دخلوا فى دين الله :

﴿ ليدخل الله فى رحمته من يشاء ﴾ .

ولو وقفت المعركة بعد بيعة الرضوان ، لقتل هؤلاء وجنودهم كفاراً إلى جهنم وبئس المصير .

وشاءت إرادة الله عز وجل أن ينقل من عذابه إلى رحمته من شاء ، قيادات وجنودا ومستضعفين ، وينال من لم يشأ العذاب الأليم : **﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباأليما ﴾** .

وجاء التعبير القرآنى **﴿ منهم ﴾** أى من الكافرين الذين غدوا بعد مؤمنين ، ولم يكونوا يوم الحديبية مؤمنين ، إنما كانوا عتاة الكفر وقادته .

٤ ـ وشهد عمر ـ رضى اللّه عنه ـ ومن معه من المؤمنين بعد أشهر قلائل ، أن هذا البند الذى ثارت ثائرتهم عليه : « وأن من أتى قريشا ممن اتبع محمدا لم يردوه عليه » قد انهار بطلب رسمى من مكة. فإذا بقريش وبعد الثورة المسلمة التى غزتها تقول :

« من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه » .

إن الانتقال من تلك المرحلة إلى هذه هو انتقال حساس ومهم ، فسح المجال لغزو مكة نفسها ، وانضمام المسلمين منها إلى الصف الإسلامى .

٥ ـ وكانت التوجيهات النبوية بعودة أبناء القبائل إلى قبائلهم ، فرسول الله ﷺ يود أن يمتد الانتشار الإسلامى فى كل مكان من الأرض العربية ، ولو عادت المئات إلى المدينة لأصبح الإسلام غريبا فى أسلم وغفار وجهينة وغيرها ، أما أهل مكة فهم وحدهم الذين طلب منهم العودة إلى المدينة ؛ لأن مكة تفتن كل مسلم عن دينه وتعذبه ، وتحاربه فى عقيدته ، وليس الأمر كذلك خارج قريش ، فالقبائل الأخرى تتسامح فى الوجود الإسلامى فيها ، وتهيئ مناخ الدعوة فى داخلها ، ومن أجل ذلك يبقى المسلمون هم الدعاة إلى اللّه فى قلب القبائل العربية ، وهو الذى يفسر هذا الانتشار الهائل للإسلام خلال سنتين فقط من صلح الحديبية .

٦ ـ ولابد أن نشير إلى أن هذا البند قد تعرّض للحوار قتل أبى بصير ، وذلك منذ هجرة أم كلثوم بنت عقبة ـ رضى اللّه عنها ـ وقد رواها الزهرى عرضا فى السياق بقوله :

(ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **بعصم الكوافر** ﴾ فطلق عمر رضى اللّه عنه يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية)(١) .

وفى رواية البخارى :

(وجاء المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممّن خرج إلى رسول اللّه ﷺ يومئذ وهى عاتق ، فجاء أهلها يسألون النبى ﷺ أن يرجعها إليهم ، فلم يرجعها إليهم لما أنزل اللّه فيهن : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات**

(١) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣٥٦ .

فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليكم حكيم . وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ (١) .

قال عروة : فأخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ إلى ﴿ **غفور رحيم** ﴾ . قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » كلاماً يكلمها به ، والله ما مست يده يد امرأة قط فى المبايعة ، وما بايعهن إلا بقوله) (٢) .

وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه ﷺ كان يمتحن من هاجر من النساء :

« بالله ما خرجت إلا رغبة فى الإسلام ، وحباً لله ورسوله ؟ » (٣) .

(وأخرج عبد بن حميد من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد نحوه وزاد : « .. ولا خرج بك عشق رجل منا ») (٤) .

فقد حكم الله تعالى أن لا يعاد المؤمنات إلى مكة على ضوء الامتحان المذكور ، وعندما تقر المرأة بأنها خرجت لله ورسوله وفى سبيله يبايعها علية الصلاة والسلام كما أمره الله تعالى فى الآية التالية :

﴿ يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾ (٥) .

وكانت هذه الآيات بمثابة رسالة مفتوحة إلى المؤمنات فى مكة والقادرات على الهجرة ، ومع أن الإقدام على الهجرة من المرأة من أشق الأمور ، حيث تسير أياماً وليالى ذوات عدد لتصل إلى المدينة ، لم يكتف الإسلام بمشاق الهجرة دليلاً على صحة الولاء

---

(١) الممتحنة ١٠ ، ١١ .
(٢) البخارى / كتاب الشروط ٥٤ / باب ما يجوز من الشروط / م١ / جـ ٣ / ص ٢٤٧ .
(٣ ، ٤) فتح البارى للإمام ابن حجر العسقلانى /٨/٦٣٦ . (٥) الممتحنة / ١٢ .

لهذا الدين ، فكان لابد من هذا الامتحان المذكور ، وحين تنجح فى الامتحان تبايع الله ورسوله على أن لا تشرك بالله شيئاً ولا تسرق ولا تزنى ولا تقتل ولدها ، ولا تأتى ببهتان تفتر به بين يديها ورجليها . وأن لا تعصى بالمعروف . وبذلك تحددت رسالة المرأة ، بعيداً عن الجهاد وساحة الحرب . إنما الطاعة فى المعروف . وعلى ضوء هذه الكليات الكبرى تتم بيعة المرأة المسلمة .

وإن كنا قد رأينا أم عمارة رضى الله عنها تحضر بيعة الحديبية ، وتحضر بيعة العقبة ، فذلك خاصاً بها وبأختها الأخرى اللتان بايعتا رسول الله ﷺ فى العقبة على أن يحمينه ، كما بايعه الرجال .

وحافظت رضى الله عنها على هذه البيعة فقد حضرت مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها . وقاتلت حين اقتضت الضرورة للقتال .

وأن لا تكلف المرأة المسلمة بالبيعة على الجهاد ، فهذا لا يعنى حرمانها من حضور المعركة مع المسلمين تداوى جرحاهم ، تسقى عطشاهم ، وتعينهم على حاجتهم ، وقد رأينا أنه حضر فى خيبر عشرون امرأة من المسلمات بهذه المهمة .

إنه من باب السماح لها بالحضور . وليس من باب الوجوب .

وأخيراً نلاحظ زواج معاوية وصفوان بامرأتى عمر رضى الله عنه المشركتين ، لا يعدو أن يدخل فيه الجانب السياسى فى محاولة للتعرف على أوضاع المسلمين من خلالهما ، حيث إنهما عاشتا فى المدينة ردحاً من الزمن ، وفى عصمة عمر رضى الله عنه الرجل الثانى فى الدولة بعد أبى بكر رضى الله عنه . ونشير كذلك إلى أن أم كلثوم رضى الله عنها قد خرجت من بيئة عاتية ، معادية لله ورسوله ، وأن أباها عقبة هو الذى قتله رسول الله ﷺ صبراً بين يديه بعد بدر مع النضر بن الحارث ، وحدهما من بين الأسرى السبعين لأنهما كانا من أعدى العدو .

﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما ﴾ (1) .

﴿ الحمية ﴾ : فعيلة وهى الأنفة .. قال الزهرى : حَمِيَّتهُم . أنفتهم من الإقرار للنبى

---

(1) الفتح / ٢٦ .

ﷺ بالرسالة . والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله : سهيل بن عمرو على ما تقدم . وقال بن بحر : حميّتهم : عصبيتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . والأنفة من أن يعبدوا غيرها .

وقيل ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾ إنهم قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ، واللات والعزى لايدخلها أبدا ، ﴿ **فأنزل الله سكينته** ﴾ أى الطمأنينة والوقار ، ﴿ **على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ ، وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم . ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ، ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قيل : لا إله إلا الله . روى مرفوعاً من حديث أبى بن كعب . وقتادة وعكرمة والضحاك وسلمة بن كهيل . وعبيد بن عمير ، وطلحة بن مصرّف ، والربيع والسدى وابن زيد . وقال عطاء الخراسانى وزاد « محمد رسول الله » وعن على وابن عمر أيضاً : هى : لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضاً : هى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وقال الزهرى : بسم الله الرحمن الرحيم يعنى أن المشركين لم يقروا بهذه الكلمة فخصّ الله بها المؤمنين . و ﴿ **كلمة التقوى** ﴾ هى التى تبقى بها من الشرك . وعن مجاهد أيضاً : أن ﴿ **كلمة التقوى** ﴾ الإخلاص ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ أى أحقّ من كفار مكة ، لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه ﴿ **وكان الله بكل شىء عليما** ﴾ [1] .

(وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن جرير ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية نرجىء الصلح الذى كان بين النبى ﷺ وبين المشركين ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : « بلى » . قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : « بلى » . قال : فَفيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : « يابن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيّعنى الله أبدا » . فرجع متغيظاً ولم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى . قال : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى / م ٨ / جـ ٦١ / ٢٨٨ .

يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه أبدا ، فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يارسول الله ، أو فتح هو ؟ . قال : « نعم ») .[1] .

﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية .. ﴾ :

(حمية ، لا لعقيدة ولا لمنهج ، إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ ومن معه يمنعونه عن المسجد الحرام . ويحسبون الهدى الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه ، مخالفين بذلك كل عرف وكل عقيدة ، كى لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته . وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تُنتهك فى جاهلية ولا إسلام : وهى الحمية التى بدت فى تحبيبهم أولا الأمر لكل من أشار عليهم بخطة مسالمة . وعاب عليهم صد محمد ومن معه عن البيت الحرام ، وهى التى تبدت فى رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ولصفة رسول الله ﷺ فى أثناء الكتابة ، وهى كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة . المتعنتة بغير حق .

وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمه فى نفوسهم من جفوة عن الحق . والخضوع له ، فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية ، وأحلّ محلها السكينة والتقوى :

﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ . والسكينة الوقورة الهادئة كالتقوى المتحرجة المتواضعة ، كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة ، المراقب لربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى . ولا يغضب لذاته . إنما يغضب لربه ودينه ، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع فى رضا وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى . وكانوا أهلها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم . إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل الله على قلوبهم من سكينة . وما أودع فيها من تقوى ، فهم قد استحقوها فى ميزان الله وبشهادته ، وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير :

---

(١) الدر المنثور / ٧ / ٥٣٥ .

﴿ وكان اللّه بكل شيء عليما ﴾) [1]

إنها المعركة بين المؤمنين والكافرين في ظاهر الأمر بالسيوف والحراب ، وفي داخل النفوس بين الجاهلية التي تمثل الهوى والضلالة ، وبين كلمة التقوى المتمثلة بـ « لا إله إلا اللّه » .

وهذا الصراع الداخلي العنيف . يتبدى كذلك بين (الحمية) حمية الجاهلية . وبين (السكينة) السكينة الربانية المتنزلة على قلب رسول اللّه ﷺ وقلب المؤمنين معه .

واللّه تعالى هو الذى « جعل » الحمية في قلوب الكافرين لانطلاقهم من الجاهلية ومحادة اللّه ورسوله . واللّه تعالى هو الذى « أنزل » السكينة في قلوب المؤمنين « وألزمهم » كلمة التقوى .

وإذا استحق الجاهليون أن يجعل الحمية في قلوبهم لكفرهم ، فقد استحق المؤمنون إلزامهم بكلمة التقوى ، لأنهم أحق بها وأهلها .

إنه ميزان دقيق بين الفئتين والخصمين والفريقين ، وتميز كامل في الجوهر والمظهر ، والمنطلق والعقيدة ، والتفاعل والاستحقاق .

والحمية الجاهلية تنطلق أبداً من الذات وتأليهها أن تُمس أو ينال منها ، أو يقول العرب أنه دخلها علينا ضغطة أو عنوة ، أو تنقص في أعين الناس .

وكلمة التقوى والسكينة تنطلق أبداً من تأليه اللّه سبحانه والخضوع لشرعه ، فالمشاعر تتحرك وتتوثب للّه وتهدأ وتخضع للّه ولرسوله ، حتى ولو ثارت في غير محلها فهي للّه خالصة .

(فلم نعطى الدنية في ديننا . أو لسنا على الحق ؟ أو ليسوا على الباطل) .

وعندما وجهت هذه الثورة للّه من عمر رضى اللّه عنه ومن المؤمنين بـ « إني رسول اللّه ولن يضيعني » وبـ (إنه رسول اللّه فالزم غرزه) .

فلزم عمر رضى اللّه غرز رسول اللّه ﷺ ، ولزم المؤمنون ذلك .

إنه لولا كلمة التقوى التي ألزمها اللّه تعالى للمؤمنين ، حين تربوا على قوله عز وجل :

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٢٩ .

﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [1] .

وقوله عز وجل : **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** [2] .

وقوله عز وجل : **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾** [3] .

لولا كلمة التقوى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وانطلاقهم منها ، لكانت معركة فى الصف الإسلامى ذبحت الصف كله بين المتحمسين للقتال وهم الأكثرية وبين الراغبين فى الصلح .

وقد رأينا كثيراً من الحركات والجيوش تتحطم بين الصلح والحرب وينهار الصف .

وكلمة التقوى هنا ، التى ألزمهم بها ربهم والتزموا بها ، جعلتهم يتخلون عن كل قناعاتهم وذواتهم . وينصهرون برأى رسولهم وحبيبهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام ، رغم كل ما يعتمل فى نفوسهم من ألم وثورة ، بل أبدوا من ضروب الالتزام والطاعة ما لم يبدوه فى حياتهم ، فالإشارة باليد كافية لأن تذيب كل اعتراض ، وهذا ما أفقد العدو صوابه .

(حدثنى من نظر إلى أسيد بن حضير وسعد بن عبادة أخذا بيد الكاتب فأمسكاها وقالا : لا تكتب إلا محمداً رسول الله . وإلا فالسيف بيننا علام نعطى هذه الدنية فى ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفّضهم ويومىء بيده إليهم : اسكتوا . وجعل حويطب بن عبد العزى يتعجب مما يصنعون . ويقبل على مكرر بن حفص ويقول : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء القوم) [4] .

وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة هما قادة الأنصار أوسها وخزرجها .

فقد ألزمهم الله تعالى كلمة التقوى ، وأبدى المسلمون جميعاً التزامهم التام بأمر رسول الله ﷺ ، وأنزل الله سكينته على رسوله ، وهو يرى تبجح المشركين وصلفهم وحميتهم ، ولم يثر لذاته ، وحاشاه ﷺ أن يغضب لنفسه قط ، وأنزل الله سكينته على المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها . ويأتى عمر أكبر الثائرين ليشهد على الصلح ، وما هى إلاساعات والقلوب فيها ما فيها ، تأتى الجائزة السنية . ويأتى الوسام

---

(١) النساء / ٥٩ .
(٢) النساء / ٨٠ .
(٣) الحشر / ٧ .
(٤) المغازى للواقدى / ٢ / ٦١١ .

الأكبر للمؤمنين ، وبعد أن أثنى على بيعتهم لرسوله ﷺ وعلم ما فى قلوبهم رضى الله عنهم . يأتى الثناء الثانى الأعظم على التزامهم بكلمة التقوى ، وحلول السكينة عليهم ، قابلين راضين بما حكم الله ورسوله ، ليقول لهم :

إن السكينة الربانية التى تنزلت عليهم هى ثمرة إلزامهم والتزامهم بكلمة التقوى ، وهم الجديرون بهذه السكينة المتنزلة ، وهم الجديرون بكلمة التقوى :

﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾.

وكان الثناء الربانى العظيم عليهم حين بايعوا على الموت ، وحين رضوا بالصلح ، والتزموا به وكفوا أيديهم عن القتال .

ولا شك أن هذه الآية التى سمعها المؤمنون لأول مرة ، بعد أن أعلمهم الله تعالى جانباً من الحكمة الربانية فى تأجيل الفتح ، وحماية أرواح إخوانهم المؤمنين فى مكة . وأن يدخل الله فى رحمته من يشاء . كان لها وقع الندى على الزهر .. ووضع البلسم على الجراح . فقد عرفوا الحكمة ، وتنزلت السكينة فى قلوبهم ثابتة « ولكن ليطمئن قلبى » وحمدوا الله عز وجل أن لم يكونوا قد ثاروا حمية لذواتهم وأنهم ما عصوا أمر ربهم ، وأنهم التزموا أمر نبيهم ، فجاءهم هذا الثناء ، وهذا التكريم ، وهذا الوسام .

ترى لو استجابوا لعقبهم ولكرامتهم ، وثاروا على أوامر نبيهم ، ألا يتنزل فيهم ما تنزل بالمشركين ، حمية الجاهلية ؟؟ !!

ولو استجابوا لنزوتهم وغضبهم على الشروط المهيضة ـــ كما بدا لأول وهلة ـــ من أين يأتيهم هذا الثناء العطر :

﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ .

إن الله تعالى لا يحابى أحداً من خلقه ، فعندما خضع بعضهم لهذه النوازع وهذه النزوات فى أحد جاء القرآن الكريم ليقول لهم :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ... ﴾ [1].

فالحمية الجاهلية للكافرين ، وظن الجاهلية قد بدا فى صفوف المؤمنين فى أحد .

---

(١) آل عمران / ١٥٤ .

وبدا فى أحد : ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ (١) .

أفما كان من الممكن أن يأتيهم العتاب نفسه والتقريع نفسه ، لو عصوا أوامر رسولهم وخرجوا على الصلح . واندفعوا للقتال ، ولم يلتزموا بالبنود التى رضيها رسول اللّه ﷺ بتوجيه ربه ، لأنها هى الحكمة الخالصة والحق الخالص .

لقد نضج المؤمنون ، واستوى الصف ، وخلُص من الضعف والشك والتردد والنفاق ، وأصبح وهو يتقبل ثناء ربه ، فيفرح به ، ويزغرد له ، لكنه لا يغتر ، ولا يبطر ، ولا يذبحه المديح . فيتوانى ، وينحرف ، ويتيه . أبداً . وما جاءه الثناء . إلا لأنه جدير به ، ولأنه أهل له :

﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ .

﴿ **وكان اللّه بكل شيء عليما** ﴾ : عليماً بالمستوى الإيمانى الذى بلغوه ، عليماً بخواطر نفوسهم وخلجات قلوبهم ، ورسوخ إيمانهم ، عليماً بمدى ما عانوه وهم يلتزمون بمقتضيات كلمة التقوى .

عليماً بكل شيء .. ﴿ **وكان اللّه بكل شيء عليما** ﴾ .

﴿ **لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى باللّه شهيدا** ﴾ (٢) .

تنزلت هذه الآية والمسلمون عائدون إلى المدينة على الطريق .

وبعد البشارات الكبرى برضا اللّه تعالى عنهم بالبيعة . وأنهم أحق الناس بكلمة التقوى وأنهم أهل لها . وبعد البشارات بالمغانم الكبيرة . والفتح القريب فى خيبر ، ومكة ماذاعنها ، التى تقتل النفوس شوقاً إليها . ؟؟؟! ـ بعد هذا كله تأتى قمة البشارات بهذه الآية .

فلن تدخلوا مكة والسيوف مصلتة على رؤوسكم ، يمكن أن تحصدكم وأنتم تطوفون ، ولن تدخلوا مكة وبعضكم يحمل السلاح وبعضكم يطوف ، لاحتمال معركة تسقطون

---

(٢) آل عمران / ١٥٢ .

(١) الفتح / ٢٧ ، ٢٨ .

شهداء فيها . أبدا . لقد كان التأجيل لحكمة ومنها هذه الحكمة :

﴿ .. **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾ . ولنشهد هذا الدخول فى العام الثانى بعد الحديبية .

عمرة القضية

(لما دخل هلال ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صدّه فيه المشركون عن البيت . وأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ الآية ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا للعمرة ، ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فلم يتخلف أحد شهدها إلا رجال استشهدوا بخيبر ، ورجال ماتوا . فقال رجال من حاضرى المدينة من العرب : يارسول الله ، والله مالنا زاد وما لنا أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله تعالى . وأن يتصدقوا . وألا يكفروا بأيديهم فيهلكوا . فقالوا : يارسول الله . بم نتصدق . وأحدنا لا يجد شيئاً ؟

فقال رسول الله ﷺ : « بما كان ولو بشقّ تمرة » [1] .

ذكر ما ساقه رسول الله ﷺ من الهدى وتقديمه السلاح والخيل أمام :

(ــ روى محمد بن عمر عن عبد الله بن دينار رحمه الله تعالى قال : جعل رسول الله ﷺ ناجية بن جندب الأسلمى على هديه . يسير به أمامه . يطلب الرعى فى الشجر ، معه أربعة فتيان من أسلم ــ زاد غيره : وأبو هريرة .

وروى عن محمد بن إبراهيم بن الحارث : ساق رسول الله ﷺ فى القضية ستين بُدنة . وروى أيضاً عن شعبة مولى ابن عباس رضى الله عنهما : قلّد رسول الله ﷺ هدية بيده . وروى أيضاً عن عاصم بن عمر عن قتادة رحمه الله تعالى قال : حمل رسول الله ﷺ السلاح والبيضَ والدروع والرماح . وقاد مائة فرس ، عليها محمد بن مسلمة . فما انتهى إلى ذى الحليفة قدّم الخيل أمامه . واستعمل على السلاح بشير بن سعد .. فقيل : يارسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا أن لاندخلها عليهم بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القرب ! فقال رسول الله ﷺ : « إنا لاندخله عليهم الحرم ، ولكن يكون قريباً منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح منا قريباً » فمضى بالخيل محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى مر الظهران ، فوجد بها نفراً من قريش فسألوه فقال : هذا رسول الله

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٢٨٨ .

يصبح هذا المنزل غداً إن شاء اللّه تعالى ، ورأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً ، فأخبرهم بالذى رأوه من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش ، وقالوا : واللّه ما أحدثنا حدثا ، وإنا على كتابنا . ومدتنا ، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه .. وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج ـ حيث نظر إلى أنصاب الحرم ـ فى أصحابه . والهدى والسلاح قد تلاحق فقالوا له : واللّه يا محمد . ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر . تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب !! فقال رسول اللّه ﷺ : « إننى لا أدخل عليهم بسلاح » فقال مكرز : هو الذى تعرف به البر والوفاء ثم رجع مكرز سريعاً إلى مكة بأصحابه ، فقال : إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذى شرط لكم) [1] .

(روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : لما نزل رسول اللّه مرّ الظهران فى عمرته ، بلغ أصحابه أن قريشاً تقول : ما يتباعثون من العجف [2] . فقال أصحابه : لو انتحرنا من بين ظهرنا [3] فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه . أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة [4] . فقال رسول اللّه ﷺ : « لا تفعلوا . ولكن اجمعوا إلىّ من أزوادكم » فجمعوا ، وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا . وحشا كل واحد فى جرابه .

ذكر دخول رسول اللّه ﷺ مكة :

قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : قدم رسول اللّه ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذى الحجة ، ولما جاء مكرز قريشاً يخبر رسول اللّه ﷺ استنكف رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول اللّه ﷺ غيظاً وحنقاً وتعاسة ، وأمر رسول اللّه ﷺ بالهدى أمامه حتى حبس بذى طوى ، ودخل رسول اللّه ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به ، قد توشحوا السيوف يلبون، فلما انتهى رسول اللّه ﷺ إلى ذى طوى وقف على راحلته والمسلمون حوله من الثنية التى تطلعه على الحجون .

وروى البخارى تعليقاً ، وعبد الرزاق ، والترمذى ، والنسائى ، وابن حبان عن أنس رضى اللّه عنه ، وابن عقبة عن الزهرى ، وابن إسحاق عن عبد اللّه بن أبى بكر بن

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٧٣٣ وما بعدها .

(٢) ما يتباعثون من العجف : لا يقوون على الحركة من الهزال .

(٣) لو انتحرنا من ظهرنا : لو نحرنا من الإبل التى نركبها.

(٤) وبنا جمامة : البقية من القوة .

عمرو بن حزم : أن رسول اللّه ﷺ دخل مكة عام القضية على ناقته ، وعبد اللّه بن رواحة آخذ بزمامها ، وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... نحن ضربناكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

قد أنزل الرحمن فى تنزيله ... فى صحف تتلى على رسوله

يارب إنى مؤمن بقيله ... إنى رأيت الحق فى قبوله

فقال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : يابن رواحة بين يدى رسول اللّه ﷺ وفى حرم اللّه تعالى تقول الشعر ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « خلِّ عنه ياعمر ، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل » . وفى رواية : « ياعمر ، إنى أسمع . اسكت ياعمر » فقال رسول اللّه ﷺ : « يابن رواحة قل : لا إلا إلا اللّه وحده . نصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده » فقالها ابن رواحة . فقالها الناس كما قالها .

ذكر طواف رسول اللّه ﷺ :

روى الإمام أحمد ، والشيخان ، وابن إسحاق ، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال :

قدم رسول اللّه ﷺ وأصحابه مكة . قد وهنتهم حمى يثرب ، فقال المشركون : إنه يقدم غداً قومٌ قد وهنتهم الحمّى ، ولقوا فيها شدة . فجلسوا على قيقعان مما يلي الحجر ، فأطلع اللّه تعالى نبيه على ما قالوا . فلما دخل رسول اللّه ﷺ المسجد ، اضطبع بردائه . وأخرج عضده الأيمن ثم قال : « رحم اللّه امرأً أراهم من نفسه قوة » . وفى رواية : « أروهم ما يكرهون » . وأمرهم أن يرملوا ثلاثة أشواط ، ويمشوا بين الركنين ، ليرى المشركون جلدهم ، ثم استلم الركن . وخرج يهرول وأصحابه معه ، حتى إذا واراه البيت منهم ، واستلم الركن اليمانى مشى حتى استلم الركن الأسود ، ثم هرول ثلاثة أشواط ومشى سائرها . قال ابن عباس : ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم . فقال المشركون : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا ، ما يرضون بالمشى ، أما إنهم لينقزون نقز الظُبى . وكان رسول اللّه ﷺ يكابدهم كلما استطاع .

قال محمد بن عمر ، وابن سعد وغيرهم : ولم يزل رسول اللّه ﷺ يلبى حتى استلم الركن بمحجنه .

وروى الحميدى ، والبخارى ، والإسماعيلى ، عن عبد اللّه بن أوفى رضى اللّه عنه قال : لما اعتمر رسول اللّه ﷺ سترناه من غلمان المشركين ـ وفى رواية : من السفهاء والصبيان ـ مخافة أن يؤذوا رسول اللّه ﷺ . وروى يونس بن بكير ، عن زيد بن أسلم رحمهما اللّه تعالى أن رسول اللّه ﷺ دخل عام القضية مكة . ، فطاف على ناقته ، واستلم الركن بمحجنه . قال هشام وابن سعد ـ من غير علة ـ والمسلمون يشتدون حول رسول اللّه ﷺ ، وابن رواحة يقول الرجز السابق . وذكر ابن سعد ومحمد بن عمر أن رسول اللّه ﷺ طاف راكباً ، وتبعهما القطب فى المورد .

ذكر دخوله ﷺ البيت :

روى البيهقى من طريق محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب رحمه اللّه تعالى قال : لما قضى رسول اللّه ﷺ طوافه فى عمرة القضاء دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالصبح فوق ظهر الكعبة ، وكان رسول اللّه ﷺ أمره بذلك . فقال عكرمة بن أبى جهل ـ وأسلم بعد ذلك ـ : لقد أكرم اللّه تعالى أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . وقال صفوان بن أمية ـ أسلم بعد ذلك ـ : الحمد للّه الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا . وقال خالد بن أسيد ـ وأسلم بعد ذلك ـ : الحمد للّه الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال ينهق فوق الكعبة . وأما سهيل بن عمرو ـ وأسلم بعد ذلك ـ ورجال معه لما سمعوا ذلك غطوا وجوههم ـ كذا فى هذه الرواية : أن النبى ﷺ دخل البيت .

ذكر سعيه ﷺ بين الصفا والمروة :

روى محمد بن عمر رحمه اللّه تعالى ، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ طاف بين الصفا والمروة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند المروة عند فراغه ، وقد وقف الهدى عند المروة ، قال رسول اللّه ﷺ : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » فنحر عند المروة .

قال محمد بن عمر رحمه اللّه تعالى : وقد كان اعتمر مع رسول اللّه ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحروا ، فأما من شهدها وخرج فى القضية فإنهم اشتركوا فى

الهدى ، وأمر رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت . وسعوا أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج فيقيمون على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا .

ذكر خروجه ﷺ من مكة :

روى محمد بن عمر عن على بن أبى طالب رحمه الله تعالى قال : لما كان عند الظهر يوم الرابع أتى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ـ وأسلما بعد ذلك . قال ابن إسحاق : وكانت قريش قد وكّلت حويطب بن عبد العزى بإخراج رسول الله ﷺ ، فأتياه وهو فى مجلس من الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة ، فقالا : قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا . فقال رسول الله ﷺ : « وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت طعاماً ؟ ! » فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك . اخرج عنا ننشدك الله يامحمد . والعقد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا فهذه الثلاثة قد مضت .

وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيتا ، إنما ضربت له قبة من أديم بالأبطح ، فكان هناك حتى خرج منها ، ولم يدخل تحت سقف من بيوتها ، فغضب سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ لما رأى من غلظة كلامهم للنبى ﷺ. فقال لسهيل بن عمرو : كذبت لا أُمّ لك . ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً . فتبسم رسول الله وقال « ياسعد ، لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا » . وأسكت الرجلان عن سعد .

وفى الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنهما : أن الأجل لما مضى أتى المشركون علياً رضى الله عنه فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا ، فقد مضى الأجل . فذكر ذلك على رضى الله عنه لرسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله أبا رافع بالرحيل . وقال : « لا يمسين أحد من المسلمين » ، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بسرف . وتتامّ الناس . وخلّف رسول الله ﷺ أبا رافع ليحمل إليه زوجته ميمونة حين يمسى فأقام أبو رافع حتى أمسى . فخرج بميمونة ومن معها . ولقيت من سفهاء مكة عناءً .

ذكر خروج ابنة حمزة رضى الله عنها :

روى الشيخان عن البراء بن عازب ، والإمام أحمد عن على ، ومحمد بن عمر عن ابن عباس رضى الله عنهم ، قال ابن عباس : إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ـ وقيل اسمها أمامة ، قال الحافظ : وهو المشهور ، وأمها سلمى بنت عميس ـ كانت بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ مكة ، كلّم علىٌ بن أبى طالب رسول الله ﷺ فقال : علام نترك ابنة

عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين ؟ فلم ينهه رسول اللّه ﷺ ، فخرج بها .

وقال البراء : إن رسول اللّه ﷺ لما خرج تبعته ابنة حمزة تنادى : ياعمى ياعمى . فتناولها على فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة رضى اللّه عنها : دونك ابنة عمك ، فاختصم فيها زيد وعلى وجعفر ، أى بعد أن قدموا المدينة كما سيأتى .

وكان زيد وصيى حمزة ، وكان رسول اللّه ﷺ قد واخى بينهما حين واخى : بين المهاجرين ، فقال على : أنا أحق بها لأنها ابنة عمى وأنا أخرجتها . وقال زيد : بنت أخى . وقال جعفر : بنت عمى وخالتها أسماء بنت عميس تحتى ... فقضى فيها رسول اللّه ﷺ لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الأم » ، وقال لعلى : « أنت منى وأنا منك » ـ وفى حديث ابن عباس رضى اللّه عنه : « وأما أنت يا على فأخى وصاحبى » ـ وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ـ وفى حديث ابن عباس : « أنت مولى اللّه ورسوله » ـ . قال محمد بن عمر : فلما قضى بها رسول اللّه لجعفر ، قام جعفر فحجل حول رسول اللّه ﷺ . فقال رسول اللّه ﷺ : « ما هذا ياجعفر ؟ » . قال : يارسول اللّه ، كان النجاشى إذا أرضى أحداً قام فحجل .

قال ابن إسحاق : ثم انصرف رسول اللّه ﷺ فى ذى الحجة .

وكان عدة المسلمين سوى النساء والصبيان ألفين .

قال ابن هشام رحمه اللّه تعالى : فأنزل اللّه تعالى ـ فيما حدثنى أبو عبيدة ـ ﴿ **لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ يعنى خيبر)[1] .

١ ـ بقى أهل الحديبية هم القاعدة الصلبة للمستقبل ، فقد حضروا جميعاً خيبر ، وحضروا جميعا عمرة القضية ، ولم يتخلف إلا من مات أو استشهد ، وكان هؤلاء الأربعمائة والألف هم الرصيد المذخور والركيزة الأساسية للجيش الإسلامى . ورغم ارتفاع عدد الجيش إلى الألفين فى عمرة القضية . ، أى بزيادة ثلاثين فى المائة على القاعدة الصلبة ، فقد أمكن استيعاب هذه العناصر الجديدة ، ورفعها إلى المستوى الإسلامى المطلوب ، ولم تشهد عمرة القضية ولا مخالفة واحدة من أحد .. وكان على جيل

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٥ / ٢٩١ حتى ٢٩٧ .

الحديبية أن يستوعب هذا الجيل الرافد مادياً ومعنوياً ، يستوعبه مادياً فيهيّىء له نفقته ، كما ذكر حاضرو المدينة من الأعراب : يارسول اللّه . واللّه مالنا من زاد ، ومالنا أحد يطعمنا . فأمر رسول اللّه ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل اللّه وأن يتصدقوا ، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا .

فقالوا : يا رسول اللّه بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً ؟ فقال : « ما كان ولو بشق تمرة » .

وعليهم أن يستوعبوهم معنوياً ، فيقوموا بتربيتهم التربية المطلوبة ، ليتمثلوا الإسلام بهذه السرعة ، ويرتفعوا إلى المستوى الإسلامى المطلوب .

٢ ـ لقد ساق رسول اللّه ﷺ الهدى والسلاح أمامه .

أما الهدى ، فالعمرة عمرة قضاء ، ومن أجل ذلك لم يسقه من لم يكن من أهل الحديبية .

وأما السلاح ، فهو إجراء احتياطى تحسبًا لكل محاولات الغدر والنكث التى يمكن أن تقع من أهل مكة . أو من القبائل العربية الممتدة على الطريق .

وأصبح أهل مكة منذ الحديبية فى وضع نفسى لا يحسدون عليه ، فقد انهزموا معنوياً ، ودب بهم اليأس أن يكونوا قادرين على مواجهة الرسول ﷺ ورسخ فى ذهن قياداتهم أن محمداً لا يغلب .

فعمرو بن العاص غادر مكة بعد الخندق قائلاً : (كم أوضع ، واللّه ليظهرن محمد على قريش . فخلفتُ مالى بالرهط . وأُفْلِت فلم أحضر الحديبية ولا صلحها ..)(١) .

وخالد بن الوليد يغزى من أعماقه منذ الحديبية : (لما أراد اللّه بى من الخير ما أراد قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء . وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول اللّه ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين ، فلقيت رسول اللّه ﷺ فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر آمناً منا . ، فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا ، فاطّلع على ما فى أنفسنا من

(١) المغازى للواقدى /٢/٧٤٢ .

الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً وقلت : الرجل ممنوع) [١] .

(وأبو سفيان بن حرب القائد العام ، كان فى تجارته أثناء الحديبية . ، ومضى فى تجارته كذلك بعدها . والتقى بقيصر ملك الروم ، وخرج بانطباع من عنده حين سمعه يقول : .. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمىَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) . فقال أبو سفيان : (لقد أمِر أمر بن أبى كبشة ، إنه يخافه ملوك بنى الأصغر . فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل اللّه علىّ الإسلام) [٢] .

وحويطب بن عبد العزى يقول لمكرز بن حفص : (ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد وبعضهم لبعض ، أما إنى أقول لك لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة) [٣] .

وكان هو جواب مكرز نفسه : (وأنا أرى ذلك) . وكان هذا فى الحديبية . وسهيل بن عمرو ، وهو يرى الأمور كلها تخرج من بين يديه ، حتى ولديه هم مع محمد ﷺ . اللهم إلا شخصيتين بقيا على عنادهما وطموحهما أن يواجها رسول اللّه ﷺ وهما عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية ، وقد رأينا صفوان بن أمية يدخل المراهنة على هزيمة محمد فى خيبر ، لكن الرأى العام المكى قد سئم من الحرب وملّ منها ، فأصبحا غير قادرين على تمثيل مكة تمثيلا حقيقياً .

ومن هذا المعنى نشهد فزع مكة من حمل الرسول ﷺ السلاح ، وطريقة الخطاب التى اختلفت عن لهجة الحديبية : (يا محمد ، واللّه ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح بالحرم على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب) .

ونشهد كذلك فرحهم يوم سمعوا الجواب : (لا ندخلها إلا كذلك) .

حيث رجع مكرز سريعاً إلى أصحابه يقول : (إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشرط الذى شرط لكم) .

---

(١) المصدر نفسه /٢/٧٤٦ . (٢) البخارى / م١ / حـ١ / ص ٦ و ٧ .

(٣) المغازى للواقدى / ٢ / ٢/ ٦٠٨ .

ونشهد كذلك صعودهم إلى الجبل غيظاً و تفادياً لأى مواجهة مع الرسول صلوات الله عليه .

لقد سقطت مكة حكماً بعد الحديبية ، والقضية قضية زمن فقط حتى تفتح ، وبعد نصر خيبر ، وبعد ثورة أبى بصير ومن معه انتهى كل أمل لدى قريش بالمواجهة . ولم يعد بيدها ورقة تراهن فيها على ذلك .

٣ ـ ونلاحظ أمراً مهماً برز فى الحديبية وفى عمرة القضاء ، هذا الأمر هو :

كيف برز القادة الثلاثة سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص على الساحة يوم الحديبية ، وهم الذين يسألون ويفاوضون فى عمرة القضاء ولم يبرز لهم ذكر خلال السنوات الست الماضية . حتى ولا خلال المرحلة المكية ، اللهم إلا سهيل بن عمرو الذى كاد يرد اسمه أحياناً بين أعيان مكة وملئها ؟

ونسأل كذلك . لمَ لم يبرم المفاوضة قادة المواجهة أنفسهم أبو سفيان بن حرب ، عكرمة بن أبى جهل ، صفوان بن أمية ، خالد بن الوليد . وأمثالهم ؟

وبالتعمق فى الإجابة نجد أن قادة المواجهة جميعاً هم من صلب قريش وصميمها ، من فرع كعب بن لؤى . هذا الفرع الذى انتشر حتى بلغ أغلبية أهل مكة قوة وشكيمة وعدداً وعدة ، أما فرع عامر بن لؤى فقد انتهى فرعاً واحداً فقط من عشرة فروع ، وبقى بنو عامر بن لؤى أدنى نسباً وأدنى مركزاً وقوة وشكيمة من بنى كعب بن لؤى . ومن أجل ذلك تذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ عندما أراد دخول مكة بعد عودته من الطائف بعث ممن بعث لهم ليدخل فى جوارهم إلى سهيل بن عمرو رضى الله عنه ، فأجابه : (إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب) [١] .

فمن لا يجرؤون على ذلك ، لأن المجير لابد أن يكون من مستوى من يجير عليه فى العرف الجاهلى ، ولن يتمكن بنو عامر من مواجهة بنى كعب بن لؤى ، وإن كانوا يوم الحديبية خرجوا جميعاً لصده ، كما يقول بديل بن ورقاء (جئناك من عند قومك كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ..) وحتى تندفع عامر بن لؤى للمواجهة مع كعب بن لؤى ، أسندوا أمر مكة كلها إلى قيادة ثلاثية . وذلك أثناء غياب أبى سفيان بن حرب عن مكة الذى انتهت إليه قيادة قريش ، كما يروى الواقدى :

---

(١) السيرة الحلبية / ٢/ ٦٢ .

(فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذوى رأيهم ، صفوان بن أمية . وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل فقال صفوان : ما كنا لنقطع أمراً حتى نشاوركم ! نرى أن نقدم مائتى فارس إلى كراع الغميم ونستعمل عليها رجلاً جلداً . فقالت قريش : نِعم ما رأيت . فقدّموا على خيلهم عكرمة بن أبى جهل . ويقال خالد بن الوليد . واستنفرت قريش من أطاعها من الأحابيش ، وأجلبت ثقيف معها ، وقدموا خالد بن الوليد فى الخيل ..) [1] .

فإذا كان سهيل قد برز من قبل واليوم ، فإن حويطب ومكرز لم يكن لهما شأن يذكر بين الزعامات فى مكة .

وإذا كان عكرمة وخالد وصفوان هم أعدى العدو ، فالموت أهون عليهم من أن يذلوا أمام محمد ويصالحوه ويقبلوا دخوله مكة عليهم ، فليقم فى أمر الصلح الدرجة الثانية فى مكة ، شخصيات بنى عامر بن لؤى . وهم سهيل وحويطب ومكرز ، أما إن كان من مواجهة ولابد فهؤلاء الثلاثة : عكرمة وخالد وصفوان ، هم الذين سيواجهون . وفعلاً ، فما تصدى لمحمد ﷺ ومواجهته يوم فتح مكة إلا عكرمة وصفوان وسهيل ، أما خالد رضى اللّه عنه فقد قذف اللّه تعالى الإسلام فى قلبه ، وكان هو الذى يواجه رفاق دربه الطويل ، وينتصر عليهم باسم الإسلام .

فحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو ينتهى نسبهم إلى عامر ابن لؤى ، ومنذ أن رأى رسول اللّه سهيلاً على رأس القادمين قال :

« قد أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا » [2] .

٤ ـ صحيح أن مكة حكماً قد سقطت قبل الفتح ، لكن منشأ هذا الأمر ليس هو لين قريش أو صفاء قلبها على رسول اللّه ﷺ ، أو حرصها على السلام برضاها ، أبداً ، فالقلوب لا تزال تَنُِّ حقداً على رسول اللّه ﷺ ، وفى كل بيت من مكة مقتلة وثأر ، والغيظ يأكل القلوب فى المراوضة والصلح ، ولكنه العجز واليأس أمام القدر المحتوم عليهم .

وعندما لاحت فرصة يمكن أن تجبر القلوب الكسيرة . وتستل الأحقاد الدفينة ، عرضها الرسول ﷺ على قريش ، فى محاولة لكسر هذه الأقفال الجاسية فلم يلق أدنى استجابة لذلك ..

---

(١) المغازى : للواقدى / ٢ / ٥٧٩ .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٨٥ .

كان هذا يوم جاء سهيل وحويطب ليقولا لرسول اللّه ﷺ :

(قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا . فقال رسول اللّه ﷺ : « وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت طعاماً ؟! » . فقالا : لا حاجة لنا بطعامك ، اخرج عنا ، ننشدك اللّه يامحمد . والعقد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا فهذه الثلاثة قد مضت) .

هذا الجفاء والغلظة التى واجه بها سهيل وحويطب رسول اللّه ﷺ ، حدا بسعد بن عبادة أن يثور لهذا الأسلوب الفج ويقول لسهيل : (كذبت لا أمّ لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، واللّه لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً) .

وكان يمكن لهذا الشجار أن يأخذ مداه لو كان لدى الطرفين رغبة فى المواجهة ، ولكن المؤمنين ملتزمون بتوجيهات نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وسيد الخلق يرفض استغلال المبررات لفرض الأمر الواقع .

فأجاب سعداً رضى اللّه عنه الجواب الذى يعترف لقريش بحقها فى الإخراج حسب المعاهدة :

« لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا » .

وأصدر نداءه : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » .

٥ ـ وبالعظمة الوفاء . ، فقريش منهارة ، وهى عاجزة عن المواجهة ، والسلاح قريب يمكن إحضاره ، والرسول ﷺ فى قلب مكة ، ومكة بلده وأهله ، وقد أخرج منهما ظلماً وعدواناً ، وأذن له ﷺ بقتال الذين أخرجوه من دياره وماله والمسلمين معه ، ومع هذا كله فلم ينزل عليه الصلاة والسلام فى بيته ، ولم يظله سقف فى عمرة القضاء . إنما (ضربت له قبة من أديم بالأبطح ، فكان هناك حتى خرج منها) ، وكذلك فعل المهاجرون جميعاً ، فلم يُؤوِهم سقف ، ولم يذهبوا إلى بيوتهم ليستلموها ، إنما جاءوا معتمرين ثلاثة أيام ، وصدر لهم الأمر بالعودة قبل المساء ، فما أمسى فى مكة منهم أحد .

تُرى لو كان هذا الأمر فى جيش من جيوش الدنيا ، من الذى يضبط هذه القلوب الموّارة ، ويضبط هذه النفوس المشتعلة أن تذهب إلى أهلها ، فتشعل معركة مع كل معتد أثيم احتل داره ، وتقع مقتلة فى كل بيت لهؤلاء الكفار الذين احتلوا الديار ؟ ولكن الذى يحرك هذا الجيش كله هو انتصار هذا الدين ، وليس انتصار هذه النفوس على خصومها ،

وليست قصة الثأر والانتقام والأرض . وإن كان هذا الدافع لا ينكر لكنه مرجوح بالدافع الأعلى فى سبيل اللّه ، وحين يتعارض لدى المؤمنين مع إيمانهم . فيسقط من حسابهم بدون شك ، ولهذا مع الأوامر النبوية بالتحرك كان الجميع خارج مكة .

٦ - ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى باللّه شهيدا ﴾ .

وحتى لا تفسر مكة لين رسول اللّه ﷺ بالضعف يوم يعرض البقاء فى مكة وأن يولم لأهلها بعرس بين ظهرانيهم ، لم ينس عليه الصلاة والسلام إبراز مظاهر القوة ، ومن أجل هذا قال لصحبه : « رحم اللّه امرأ أراهم من نفسه قوة » وأمرهم أن يهرولوا أثناء طوافهم لتحطيم مقولة قريش : (إنه يقدم غداً قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا فيها شدة) .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك ، بل أباح لعبد اللّه بن رواحة رضى اللّه عنه أن ينشد ضمن إطار عرض القوة :

خلوا بنو الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
نحن ضربناكم على تأويله ... ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وقال لعمر : « خلّ عنه ياعمر ، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل » .

إنه التكافؤ والتوازن فى العرض ، للموادعة والقوة بوقت واحد ، بحيث تبقى نفوس أهل مكة يسيطر عليها الخوف والذعر ، ولكن دون ما مساس بالعهد والميثاق ، ووفاء كامل بالتزاماته .

وإشعارهم أنه قادر على النقض والنكث ، والوفاء بالبنود ليس عن عجز ولا عن ضعف ، ولكنه عن مبدأ ودين وعقيدة .

إنها التربية للخصم والصديق ، والتربية للعدو والحليف ، والتربية للمسلمين وخصومهم على سواء .

٧ - وهكذا يكون ظهور هذا الدين وهذه الرسالة ، وهكذا يكون استعلاؤه ، وذلك بتطبيق مبادئه وليس بسحق خصومه ، بجلاء هذه القيم ، ورؤية التطبيق العملى له ، ليربح أنصاراً جدداً وجنوداً جدداً ، لا ليبيد أعداء . ويحرق الأخضر واليابس فيهم فيهلك الحرث والنسل .

فقد كانت عمرة القضاء على قصرها بالنسبة للعرب جميعًا نقطة تحول كاملة . فقد دخل محمد وصحبه مكة آمنًا لا يخاف . وخرج بطواعيته واختياره ، ولوشاء أن يقيم لأقام . وليس لدى قريش قوة تحول بينه وبين ذلك . لقد رأى العرب معنى هذا الدين ، ومفهوم هذا الرسول . وعظمة هذه الرسالة ، وانتهت قريش بمبادئها وسلطانها وتحديها ، وانهارت كل الحواجز بين الناس وبين الإسلام .. فقد انتهت قوة قريش ، وانتهت قوة محمد ، فليس أمامهم إلا الإسلام الذى يتجسد بهؤلاء المسلمين .. وتكون له ولهم الدينونة فى الأرض .. بشهادات قياداتهم وجنودهم .

وفتحت الأرض العربية أمام هذا الدين : ﴿ **ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً** ﴾ .

وبرزت هذه الظاهرة ، وبدا هذا الظهور فى أعظم تجسيد له ، يوم صعد بلال على ظهر الكعبة ليعلن من فوق أقدس مكان عند العرب كلمة التوحيد الخالصة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

ويعلن انتصار هذا الدين : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ودعوة الناس لهذا الدين ، دعوة خالصة : حى على الصلاة ، حى على الفلاح .

ويجتر قادة الشرك غيظهم وحقدهم ، وهم يسمعون هذه النداءات :

ـ لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد مايقول .

ـ الحمد لله الذى أذهب أبى (أمية بن خلف) قبل أن يرى هذا .

ـ الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال بن أم بلال ينهق فوق الكعبة .

وأما سهيل بن عمرو ورجال معه لما سمعوا بذلك غطوا وجوههم .

وهكذا نرى أن احتجاج مكة انتهى بالتحسر والندم ، بينما لا ننسى يوم قاموا لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه يضربوه حتى يغشى عليه ، لأنه نطق بين ظهرانيهم بما نُزّل على محمد .

ولا ننسى يوم قاموا يقتلون رسول الله ﷺ ، ويطؤون على عنقه الشريف ؛ لأنه قام يصلى ويسجد بين ظهرانيهم ، ويلقون على رأسه وظهره معىّ البعير ، ويتمايلون من الضحك .

أما اليوم فهم يغطون وجوههم ، وهم يرون بلال العبد الأسود ويرتفع فوق الكعبة ، عز آبائهم وأجدادهم ، ليعلن كلمة التوحيد ويدعوهم إليها .

(أخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** .. ﴾ إلى آخر الآية : (قال النبي ﷺ لهم : « إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رءوسكم ومقصرين » ، فلما نزلت بالحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك ، فقال الله : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا تخافون** ﴾ أي لم أره أن يدخله هذا العام وليكونن ذلك ، ﴿ **فعلم ما لم تعلموا** ﴾ قال : رده لمكان منْ بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات ، وآخره ليدخل الله في رحمته من يشاء ممن يريد الله أن يهديه ﴿ **فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ قال : خيبر حين رجعوا من الحديبية فتحها الله عليهم ، فقسمها على أهل الحديبية كلهم) (١) .

وعلى رأى الزهرى أن هذا الفتح القريب هو دخول الناس في الإسلام .

فعن الزهرى قال : (﴿ **فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ يعنى صلح الحديبية ، وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا ، فالتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكن أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر) (٢) .

يقول جل ثناؤه :

﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ (٣) .

(والآن نجيء إلى ختام السورة .. ختامها بهذه الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها فرداً فرداً ...

(١ ، ٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبرى / ١١ /٢٦ /٦٨ . (٣) الفتح / ٢٩ .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع ، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة .

فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾

ولقطة تصور هيأتهم فى عبادتهم : ﴿ **تراهم رُكعاً سجداً** ﴾ .

ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها وما يجيش بها : ﴿ **يبتغون فضلاً من اللّه ورضوانا** ﴾ .

ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى اللّه فى سمتهم وسحنتهم وسماتهم : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ .

ولقطة تصور صفتهم فى التوراة : ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ .

ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الإنجيل : ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ ﴿ **فآزره** ﴾ ﴿ **فاستغلظ** ﴾ ﴿ **فاستوى على سوقه** ﴾ ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

وتبدأ الآيات بإثبات صفة محمد ﷺ ـ صفته التى أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين ﴿ **محمد رسول اللّه** ﴾ ـ ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى ، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة فى حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصلية فى هذه الحياة ، وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة فى الصور الوضيئة .. وإرادة التكريم واضحة فى اختيار هذه اللقطات ، وتثبت الملامح والسمات التى تصورها ، التكريم الإلهى لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم فى :

اللقطة الأولى : أنهم : ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ . أشداء على الكفار وفيهم أباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا . ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ وهم فقط أخوة دين ، فهى الشدة لله . والرحمة لله ، وهى الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم فى أنفسهم شىء ، ولا لأنفسهم فيهم شىء ، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم

وحدها ، يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير اللّه ، والوشيجة التى تربطهم باللّه .

وإرادة التكريم واضحة ، وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة وهى :

اللقطة الثانية : ﴿ **تراهم ركعاً سجداً** ﴾ . والتعبير يوحى كأنما هذه هى هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حين يراهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهى الحالة الأصيلة فى حقيقة نفوسهم ! فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك فى زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجداً .

واللقطة الثالثة : مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم . وأعماق سرائرهم : ﴿ **يبتغون فضلاً من اللّه ورضوانا** ﴾ ، فهذه هى صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة ، كل ما يشغل بالهم . كل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل اللّه ورضوانه ، ولا شىء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة : تثبت أثر العبادة الظاهرة . والتطلع المضمر فى ملامحهم ، ونضحها على سماتهم : ﴿ **سيماهم فى وجوهم من أثر السجود** ﴾ سيماهم فى وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحى الوضىء اللطيف ، وليست هذه السيما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : ﴿ **من أثر السجود** ﴾ ، فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة ، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية للّه فى أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشوع ، أثره فى ملامح الوجه . حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ، ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية ، والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذى يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً .

وهذه الصورة الوضيئة التى تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة ، إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدَر ، ومن ثم فهى قديمة جاء ذكرها فى التوراة: ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ ، وصفتهم التى عرفهم اللّه بها فى كتاب موسى وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ : وصفهم فى بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ فهو زرع تام قوى . يخرج فرخه من قوته وخصوبته ، ولكن هذا الفرخ

لا يضعف العود بل يشده . فآزره ، أو أن العود آزر فرخه فشدّه ﴿ **فاستغلظ** ﴾ الزرع وضخمت ساقه وامتلأت ، ﴿ **فاستوى على سوقه** ﴾ لا معوجاً ومحنياً ، ولكن مستقيماً قوياً سوياً .

هذه صورته فى ذاته ، فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة والزرع . العارفين منه بالنامى والذابل ، المثمر منه والبائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب : ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ وفى قراءة يعجب « الزارع » وهو رسول اللّه ﷺ صاحب هذا الزرع النامى القوى الخصيب البهيج .. وأما وقعه فى نفوس الكفار فعلى العكس ، فهو وقع الغيظ والكمد : ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ ، وتعمد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هى زرعة اللّه أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة ، وأداة لإغاظة أعداء اللّه !

وهذا المثل ليس مستحدثا ، فهو ثابت فى صفحة القدر ، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجىء محمد ومن معه إلى الأرض ، ثابت فى الإنجيل فى بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت اللّه فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول اللّه ﷺ .. فتثبت فى صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه . وهو يتسمع إليها من بارىء الوجود ، وتبقى نموذجاً للأجيال ، تحاول أن تحققها ، ليتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله ، وعد اللّه بالمغفرة والأجر العظيم : ﴿ **وعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ ، وهو وعد يجىء فى هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم فى صفتهم التى تجعلهم أول الداخلين فى هذه الصيغة العامة .

﴿ **مغفرة وأجر عظيم** ﴾ .. وذلك التكريم وحده حسبهم ، وذلك الرضى وحده أجر عظيم ، ولكنه الفيض الإلهى بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهى عطاء غير مجذوذ .

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهى من الرضى والتكريم والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا فى اعتبار اللّه ، وفى ميزان اللّه ، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم

ومشاعرهم وسماتهم ، وينظر بعضهم فى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التى يحسها وهو فى كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات فى هذا المهرجان العلوى الذى عاشوا فيه .. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه إلا من بعيد ؟!

اللهم إلا أن يكرمه اللّه إكرامهم : فيقرب له البعيد ؟!

اللهم إنك تعلم أنى أتطلّع لهذا الزاد الفريد) [1] .

ونعيش مع سيد رحمه اللّه لحظات ولقطات فى هذا المهرجان الفريد .

١ - ﴿ محمد رسول اللّه ﴾ .

﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [2] .

فقد أخذ اللّه تعالى ميثاق النبيين جميعاً على الإيمان بمحمد ﷺ ، وإن كان هو خاتمهم فى الترتيب الزمنى ؛ ليكون مصدقاً لما معهم ، وتكون الكمالات فى الرسالات كلها فى رسالته ، والكمالات البشرية كلها فى شخصه عليه الصلاة والسلام :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع ولا فخر » [3] .

﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجداً يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة .. ﴾

(أخرج البخارى عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص قلت : أخبرنى عن صفة رسول اللّه ﷺ . قال : أجل ، واللّه إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء

(١) فى ظلال القرآن / ٦ / ٢٦ / ٣٣٣٣ . (٢) آل عمران : ٨١ .
(٣) مسلم وأبو داود .

بأن يقولوا لا إله إلا اللّه ، ويفتح به أعيناً عمياً وآذانا صمّا وقلوباً غلفاً) [١] .

٢ - وإذا بهذه الأعين العمى والآذان الصم والقلوب الغلف تفتح ، وتستقيم الملة العوجاء ، ويتحقق بمن معه الأوصاف الأخرى التى وردت فى القرآن والتوراة والإنجيل .

(أخرج الدارمى فى مسنده وابن عساكر عن كعب قال : فى السطر الأول : محمد رسول اللّه عبدى المختار لافظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، مولده مكة ، وهجرته بطيبة وملكه فى الشام . وفى السطر الثانى : محمد رسول اللّه ، أمته الحمادون : يحمدون اللّه فى السراء والضراء ، يحمدون اللّه فى كل منزل ، ويكبرونه على كل شرف . رعاة الشمس ، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ، ويأتزرون على أوساطهم ، ويوضئون أطرافهم ، وأصواتهم بالليل فى جو السماء كدوى النحل) [٢] .

(وأخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، وأبونعيم عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : « صفتى أحمد المتوكل ، مولده مكة ، ومهاجره طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ . يجزى بالحسنة الحسنة ، ولا يكافىء بالسيئة ، أمته الحمادون ، يأتزرون على أنصافهم ، ويوضئون أطرافهم ، أنا جيلهم فى صدورهم ، يصفون للصلاة كما يصفون للقتال ، قربانهم الذى يتقربون به إلىّ دماؤهم ، رهبان الليل ليوث النهار ») [٣] .

فعبادتهم وجهادهم وتقواهم وسلامة صدورهم هى أوصافهم التى ضربها اللّه تعالى مثلاً فى التوراة والإنجيل ، والحديث عنهم جاء بعد الحديبية ، وقد تحققت بهم هذه الأوصاف التى مر عليها عشرات القرون ، فبرزت الآن على حقيقتها ، فذكرت فى سورة الفتح .

٣ - ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة رضى اللّه عنه فى قوله : **﴿ رحماء بينهم ﴾** قال : جعل اللّه الرحمة فى قلوبهم بعضهم لبعض . **﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾** قال : علامتهم الصلاة ، **﴿ ذلك مثلهم فى التوراة ﴾** قال : هذا المثل فى التوراة ، **﴿ ومثلهم فى الإنجيل ﴾** قال : هذا مثل آخر ، **﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾** قال :

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى / ١ / ١٠ ، ١١ .   (٢ ، ٣) الخصائص الكبرى للسيوطى / ١ / ١٠ ، ١١ .

هذا نعت أصحاب محمد فى الإنجيل . قيل له : إنهم سيخرجون قوم ينبتون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [1] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال : صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة ، ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه** ﴾ قال : سنبله حين يبلغ نباته عن حباته ، ﴿ **فآزره** ﴾ يقول : نباته مع التفافه حين يسنبل ، فهذا مثل ضربه الله لأهل الكتاب : إذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع ، فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم يغلظ فيهم الذين كانوا معهم ، وهو مثل ضربه لمحمد يقول : يبعث الله النبى وحده ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به ثم يكون القليل كثيراً وسيغلظون . ويغيظ الله بهم الكفار ، يعجب الزراع من كثرته ومن حسن نباته) [2] .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن الضحاك رضى الله عنه : ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ قال : حب برٍ متفرقاً ، فأنبتت كل حبة ، ثم أنبتت من حولها مثلها حتى استغلظ واستوى على سوقه يقول :

كان أصحاب محمد ﷺ قليلاً ثم كثروا واستغلظوا) [3] .

٤ ـ هذا الجيل الذى أنزل الله تعالى وصفه على مدار تاريخ البشرية ، وفى أقدس الكتب ، التوراة والإنجيل والقرآن ، هذا الجيل هو الذى تتنزل عليه هذه الآيات ، وقد انبثق إلى الوجود بعد التبشير به من مئات القرون ، وهو حى يتحرك ، قد تمثل وتشرب تربية زارعه محمد عليه الصلاة والسلام ، وبعد مرور عشرين عاماً تقريباً على بعثته ، ليكون خلاصة البشرية وعصارة الخيرية فيها . ننظر إليه بعد خمسة عشر قرناً من الزمان .فيبقى هو الأنموذج الحى للبشرية ، وتنظر إليه الأمم قبل عشرات القرون وتتطلع إلى انبثاقه إلى الوجود مع سيد ولد آدم الذى أُخذت بيعة الأنبياء له من الله تعالى .

وقد رأينا كيف تمت ولادة هذا الجيل فرداً فرداً ، يرعاهم عليه الصلاة والسلام كما يرعى الزارع البصير غرسه ، ويتعهده بالسقاية والعناية ، ويخوض بهذه الأعداد القليلة لجج المواجهة للأعاصير .

﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض**

(١) الدار المنثور / ٦ / ٥٤٤ . (٢ ، ٣) الدر المنثور /٧/٢٦/٥٤٤ .

زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ [1] .

فينمو عودهم فى هذه المواجهة . لقد كانوا أغلبهم ابتداء فتياناً تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ، وهاهم يعدون على عين الله خطوة خطوة ، فيحال بينهم وبين القتال قرابة ثلاثة عشر عاماً حتى يشتد ساعدهم و يستقيم صلبهم وعندما أذن لهم بالقتال كان الوحى يتنزل مباشرة عليهم فيعرضهم لأشق الدورات التربوية من خلال الواقع الحى ، يصف أخطاءهم ، ويتحدث إلى قلوبهم وعن قلوبهم ، ويثنى على الحواريين منهم ، ويقوم المعوج فيهم ، وبعد كل غزوة فاصلة آيات تترى تتابع البناء ، : **﴿ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾** .

ويطمئن عليه الصلاة والسلام إلى هذا البناء .. فيواجه به عتاة قريش حرباً وصلحاً وسلماً ، فكانوا نعم النصير لنبيهم ، وكانوا خير العون لقائدهم عليه الصلاة والسلام ، ويتميز عدوهم غيظاً منهم ، فقد أصبحوا ملء السمع والبصر ، وصاروا أصحاب الكلمة العليا فى الأرض العربية ، واعترف بهم الطغاة والعتاة فما أحد يجرؤ أن يقترب من عرينهم ، وتسابقت خزاعة لتدخل فى حلفهم ، وأصبح عرينهم حمًى لا يضام .

﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

فلا يحسب بعض الأفراد الذين انطووا على خبث فى طويتهم ، وملء الغل صدورهم ، وجعلوا النفاق ديدنهم ، لا يحسب هؤلاء أنهم يضيعون فى صفوفهم ويختفون فى ثناياهم ، أبداً . فالوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أما الذين كانوا يسلقون النبى وصحابته بألسنة حداد ، هؤلاء سوف يقصم ظهرهم هذا التحديد ، فليسوا داخلين فى هذه الخيرية كما أن بعض النباتات المتسلقة الغريبة سوف تجتث حين يحين الحصاد ، وحين يحضر موسم القطاف .

ونقف مع الآية فى ختام الأنفال :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [2] .

والآية فى ختام الفتح :

---

(١) الأنعام / ١١٢ .　　(٢) الأنفال / ٧٤ .

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ .

لنشهد جيل بدر وقد نجح فى محنته خلال أربع سنوات ، وأضاف تحت رعاية النبى ﷺ أربعة أضعافه أو أكثر على أعلى المستويات من التربية والقوامة ، ليتأهب هذا المجتمع الجديد إلى استضافة الآلاف الجديدة ، ويتابع معهم عملية التربية الهائلة ، ويستعد ليدخل بهم مكة . والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار مجتمع بذاته لا مولى لهم إلا الله ورسوله ، فقد خلصوا من الانتماء لقبائلهم وعشائرهم ، وانصهروا لحمة واحدة ، وكونوا أرفع جيل على مدار تاريخ البشرية الطويل .

الفهـــــــرس

الموضـــوع	الصفـــحة
متابعة البناء بعد أحد	٥
سرية بئر معونة	١٢
غزوة الرجيع	١٥
عودة إلى المنافقين	٣٦
غزوة العشيرة	٤١
دعوة إلى الجهاد من جديد	٥٠
دعوة إلى الهجرة	٦١
صلاة الخوف	٦٥
غزوة ذات الرقاع	٦٧
سورة الحشر ـ غزوة بني النضير	٨١
سورة محمد ﷺ	١٢١
الجولة الثانية مع المنافقين	١٣٥
غزوة دومة الجندل	١٥٤
غزوة المريسيع	١٥٥
من سورة الأحزاب ـ غزوة الأحزاب	١٧٧
الجولة الثانية مع المنافقين	٢٢٧
الجولة الثالثة المؤمنون الصادقون	٢٤٥
غزوة بني قريظة	٢٧٦
سورة الفتح . الفتح المبين	٣١١
فتح خيبر	٣٨٤
عمرة القضية	٤٤٩
الفهرس	٤٧١

رقم الإيداع بدار الكتب : ٨١٢٢ / ٩٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 15 - 0082 - 1